

وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ

Tax : % 20 / 8 = % 2.5

فقه الزكاة

وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ

إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ

وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ 2.5% وَفِي الرِّقَابِ 2.5%

وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا 2.5% وَالْغَارِمِينَ 2.5%

وَالْمَسَاكِينِ 2.5% وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ 2.5%

لِلْفُقَرَاءِ 2.5% وَابْنِ السَّبِيلِ 2.5%



د. رشيد الجراح

Certificate of Registration
CopyrightFrance

Copyright Registration Number: 9H2F1R2

CopyrightFrance.com, Website registered under number 2104 by the State Prosecutor of the High Court of Evreux (FRANCE) certifies having delivered the certificate of the original following registration

Name of the registrant: Rasheed Saleem Al-Jarrah

Title or URL of the registered document: https://www.dr-rasheed.com/

Description: Dr. Rasheed's blog documents his lifelong reflections on the Quran, offering linguistic and analytical insights without adhering to any specific sect. The goal is to officially archive and legally protect his writing, ideas and stories presented in the blog.

Date / time of the registration: 15-02-2025 à 20:46

The submitted document has been time stamped by a RGS qualified Certification Authority and ETSI TS 102 023 certified.

Paris (date) 15-02-2025 - The publication manager G.E.E. :

Reminder : (code of the intellectual property, extracts) :

✔ **Point L.335-2.** All publishing of written documents, musical composition, drawing painting or any other totally or partly printed, engraved production regardless of the laws and regulations concerning author's property is a forgery and any forgery is an offence. In France, forgery of published work in France or abroad is punished by 3 years in prison and a 300.000 euros fine. Will be punished the same way selling export and import of counterfeit work.

✔ **Point L.335-3.** Is also considered a forgery offence all reproduction , representation or circulation by any mean, of piece of spiritual work by violating the author's rights, as they are set and regulated by law. Is also considered as a forgery offence the violation one of the owner of the software's rights.



3c14c5091f191db578780f4e846d7a176d3cb058592f3b129f067ba1aa063728

كلمة فريق عمل مدوّنة روح

الحمد لله الذي علّم الإنسان بالقلم، وخصّه بنعمة البيان، وجعل تدبّر كتابه العزيز سبيلًا للهداية.

أمّا بعد،

يمرّ الفكر الديني المعاصر بمنعطفٍ تاريخي يفرض إعادة تأسيس العلاقة مع النصّ المؤسِّس؛ فكثير من المفاهيم والمناهج قد ترسّخت عبر القرون حتى غدت في الوعي العام بمنزلة المسلّمات المطلقة. في خضمّ هذه الحاجة الملحة للمراجعة والتجديد، يأتي مشروع الأستاذ الدكتور رشيد سليم الجرّاح ليقدّم قراءةً مغايرة للقرآن الكريم، قراءةً لا تكتفي بحدود التفسير الموروث بل تتجاوزه نحو فهمٍ جديد يتأسّس على منهجٍ علميٍّ دقيق، يلامس روح النصّ بعمق ويقترب من منطق العقل والفطرة السليمة.

لعلّ في الاسم الذي يحمله الدكتور رشيد سليم الجرّاح إشارةً بالغة الدلالة؛ فهو بحقٍّ يُجري عمليةً جراحية للكلمة القرآنية. إنه يتعامل مع مفردات الوحي برُشدٍ متناهٍ، كأنّه يضعها تحت مجهر الفكر واللغة، فيُريك نسيجها العضوي، ويكشف عن أعصابها الصرفية وعروقها الدلالية، لتتجلّى بذلك أبعادها النفسية والمادية العميقة. هكذا تتحوّل الكلمة في مشروعه من مجرّد رمزٍ صوتي إلى كيانٍ حيٍّ نابضٍ بالمعنى، يحمل إمكانات التأويل التي تنتظر التحرير.

لقد كانت أبحاث الدكتور الجرّاح ومقالاته بمثابة أطروحات نوعية تميّزت بالعمق والجرأة الفكرية، فمثّلت دعوةً صريحةً لإعادة بناء علاقتنا التلقّائية بالوحي، لا على قاعدة التلقّي الجامد، بل على أساس الفهم المتدبّر والتحليل العلمي المحكم. وهي دعوةٌ ضرورية تُعيد إلى النصّ حيويته الجوهرية، وإلى الفكر الديني توازنه المنشود، وتُحيي مسؤولية الباحث في إعمال العقل وكسر حاجز السؤال الموقوف.

وانطلاقًا من قناعتنا الراسخة بأهمية هذا المشروع الريادي، وبضرورة حفظه وتوثيقه ليكون مرجعًا للباحثين والمهتمين، تضافرت جهود فريق المدوّنة. لقد قمنا بجمع هذه المقالات والدراسات المنشورة، ومن ثم تنظيمها وتصنيفها وتحريرها بعناية فائقة، لتصدر الآن في هذا العمل المتكامل الذي نضعه بكل تقدير بين يدي القارئ الكريم.

نحن نؤمن يقينًا بأنّ هذه الكتابات تمثّل إسهامًا محوريًا في مسار الفكر القرآني المعاصر، وأنها تفتح آفاقًا رحبة للتأمّل والمراجعة والتجديد، بما يليق بكتابٍ أنزله الله للعقل قبل التقليد، وللحياة قبل التاريخ.

إنّ هذا العمل ليس سوى نقطة انطلاق في مسارٍ نأمل أن يكون مستدامًا؛ وفاءً لصاحب هذا المشروع العلمي الرائد، وإيمانًا بما قدّمه من اجتهادٍ صادق ورؤيةٍ علمية مغايرة تستحقّ كل التقدير والاحتفاء.

فريق عمل مدوّنة الدكتور رشيد الجراح:

- المهندس **عامر محمد العوض، مهندس نظم المعلومات من مايكروسوفت.**
- المهندس **زكرياء مصباح، مهندس مدني.**
- الأستاذ **مصطفى عيسى، مصمم ديكور ومستشار في العقارات.**
- الأستاذ **محمد عادل الخولي، مستشار في العقارات.**
- الدكتور **يوسف فرمي، مهندس البحث والتطوير في الإلكترونيات الدقيقة والبصريات.**

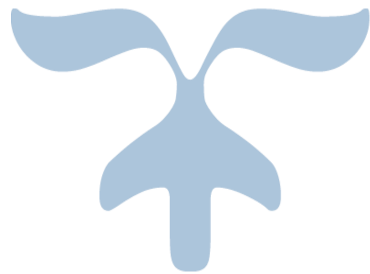
للإتصال بالفريق : roohblog2025@gmail.com

الفهرس:



فقه الزكاة

الجزء الأول



فقه الزكاة – الجزء الأول

بعد أن تجرأنا على تسطير بعض الخطوط العريضة التي ربما تبيّن بعض تفاصيل عقيدتنا فيما يخص فقه الصيام وفقه الصلاة كما فهمناها من كتاب الله، دعنا ننتقل إلى تسطير بعض الافتراءات الخاصة بنا عن فقه الزكاة كما نفهمه أيضا من كتاب الله. ولعلنا نحتاج بداية أن ننبه إلى أننا سنتجرأ على بعض الافتراءات التي قد تكون غير مسبوقة في الفكر الديني، والتي نعتقد جازمين بأنه سيكون لها (إن صحّت طبعا) تبعات جمّة على العقيدة الدينية وعلى التطبيق الفعلي لها على أرض الواقع. فمن أراد أن يجازف باللحاق بنا في رحلة متهورة إلى أرض بكر لا ندري طبيعة تضاريسها بعد، فله ذلك شريطة أن يتحمل هو بنفسه تبعات قراره، ولا نملك إلا أن نسدي له النصيحة دائما بأن لا يملّ من دعاء ربه ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: 6-7]). ومن أراد الرجوع إلى الوراء، خاصة إذا لم يكن من المغرمين بقصيدة روبرت فرُست (The Road Not Taken)، فله أن يتابع المسير في الطريق التي يعرف تفاصيلها جيدا، فهو الأكثر دراية بمصلحته مادام أنه يعتقد أنه لم يبتعد يوما عن ذلك الصراط الذي ألفى عليه آباءه.

(دعاء: ربنا اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهدا والصالحين وحسن أولئك رفيقا - أمين)

أما بعد،

إن الذي أشغل تفكيرنا في هذه القضية على وجه التحديد هو تناوب اللفظ في كتاب الله بين مفردتين متقاربتين في المعنى، وهما مفردة الزكاة (الزكوة) من جهة ومفردة الصدقة (الصدقات) من جهة أخرى. فطرحنا على أنفسنا التساؤل المثير التالي: ما الفرق بين الزكاة والصدقة كما تردا في النص القرآني؟

وكانت محاولتنا في الإجابة على هذا التساؤل تتمثل بداية في استعراض السياقات القرآنية كلها الخاصة بالمفردتين على مساحة النص القرآني، ثم محاولة تدبرها في تلك السياقات متفرقة أولا ثم مجتمعة بعد ذلك، علّنا نستطيع (بحول الله وتوفيق منه) الخروج باستنباطات ربما تساعدنا في تجلية الفروقات الحقيقية بين المفردتين، ومن ثم محاولة إسقاط تلك الاستنباطات المفتراة من عند أنفسنا على أرض الواقع، والنظر فيما ستؤول إليه الأمور بعد ذلك.

فعند استعراض الآيات القرآنية الخاصة بالصدقة (الصدقات)، وجدناها متعددة ومتنوعة، فحاولنا الخروج باستنباطات نذكر منها:

أولا، أن الصدقة فعل يتعلق بتوافر الأموال:

- ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١٠٣﴾ [التوبة: 103]

ثانيا، يمكن أن يقوم الإنسان بفعل الصدقة في الحج، قال تعالى:

- ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝١٩٦﴾ [البقرة: 196]

ثالثا، يمكن لفعل الصدقة أن يجر وراءه الأذى، قال تعالى:

- ﴿۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ۝٢٦٣﴾ [البقرة: 263]

ويمكن لهذه الصدقات أن تُبطل بالمن والأذى:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢٦٤﴾ [البقرة: 264]

رابعا، يمكن لنا (كبشر) أن نأمر غيرنا بالصدقة:

- ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١١٤﴾ [النساء: 114]

خامسا، يمكن أن تقدم الصدقة بين يدي النبي نفسه، قال تعالى:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٢﴾ [المجادلة: 12]

سادسا، لا مانع من إبداء الصدقات ولكن إخفاؤها هو خير، قال تعالى:

- ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٢٧١﴾ [البقرة: 271]

سابعا، الربا هو النقيض المقابل للصدقات، ففي حين أن الله يمحق الربا فهو نفسه من يربي الصدقات، قال تعالى:

- ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ٢٧٦﴾ [البقرة: 276]

ثامنا، ما يؤتي الرجال النساء من مال يقع في باب الصدقة، قال تعالى:

- ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ٤﴾ [النساء: 4]

ولا يؤخذ منه شيئا إلا عن طيب نفسن منهن:

- ﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ٢٠ وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ٢١﴾ [النساء: 20-21]

تاسعا، توزيع الصدقات يكون واضحا للجميع بدليل أن البعض قد يلمز النبي في طريقة توزيعها، قال تعالى:

- ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَلۡمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا رَضُواْ وَإِن لَّمۡ يُعۡطَوۡاْ مِنۡهَآ إِذَا هُمۡ يَسۡخَطُونَ ٥٨﴾ [التوبة: 58]

عاشرا، جاء تحديد الفئات التي تأخذ من الصدقات واضحا لا لبس فيه في الآية الكريمة التالية:

- ﴿۞إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠﴾ [التوبة: 60]

أحد عشر، لم يكن هناك حد أدنى للقدرة المالية لمن أراد أن يتصدق، فقد يتطوع المؤمن بأي مقدار من الصدقة ما دام أن هذا هو جهده، قال تعالى:

- ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٩﴾ [التوبة: 79]

اثنا عشر، جاءت آية كريمة تبين بصريح اللفظ أن الله هو من يأخذ الصدقات، قال تعالى:

- ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٤﴾ [التوبة: 104]

ثالث عشر، يمكن للرجال وللنساء إخراج الصدقات، قال تعالى:

- ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ۝٣٥﴾ [الأحزاب: 35]
- ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۝١٨﴾ [الحديد: 18]

رابع عشر، جاء الفصل واضحا في كتاب الله بين تقديم الصدقات وإيتاء الزكاة، فتقديم الصدقات هو فعل يختلف عن فعل إيتاء الزكاة، قال تعالى:

- ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١٣﴾ [المجادلة: 13]

السؤال المحوري: إذا كان فعل تقديم الصدقات يختلف عن فعل إيتاء الزكاة، فما هي الاستنباطات التي يمكن الخروج منها من الآيات الكريمة التي تتحدث عن فعل إيتاء الزكاة؟

جواب مفترى، دعنا نستعرض الآن بعض الاستنباطات التي استطعنا الخروج بها من السياقات القرآنية الخاصة بفعل إيتاء الزكاة.

أولا، ربما لا يخفى على الكثيرين أن فعل إيتاء الزكاة قد ورد مجاورا وملاحقا لفعل إقامة الصلاة في كثير من السياقات القرآنية، قال تعالى:

- ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ۝٤٣﴾ [البقرة: 43]
- ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ۝٨٣﴾ [البقرة: 83]
- ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١١٠﴾ [البقرة: 110]
- ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ۝١٧٧﴾ [البقرة: 177]
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٢٧٧﴾ [البقرة: 277]

- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [النساء: 77]
- ﴿لَّٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ ۚ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾ [النساء: 162]
- ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [المائدة: 55]

ثانيا، جاء فعل إيتاء الزكاة غير مصاحب لفعل إقامة الصلاة في الآية الكريمة التالية:

- ﴿۞ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [الأعراف: 156]

ثالثا، جاء فعل إيتاء الزكاة منفصلا بشكل لا لبس فيه عن إقراض الله قرضا حسنا، كما في الآية الكريمة التالية:

- ﴿۞ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾ [المائدة: 12]
- ﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ ۙ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾ [المزمل: 20]

رابعا، جاء الأمر الإلهي بالكف عن قتال المشركين متى ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، قال تعالى:

- ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [التوبة: 5]

خامسا، كان إيتاء الزكاة (بالإضافة إلى التوبة وإقامة الصلاة) هو الشرط الثلاث لتحقيق الإخوة في الدين، قال تعالى:

- ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ [التوبة: 11]

سادسا، جاء فعل إيتاء الزكاة مصاحبا وتابعا لعمارة المساجد، قال تعالى:

- ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٨﴾ [التوبة: 18]

سابعا، جاء فعل إيتاء الزكاة في سياق الحديث عن المؤمنين والمؤمنات، قال تعالى:

- ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٧١﴾ [التوبة: 71]

ثامنا ، كانت الزكاة واحدة من ما أوصى به الله نبيه عيسى بن مريم، قال تعالى:

- ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ٣١﴾ [مريم: 31]

تاسعا ، كانت من سمات نبي الله إسماعيل هو أنه كان يأمر أهله بالزكاة مباشرة بعد أمره إياهم بالصلاة، قال تعالى:

- ﴿وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ٥٥﴾ [مريم: 55]

عاشرا ، كان فعل إيتاء الزكاة من أهم ميزات من مكّن الله لهم في الأرض، قال تعالى:

- ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٤١﴾ [الحج: 41]

أحد عشر، جاء فعل إيتاء الزكاة واحد من الأفعال المحددة التي يقوم بها من كان من المسلمين: قال تعالى:

- ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾ [الحج: 78]

اثنا عشر، كان فعل إيتاء الزكاة واحدة من أهم الأفعال التي يقوم بها من يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار، وهم الموقنون بالآخرة، قال تعالى:

- ﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ٣٧﴾ [النور: 37]

- ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٣﴾ [النمل: 3]
- ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤﴾ [القمان: 4]

وكان عدم إيتاء الزكاة (على وجه التحديد) واحدة من أهم الأفعال التي تدل على الكافرين بالآخرة، قال تعالى:

- ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٧﴾ [فصلت: 7]

ثالث عشر، جاء فعل إيتاء الزكاة كواحد من الأفعال التي يمكن أن تجلب لنا الرحمة من الله، قال تعالى:

- ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٥٦﴾ [النور: 56]

رابع عشر، جاء الحث واضحا لأزواج النبي على إيتاء الزكاة، قال تعالى:

- ﴿وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ٣٣﴾ [الأحزاب: 33]

خامس عشر ، من أراد أن يكون مخلصا لله الدين، فلابد أن يؤتي الزكاة كما يقيم الصلاة، قال تعالى:

- ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥﴾ [البينة: 5]

سادس عشر: جاء فعل إيتاء الزكاة (بالإضافة إلى إقامة الصلاة) منفصلا عن فعل الخيرات، قال تعالى:

- ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ٧٣﴾ [الأنبياء: 73]

السؤال: ما الذي يمكن أن نفهمه بعد هذا السرد للاستنباطات التي حاولنا تسويقها لما فهمنا من السياقات الخاصة بالصدقة والسياقات الخاصة بالزكاة؟

جواب مفترى: بداية، لمّا كان فعلا إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة قد وردا مصاحبين لـ ومنفصلين عن فعل الخيرات، وجب علينا الخروج بالاستنباط التالي المهم جدا جدا وهو أن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ليست من أفعال الخير. ففعل الخيرات هو شيء وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة شيء آخر تماما. انتهى.

السؤال: لماذا؟ أي لماذا هذا الفصل بين فعل الخيرات من جهة (وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ) وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة من جهة أخرى (وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ)؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: لأن فعلي إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة من الأفعال المفروضة على المسلم المُلزمة له (شاء أو أبى) التي لا يتحصل له من أدائها الخيرات.

السؤال: لماذا لا **يتحصل** للمسلم الخيرات من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة؟

جواب مفترى: مادام أنه (نحن نفتري الظن) من الأفعال المفروضة على المسلم شاء أو أبى، فهي إذن حق الله على عباده. انتهى.

نتيجة مفتراة (1): إقامة الصلاة هي حق لله على عباده

نتيجة مفتراة (2): إيتاء الزكاة هي حق لله على عباده

نتيجة مفتراة مهمة جدا: نحن نظن أن الذي لا يقيم الصلاة ولا يؤتي الزكاة فهو كمن لا يقوم بأداء دَيّن مفروض عليه، والذي يتهاون فيها هو كمن يتهاون في أداء ذلك الدين.

السؤال: ما الذي يمكن أن نستنبطه من هذا التصاحب الذي يكاد لا ينفك في كتاب الله بين فعلي إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة في كتاب الله؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نرى أن هناك أسباب عديدة هي محرك هذا التصاحب، نذكر منها:

1. إن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة هي أفعال مفروضة على العبد، ملزمة له شاء أو أبى
2. إن العلانية في أدائهما واجبة، فلا مجال لإخفائها. ففي حين أنه يمكن إبداء الصدقات ويمكن إخفائها، فإن إيتاء الزكاة تجب فيه العلانية. بالضبط كما الحال بالنسبة للصلاة، ففي حين أن العلانية واجبة في إقامة الصلاة (المفروضة)، فإن العلانية غير ملزمة في التسبيح بحمد الرب (أو ما يعرف بين المسلمين بصلاة السنّة).
3. إن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة هي أفعال محددة لا يجوز الزيادة فيها أو التنقيص منها، بينما يمكن أن نزيد وننقص من الصدقات بمقدار الجهد. بالضبط كما الحال بالنسبة للصلاة، ففي حين أن عدد الصلوات وركعاتها محددة لا يزاد فيها ولا ينقص منها في إقامة الصلاة (المفروضة)، فإن الباب مفتوح في التسبيح بحمد الرب (أو ما يعرف بين المسلمين بصلاة السنّة).
4. إن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة هي أفعال محددة بأزمان ثابتة، بينما يمكن تقديم الصدقات في أوقات متفاوتة. بالضبط كما الحال بالنسبة للصلاة، ففي حين أن إقامة الصلاة هي كتاب موقوت، فإن التسبيح بحمد الرب (أو ما يعرف بين المسلمين بصلاة السنّة) يمكن أن يتم في أي وقت.
5. الخ.

تلخيص ما سبق:

نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأنه كما ينقسم فعل الصلاة إلى فعلين أساسيين وهما إقامة الصلاة (المفروضة) والتسبيح بحمد الرب (التطوعية) كما حاولنا توضيح هذا سابقا تحت عنوان فقه الصلاة، فإن تقديم المال ينطبق عليه المنطق نفسه، فهو أيضا فعل ينقسم إلى فعلين أساسيين وهما إيتاء الزكاة (المفروضة) وتقديم الصدقات (التطوعية) كما في الشكل التوضيحي التالي:

إقامة الصلاة	التسبيح بحمد الرب	إيتاء الزكاة	تقديم الصدقات
حق الله على العباد واجبة لا مفر من أدائها علانية لا تجلب للإنسان مصلحة دنيوية لا تقع في باب فعل الخيرات ثابتة في المقدار فلا نزيد فيها ولا ننقص منها الخ	حق العباد على الله تطوعية قد تبدى وقد تخفى تجلب للإنسان مصلحة دنيوية تقع في باب فعل الخيرات متفاوتة في المقدار يمكن أن نزيد فيها أو أن ننقص منها الخ	حق الله على العباد واجبة لا مفر من أدائها علانية لا تجلب للإنسان مصلحة دنيوية لا تقع في باب فعل الخيرات ثابتة في المقدار فلا نزيد فيها ولا ننقص منها الخ	حق العباد على الله تطوعية قد تبدى وقد تخفى تجلب للإنسان مصلحة دنيوية تقع في باب فعل الخيرات متفاوتة في المقدار يمكن أن نزيد فيها أو أن ننقص منها الخ

السؤال: ما هي الزكاة على أرض الواقع؟ وما هي الصدقة على أرض الواقع (إن صح ما تقول)؟ يسأل صاحبنا.

جواب مفترى من عند أنفسنا: إن صحت استنباطاتنا هذه عن الزكاة، فإننا نتجرأ إذن على افتراء الظن بأن فعل الزكاة ينقسم إلى فعلين رئيسيين هما فعل إيتاء الزكاة وفعل تقديم الصدقات، ففي حين أن فعل إيتاء الزكاة هو فعل إلزامي، محدد بالمقدار والكيفية، ولا يجلب للإنسان مصلحة دنيوية لأنه حق مفروض عليهم:

- ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤﴾ [المعارج: 24]

فإن تقديم الصدقات – بالمقابل- هو فعل تطوعي غير محدد بالمقدار، وهو الذي يجلب للإنسان منفعة دنيوية مادام أنه تطوعي، يقوم به المسلم عن رغبة منه، وهو يتفاوت في المقدار بحسب جهد الشخص نفسه:

- ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٩﴾ [التوبة: 79]

السؤال: كيف يمكن إسقاط هذه الأفعال (إيتاء الزكاة وتقديم الصدقات) على أرض الواقع؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نظن أنه يمكن إسقاط ذلك على أرض الواقع على النحو المفترى من عند أنفسنا التالي: نحن نظن (ربما مخطئين) بأن فعل إيتاء الزكاة على وجه التحديد هو ما يعرف بالمفردات الدراجة على أرض الواقع تحت عنوان "دفع الضرائب". فهو – برأينا- الضريبة المفروضة والملزمة في كل ما يتحصل عليه للإنسان من مال (أي في كل غنيمة)، يدفعه هذا المسلم كحق معلوم للدولة، ليستفيد من جراء ذلك الجميع بالقسط (أي بالتساوي في التوزيع والمنفعة)، فهو إذن حق للجميع، السائل منهم والمحروم:

- ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ۝٢٤ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۝٢٥﴾ [المعارج: 24-25]

أما الصدقات فهي – بالمقابل- من الأعمال التطوعية التي يمكن للإنسان أن يقوم بها بنفسه إن شاء، بحسب جهد كل شخص منهم:

- ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٧٩﴾ [التوبة: 79]

ولها مصارف محددة، خاصة فقط بالفئات ذات الحاجة الملحة من المجتمع، وهم من جاء ذكرهم واضحا لا لبس فيه في الآية الكريمة التالية:

- ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦٠﴾ [التوبة: 60]

ولا شك عندنا أن فعل إيتاء الزكاة (كما هو فعل إقامة الصلاة) واجب فيه الإظهار (أي يجب أن يكون باديا على غير الصدقات التي قد تبدى وقد تخفى)، فلا يجوز فيه الإخفاء تحت أي ظرف من الظروف:

- ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝١١﴾ [التوبة: 11]

فحتى تبين إخوة الناس في الدين وجب أن يكون معلوم لدى الجميع أن هذا الشخص من الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة. وسنرى تبعات هذا الافتراء الجمة لاحقا (بحول الله وتوفيقه) عند الحديث عن كيفية تطبيقها على أرض الواقع.

بينما تقديم الصدقات – بالمقابل- فهو فعل يمكن أن يكون ظاهرا (فيعلم به الناس الآخرون) ولكن الخيرية – لا شك- تكون في إخفاءه، كما جاء في الآية الكريمة التالية:

- ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٢٧١﴾ [البقرة: 271]

والهدف من إخفائه هو حتى لا يحدث من جراء فعله الأذى:

- ﴿۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾ [البقرة: 263]
- ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾ [البقرة: 264]

السؤال: ما هو المنّ؟ وما هو الأذى؟ وكيف يمكن أن تُبطل الصدقات بالمنّ أو بالأذى؟

رأينا: عندما يقوم شخص بتقديم الصدقة لشخص آخر، قد يقع الشخص الذي تصدّق بإبطال صدقته هذه بواحدة من طريقتين، وهما المن أو الأذى (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ)، أليس كذلك؟

السؤال الأول: كيف يمكن أن يبطل المؤمن صدقاته بالمنّ؟

السؤال الثاني: كيف يمكن أن يبطل المؤمن صدقاته بالأذى؟

رأينا المفترى: للإجابة على هذين التساؤلين، وجب علينا التوقف على الأمور التالية، كما نفهمها من الآية الكريمة نفسها:

1. أن ذلك سلوك قد يقوم به بعض المؤمنون (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ)
2. أن ذلك السلوك يشبه سلوك من يقوم بذلك أصلا من أجل الرياء (كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ)
3. أن ذلك السلوك يشبه ما يقوم به الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر (كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ)
4. أن ذلك كله يشبّه بالصفوان الذي عليه تراب فأصابه وابل، فأزاح ذلك التراب عنه بالكلية حتى عاد به إلى حالته الأولى (فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ)
5. الخ.

السؤال: ما الفرق بين المنّ والأذى إذن؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن المنّ هو أن يقوم الشخص الذي تصدّق "بمعايرة" من تصدق عليه شخصيا، فالمنّة تقع من "المنعِم" على "المنعَم عليه"، فالله هو الذي منّ علينا:

- ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٧﴾ [الحجرات: 17]

نتيجة مفتراة: المنّة تقع مباشرة من الذي أعطى إلى الذي أُعطي. لذا، فإن الشخص الذي قدّم الصدقة لشخص آخر قد يبطل صدقته هذه إن هو منّ مباشرة على الشخص الذي أعطاه نفسه، كأن يذكّره بين الفينة والأخرى بأنه قد تصدق عليه، وبأن له منّة عليه.

رسالة قصيرة:

كم نجد في حياتنا اليومية من يقوم بفعل الصدقة، ثم إذا ما حصل خصام بين الطرفين لأس سبب، رأيت المتصدِّق يذكّر من تصدق عليه بتلك الصدقة التي أعطاه إياها في يوم من الأيام! فنحن ندعوك عزيزي المتصدق أن هذه المنّة (أي المعايرة بالكلمات الأردنية الدارجة) ستبطل لا محالة كل الصدقة التي قدمتها، ولن تستفيد منها، وذلك لأن مثل هذا السلوك لا يصدر إلا من الذي يتصدق من أجل الرياء، ولا يصدر إلا ممن كان لا يؤمن بالله واليوم والآخر ﴿كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾. وهذا السلوك يشبه من وضع شيئا قليلا من التراب على الصخرة الكبيرة (صَفْوَانٍ) ظانا أنها ستكون أرضا خصبة للنماء، لكنه لا يعرف أن منّته هذه قد أزالت التراب من المكان كله، فعادت به صلدا، أي ربما أكثر قسوة مما كان عليه سابقا.

والذي ينفق من أجل الرياء هو الذي يكف عن الإنفاق إن لم يجد مردودا مباشرا من الذين أنعم عليهم بصدقته، ويكأن لسان حاله يقول يجب على هؤلاء الذين تصدّقت عليهم أن تبقى ألسنتهم تلهج بذكري الطيب في كل وقت وحين. ولو توقف هؤلاء عن ذكره وذكر آباءه ونعمهم عليهم، لاستشاط غضبا، وربما ما تردد بأن يذكّرهم بصدقته عليهم، فذاك هو – برأينا- المنّ الذي يبطل الصدقات كلها.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: المنّ هو أن "يعاير" المتصدق من تصدق عليهم بصدقته مباشرة.

السؤال: وكيف يمكن أن تبطل الصدقات بالأذى؟

جواب مفترى: للإجابة على هذا التساؤل، دعنا نطرح بداية التساؤل الأولي التالي: ما هو الأذى؟

أولا، نحن نظن أن الأذى هو "عيب أو خلل أصيب به الشخص" لا يمكن إخفاءه عن بعض الناس الآخرين مهما حاول المصاب تغطية ذلك الأذى.

الدليل

قد يصيب الأذى الرأس، وهو الجزء الأكثر وضوحا في جسم الإنسان كله، قال تعالى:

- ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾﴾ [البقرة: 196]

فمن أصابه ذلك الأذى (أي أذى الرأس) قد يحاول (وقد يلجأ إلى) تغطية ذلك الأذى بشيء من القماش أو ما شابه. لكن حتى لو فعل ذلك، فإنه لن يستطيع أن يمنع الآخرين من معرفة حدوث الأذى في الرأس بسبب التغطية. فسواء تمت تغطية الأذى أو لم تتم، فإن العلم به لن يكون فقط للشخص الذي أصابه ذلك الأذى من رأسه، وإنما لمن حوله. فكلُ من يقترب إلى مسافة معينة من الشخص الذي أصاب رأسه الأذى، يعلم به، وكلما اقترب أكثر، كلما اتضح له الأذى أكثر. فيزداد العلم بالأذى كلما ازداد القرب من الشخص الذي يعاني منه، ويقل العلم به كلما ابتعد عن الشخص الذي أصاب رأسه الأذى. وليس أدل على ذلك من العلم بالمحيض، الذي هو أيضا أذى:

- ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة: 222]

فأكثر الناس علما بمحيض المرأة هو زوجها، لأنه – لا شك- هو الأقرب لها. فمهما حاولت المرأة التي تعاني من أذى المحيض تغطية الخبر عن الآخرين، إلا أن ذلك لابد أن ينكشف خبره على البعض ممن هم حولها، كالعائلة مثلا (عندما تتوقف المرأة المصابة بأذى المحيض عن إقامة الصلاة أو عن الصيام في وقت حدوث الأذى)، أو كالزوج الذي لا يمكن أن يخفى عليه أذى محيض زوجته لأنه مأمور أن يعتزلها في تلك الفترة الزمنية (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ). فنصل إلى النتيجة التي نظن أنها مهمة جدا وتتمثل بافترائنا بأن أقل عدد من البشر يمكن له أن يعرف عن الأذى هو شخص واحد (كالزوج)، ولكن يمكن أن يعرف عن الأذى أشخاص كثيرون كحاله كأذى الرأس في الحج.

نتيجة: العلم بالأذى قد يصل إلى أكثر من شخص، ولكن أقل عدد ممكن أن يعرف عن الأذى هو شخص واحد.

ثانيا، نحن نفتري الظن بأن خبر الأذى (أي العلم به) قد ينتشر بين الناس كانتشار النار في الهشيم، فقد يخبر البعض من الناس بأذى الآخرين للبعض الآخر:

- ﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران: 186]

فالعلم بخبر الأذى قد يكون بالسمع (وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيرًا)، وهنا يزداد الأذى، فيصبح أذى كثيرا.

نتيجة مهمة: نحن نظن أنه كلما ازداد عدد العارفين بالأذى، كلما كثر ذلك الأذى. فلو عرف بالأذى شخص واحد لكان أذى محدودا، ولكن لو عرف به أكثر من شخص لاتسعت رقعة الأذى بازدياد عدد من يعلم به.

ثالثا، نحن نظن أن الأذى يستحيل إخفاءه كالذي قد يلحق بالناس من المطر، ولكنه يحدث أيضا فوضى عارمة، كلما ازداد عدد العالمين به:

- ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ١٠٢﴾ [النساء: 102]

فلك – عزيزي القارئ- أن تتخيل طبيعة الفوضى (غير المنظمة) التي تنتج عن نزول المطر عندما تدوس أقدام الناس الأرض التي ابتلت بماء المطر (أي ما يعرف بالطين أو mud بالمفردات الأجنبية. فيصبح من الصعب السيطرة عليه، وربما من الاستحالة بمكان تنظيمه، كما في الشكل التوضيحي التالي:



Source:

رابعا، ونحن نفتري الظن أيضا بأن الأذى قد يلحق بشخص واحد (كأذى الرأس أو المحيض) وقد يلحق بالمجموعة كلها، كما حصل عندما لحق الأذى ببني إسرائيل كلهم في أرض مصر:

- ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٢٩﴾ [الأعراف: 129]

السؤال: ما علاقة هذا كله بإبطال الصدقات بالأذى؟

رسالة قصيرة: كم نجد – عزيزي القارئ- في حياتنا اليومية من يقوم بفعل الصدقة، ولا تراه يقوم بفعل المنّ على من تصدق عليه مباشرة، ولكنه يذهب لنشر خبر صدقته هذه للآخرين. فتراه يقول لمن حوله بأنه قد تصدق على فلان بكذا وبكذا. وأقلهم من يسر إلى بعض أصدقائه أو عائلته أو ربما زوجته (التي تتولى نقل الخبر بكل براعة واحتراف في جلسات الشاي الصباحية أو جلسات القهوة المسائية مع صاحباتها وبعض أقاربها) بأنه قد تصدق على بعض الناس فيذكرهم بالاسم. ثم ما هي إلا فترة قصيرة جدا حتى تجد أن خبر تلك الصدقة قد انتشر بين الناس كانتشار النار في الهشيم. وربما أخذ كثير من الناس يتحدثون بذلك الخبر في مجالسهم، وتكثر التأويلات والتفسيرات، وربما تصدر من البعض ألفاظ غير لائقة بحق المتصدق عليهم، فتدب الفوضى في فهم الغاية والمقصد، فهذا التصرف هو – برأينا- أذى، يكثر بمقدار عدد العالمين به، وذلك لأنه يلحق الضرر بالمتصدق عليه بشخصه كما يلحق الأذى بمن حوله (كعائلته وأقربائه وأصحابه).

مثال: عندما يخرج بعض المتصدقين ممن آتاهم الله الأموال الضخمة (وما أكثرهم) لتوزيع بعض صدقاتهم على الآخرين الذين يظنون أنهم أقل حظا منهم، تراهم يجلبون معهم جيشا من الإعلاميين وقنوات التلفزة لتغطية الخبر، ونقلها للناس ربما في بث على الهواء مباشر، كما يتولى هؤلاء الإعلاميون المحترفون نقل الخبر أولا بأول على شبكات التواصل الاجتماعي.

السؤال: هل هذا فعل محمود؟

جواب: لعلي أكاد أجزم الظن بأن هذا سلوك اجتماعي غير مرغوب به لأنه يبطل الصدقات، فهو بذاته أذى.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: ما ذنب البنت الصغيرة (أو الولد الصغير) التي صورتها شاشات التلفزة عندما كانت عائلتها تتلقى الصدقات العينية وغير العينية؟ هل عندما تكبر هذه الطفلة أو عندما يكبر هذا الطفل، هل ستمحي هذه الحادثة من ذهنهم؟ هل هذه الحادثة هي مثار فخر تسجل في تاريخ الطفل أو الطفلة ليحتفظ بها كجزء من سيرتهم الذاتية؟ وماذا لو أن أحد ألأصحاب والمعارف قرر أن يحتفظ بتلك الصور في ذاكرة أجهزة التسجيل المتنوعة عنده؟ وماذا لو عُرضت هذه التسجيلات على مرأى ومسامع من المتصدق عليهم بعد حين؟!

السؤال: هل حفظ هذا المتصدق (صاحب النعمة) للناس كرامتهم عندما أخذ في جيبه حفنة من النقود المتعفنة في خزائنه وألقى بها على هؤلاء "الغلابى" كما يظهر في التسجيل البطيء لتلك الحادثة على

شاشات التلفزة؟ فهل جلب لهم خيرا بمقدار الضرر الذي ألحقه بهم طوال حياتهم؟ هل إذا كان أبي أو أمي من الفقراء والمساكين الذين يتلقون الصدقات، هل يجب عليّ أن أتحمل "العار" الذي جلبوه لي منذ نعومة أظفاري؟ من يدري؟!

ربما يرد البعض بالقول أن هذا لا يقع في باب العار. وربما يظن أن هذه من الأمور التي لا يجب أن تتصف بالحساسية المفرطة عند الفقراء والمساكين.

رأينا: إن كان كذلك، فهل تقبل عزيزي القارئ هذا لنفسك؟ هل تقبل أن يتم التقاط الصور (التي قد تبث على شاشات التلفزة وعلى محطات التواصل الاجتماعي) التي تصور أباك أو أمك أو أخاك أو أختك أو أنت نفسك وأيديهم ممدودة للآخرين بالصدقة؟ من يدري؟!

رأينا: إذا كنت ترضى هذا لنفسك، فأعلم (رحمك الله) أن هناك الملايين من الفقراء والمساكين الذين لا يرضون بهذا، وأعلم بأن هناك الملايين من الفقراء والمساكين الذين يأخذون الصدقات وقلوبهم منكسرة، ثم لتتأكد أن هناك الملايين من الناس الذين ما كانوا ليقبلوا بالصدقة لولا أن الحاجة فاقت التصور؟ وتأكد أن هناك الآلاف الآباء الذين ما كانوا ليمدوا أيديهم للآخرين لولا أنهم عجزوا عن إطعام أطفالهم الجياع أو عن ستر عورة بناتهم، وتأكد بأن هناك ملايين الملايين من الناس الذين يفضلون الجوع على الذل، فلا يسألون الناس إلحافا، وهم الذين قد يفضلون الموت على منّة الآخرين عليهم. فالله هو من أحسن وصفهم في قوله:

- ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾ [البقرة: 273]

السؤال: لماذا؟ لماذا لا يسألون الناس إلحافا؟

جواب: لأن ما ينتج عن الصدقة التي ربما تقدم لهم هو فعلا أذى، بالضبط كالذي ينتج عن المحيض، الذي هو أيضا أذى:

- ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة: 222]

السؤال: وما علاقة أذى الصدقة بأذى المحيض؟ ولم جاء وصف الحالتين بالمفردة نفسها (أَذًى)؟

خيال أغرب من الخيال نفسه: نحن نفتري أن ما يتحصل من أذى الصدقة هو مطابق تماما لما يتحصل من أذى المحيض.

السؤال: وكيف ذلك؟ ربما يريد صاحبنا أن يسأل.

جواب مفترى من عند أنفسنا: أن المحيض هو أذى لأنه مقابل للطهارة، فالمرأة التي أصابها المحيض تنقصها الطهارة، ولا تتحصل لها الطهارة من جديد إلا بعد أن تتخلص منه، فما أن تتخلص المرأة من المحيض حتى تكون طاهرة، وهنا يحق لزوجها أن يقربها بعد أن يكون قد اعتزلها في فترة المحيض كاملة. دقق – عزيزي القارئ- في الآية الكريمة مرة أخرى:

- ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة: 222]

وقد حاولنا تسويق افترائنا سابقا بأن هذا سببه أن الدم الذي يخرج من فرج المرأة بالمحيض هو عبارة عن كمية قليلة جدا مقارنة بالدم الذي يسري في عروقها كلها. فلو حاولنا قياس كمية الدم الخارج بالمحيض من فرج المرأة مع كمية الدم الباقية في جسم المرأة كله، لوجدنا أنه لا يتجاوز كسرا بسيطا من الكمية كلها.

ولو حاولنا مقارنة ذلك بكمية المال الذي يتصدق به الغني من ماله كله، لما وجدنا أن ما يخرج منه بالصدقة قد يتجاوز الكسر البسيط من مجموع المال كله.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن ما يخرجه المتصدق من ماله (بشكل عام) قد لا يتجاوز في مقداره كمية الدم الذي يخرج بالمحيض من فرج المرأة إذا ما فكرنا بالكميات بمنظور النسبة والتناسب.

منطقنا المفترى: إن كمية المال الذي يخرج بالصدقة مقارنة مع كمية المال المتوافر للغني يعادل كمية الدم الذي يخرج من فرج المرأة بالمحيض مقارنة مع كمية الدم المتوافر في جسمها كله.

ولو حاولنا دراسة حالة المرأة في فترة خروج الدم بالمحيض من فرجها، لوجدنا أنها لا تكون بأحسن حالاتها النفسية، فالغم والحزن والاضطراب وعدم السكينة هي من ميزات الحالة النفسية التي تصيبها في فترة خروج المحيض من فرجها. ولو حاولنا تفقد نفسية المتصدق عندما يخرج الصدقات من ماله، لما وجدنا نفسيته (في أغلب الأحيان) بأفضل من ذلك.

ولو حاولنا فحص طبيعة ذلك الدم الذي يخرج بالمحيض لوجدنا أنه يختلف عن الدم الذي قد يخرج من جسم الإنسان بالجرح.

السؤال: لماذا يختلف دم المحيض عن الدم الذي يخرج من أي مكان آخر من جسم المرأة (أو حتى أي إنسان)؟

جواب مفترى: نحن نظن أن السبب في ذلك هو "ما يجعل المرأة تتوقف عن الصلاة والصيام في وقت المحيض". فلو حصل نزيف للمرأة من أنفها أو من يدها أو من رأسها أو من أي عضو آخر من جسمها بسبب جرح أصابها، فذلك لا يكون مانعا لها عن إقامة الصلاة أو الصيام مهما كانت كمية الدم التي نزفت منها. لكن

– بالمقابل- فإن خروج قطرات قليلة من الدم من فرجها بالمحيض هو سبب كاف أن تتوقف عن الصلاة وعن الصيام، أليس كذلك؟

السؤال: لماذا؟

جواب مفترى: لأن خروج قطرات الدم القليلة من فرجها بالمحيض هو عملية تطهير لجسمها كله. ولو حاولنا تفقد الآيات الكريمة الخاصة بالصدقة لوجدنا فيها العجب من هذه الزاوية، قال تعالى:

- ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٠٣﴾ [التوبة: 103]

منطقنا المفترى: نحن نفتري الظن بأن إخراج الصدقات من المال كله هو مطابق تماما لخروج دم المحيض من فرج المرأة، وذلك لأن في خروج هذا وذاك هو طهارة لما تبقى هنا وهناك. انتهى.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نريد أن نرسم صورة بشعة للصدقة حتى لا يقربها ولا يرضى بها إنسان مسلم (مؤمن بربه أنه هو الرزاق الكريم) إلا إن فاقت قدرته تحمل حاجته الماسة. فالإنسان المسلم لا يلجأ للصدقة إلا إن سدت الطرق كلها في وجهه، وأصبح لا مناص من قبولها، كما حصل مثلا مع موسى يوم أن وجد نفسه فقيرا في أهل مدين:

- ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ٢٤﴾ [القصص: 24]

نتيجة مفتراة خطيرة جدا جدا: نحن ننصح بأن لا يتم الاقتراب إلى الصدقة إلا في أقصى درجات الحاجة، ونتجرأ على القول بأن من يقتات على مال الصدقة هو كمن يقتات على دم المحيض.

رسالة قصيرة: لتعلم (أخي المسلم) أنك عندما ترضى أن تطعم زوجتك وأطفالك من مال الصدقة، فأنت كمن يضع الأذى (كأذى المحيض) في بطونهم، فلا تلجأ لذلك إلا عندما تكون الحاجة قد وصلت بك إلى درجة الهلاك، كمن يضطر أن يأكل لحم الميتة إن هو أشرف على الهلاك. فنحن ننصح أنفسنا وإياك بأن لا تتخم بطون أبنائك بهذا الأذى.

السؤال: لماذا؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: مادام أن خروج الدم من فرج المرأة هو طهارة لها، فإن عدم خروجه يعني بقاء "الرجس" فيها، ومادام أن خروج الصدقة من مال المؤمن هو طهارة له، فإن عدم إخراجه يعني بقاء الرجس فيه. والآن قارن – عزيزي القارئ- الحالتين كما تصورهما الآيات الكريمة أحسن تصوير:

- ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ٢٢٢﴾ [البقرة: 222]
- ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٠٣﴾ [التوبة: 103]

السؤال: كيف تحصل الطهارة بمجرد خروج جزء يسير جدا (كدم المحيض والصدقة) من الكمية الكبيرة كلها؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: مادام أننا نتحدث عن حصول الطهارة، فهي إذن فعل يحدث للتخلص من رجس الشيطان. انتهى.

منطقنا المفترى: يتمكن الشيطان من الدخول في أجسامنا (كرجال ونساء) كما أقسم على ذلك قديما:

- ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ١١٨ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ١١٩ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ١٢٠﴾ [النساء: 118-120]

وقد بدأ هذا التدخل الشيطاني منذ اللحظة التي بدت فيها عوراتنا يوم أن نزع الشيطان عن آدم وزوجه لباسهما، وأصبحا مشاهدين بالرؤية له من حيث لا نراه نحن:

- ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٢٧﴾ [الأعراف: 27]

ولما كان آدم هو من عصى ربه فغوى:

- ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ١٢١﴾ [طه: 121]

ولما كان آدم هو من اضطر أن يتوب إلى ربه:

- ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ١٢٢ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ١٢٣﴾ [طه: 122-123]

فهبط من الجنة وزوجه على تلك الحالة، فكان عليه أن يقوم بأفعال محددة تذهب عنهما رجس الشيطان:

- ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ١٠٠﴾ [يونس: 100]

ولكن بالمقابل، لما لم تكون زوج آدم قد عصت ربها، ولما لم تكن قد غوت كزوجها، ولما لم تكن بحاجة أن تتوب إلى ربها كما فعل زوجها، ولما كان جل ما فعلته (نحن نفتري الظن) هو نزولا عند رغبة زوجها (وليس معصية لربها)، جاء الكرم الإلهي عليها بالتحديد بأن أمدها بالطريقة الطبيعية البيولوجية (الجسدية) للتخلص من رجس الشيطان على الدوام. لذا نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن الدورة الشهرية التي تصيب المرأة في سن المحيض هي عبارة عن هدية إلهية للنساء جميعا (من دون الذكور جميعا)، وذلك لكي تتم لها الطهارة بشكل دوري منتظم من ذلك الرجس.

(للتفصيل انظر مقالاتنا السابقة الخاصة بالنساء)

منطقنا المفترى: نحن نفتري الظن بأن الرجال لا يستطيعون التخلص من رجس الشيطان الذي يصيبهم بطريقة بيولوجية (كالدورة التي تصيب النساء)، لذا وجب عليهم القيام بأفعال محددة، هي كفيلة (نحن نظن) بأن تخلّص الرجل من هذا الرجس.

السؤال: لماذا تتوقف المرأة عن الصلاة في وقت المحيض؟ ولماذا تتوقف عن الصيام في لحظة حدوث المحيض؟

رأينا المفترى الخطير جدا جدا: نحن نظن أن السبب في ذلك هو حصول الغاية المرجوة من الصلاة والصيام: إنها الطهارة. لذا نحن نفتري القول بأنه وجب علينا جميعا أن ننظر إلى المرأة التي أصابها المحيض ويكأنها في صلاة دائمة وفي صيام دائم، لأنها في وقت طهارة من رجس الشيطان، لذا وجب اعتزالها وعدم الاقتراب منها، بالضبط كحالة الرجل الواقف للصلاة في محرابه، فهل يسمح الرجل الواقف في صلاته لأحد أن يقترب منه مادام في صلاته هناك؟ وما أن يفرغ من صلاته حتى يقترب من الآخرين ويسمح للآخرين بالاقتراب منه، فذلك هو الهدف – برأينا- من اعتزال النساء في المحيض:

- ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة: 222]

نتيجة مفتراة (1): نحن نفتري الظن بأن في خروج دم المحيض من فرج المرأة هو طهارة لها.
نتيجة مفتراة (2): نحن نفتري الظن بأن في إخراج الصدقة من مال المؤمن هو طهارة له.
نتيجة مفتراة (3): نحن نظن أن عملية خروج وإخراج هذا الجزء اليسير من الكتلة الكبيرة كلها هي عبارة عن عملية تطهير للكتلة كلها. فخروج دم المحيض يطهر جسم المرأة كلها، وإخراج الصدقة من مال المؤمن يطهّر المال كله.
نتيجة مفتراة (4): نحن نفتري الظن بأن عملية التطهير هذه هي عبارة عن عملية تنظيف كامل من رجس الشيطان الذي دخل في الجسم وفي المال.
نتيجة مفتراة (5): نحن نظن أنه لو لم تتم عمليات التطهير هذا للجسم والمال، لأفسدته كله. فقليل من الخل قد يفسد العسل كله.

رسالة قصيرة: هل تقبل عزيزي المسلم أن تقتات على الأذى؟ أليس من أهم صفات من كان من المؤمنين هي العزة؟

- ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ١٣٩﴾ [آل عمران: 139]

رسالة قصيرة: إذا أردت - عزيزي المؤمن- أن تكون من المؤمنين الذين لا يهنوا ولا يحزنوا، فحاول (ما استطعت إلى ذلك سبيلا) أن لا تملأ بطنك ولا بطون أهل بيتك بالصدقة لأنها تجر معها الأذى.

دروس من الواقع

لو نظرت حولك عزيزي القارئ وتفقدت طبائع الناس من حولك، لربما حار الظن عندك لِم يتصف الأشخاص الذين تربوا في البيئات الفقيرة في اغلب الأحيان - بسوء الطبع، والغيرة (وربما الكره) لمن هم أكثر حظا منهم فيما يعرف بين أهل الاختصاص في العلوم الاجتماعية "بالحقد الطبقي". ولكن - بالمقابل – ألا تجد أن الذين نشئوا وترعرعوا في البيئات ذات الحظ العظيم، ألا ترى أنهم (في أغلب الأحيان) أكثر سلامة في الطبع والسلوكيات؟ من يدري؟!

السؤال: لماذا؟

جواب مفترى: بغض النظر عن الأسباب الأخرى التي قد تساهم في هذا الواقع، وبغض النظر عن الاستثناءات التي قد تحصل هنا وهناك، فإن واحدا من أهم الأسباب التي نظن أنها قد ساهمت في هذا "التباين الطبقي" هو أذى الصدقة. فالأشخاص الذين نشئوا وبطونهم مليئة بأذى الصدقة، قد أصابهم (نحن نفتري القول) رجس كبير من الشيطان، فأصبح وسواسهم الخناس أكبر في صدورهم، فانعكس ذلك في طبائعهم وفي سلوكياتهم الاجتماعية.

وقد لا ينطبق هذا فقط على الأفراد وإنما ينطبق كذلك (نحن نفتري الظن) على المجتمعات والحكومات. ألا ترى – عزيزي القارئ- بأن شعوب الحكومات في دول العالم الأول الغنية تمتع بصحة وراحة نفسية تكاد تكون شبه معدومة في مجتمعات دول العالم الفقير البائس؟

السؤال: لماذا تتمتع تلك الشعوب براحة نفسية أفضل من شعوب دول العلم الفقير؟

جواب مفترى: لعلي أكاد أجزم الظن أن واحدا من أهم الأسباب المؤثرة في هذا المجال يعود – برأينا طبعا- إلى أن تلك الشعوب الغنية لا تقتات على الصدقة التي تعيش عليها معظم مجتمعات الدول الفقيرة.

أنا لا أنكر أن كثيرا من دول العالم المتقدم قد سرقت ونهبت خيرات الدول الفقيرة، كما لا أنكر أن جزءا كبيرا من الثروات المتحصلة في خزائنها هي نتاج عمليات السرقة والسطو على مقدرات الأمم الأخرى، إلا أن ذلك قد أعطاها الشعور بالعزة، وذلك لأنها لا تقتات على أموال الصدقة وإن هي أكلت من أموال السرقة.

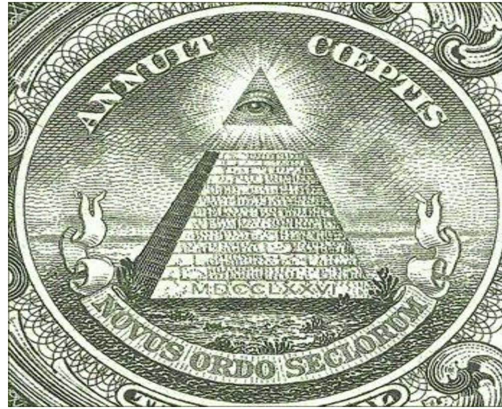
وأنا لا أنكر كذلك أن كثيرا من الأموال في ميزانيات الدول الغنية هي حق لشعوب العالم الفقير الذين نُهبت ثرواتهم جهارا نهارا، إلا أن ذلك قد أعطى الشعوب الفقيرة الشعور بالذلة، لأنها لم تطالب بأموالها المنهوبة كحق مكتسب لها لا يجوز التفريط فيه، بل رضيت بما تقدمه لها تلك الشعوب السارقة كصدقة، فأورث من أخذ الصدقة منهم (وهم الشعوب الفقيرة) الشعور بالمهانة والذلة.

مثال للتوضيح فقط: ما الذي كنت سأفعله لو أني كنت رئيس جمهورية مصر العربية مثلا؟

جواب: بعيدا عن المطالبة بالثروات التي نهبتها الدول الاستعمارية من مصر الحضارة التاريخ، وبعيدا عن المطالبة بالآثار العظيمة التي تدر المليارات في خزائن فرنسا وألمانيا وبريطانيا وإيطاليا والولايات المتحدة الأمريكية التي لو أنها عادت إلى مصر لكفت الشعب المصري كله، فإن أول فعل سأقوم به (لو كنت رئيسا لجمهورية مصر العربية) هو تحريك دعوى قضائية ضد حكومة الولايات المتحدة الأمريكية التي لازالت تسرق مصر يوميا جهارا نهارا في أعظم سرقة عرفها التاريخ البشري على الإطلاق؟

السؤال: وما هي تلك السرقة؟

جواب مفترى: إنه ما هو مرسوم على الدولار الأمريكي، إنها تلك الصورة للهرم الأعظم بالعين التي تحرسه:



والتي تظهر على الدولار الأمريكي:



Source:

السؤال: لماذا تضع الولايات المتحدة هذا الرمز (وهو رمز مصر الخالد) على عملتها الورقية؟ هل يحق لدولة على وجه الأرض أن تستخدم آثار بلاد أخرى كعلامة مميزة لها؟ ماذا لو قامت "إسرائيل" مثلا بوضع صورة البتراء (الأردنية) على عملتها؟ هل يقبل الشعب والحكومة الأردنية بذلك؟ وهل أقبل أنا بذلك؟!

السؤال: وماذا لو فعلت؟ وما الذي يضيرنا أن تضع حكومة الولايات المتحدة صورة الهرم الأكبر (رمز مصر الخالد) على عملتها الورقية؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: لعلي لا أتردد أن أقول بأن قوة الدولار كعملة عالمية تكمن بوجود هذا الرمز على صورتها، ولو تم إزاحة هذا الهرم عن العملة الورقية الأمريكية، لما عاد الدولار (نحن نتجرأ على الافتراء) القوة الاقتصادية الأولى المهيمنة على العالم.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: هذا ما سنحاول بحول الله وتوفيق منه تبيانه لاحقا عندما نعاود الحديث عن قصة فرعون، ونسأل الله وحده أن يعلمنا ما لم نكن نعلم وأن يهدينا لأقرب من هذا رشدا وأن يزدنا علما، إنه هو العليم الحكيم – آمين.

(دعاء: اللهم أسألك وحدك أن تهديني لما اختلف فيه الناس من الحق، وأنت خير حافظا وأنت أرحم الراحمين - آمين)

عودة على بدء

دعنا نعود إلى صلب موضوع الصدقة بالرسالة القصيرة التالية الموجهة أولا إلى الأفراد: لعلي لا أتردد (أنا شخصيا) إن دعت الحاجة الماسة لذلك (والتي أسأل الله وحده أن لا أضطر إليها ولا أن يضطر إليها أحد من أهلي) أن أدخل في بطون أهل بيتي من مال السرقة على أن أدخل فيها من مال الصدقة.

وهنا قد يقول قائل بأني ربما بمثل هذا الكلام المفترى من عند نفسي أروج للجوء إلى السرقة أكثر من ترويجي لتقبل الصدقة. فأرد بالقول كلا وألف كلا، ولكني أريد أن أوضح بأن مال السرقة لا ينعكس تأثيره إلا على السارق نفسه، فهو من يتحمل تبعاته، ولا دخل لأهل بيته (الذين قد يأكلون منه) بذلك، وذلك لأن مال السرقة (نحن نفتري الظن) لا يحدث في نفس من يأكل منه الأذى. لكن – بالمقابل- فإنه وإن لم يكن للمال المأخوذ صدقة تبعات على الشخص نفسه، فإن تبعاته (التي قد تكون كارثية جراء الأذى الذي يحدثه) تلحق بكل من يأكل منه. فإن أنت أردت – عزيزي المؤمن- أن لا تفسد طبائع أبنائك، وإن أنت أردت أن لا يدخل الرجس فيهم، فلا تدخل الصدقة في بطونهم. ولا تنشئهم على حب مال الصدقة. بل يجب عليك أن تعلّم أبنائك بأن لا يأكلوا من "قذارة" أموال الأغنياء التي يطهرون أموالهم بها. فالغني يريد أن يطهر ماله بالصدقة، فلا تجعل بطون أهل بيتك مكبات لتلك النفايات.

دروس من التاريخ

وردنا في الأثر (الذي لا أثق بتفاصيل نقله كثيرا) أن الرسول الكريم كان يوزع الصدقات بطريقة لم تكن لترضي الكثيرين ممن هم حوله حتى حصل اللمز به شخصيا في توزيعها، كما نفهم ذلك من قوله تعالى:

- ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [التوبة: 58]

السؤال: لماذا وزّع النبي الصدقات بطريقة جلبت له اللمز؟ لماذا لم يعط هؤلاء الذين لمزوه منهم ليكف ألسنتهم عنه؟ وهل وضّح النبي لهم سبب توزيعه للصدقات بهذه الطريقة التي لم تكن لترضيهم في بادئ الأمر؟ وكيف وضّح لهم ذلك؟ هل رضوا في نهاية المطاف بفعل الرسول في توزيع الصدقات؟ ولماذا رضوا بذلك في نهاية المطاف؟

جواب مفترى: نحن نظن أن كل الجلبة التي حصلت حول كيفية توزيع النبي للصدقات التي لم ترض بعض الناس من حوله كان سببها طريقة التوزيع. فنحن نفتري القول من عند أنفسنا أن النبي الكريم كان يوزع الصدقات بالعدل ولم يكن يوزعها بالقسط. انتهى.

السؤال: ما معنى ذلك؟

لمّا كان النبي الكريم وحيا يوحى، فهو يعلم بالضبط ما يفعل، فلا يركن إلى أحد ما دام أنه يتبع التشريع الإلهي الذي أوحي إليه. لذا كان عليه أن يوزع الصدقات بالطريقة الصحيحة التي يرضاها الله حتى وإن لم يكن ذلك ليرضي بعض الناس من حوله.

السؤال: كيف يجب أن توزع الصدقات؟

جواب مفترى: كان مرشد محمد في توزيع الصدقات هو قوله تعالى:

- ﴿۞ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ [التوبة: 60]

نتيجة مفتراة: لمّا كانت هذه هي الفئات المستحقة للصدقات، فإن محمدا ما كان ليعطي منها من لا يقع ضمن هذه الفئات.

السؤال: لماذا إذن حصل اللمز بمحمد مادام أن الفئات المستهدفة بالصدقة محددة؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: فنحن نتخيل بأن اللمز لم يحصل بسبب التوزيع على هذه الفئات، وإنما حصل بسبب الكمّية التي كان محمد يعطيها لكل شخص منهم، فهو (نحن لا زلنا نتخيل) لم يكن يعطي

الجميع المقدار نفسه، وذلك لأن محمدا كان يعطي كل شخص حسب حاجته (أي بالعدل وليس بالقسط). ولكن لما رأى بعض المسلمين من حوله أن بعضهم قد أخذ أكثر من البعض الآخر حصل اللمز في ذلك. فارتفعت بعض الأصوات التي تظن أن محمدا كان يعطي من يريد كما يشاء، فظنوا أن من أعطاهم محمد أكثر هم الأقرب إليه، ويكأن لسان حالهم يقول أن محمدا يقرب إليه البعض بزيادة كمية الصدقة التي يعطيها إياه. فكان ظنهم أن من أعطاهم محمد أكثر هم أحب إليه ممن أعطاهم أقل.

السؤال: كيف أسكت محمد تلك الأصوات؟

تخيلات مفتراة: نحن نتخيل أن ما قام به الرسول الكريم بعد أن حصل اللمز به منهم هو أنه قد بيّن للجميع بأن ما فعله في أمر توزيع الصدقات هو تماما عكس ما كانوا يظنون. فمحمد لم يكن ليمنع مال الصدقة (نحن نظن) إلا عن من أحب فعلا. فهو لا يرضى بأن يملأ بطن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وعائشة بمال الصدقة. فلا شك أن هؤلاء هم أكثر الناس الذين منع عنهم محمد مال الصدقة.

السؤال: كيف بيّن لهم محمد ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن محمدا لم يكن يحتاج حينئذ أكثر من تلاوة الآيتين التاليتين على مسامعهم ليذكرهم بحقيقة الصدقة وماهية المال المتحصل منها:

- ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٠٣﴾ [التوبة: 103]
- ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ٢٢٢﴾ [البقرة: 222]

فلقد أفهمهم محمد (نحن لازلنا نتخيل) أن مال الصدقة ليس أكثر من طهارة للمال كله، بالضبط كما أن دم المحيض ليس أكثر من طهارة لدم المرأة كله. فمن أكل منهم من مال الصدقة شيئا، فهو ك "من اقتات على بعض دم المحيض". ولا شكّ أن محمدا لم يكن ليرضى أن يملأ بطون أصحابه المقربين إليه بذلك الأذى. ولا شك أن أكثر من منعهم محمد عن أكل مال الصدقة هم أهل بيته.

السؤال: هل رضي المسلمون بتوزيع محمد للصدقات في نهاية المطاف بعد أن كانوا قد لمزوا به فيها في بداية الأمر؟

جواب: بكل تأكيد، لقد خرجوا من عنده وأعينهم تفيض دمعا. وذلك لأنهم (نحن مقتنعين) من الذين كانت قلوبهم تخشع لذكر الله:

- ﴿۞ أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ١٦﴾ [الحديد: 16]

(دعاء: اللهم أسألك وحدك أن أكون من الذين تخشع قلوبهم لذكرك وما نزل من الحق، وأعوذ بك أن أكون كالذين أوتوا الكتاب فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم، إنك أنت السميع البصير- آمين)

السؤال: لماذا جاءنا في الأثر أن النبي الكريم لم يكن يأكل بنفسه مما يقدّم له كصدقة ولكنه كان يأكل مما يقدم له كهدية؟

رأينا المفترى: لمّا كان محمد هو حقا من المؤمنين، ولما كان هو أول المسلمين، لم يكن ليقبل أن يدخل في جوفه شيئا من الأذى.

السؤال: لماذا ننعت الرسول دائما بصفة الكريم (فنقول الرسول الكريم)؟

جواب مفترى: نحن نظن أن في الكرم علوا، ومادام أن محمدا لا يقبل أن تكون يد أحد (غير يد الله) فوق يده، لذا كان هو أكرم المؤمنين، فهو كان يترفّع عن أخذ ما يقدّمه له الناس كصدقة، ولكنه كان يعطي كل ما يملك لهم. فكان حقا كريما بكل ما في الكلمة من معنى. فالكرم لا يتحدد بالكمية، ولكنه يتحدد بالنوعية. فمن كان يملك دينارا واحدا وتصدق به (وإن كان به خصاصة) هو لا شك أكثر كرما ممن دفع الملايين ولازالت خزائنه ملئ بالمليارات.

السؤال: ما الفرق بين الصدقة والهدية؟

جواب مفترى: لو دققنا جيدا في فعلي تقديم الصدقة وتقديم الهدايا، لوجدنا أنهما في نهاية المطاف الفعل ذاته. فهو تقديم شيء من مالك لغيرك، أليس كذلك؟

لكن يبرز التساؤل التالي على الفور: لم تطمئن نفس الإنسان السويّ للهدية أكثر من اطمئنانها للصدقة؟

جواب مفترى: نحن نظن أن الهدية لا يمكن أن تبطل بالمنّ والأذى، فمن قدم لك الهدية لا يستطيع أن يمنّ عليك بذلك، ولا يستطيع أن يجلب لك الأذى من جراء ذلك. وذلك لأنه لم يعطيك من مال الصدقة الذي هو في نهاية المطاف تطهير لماله كله من رجس الشيطان. ولكنه لا شك قد أعطاك من المال "النظيف" المطهر أصلا. فلا يكون لذلك عواقب "سيئة" على من دخل ذلك المال في بطنه. فحتى الملوك (وهم لا شك لا ينقصهم المال) يرضون بقبول الهداية (لا بل ويفرحون بها)، أليس كذلك؟ لكن هل يقبلون بالصدقة؟!

السؤال: ما هي أفضل طريقة لتوزيع الصدقات؟ وما هي أفضل طريقة لقبول الصدقات؟

جواب مفترى: نحن نظن أن الآية الكريمة التالية تبيّن لنا الطريقة المثلى في توزيع الصدقات، قال تعالى:

- ﴿إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٢٧١﴾ [البقرة: 271]

السؤال: كيف يمكن أن تتم عملية إخفاء الصدقات؟ ألا يحدث العلم بالصدقة بمجرد أن يقوم الإنسان بتوزيعها على الآخرين؟ هل يجب عليّ (كمتصدق) أن أتخفى في منتصف الليل لأقدم الصدقة للآخرين كما صوّر لنا ذلك الفكر الشعبي السائد؟ وماذا لو تم ضبطي (في منتصف الليل) أمام بيتك قبل أن أقوم بترك الصدقة على باب البيت وتولية الدبر؟ هل كنت ستقتنع أن وجودي أمام بيتك في تلك اللحظة هو من باب توزيع الصدقة؟ هل ستحسن الظن بي؟! هل ما سمعناه من شيوخ المنابر حول هذه القصص "المكذوبة" على بعض الصالحين من عباد الله هي فعلا الرواية الصحيحة التي يجب أن يتبعها الناس لإخفاء صدقاتهم؟ وماذا لو كان عندي من الأموال الملايين التي يجب عليّ أن أوزعها، هل وجب علي أن لا أخلد إلى النوم لأبقى متسترا على شخصيتي (مغطيا رأسي) باحثا في أروقة المدينة (في ظلمة الليل) عن البيوت التي تستحق أن تقدم لهم الصدقات؟

رأينا المفترى: كلا وألف كلا. تلك ليست – برأينا- الطريقة المثلى لإخفاء الصدقات. وذلك لأنه بمجرد أن تذهب بنفسك إلى بيت شخص لتقدم له الصدقة، فإن ذلك دليلا كافيا على إبداء الصدقة، فصدقتك قد بدت، ولا يمكن أن تقع ضمن إطار الخفاء.

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الصدقة قد أصبحت بادية لأنك (أنت المتصدق أصبحت) تعلم من الذي أخذ منك الصدقة، فيمكن أن يقع منك المن لاحقا، فحتى لو لم يعلم بك الشخص الذي تصدقت عليه، فقد علمت أنت به. فأصبحت المعرفة على الأقل من طرف واحد.

السؤال: وكيف تخفى الصدقة؟ متى يمكن أن تصبح الصدقة خافية؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن الصدقة لا يمكن أن تكون خافية إلا إذا لم يحصل معرفة أي طرف بالطرف الآخر، فلا المتصدق يعلم من المتصدق عليه، ولا المتصدق عليه يعلم من هو المتصدق.

السؤال: ما فائدة ذلك؟ ما فائدة أن لا يعرف أي طرف بالطرف الآخر؟

رأينا المفترى: نحن نظن أنه في هذه الحالة فقط يستحيل أن تبطل الصدقة بالمنّ والأذى، لأن المتصدق لن يكون عارفا بمن تصدق عليه، فلن يمن عليه شخصيا، ولأن المتصدق عليه لن يكون عارفا بمصدر المال الذي جاءه بالصدقة، فلن يحصل له الأذى.

رأينا المفترى: وكيف تكون آلية التوزيع إذن؟

رأينا: نحن نظن أن آلية التوزيع (إن أردتْ أن تخفي صدقتك) يجب أن تكون بالتوكيل، أي أن تدفع المال إلى جهة موثوقة تقوم هي بتوزيعها نيابة عنك. ولعلي أكاد أجزم الظن بأن الجمعيات والمؤسسات الخيرية التي يعرف القائمون عليها أحوال الناس في مناطق عملهم هي الأقدر على فعل ذلك. فإن أنت (كغني) دفعت أموالك لهذه الجمعيات للقيام بعمليات التوزيع نيابة عنك (ويكون لهم نصيب منها لأنهم هم العاملون عليها)، فإنك تظفر بأفضلية إخفاء الصدقة التي حثّ الله عباده المؤمنين عليها:

- ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾ [البقرة: 271]

السؤال: لماذا جاء الحث من النبي أن يأخذ هو الصدقات بنفسه؟

- ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [التوبة: 103]

رأينا: لأن المتصدقين كانوا يبحثون عن الخيرية في إخفاء الصدقات، فقاموا بدفع صدقاتهم للنبي، ليقوم هو (كأفضل شخص موثوق به حينئذ) بتوزيعها في مصارفها الحقيقية:

- ﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ [التوبة: 60]

ومن هنا جاء اللمز بشخص النبي نفسه في توزيعها كما أسلفنا:

- ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [التوبة: 58]

باب إيتاء الزكاة

إن صحّ منطقنا المفترى من عند أنفسنا هذا عن الصدقات، فإننا نتجرأ على طرح التساؤلات التالية عن إيتاء الزكاة، نذكر منها:

- ⇐ هل نجد في النص القرآني دليلا يثبت أن يأخذ النبي الزكاة بنفسه كما جاء بالنسبة للصدقات؟
- ⇐ هل نجد دليلا في كتاب الله على إمكانية إبداء الزكاة أو إخفائها كما جاء بالنسبة للصدقات؟
- ⇐ هل نجد في النص القرآني دليلا على إمكانية إبطال الزكاة بالمنّ والأذى كما جاء بالنسبة للصدقات؟
- ⇐ هل نجد في كتاب الله دليلا على مصارف الزكاة كما جاء بالنسبة للصدقات (لتكون للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وابن السبيل)؟
- ⇐ هل نجد دليلا في كتاب الله أن الزكاة يمكن أن تكون بناء على جهد الإنسان نفسه كما جاء بالنسبة للصدقات؟
- ⇐ هل نجد دليلا في كتاب الله أن يقوم الإنسان بتوزيع الزكاة بنفسه كما جاء بالنسبة للصدقات؟

⇐ هل نجد دليلا في كتاب الله على أن الزكاة يمكن أن توزع بتفاوت حتى يحصل اللمز فيها كما جاء بالنسبة للصدقات؟

⇐ الخ.

أما بعد،

دعنا نبدأ النقاش هنا بالافتراء الخطير التالي: لا يمكن أن يبطل فعل إيتاء الزكاة بالمن والأذى.

السؤال: لماذا؟ لماذا لا يمكن أن تبطل الزكاة بالمن والأذى بينما يمكن أن تبطل الصدقات بالمن والأذى؟

رأينا المفترى: نحن ننفي احتمالية أن تبطل الزكاة بالمن والأذى لأنك لا تقدمها لأشخاص محددين بذاتهم، فلا تستطيع إذن أن تمنّ على أحد من جراء إيتاء الزكاة، ولا تستطيع أن تتسبب في وقوع الأذى على أحد من جراء إيتاء الزكاة المفروضة عليك.

السؤال: لماذا؟

جواب: لأن إيتاء الزكاة لا تستهدف فئات محددة، كأصحاب الحاجة الملحّة التي يتم تقديم الصدقات لهم:

- ﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦٠﴾ [التوبة: 60]

السؤال: لماذا؟

رأينا: لأن إيتاء الزكاة فعل إلزامي على عكس تقديم الصدقات التي هي غير إلزامية، فأنت تدفع الزكاة شئت أم أبيت ولكن دفعك للصدقات يقع في ضمن الأفعال التطوعية:

- ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٧٩﴾ [التوبة: 79]

نتيجة مفتراة 1: تقديم الصدقة فعل تطوعي
نتيجة مفتراة 2: إيتاء الزكاة فعل إلزامي
نتيجة مفتراة 3: المال المقدم صدقة تستفيد منها فئات محددة بعينها (وهم أصحاب الحاجة)
نتيجة مفتراة 4: المال المقدم زكاة يستفيد منه كل المجتمع (سواء كان ذا حاجة أو لم يكن)

السؤال: لماذا؟

جواب: لأن الفئات المستهدفة من دفع الزكاة هي المجتمع كله، السائل منهم والمحروم:

- ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ١٩﴾ [الذاريات: 19]

لذا، نحن نفتري الظن بأنه يجب مراعاة القسط في توزيع الأموال المتحصلة من الزكاة ولا حاجة أن يراعى في توزيعها العدل.

نتيجة مفتراة 1: المال المتحصل بالصدقة يوزع بالعدل

نتيجة مفتراة 2: المال المتحصل من الزكاة يوزع بالقسط

السؤال: لماذا؟

جواب: لأن المستفيدين من أموال الزكاة هم أفراد المجتمع كلهم، الغني منهم والفقير، لذا يستحيل (نحن نرى) أن يحدث في توزيع الزكاة اللمز كما قد يحصل في حالة توزيع الصدقات:

- ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَلۡمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا رَضُواْ وَإِن لَّمۡ يُعۡطَوۡاْ مِنۡهَآ إِذَا هُمۡ يَسۡخَطُونَ ٥٨﴾ [التوبة: 58]

السؤال: لماذا؟

جواب مفترى: لأن العلانية (نحن نفتري الظن) واجبة في إيتاء الزكاة، فيستحيل أن تخفى كما قد يحصل عند توزيع الصدقات:

- ﴿إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٢٧١﴾ [البقرة: 271]

نتيجة مفتراة 1: الصدقة يمكن أن تبدى ويمكن أن تخفى

نتيجة مفتراة 2: الزكاة لابد أن تبدى ولا يمكن أن تخفى

السؤال: لماذا؟ وكيف يكون إيتاء الزكاة علانية؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: لأن أموال الزكاة تدفع مباشرة لبيت مال المسلمين. فهي بمثابة "الضريبة" التي تستوجب في مال الأغنياء من أجل خدمة المجتمع كله، السائل منهم والمحروم.

رأينا المفترى: لمّا كان تصريف "إيتاء الزكاة" على الجميع، فإنها تراعي القسط في التوزيع وليس العدل، فالجميع يستفيد من خدمات الدولة العامة التي ينفق عليها من أموال الزكاة المتوافرة في بيت مال المسلمين بنفس الدرجة، فلا تفاوت في الاستفادة من الخدمات العامة.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: لما كانت أموال الزكاة هي الممولة لخدمات الدولة العامة التي يستفيد منها الجميع بنفس الطريقة، فليس هناك في الإسلام إذا – نحن نظن- مريض يدخل المستشفى بدرجة خاصة (ويكأنه في فندق سبعة نجوم) وآخر يدخل المستشفى بدرجة عامة (ويكأنه في ورشة حدادة).

ولا يجوز – نحن نرى- أن يتعلم ابنك في مدرسة خاصة (ذات الرسوم الخيالية لتوافر الخدمات والكفاءات المميزة لها) بينما يقبع ابني في غرفة صفية متآكلة، صفوفها مكتظة، وكفاءاتها التدريسية متدنية، ولا يطاق لها حر في الصيف ولا برد في الشتاء، وربما لا يصلح الكثير منها في بعض الأحيان كحظائر للأنعام.

ولا يجب أن تنعم أنت بالشوارع العامة ذات المسارب العريضة والاتجاهات المحددة والشواخص المرورية المنظمة لحركة السير مادام أنك تسكن في جوار عِلية القوم، بينما أكافح أنا من أجل دخلة صغيرة ربما يعب حتى على للدواب أن تسلكها إلا بصعوبة بالغة، ولا يمكن للبشر أن تسلكها إلا بشق الأنفس.

ونحن نود أن ينظر المجادل في التفاوت الطبقي الذي يكاد يكون في أوضح صوره في بلاد الإسلام فقط. فلعل رحلة قصيرة لا تتجاوز النصف ساعة في أحياء عمان (عاصمة أرض الحشد والرباط) ستبين لك كيف يعيش الناس في أحياء عِلية القوم مقابل كيف يقبع السواد الأعظم في باقي مناطق العاصمة العزيزة. والصورة لا تختلف كثيرا في الجزائر والرباط وتونس، وقد تكون أكثر سواء في القاهرة والخرطوم ونواكشوط، أما طرابلس الغرب ودمشق وبغداد فحدث ولا حرج.

السؤال: هل ترى أنه لا يجوز الخصخصة في التعليم والصحة والأشغال العامة؟

جواب مفترى: نعم، يكاد الظن أن يكون أميل عندي إلى أن هذه الخصخصة قد تصل إلى درجة التحريم، فلا يجوز أن تتم خصخصة الخدمات العامة (وهي الصحة والتعليم والأشغال العامة على وجه التحديد).

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: إن من حق المسلم على الدولة الإسلامية (التي يتكدس في بيت مالها أموال الزكاة التي دفعها أبناء المسلمين أنفسهم) أن توفر له الخدمات العامة أين ما سكن في تخوم الدولة الإسلامية كلها. فلا يجب أن تكون شوارع العاصمة أفضل من شوارع المدن الأخرى، ولا يجب أن تكون المدارس في الأحياء الراقية أفضل وأكثر كفاءة من المدارس في أي مكان آخر. ولا يجب أن تجهز مستشفيات محددة بتجهيزات أفضل من مستشفيات أخرى لا لشيء وإنما لأن زبائنها من فئة أو طبقة اجتماعية محددة.

السؤال: لماذا؟ ألا يحق لي كغني أن أوفر لأبني تعليم أفضل من غيره؟ ألا يحق لي أن أتمتع بخدمة أفضل من الخدمات التي تقدم للآخرين مادام أني استطيع الإنفاق عليها؟

جواب: نعم تستطيع ذلك في كل ما لا يعتبر من الأساسيات الضرورية الواجب توفيرها للجميع. وهذه لا تشمل التعليم والصحة والأشغال العامة. فأنت تستطيع أن تشتري لنفسك طائرة بدل أن تركب السيارة، وأنت تستطيع أن تبني لنفسك قصرا بدلا من البيت العادي. لكن ليس من العدل أن يتلقى ابنك خدمة تعليمية في الصف الأول الابتدائي أفضل من الخدمة التي تقدم لغيره. وليس لزوجتك الحق في أن تدخل مستشفى الولادة ذات السبعة نجوم بينما تضع النساء الأخريات أولادهن على أدراج المستشفيات وممراتها؟ وليس من العدل (ولا من الدين) أن تكون الشوارع في حي من أحياء المدينة أفضل من نظيراتها في باقي أحياء المدينة نفسها.

فهذه الخدمات الثلاثة على وجه التحديد (التعليم والصحة والأشغال العامة) يجب أن تكون خاضعة لما يسمى بالكود الرسمي الذي يطبق في كل مرفق من مرافق الدولة العامة. فبناء أي مدرسة أو إنشاء أي مستشفى أو فتح وتعبيد أي طريق في أنحاء الدولة يجب أن يكون خاضعا للمواصفات والمقاييس نفسها (أي نفس الكود). انتهى.

السؤال: لماذا؟ ما الفائدة من ذلك؟

رأينا: نحن نظن بأنه لو عاش الغني ولو عاش السياسي "صاحب القرار" الأجواء نفسها التي يعيشها غيره، لكان ذلك مدعاة أن يحل مشاكل الناس بالطريقة التي يرضاها لنفسه لأنها ستصيبه. أما لما وضع الغني وصاحب القرار السياسي (وهم اللذين يشكلون العصابة الأكبر في المجتمع) في مجتمع عاجي، ولما تجمع فرعون وقارون معا، لم تكن النتيجة أكثر من أن يستضعف فرعون عباد الله في الأرض:

- ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٤﴾ [القصص: 4]

وأن يبغي قارون بماله على بقية بني إسرائيل بالرغم أنه منهم:

- ﴿۞إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦﴾ [القصص: 76]

لم يكن ليهمهم (فرعون وقارون) كثيرا ما يعانيه الآخرون لأنهم لم يمروا بالتجربة نفسها في يوم من الأيام. فلو كان صاحب القرار السياسي (فرعون) مجبرا أن يتعلم أولاده في المدارس التي يتعلم بها أبناء الشعب كلهم، ولو كان صاحب المال (قارون) مضطرا أن يتعلم أبناؤه في المدارس التي يتعلم بها أبناء الشعب كلهم، لأصلحت المدارس وزادت كفاءتها في فترة قياسية. ولو أدخلت زوجة أحدهم (فرعون وقارون) أو أحد من أفراد أسرتيهما (أو هما أنفسها) في المستشفى ذاته الذي يتلقى غيره العلاج فيه، لأصلحت المستشفيات فورا. ولو

اضطرا أن يسلكا بمركبتهما نفس الشارع الذي تسير عليه مركبات الآخرين، لأصلحت الخدمات العامة بين ليلة وضحاها.

تلخيص ما سبق: الصدقات والزكاة

نتيجة مفتراة: لا شك عندنا أن الهدف من إيتاء الزكاة هو تقديمها لبيت مال المسلمين، حتى تستطيع الدولة أن تقدم للناس جميعا (على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية) الخدمات الأساسية في الصحة والتعليم والأشغال العامة، بينما يأتي فعل تقديم الصدقات من باب التكافل الاجتماعي في المجتمع، وذلك لأن الناس بطبيعة تجاورهم يعرفون حاجات بعضهم البعض. لذا، في حين أن إيتاء الزكاة يأتي في باب سد حاجات الناس العامة، فإن فعل تقديم الصدقات يقع في باب سد حاجات الناس الخاصة. ومن هنا (نحن نفتري القول من عند أنفسنا) جاء التوجيه الإلهي بالحث على الأمر بالصدقة:

- ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [النساء: 114]

دروس من التاريخ: قصة حرب الردة (أبو بكر يقاتلهم على عدم دفعهم الزكاة).

لعل واحدة من الذكريات التي لازالت راسخة في ذهني منذ أيام المدرسة هي قصة حرب الردة التي حصلت بعد وفاة النبي مباشرة. فمما لازلت أذكره من كلام معلم الدين حينئذ أن أبا بكر (خليفة المسلمين) قد شن حربا لا هوادة فيها على المرتدين لأنهم رفضوا دفع الزكاة، أليس كذلك؟

السؤال: إذا كان ذلك صحيحا – قلت في نفسي حينئذ ولم أستطع أن أفصح عنه لمعلمي ربما لضعف قدراتي التعبيرية حينئذ أو لشدة معلمي الذي كان لن يتردد أن يعاقبني لو تبين له أني مخطئ- فلم يقاتلهم أبو بكر من أجل الزكاة؟ ألم يكن بمقدور أحدهم أن يقول لأبي بكر (خليفة المسلمين حينئذ) بأنه ليس مضطرا أن يدفع الزكاة له لأنه أخرجها بنفسه؟ ألم يكن بمقدورهم جميعا أن يقولوا له بأنهم ينشدون الإخفاء في تقديمها؟ أليس إخفاء الصدقة خير من إظهارها (كما تعلمنا في الدرس الذي سبق)؟

السؤال: لم إذن يدفع أبو بكر بجيش المسلمين كله في حرب محركها هو عدم دفع الزكاة؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: لو كان دفع الزكاة (أي إيتاء الزكاة) يمكن أن يتم بالإخفاء، لما حقّ لأبي بكر أن يقاتل من قاتلهم من أجل رفضهم دفع الزكاة له. انتهى.

الدليل

لو تفقدنا ما يخص الزكاة على وجه التحديد، لوجدناه مرتبطا على الدوام بفعل إقامة الصلاة، قال تعالى:

- ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ۝٤٣﴾ [البقرة: 43]
- ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ ۝٨٣﴾ [البقرة: 83]
- ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ۝١١٠﴾ [البقرة: 110]
- ﴿۞لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ۝١٧٧﴾ [البقرة: 177]
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٢٧٧﴾ [البقرة: 277]
- ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖۗ قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ۝٧٧﴾ [النساء: 77]
- ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا ۝١٦٢﴾ [النساء: 162]
- ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ۝٥٥﴾ [المائدة: 55]

السؤال: لماذا؟ أي لماذا هذا التجاور الذي يكاد يكون شبه دائم بين إقامة الصلاة من جهة وإيتاء الزكاة من جهة أخرى؟

رأينا المفترى: لما كان من الاستحالة بمكان (نحن نرى) إخفاء إقامة الصلاة أصبح لزاما (نحن نفتري القول) إبداء الزكاة كذلك، فكما نعلم أن فلانا يقيم الصلاة، فيجب على المجتمع أن يكون على دراية أيضا بأن فلانا يؤتي الزكاة كذلك.

السؤال: وكيف يمكن تنفيذ "إيتاء الزكاة" على أرض الواقع ليتحصل العلم للجميع بها؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: تلك هي فائدة سجلات الدولة الرسمية التي تسجل بكل دقّة عملية إيتاء الزكاة لكل من غنم شيئا من المال: إنه الكشف الضريبي الذي يجب على كل فرد من أفراد المجتمع أن يقدمه بنفسه لبيت مال المسلمين.

السؤال: ممن تؤخذ الزكاة؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نظن أن الزكاة لا تؤخذ إلا ممن يقيم الصلاة.

السؤال: هل نفهم من تخريصاتك هذه أن الذي لا يقيم الصلاة لا يكلّف بدفع الزكاة؟ يسأل صاحبنا مستغربا.

جواب مفترى خطير جدا: نعم، لا يكلف من لا يقيم الصلاة بدفع الزكاة. انتهى.

السؤال: هل هذا معقول؟! ألا ترى أنك قد وصلت إلى أبعد درجات الهذيان؟ وإن صح ما تقول، فما الواجب على من لا يقيم الصلاة أن يقدم للدولة؟ أو بكلمات أخرى: ما المطلوب من الدولة أن تفرضه على من لا يقيم الصلاة؟

جواب مفترى: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن الدولة يجب أن تلزم من لا يقيم الصلاة بدفع الجزية، كما جاء في قوله تعالى:

- ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾ [التوبة: 29]

تفنيد الفكر السائد: إن طرحنا هذا يدعونا إلى افتراء الظن من عند أنفسنا بأن الجزية ليست ملزمة لأهل الكتاب (اليهود والنصارى) في بلاد المسلمين فقط (كما أفهمنا أهل الدراية من أبناء الإسلام)، بل هي – برأينا- ملزمة لكل الفئات الذين جاء ذكرهم في الآية الكريمة نفسها، وهم:

- ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ
- وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ
- وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نرى أن الذين لا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب هم فقط فئة واحدة من الفئات الملزمة بدفع الجزية.

السؤال: لماذا يكون دفع الزكاة واجبة فقط على الذين يقيمون الصلاة؟

رأينا: نحن نظن أن ذلك من أجل تحقيق الإخوة في الدين، فالأخوة في الدين (الذي هو دين الله، الذي هو الإسلام ولا شيء غير الإسلام) لا تتحقق إلا بالشروط الواردة في الآية الكريمة التالية:

- ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝١١﴾ [التوبة: 11]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: لا تتحقق الإخوة بالدين للجميع إلا بالتوبة وبإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة. لذا، إذا لم يكن الشخص مقيما للصلاة فلا يجب (نحن نفتري الظن) أن تؤخذ منه زكاة، ويصبح مفروض عليه أن يدفع الجزية عن يد وهو صاغر.

السؤال: كيف يمكن تطبيق ذلك على أرض الواقع؟

جواب مفترى: نحن نرى أن الضرورة تستدعي من الدولة المسلمة أن تسلك طريقين لتحصل المال المفروض كحق واجب للسائل والمحروم من كل ما يتحصل للمسلم من الغنائم (أي الضرائب)، وهما

1. استمارة (استبانة) الزكاة
2. استمارة (استبانة) الجزية.

فإذا ما عرف أن الشخص المكلّف هو من الذين يقيمون الصلاة، فشهد لنفسه بذلك وشهد له الناس بذلك، وليس أدل على ذلك من حضوره للصلاة من يوم الجمعة:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩﴾ [الجمعة: 9]

أصبح من الواجب عليه أن يقدم الحق المفروض عليه في ماله على شكل زكاة. وأما إذا لم يكن من الذين يقيمون الصلاة (بغض النظر عن ديانته)، يصبح لزاما أن يدفع الجزية عن يد وهو من الصاغرين. انتهى.

باب: التهرب الضريبي

لعل كل حكومات الأرض تضع التشريعات المنظّمة لضبط عملية تحصيل الضرائب من رعاياها لخزينة الدولة، التي تقوم بدورها بإنفاق هذا المال على المرافق العامة الأساسية التي توفر الأمن المجتمعي لكل أفراد المجتمع بغض النظر عن الفئات الاجتماعية التي ينتمون إليها. فالخدمات الأساسية في الصحة والتعليم والأشغال العامة هي – برأينا- حق يتكافأ فيه الجميع بنفس الدرجة مهما كانت قدراتهم المالية. ولا شك عندنا أن موارد الدولة من الضرائب هذه هي من أهم مصادر الدخل للدولة. لكن ما يلاحظ في كل المجتمعات هو محاولة المكلَّف بتقديم كشف الضريبة الذاتي إيجاد الثغرات في القانون التي تمكّنه من التهرب من دفع الضرائب أو جزء منها. فمما يقضّ مضاجع أصحاب الملايين والمليارات (وما أكثرهم) هو هذا الواجب الضريبي المكلفين بدفعه لخزينة الدولة. وهنا تبدأ لعبة القط والفأر. فيحاول توم (الدولة) أن تتحصل على أكبر قدر ممكن من جيري (المواطن)، ولكن ذكاء وحنكة جيري هو الذي ينقذه من مخالب توم على الدوام. فينشرح فؤاد جيري كلما استطاع أن يخذل توم، وهكذا.

السؤال: هل ترك الشارع الكريم لأي طرف أن يتغول على الطرف الآخر؟ ألم ينظم العلاقة بين الأشخاص فلا يعتدي شخص على آخر؟ ألا يجب أن يكون قد نظم العلاقة بين الدولة والأفراد، فلا تعتد الدولة على أفرادها، ولا يتلاعب الأفراد بحق الدولة في أموالهم؟

جواب: لا شك عندنا أن الزكاة هي المنظم الأساسي لعلاقة الدولة بأفراد الشعب فيها

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا: لمّا كانت الزكاة هي حق معلوم للسائل والمعلوم، فإن محاولة التهرب من دفع هذا الحق تجر على صاحبها الويلات في الآخرة أكثر من تلك التي قد تحصل له لو ثبت أنه فعلا يحاول التهرب من أداء هذا الحق المفروض عليه في الحياة الدنيا. فعقاب الله هو أشد من عقاب ولي الأمر. فمن أهم صفات المؤمن الصدق مع ربه، فهو يدفع الزكاة لأنها تشريع إلهي وليس لأنها جزية مفروضة من الحاكم على الرعايا. فإذا كان الحاكم لا يعرف ما أنت مكلّف بدفعه بكل دقة وأمانة، فإن رب الحاكم لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء. وإذا كنت تستطيع أن تتهرب من دفع هذا الحق بسلوك الطرق الملتوية، فإن هذا لن ينفعك في يوم الحساب، يوم لا تظلم نفس شيئا والأمر يومئذ لله.

فالمسلم المؤمن بربه يعلم أنه لا يستطيع أن يفلت من العقاب الرباني حتى لو استطاع أن يتفلت من العقاب الدنيوي. لذا يجب أن تكون العقيدة التي ينقلها أهل الدين للعامة من الناس (أغنيائهم وفقرائهم) أن المؤمن لا يتفلت من دفع الحق الذي فرضه الله عليه. فكما لا تستطيع أن تتفلت من إقامة الصلاة في وقتها، فعليك أن لا تحاول أن تتفلت من إيتاء الزكاة المفروضة عليك أيضا بالطرق الملتوية.

السؤال: ومتى يجب على المؤمن أن يدفع الزكاة المترتبة على ماله؟

جواب مفترى: نحن نفهم من الآية الكريمة التالية أن وقت الحصاد هو الموعد المحدد لأداء هذا الحق المفروض عليك:

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الأنعام: 141]

السؤال: وما هي كميّة المال الواجب إخراجها بالزكاة؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: إنها الخمس، قال تعالى:

- ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾ [الأنفال: 41]

نتيجة مفتراة: الحق المفروض على المؤمن هو الخمس في كل ما غنم.

رأينا المفترى: صحيح أن الحاكم لا يستطيع أن يسيطر على أفراد المجتمع بطريقة تمكّنه من أخذ الزكاة المفروضة في كل ما يغنمه أفراد مجتمعه، لكن الله (رب الجميع) قد أوكل المهمة للشخص نفسه، لذا فالله هو من سيحاسب المؤمن عليها يوم تكون كل نفس بما كسبت رهينة. فعليك أخي المسلم المؤمن بربك (لا بل من واجبك الديني) أن تحاسب نفسك قبل أن تلقى ربك ليحاسبك عليك. ومن واجبك أيضا أن تحسب بكل دقة وأمانة ما غنمت من مال، فتقدم خمس الغنيمة كحق مفروض في مالك إلى بيت مال المسلمين، ليكون العامود الفقري لاقتصاد الدولة كلها. وليعلم الذي يحاول أن يتهرب من هذا الواجب أنه كـ من يمسك المعول بيده لهدم بيته فوق رأسه. فما غنمت من مال هو - لا شك - نتيجة الأمن الاجتماعي الذي وفّرته لك الدولة. فتجارتك لن تزدهر ومغانمك لن تتأتى في غياب الدولة. وأعلم أن حدوث أي خلل في الأمن الاجتماعي في الدولة سينعكس سلبا على مردودك المالي. لذا من واجبك أن تقدّم ما عليك من زكاة (ضريبة) لضمان الديمومة في النمو والازدهار.

السؤال: وما هو المال الواجب دفع الزكاة فيه؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن الزكاة في المال تدفع مرة واحدة فقط. انتهى.

تفنيد الفكر السائد: غالبا ما أفهمنا سادتنا أهل الدراية منهم أن الزكاة تدفع كل سنة على ما يزيد من المال عن حاجة المسلم، أليس كذلك؟

رأينا المفترى: نحن نرفض هذا المنطق كله جملة وتفصيلا، لأن هذا هو مدعاة التهرب والتلاعب في دفع المستحقات المالية المترتبة على الشخص.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا: لما ربط علماء الإسلام دفع الزكاة بالحاجة المزعومة، أصبح كل شخص يقدر حاجاته بنفسه، وهو ما جعل – برأينا- الكثيرين يحسبون بأنهم غير مكلفين بذلك.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: لما ظن الكثيرون (كما أفهمهم أهل الدين) أن دفع الزكاة يكون ملزما بعد تسديد كامل حاجيات الإنسان، وهو مفروض فقط في الزيادة منه (أي ما فاض عن حاجتك)، أخذ أصحاب الدخل المحدود والمتوسط (وربما كثير من الأثرياء) يبحثون عن "طرق ملتوية" لإنفاق المال تحت مسمى الحاجة، فها هو زميلي في العمل يشتري السيارة باهظة الثمن (لا بل ويشغل نفسه بأقساطها الشهرية التي ربما لا طاقة له بها)، ثم إذا ما سألته عن الزكاة تعذر بعدم الاستطاعة لأنه لا يملك فاضا من المال. وها هو الآخر ينفق عشرات

الآلاف من الدولارات والدنانير على تشييد بيته الفخم، ويقوم بتأثيثه (أي شراء الأثاث) بأحدث الماركات العالمية، وقد يلجأ إلى الاستدانة من المؤسسات والبنوك لتمويل ذلك، ثم إذا ما سألته عن الزكاة تعذر بعدم الاستطاعة وعدم توافر الفائض من المال. وها هو ثالث يملأ يدي زوجته ورقبتها وجيدها (لا بل وبعض سيقانها) بالحلي والمجوهرات باهظة الثمن في سلوك مقصود بذاته للتهرب من دفع الزكاة بحجة أن هذا مال لا تجب فيه الزكاة، وهو قد نسي أن الله لم يأمر المؤمنين فقط بالزكاة بل جاء التكليف واضحا للمؤمنات أيضا:

- ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٧١﴾ [التوبة: 71]

وبالمقابل، لما وجد أصحاب الدخل غير المحدود (أي الأثرياء جدا) أن الزكاة تجب على المال المخزون كله كل عام، تلكأ الكثيرون منهم عن دفع الزكاة بحجة ضخامة المبالغ التي يجب عليه أن ينفقها في كل عام، لا بل ذهب الكثيرون منهم إلى تشغيلها في الأسواق تحت مسمى الأسهم والسندات وشراء العقارات والأراضي حتى تصبح جزءا من رأس المال في حركة مفضوحة للتهرب من دفع الحق المفروض من الله في كل ما يغنموا يوم حصاده.

السؤال: ما المخرج من هذه الفوضى العارمة؟

رأينا المفترى: نحن نرى أن المخرج بسيط جدا، وربما يكون مرض للجميع، لأنه يحقق العدالة الاجتماعية المنشودة، وتتمثل في إخراج الخمس من الغنائم وقت الحصاد مرة واحدة وكفى.

السؤال: كيف يمكن تطبيق ذلك على أرض الواقع؟

رأينا المفترى: نحن نرى أن التطبيق يجب أن يكون على النحو التالي: على المؤمن المكلف بدفع الزكاة إلى بيت مال المسلمين أن يحسب بنفسه (مؤمنا أن لا رقيب عليه إلا الله وحده ولا محاسب له إلا الله وحده) كل غنيمة تحصلت له مهما كانت كبيرة أو صغيرة، ومن ثم يقوم بإخراج حقها وقت حصادها، وهو الخمس. لتكون رافد بيت مال المسلمين الرئيسي. فالذي يكسب عشرة دنانير يجب أن يخرج منها دينارين، والذي يكسب مئة يخرج منها عشرين، والذي يكسب ألفا يخرج منها مئتين، والذي يغنم عشرة الآلاف يخرج منها ألفين، والذي يغنم مئة ألف يخرج منها عشرين ألفا، وهكذا. ونحن نفتري الظن من عند أنفسنا أن هذا هو الحق المعلوم الذي فرضه الله علينا في أموالنا:

- ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ٢٤﴾ [المعارج: 24]

سؤال: قد يقول قال: أليس هذا بكثير؟ هل فعلا يستطيع الإنسان أن يدفع الخمس في كل ما يكسب كثيرا كان أم قليلا؟

جواب مفترى: نحن نظن أن هذا ليس بكثير، وأن فيه مصلحة لجميع الأطراف، ففيه مصلحة لصاحب المال وفيه مصلحة للدولة كلها، وفيه مصلحة لأفراد المجتمع جميعا.

السؤال: وكيف ذلك؟

نحن نظن أن في هذا مصلحة للأفراد للأسباب التالية:

أولا، لأن هذه الزكاة (أي الخمس) تدفع مرة واحدة. فلا يتوجب دفعها مرة أخرى مهما تراكمت الثروات في رصيد الشخص بعد ذلك. فمادام أنك قد أخرجت الخمس من المال الذي دخل خزينتك، فقد أصبح كل ما تراكمت فيها من ثروات هو مال نظيف طاهر، لك الحق أن تتمتع به كيفما شئت بعد ذلك.

ثانيا، لأن هذا المال يدفع مقابل تقديم الخدمات العامة لأفراد المجتمع كلهم، فأنت تساهم في بناء مؤسسات الدولة العامة بمقدار ما تملك من ثروة، فكلما زادت ثروتك، كلما ساهمت أكثر في بناء تلك المؤسسات، وفي تقديم تلك الخدمات للعامة. فيساهم فيها الفقير بالشيء القليل ويساهم فيها الغني بالشيء الكثير، ولكن الجميع يستفيدون منها بالتساوي، وهذا هو – برأينا- منطق العدالة في الواجبات والحقوق المنشود من فعل إيتاء الزكاة.

ثالثا، يجب علينا أن لا ننسى أن هذا واجب ديني يتأتى منه الخير في الدنيا والآخرة. فمقدار مساهمتك في رفد مال المسلمين بالمال هو ضمان لك بأن تكون في الآخرة من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، قال تعالى:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٧﴾ [البقرة: 277]

رابعا، لو حسبت مقدار ما تقدم لخزينة الدولة بمقدار ما تتلقاه من خدمات عامة من الدولة، فإن المستفيد الأكبر من ذلك هو الفقير، لأنه هو المساهم الأضعف فيها، لكنه يتلقى الخدمات العامة كالغني الذي هو المساهم الأكبر فيها. وهذه لا شك هي العدالة المنشودة في كل مجتمع من المجتمعات.

خامسا، يجب أن يفهم كلامنا هذا في ضوء المنهج كله وليس في ضوء التطبيق السائد في بلاد الظلم والاستبداد، وهي ما تسمى نفسها زورا وبهتانا بدول العالم الإسلامي التي هي في واقع التطبيق العملي أبعد ما تكون عن الإسلام الحقيقي.

سادسا، نحن نرى أن في هذا سلامة من تغول سلطة الدولة على حقوق الأفراد. فالزكاة المعلومة (أي الخمس) هي الرادع الحقيقي لفرض الضرائب التعسفية التي تفرضها الدولة كلما وجدت نفسها في ورطة مالية. فلو أنت نظرت إلى الدول المسماة بالإسلامية، لوجدت أنها ترهق كاهل أفرادها خاصة أصحاب الدخل المحدود بالضرائب المتعددة والمتنوعة التي تعجز أحيانا أن تجد لها مسميات حقيقية لتسويقها بين الناس. فالزكاة بمقدارها المعلوم هي العقد الذي لا يحق لطرف أن يفضه متى ما أراد في سبيل تحقيق مآربه الخاصة. فلو علمت الدولة أن لا حق لها في جيوب أفرادها إلا بمقدار الزكاة، لنمّت قدراتها المالية بناء على ذلك. ولما

تمادت في الإنفاق غير المبرر على رفاهية طبقة معينة من أفرادها على حساب الطبقات كلها. فرجال السياسة الفاسدون في طبعهم هم المستفيدون الوحيدون من غياب التنظيم الحقيقي لمدخلات بيت مال المسلمين.

السؤال: لماذا فرض الله الخمس في كل المغانم التي يحصل عليها الأفراد لصالح خزينة الدولة؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن ذلك يتمثل في تحقيق غايتين رئيسيتين وهما:

1. السيطرة على التضخم
2. الحد من الربا

السؤال: وكيف يكون ذلك؟

باب الربا: رؤية جديدة

قال تعالى:

- ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧٥ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ٢٧٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٧٨ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ٢٧٩ وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٨٠ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٨١﴾ [البقرة: 275-281]

نحن نفتري القول أن هذه الآيات الكريمة ستكون مرشدة لنا (كما نفهمها) في تحديد ماهية الربا وخطورة الوقوع فيه وطريقة تجنبه. فالله وحده أسأل أن يعلمني ما لم أكن أعلم وأن يزدني علما وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا.

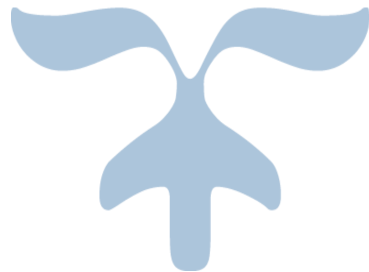
وأدعوه وحده أن لا أكون ممن يفترون عليه الكذب، وأساله أن يعلمنى فلا أقول عليه إلا الحق، إنه هو العليم الحكيم – آمين.

المدكرون: رشيد سليم الجراح & علي محمود سالم الشرمان
بقلم: د. رشيد الجراح
7 أيار 2017



فقه الزكاة

الجزء الثاني



فقه الزكاة – الجزء الثاني

إنتهينا في الجزء السابق من هذه المقالة بتقديم افتراءات ثلاث هي:

1. أن الزكاة لا تجب على المال كله وإنما على الغنائم فقط
2. أن مقدار الزكاة هو الخمس من كل الغنائم التي يحصل عليها الأفراد
3. أن هذا الخمس يدفع "كضريبة" مستحقة على الأفراد لصالح خزينة الدولة، وذلك من أجل تحقيق غايتين رئيسيتين هما:
   - ⇐ السيطرة على التضخم
   - ⇐ الحد من الربا

وسنحاول في هذا الجزء الجديد من المقالة تبيان كيفية تحقيق هذا على أرض الواقع.

سائلين الله أن يهدينا رشدنا، وأن يعلمنا الحق الذي نقوله فلا نفتري عليه الكذب، إنه هو السميع العليم الحكيم.

أما بعد،

باب التضخم

ربما من العلوم عند الجميع أن أبسط تعريف للتضخم هو الارتفاع المفرط في المستوى العام للأسعار. ولعل واحدة من أهم مضار التضخم هو الكساد (ركود السوق). فكيف يمكن الحد من هذه الظاهرة من خلال دفع الزكاة كضريبة مستحقة على الأفراد لخزينة الدولة؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن ذلك ممكنا من خلال ما يلي:

1. أن تكون الزكاة (الضريبة) مستحقة فقط على المغنم (أي الربح) وليس على رأس المال كله
2. أن مقدار الزكاة (الضريبة) على هذا المغنم (الربح) هي الخمس (20%)
3. أن تدفع الزكاة (الضريبة) مرة واحدة عند الحصاد
4. الخ

السؤال: ما فائدة هذا؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن واحدة من الأسباب التي تجعل التاجر يزيد في ثمن السلعة هي الضريبة المفروضة عليه من الدولة أولا، ثم ما يترتب عليه شخصيا من دفع الزكاة على المال الذي بين يديه كله. فحسب

العرف التقليدي الدارج بين الناس، فإن التاجر مطالب بدفع ضريبة للدولة وهو في الوقت ذاته مطالب بأن يدفع زكاة ماله المتوافر بين يديه كله في كل عام، أليس كذلك؟

السؤال: كيف يؤدي ذلك إلى ارتفاع معدل التضخم وكساد السوق؟

أولا، عندما يعلم التاجر بأن الزكاة (كما أفهمه أهل العلم) تترتب على المال كله، فهو إذن سيضاعف في سعر البضاعة التي يبيعها في العام الواحد أضعافا كثيرة لكي يسد هذه الثغرة. فتخيل أن تاجرا يملك ثروة بمقدار عشرة ملايين دولارا، وتخيل أنه من الملتزمين بدفع زكاة هذا المال كل عام، فإنه سيحاول بكل ما أوتي من جهد أن يزيد في ثمن البضائع المباعة في عام واحد لتغطية هذه التكلفة اللازمة (بنظره) على المال الذي يملكه كله (أي زكاة عشرة ملايين دولار).

نتيجة مفتراة: يعمد التاجر إلى زيادة السعر على البضاعة المباعة في عام واحد ليسد تكلفة الزكاة الواجبة بظنه على المال كله في ذلك العام. لذا كلما زادت ثروة التاجر أكثر وأكثر، كلما زاد ثمن البضاعة المباعة، لأنه سيحاول كسب أكبر مقدار ممكن من المال اللازم لإخراج زكاة ثروته كلها في ذلك العام.

ثانيا، لا ينسى التاجر بأن عليه أن يدفع أيضا الضريبة المقررة عليه من الدولة، لذا سيزيد الأسعار للبضاعة المباعة مرات ومرات في ذلك العام ليسد هذه الثغرة أيضا.

ثالثا، لن ينسى التاجر أن يزيد في الأسعار ليسد متطلبات الشغل من البنية التحتية كأجرة الماء والكهرباء والإيجار والعمالة.

رابعا، لن يتهاون التاجر فوق هذا كله عليه أن يضمن هامشا جيدا من الربح ليزيد من ثروته الشخصية هو نفسه.

نتيجة مفتراة: عند حسبة هذه التكاليف مجتمعة (الزكاة والضريبة وتكلفة البنية التحتية والربح الشخصي)، سيعمد التاجر لا محالة إلى رفع أثمان البضاعة التي لديه بشكل كبير جدا. وهو ما يسبب التضخم في أي مجتمع من المجتمعات. وينعكس ذلك على القدرة الشرائية للزبون، وبالتالي على التاجر نفسه في الأعوام اللاحقة.

ولما كانت المعادلة السوقية سهلة تتمثل بأنه كلما ارتفعت أثمان السلع، كلما قلت القدرة الشرائية للناس، وبالتالي انعكست سلبا على التاجر مع توالي الأيام. الأمر الذي سيؤدي في نهاية المطاف إلى الركود الاقتصادي للبلد بأكمله، فإن إلحاق الضرر بالجميع (التاجر والدولة والناس أجمعين) يصبح أمرا واقعا لا فرار منه.

السؤال: ما البديل؟ وكيف يمكن ضمان الديمومة والانتعاش الاقتصادي الدائم في البلد؟

رأينا المفترى: سنحاول في السطور التالية تقديم البديل الذي نظن أنه سيكون أكثر فاعليه على الاقتصاد الكلي للبلد، وبالتالي ديمومة الانتعاش الاقتصادي للبلد، الأمر الذي سيكون له انعكاسات إيجابية على الجميع: التاجر والدولة والناس أجمعين.

أما بعد،

بداية، نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن الزكاة لا تدفع على المال إلا مرة واحدة. انتهى.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا (لا تصدقوه إن شئتم): نحن نظن أن الزكاة تجب فيما غنم الشخص فقط ولا تدفع على المال كله.

مثال: لو كنت أنت تاجر تملك ثروة بمقدار عشرة ملايين دولار، فإن من البديهي أن تكون هذه الثروة قد تحصلت لك بعد أن قمت بدفع زكاة المال على ما غنمت منها تباعا. فأنت – لا شك- قد دفعت زكاتها عندما كانت عبارة عن مئات من الدولارات، ودفعت زكاتها عندما أصبحت الآلافا في العام الذي يليه، ودفعت زكاتها عندما أصبحت ملايين في الأعوام التالية، وهكذا. لذا فإن كل ما تراكم في يدك من ثروة على مدار الأعوام المتتالية قد دفعت زكاتها في حينها. فالعشرة ملايين من الدولارات المتوافرة الآن في يدك هي في الحقيقة أموال قد تم تزكيتها في حينها. فلا داع إذن أن تعيد تزكيتها كلها في كل عام. وكل ما يتوجب عليك دفع زكاته في هذا العام هو – برأينا- ما تحصل لك من غنيمة في العام نفسه. فلو تخيلنا أن ربح هذا التاجر الذي طرح في السوق عشرة ملايين دينار هو مليونين اثنين، فإن الزكاة تجب في هذا الربح فقط (ما غنم). أي يتوجب عليك أن تزكي المليونين اللذين تحصلا لك في هذا العام فقط. ولا يتوجب عليك أن تزكي ثروتك كلها التي أصبحت الآن اثنا عشر مليونا.

ثانيا، لما كانت الزكاة واجبة على ما غنمت في عامك هذا، فإنه يتوجب عليك أن تدفعها بمقدار الخمس (أي 20%):

- ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٤١ ﴾

[الأنفال: 41]

فلو أن غنيمتك في هذا العام كانت مليونين من الدولارات، فعليك إذن أن تخرج زكاة بمقدار (400000 = 100/20 X 2000000). فأنت إذن مطالب أن تخرج الخمس من الربح وهي أربع مئة ألف فقط الواجبة الآن في غنيمتك لهذا العام (أي 2 مليون)، ليتبقى في جيبك مليونا وست مئة ألف، ولا حاجة أن تزكي المال كله الذي أصبح الآن (12 مليونا).

إن أول النتائج الإيجابية لهذا الافتراء هو أن التاجر لن يحتاج أن يزيد ثمن السلع المطروحة في السوق ليسد حاجته لتزكية 12 مليون (أي كل ماله الآن) وإنما فقط زكاة 2 مليون (وهو ما غنمه في هذا العام). وبالتالي لن يحتاج أن يضاعف الربح أضعافا كثيرة.

والأهم من هذا كله هو ظننا بأن هذا المبلغ هو ما يتوجب على صاحب المال إنفاقه زكاة لأمواله كلها يقدمه على شكل ضريبة مستحقة لبيت مال المسلمين (أي لخزينة الدولة). فهذا المبلغ الذي يدفعه زكاة لما غنم هو في الحقيقة ضريبة مستحقة لخزينة الدولة، فلا يوزعه صاحب المال بنفسه على من يشاء من معارفه. لذا، فإن من أبسط أبجديات هذا التفكير (ربما الخاطئ) هو أن التاجر لا يحتاج أن يدفع ضريبة للدولة ثم يقوم بعد ذلك بتزكية ماله بنفسه. فالضريبة المدفوعة للدولة هي زكاة المال. انتهى.

لكن التطبيق الحالي السائد (فيما يسمى ببلاد المسلمين زورا وبهتانا) هو أن صاحب المال يقدم الزكاة على ماله كله في كل عام، وهو يقدم أيضا ضريبة للدولة على المال الذي كسبه في ذلك العام، فتصبح الفاتورة بالنسبة له مرتفعة جدا. وهذه الفاتورة العالية هي ما يحاول صاحب المال تحصيلها من الناس عن طريق الرفع المفرط لأثمان البضائع عنده. وسنرى لاحقا بحول الله أن هذا التصرف هو ما يوقعه في فعل الربا نفسه. وذلك لأن الربا (كما حاولنا تسويقه في الجزء السابق وكما سنحاول تفصليه في الجزء اللاحق) هو زيادة الثمن أضعافا مضاعفة. فبدل أن يكون ثمنا للبضاعة يصبح سعرا للبضاعة. وشتان شتان (نحن نفتري الظن) بين الثمن من جهة (وهو حلال) والسعر من جهة أخرى (وهو حرام) كما سنرى لاحقا إن شاء الله.

وربما لا يقل خطورة عن ذلك هو أن الضريبة التي تفرضها الدولة المدنية الحالية هي ضريبة تصاعدية تزيد نسبتها بمقدار زيادة كمية المال الواجب فيه الضريبة، كما في الشكل التوضيحي التالي:

كمية الربح	نسبة الضريبة	المقدار المترتب
1000000	%10	100000
2000000	%20	400000
3000000	%30	900000
4000000	%40	1600000
5000000	%50	2500000

إن ما يهمنا طرحه هو أنه (حسب العرف السائد) كلما زاد الربح، زادت الضريبة المفروضة من قبل الدولة على التاجر، فالتاجر الذي يربح مليون دولار، يطلب منه دفع 100000 كضريبة للدولة ليتبقى في جيبه 900000 ، أي حصة للدولة وتسعة حصص له. لكن التاجر الذي يربح خمسة ملايين سيدفع نصفها للدولة، فهو سيبذل جهدا كبيرا جدا لتحصيل هذه الثروة الكبيرة التي سينتهي معظمها في خزينة الدولة.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن مثل هذا السلوك من قبل الحكومات هو سلوك جشع، لا يرضى به (نحن نتجرأ على القول) الشرع الذي نفهمه، وذلك لأن الحق في أموال الأغنياء هو حق معلوم، أي محدد ثابت لا يمكن التلاعب فيه:

- ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤﴾ [المعارج: 24]

وهذا الحق (كما نفهمه) قد تقرر مقداره بالخمس من المغانم (أي 20%)، كما جاء في قوله تعالى:

- ﴿۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٤١﴾ [الأنفال: 41]

فمهما تضاعفت الثروة بيد أصحابها، فإنه ليس للدولة حق إلا ما نسبته الخمس (أي 20%). وربما تكون واحدة من الانعكاسات الإيجابية المباشرة لهذا الفهم هو لجم سطوة الدولة وضمان عدم تغوّلها على أموال الناس بالباطل. فليس للدولة أن تسن التشريعات والقوانين التي تثقل كاهل الناس بالضرائب تحت مسميات متعددة كلما رغبت في ذلك. وذلك لأن الحق الذي لها في أموال الناس هو الخمس من المغانم ولا شيء غير ذلك. انتهى.

ولعل واحدة من الانعكاسات الإيجابية الأخرى هو ضمان مشاركة الجميع في دفع الزكاة (الضرائب)، فالضريبة تؤخذ من الجميع بغض النظر عن حجم الثروة المتوافرة بين يدي الشخص، فالكل يساهم بالضريبة لخزينة الدولة بمقدار ما لديه من مال. فمن غنم مئة دولار فهو يدفع منها عشرين دولار، ومن غنم ألفا يدفع مئتين، ومن غنم مليونا يدفع مئتي ألفا، وهكذا. ولما كان هذا حقا مفروضا، فإن الجميع مكلف به بغض النظر عن مقدار الغنيمة التي يتحصلون عليها. ليكون السؤال المطروح هو: لماذا؟ أي لم يجب على الجميع دفع الزكاة بغض النظر عن مقدار الغنيمة؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن هذا الافتراء (ربما الخاطئ) يسد لا محالة عمليات التهرب غير المشروعة من قبل الجميع.

السؤال: كيف ذلك؟

رأينا المفترى: لما عرف الناس (بما أفهمه إياهم أهل الدراية والرواية) بأن الزكاة يدفعها فقط الغني، فقد فُتح الباب على مصراعيه ليتعذر الجميع بعدم الغنى. فمن كان في جيبه عشر الآلاف من الدولارات ولا يريد دفع الزكاة، فإنه يعمد على الفور إلى شراء مصاغ ذهبي لزوجته بذلك المبلغ، فلا يبقي في جيبه شيئا من المال تجب فيه الزكاة حسب ظنه. ومن كان في جيبه خمسين ألفا، فإنه سيشتري لنفسه سيارة فارهة، ولا يبقى في جيبه مالا يتزكى حسب معتقده، ومن كان في جيبه مئة ألفا، فإنه سيعمد إلى بناء بيت واسع، ويؤثثه بأحدث الماركات التجارية، فلا يبقي في جيبه مالا يتزكى، لا بل وربما يستدين فوق ذلك لإكمال مشروع بيته على أحسن ما يجب أن يكون عليه ذلك البيت، وربما يصبح بعدها من الغارمين. ومن كان في جيبه الملايين، فإنه سيشتري عقارات (أموال غير منقولة) كثيرة ظانا أن هذه الأموال لا تقع فيها الزكاة، وهكذا.

إن ما نود أن نثيره هو أنه يجب على كل شخص أن يخرج الخمس من كل ما غنم، ولا يحق له التصرف بالمال مهما قل أو كثر قبل إخراج زكاته. ولكن ما أن يخرج زكاة هذا المال (الغنيمة) حتى يحق له حينئذ أن ينفقه كيفما شاء، سواء اشترى لزوجته مصاغا ذهبيا، أو لنفسه سيارة فارهة، أو لعائلته بيتا فاخرا، أو لأولاده من بعده عقارات وأموال غير منقولة.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: لا يحق لأي شخص أن يتصرف في أي مغنم يصيبه (حتى وإن كان راتبه لشهري) قبل أن يخرج زكاته مهما قل أو كثر. انتهى.

عودة على بدء

لذا، فإن البديل الذي نطرحه يتمثل في أن يعمد التاجر (كل تاجر) إلى تقليل هامش الربح إلى أدنى حد ممكن، وذلك لكي يقلل من كمية الضريبة المفروضة عليه (الزكاة)، ويضمن بالتالي استمرارية الانتعاش الاقتصادي لتجارته مع توالي السنين. فالتاجر المؤمن بربه سيفضل أن تبقى الثروة في أيدي الناس على أن يأخذها من أيديهم ويدفع بجلها في نهاية المطاف لخزينة الدولة. وهذا الأمر سيكون له بكل تأكيد تبعات إيجابية على حركة السوق، فهو الذي سيضمن ديمومة القوة الشرائية للناس، وبالتالي استمرارية التجارة على مدى الأعوام اللاحقة.

باب الأسعار

السؤال: لماذا تسمى أثمان البضائع في السوق بالأسعار؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن مفردة الأسعار الدارجة حاليا في الأسواق قد جاءت من مفردة التسعير التي ترد في الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢﴾ [التكوير: 12]

فما معنى تسعير الجحيم؟ أو كيف يمكن للجحيم أن تسعّر؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نتخيل بأن الجحيم هي نار ملتهبة، لكنها يمكن أن تخبت، فعملية تسعير هذه الجحيم (النار) متى خبتت، تتمثل في زيادة درجة حرارتها مرات ومرات، فالنار إذن يمكن أن تخبت، ولكن ما أن تخبت تلك النار حتى يتم زيادة درجة حرارتها بعملية تسعيرها من جديد. فعملية التسعير تتطلب الزيادة، وذلك لأن فعل الزيادة يمكن أن يكون للتسعير، مصداقا لقوله تعالى:

- ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا ۝٩٧﴾ [الإسراء: 97]

لنخلص من خلال هذا النقاش إلى أن تسعير النار هو عملية زيادة كبيرة في درجة حرارتها (أضعافا مضاعفة) بعد أن تكون قد خبتت. وهذا برأينا ما يحدث في التجارة عندما تسعر تلك البضائع، أي عندما تزاد أثمانها أضعافا مضاعفة بفعل مقصود لذاته. الأمر الذي ينتهي بها أن تخرج عن نطاق البيع (الثمن الحقيقي) لتقع في باب الربا (الزيادة المضاعفة في الثمن، أي السعر)، بدليل أن الربا هو المضاعفة الكثيرة في الثمن للسلعة. وهو ما سنتحدث عنه في الأبواب القادمة من هذه المقالة والمقالات التالية بشيء من التفصيل بحول الله وتوفيقه.

أما الآن فدعنا نطرح قضية نظن أنها مهمة جدا في الفكر الديني يتأثر بها الناس كثيرا نتيجة التطبيق الذي نظن أنه خاطئ للشرائع الدينية وخاصة الزكاة والصدقات.

أما بعد،

كثير ما يعمد أصحاب الأموال والثروات الضخمة إلى إخراج الزكاة والصدقات بأنفسهم، ثم يقومون بتوزيعها وإنفاقها كل بطريقته الخاصة. فنجد أن كثيرا منهم مثلا يرصد مبالغ طائلة من أموال الزكاة والصدقات في بناء المساجد ودور العبادة. ليكون السؤال المطروح هو: هل يجوز هذا؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن هذا سلوك خاطئ لا يمت إلى الشريعة بصلة. فلا يجوز (نحن نتجرأ على القول ربما مخطئين) أن تبنى المساجد أو أن يتم الإنفاق على دور العبادة من أموال الزكاة والصدقات. انتهى.

السؤال: لماذا؟

رأينا: لو تفقدنا الآيات الكريمة الخاصة بإنفاق أموال الزكاة والصدقات، لوجدنا أنها تحدد بالضبط الفئات المستهدفة من ذلك وهم من جاء ذكرهم بالتفصيل في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ ٤١﴾ [الأنفال: 41]
- ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠﴾ [التوبة: 60]

فهذه هي الفئات التي يجب أن تُستهدف عند توزيع الزكاة والصدقات، ولا يمكن أن نقبل بغيرها لأن هذه الأموال حق معلوم لهذه الفئات على وجه التحديد.

فصاحب المال الذي يقوم ببناء مسجد أو يقوم بالإنفاق على دور العبادة من هذه الأموال (أي الزكاة والصدقات) هو يتصرف في حق من حقوق غيره. فليس له حرية التصرف في هذا المال (أي زكاة ماله) بالطريقة التي يريدها هو لأن هذا المال (وإن كان قد خرج من ماله الخاص أصلا) إلا أنه قد أصبح حقا مكتسبا لغيره:

- ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ١٩﴾ [الذاريات: 19]
- ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ٢٥﴾ [المعارج: 24-25]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا (1): نحن نفتري القول بأن ما يخرج من أموال الناس للزكاة والصدقات هو حق معلوم، أي محدد نسبته، فلا ينقص منه شيئا

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا (2): نحن نفتري القول بأن مال الزكاة والصدقة هو حق للسائل والمحروم

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا (3): نحن نفتري القول بأنه مادام مال الزكاة والصدقة حق للسائل والمحروم، فلا يجوز للذي أخرجه من ماله أن يتصرف فيه كيفما شاء.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا (4): نحن نفتري القول من عند أنفسنا بأنه مادام مال الزكاة والصدقات حق للسائل والمحروم، فإن القادر على توزيعه هي الدولة وليس الشخص نفسه.

السؤال: ما الذي يحصل لو أنه بنا مسجدا بهذا المال؟

رأينا المفترى: أولا، نحن نظن أن الأجر الذي يتحصل من بناء هذا المسجد هو من نصيب أصحاب المال الحقيقيين وهم الفئات المستهدفة من مال الزكاة والصدقات، وذلك لأن المسجد قد بُني من مالهم وليس من مال الغني (كزكاة وصدقات) . فالمال الذي خرج زكاة لمال الغني هو حق لهؤلاء وليس للغني نفسه.

ثانيا، نحن نفتري القول بأن مال الغني الذي ظن أنه قد بنا المسجد لم يطهر بعد، لأنه لم يقدّم لأصحابه الحقيقيين. فهم من لهم الحق في إنفاقه بالطريقة التي يرونها مناسبة.

ثالثا، نحن نتجرأ على القول بأن على صاحب المال أن يعيد إخراج زكاة ماله وإيصالها إلى أصحابها الحقيقيين، خصوصا إذا لم يوافق هؤلاء على فكرة بناء المساجد بأموالهم المستحقة لهم في أموال الأغنياء منهم. فالزكاة تدفع للدولة كضريبة وهي صاحبة الولاية في إنفاقه، والصدقات تعطى للفئات الثمانية المنصوص عليهم في الآية الكريمة، وهم أصحاب الولاية في طريقة إنفاقه. انتهى.

وهذا الظن لا ينطبق فقط على إنفاق مال الزكاة والصدقات في بناء المساجد أو إنفاقه على دور العبادة، وإنما في كل ما يسمى أيضا بالأعمال الخيرية. فلب القول هو ضرورة أن يصل المال إلى أيدي مستحقيه من الفئات المنصوص عليهم صراحة في كتاب الله.

السؤال: لماذا تتحمل الدولة مسؤولية توزيع أموال الزكاة والصدقات؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن السبب في ذلك يعود إلى ضمان مبدأ العدالة في التوزيع.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن بأنه عندما يقوم الأشخاص بتوزيع أموال الزكاة والصدقات بأنفسهم، فإن مبدأ العدالة ينتفي، وذلك لأن التوزيع لا يكون على أساس حوائج الناس المتباينة، فالعوامل التي يأخذها صاحب المال بعين الاعتبار عند توزيع أموال الزكاة والصدقات بنفسه تشمل درجة القرابة العائلية والمكانية ومعرفة الشخص صاحب المال بأحوال من هم حوله، وهكذا. كما قد لا يستبعد البعد الشخصي من ذلك، فكثير من أصحاب الأموال في بلدنا الذي أعرف جزءا كبيرا من سلوك أفراده، يقومون بتوزيع زكاة أموالهم وصدقاتهم على أناس محددين وذلك لاعتبارات شخصية ربما يستفيد المنفق شخصيا منها لاحقا. وليس أدل على ذلك من المال السياسي القذر الذي ينفقه صاحب المال على شكل زكاة وصدقات لأغراض انتخابية قد توصل صاحب هذا المال إلى المنصب السياسي. فكثيرا ما يعمد بعض الأغنياء إلى توزيع زكاتهم في دوائرهم الانتخابية وكأنها دعاية شعبيه لهذا "التقي الورع" قبل سنوات قليلة من ترشحه للبرلمان أو لأي منصب سياسي آخر. أو ربما قبل أشهر قليلة من لبسه الثوب القصير وإطالة لحيته وحف شاربه، فيبين للناس تقوى وورع هذا الغني. فهو يتصرف وكأن المال الذي ينفقه زكاة أو صدقة هو منّة منه على الفقراء والمساكين، وهو لا يعلم (أو ربما لا يريد أن يعلم) بأن هذا المال هو حق لهؤلاء الناس شاء أم أبى. وما أن يصل إلى منصبه السياسي (بفضل هذا المال) حتى يحاول المحافظة عليه بدوام توزيع زكاة ماله وصدقاته في دائرته الانتخابية وهي التي ربما لا توجد فيها تجارته أصلا. فكثيرا من أصحاب الأموال التي جنيت من العاصمة والمدن الكبيرة يتم إنفاقها من قبل صاحب المال في دائرته الانتخابية البعيدة عن مركز تجارته. متسلحا بدعوى صلة القربى.

السؤال: أين الدليل على زعمك أنه يجب على الدولة تولي توزيع أموال الزكاة والصدقات؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نجد الدليل على ذلك في قوله تعالى:

- ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٠٣﴾ [التوبة: 103]

ليكون السؤال الذي نطرحه بناء على فهمنا (ربما الخاطئ لهذه الآية الكريمة) هو: لم جاء الأمر الإلهي لمحمد بأن يأخذ هو من أموالهم صدقه؟ لم لا يقومون هم بأنفسهم بتوزيع تلك الأموال حسب معرفتهم؟

رأينا المفترى: لما كان محمد هو من يمثل رأس الدولة، فهو إذن من يجب أن يأخذ تلك الصدقات من أموالهم، وهو المكلف بأن يوزعها بين الناس المحتاجين لها بالعدل، فلا يتم توزيع تلك الصدقات بطريقة عشوائية قد يصيب بعض المحتاجين منها الكثير وقد لا يصيب كثير من المحتاجين منها شيئا.

ولو راقبنا أي حي من أحياء مدننا وقرانا في البلد كله، لوجدنا أن فئة محددة من الناس هم من يأخذوا أموال الصدقات على الدوام، وذلك لأنهم من فئة السائلين، فهم من يطلبوها ولا يترددوا بأن يظهروا حاجتهم حتى وإن كان على حساب إراقة ماء وجههم. لكن بالمقابل هناك كثير من المحتاجين من يؤثر أن يحفظ ماء وجهه فلا يطلب الصدقات، فلا يعرفهم الناس، ولا يعطوهم من الصدقات إلا ربما ما ندر.

- ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ۝٢٧٣﴾ [البقرة: 273]

فهؤلاء هم من يحسبهم الناس أغنياء من التعفف، وهم الذين لا يسألون الناس إلحافا. والسبب في ذلل (نحن نظن) هو أنهم لا يريدون أن يأخذوا الصدقات من أيدي الناس حفظا لماء وجههم الذي قد يراق لاحقا بالمن والأذى، لكن لو تكفلت الدولة بتوزيع أموال الصدقات، فإن ذلك سيجنبهم الحرج، وسيصبح ذلك حقا من حقوقهم. ولعلي أجد أن من ننعتهم بدول الكفر في الشرق والغرب قد تنبهت لذلك، فأنشئوا صناديق التكافل الاجتماعي التي تديرها الدولة رسميا، وهي الصناديق التي تقدم للناس الحد الأدنى من الكفاف، فلا يعود المنتفعون منها بحاجة إلى إراقة ماء وجههم حياء، ولا يصبحوا عرضة للمن والأذى لاحقا، وذلك لأن الأموال المتوافرة في هذه الصناديق هي حق معلوم للسائل منهم والمحروم.

باب الحصاد

السؤال: متى يجب إخراج زكاة المال؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الوقت المحدد لذلك هو يوم الحصاد.

السؤال: ما هو يوم الحصاد؟

رأينا المفترى: لما كان الحصاد لا يتم إلا بعد أن يكتمل نماء المحصول:

- ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝٩﴾ [ق: 9]

فهو إذا يحصل مرة واحدة في السنة.

- ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ۝٤٧﴾ [يوسف: 47]

فالحصيد هو نهاية المحصول بعد زرعه ونمائه وجمعه:

- ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢٤﴾ [يونس: 24]

ولو حاولنا تطبيق ذلك في التجارة، فإن عملية حصاد التجارة تتم في نهاية كل عام تحت ما يسمى بالكلمات الأردنية الدارجة (الجرد)، نجد أن التاجر يقوم في وقت محدد من العام بتفقد جميع سجلاته التجارية، الوارد منها والصادر، ثم يقوم بحسبة ما أنفق مقابل ما تحصل له، بعد أن يكون قد جمع التكلفة

كلها، فأصبح يعرف تماما مقدار ما غنم في ذلك العام، وهذا الفارق بين ما أنفق من جهة وما تحصل له من جهة أخرى هو الغنيمة التي تجب فيها الزكاة. وتكون نسبتها محددة بالخمس (أي عشرين بالمئة من الربح).

باب رأس المال

السؤال: ما هو رأس المال؟ وهل رأس المال هو المال نفسه؟ وكيف يختلف رأس المال عن المال نفسه إن كانا غير متطابقين؟

جواب مفترى: لعلي أجد أن النص القرآني يوضح لنا أن هناك المال من جهة:

- ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: 177]
- ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾ [البقرة: 247]
- ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ [الفجر: 20]
- ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾﴾ [نوح: 21]
- ﴿وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾﴾ [الليل: 11]
- ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾ [الليل: 18]
- ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾﴾ [الهمزة: 2-3]

وهناك الأموال من جهة ثانية، قال تعالى:

- ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة: 155]
- ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [البقرة: 188]
- ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [التوبة: 69]

وهناك رؤوس الأموال من جهة ثالثة:

- ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾ [البقرة: 279]

إن هذا التناوب اللفظي (مال، أموال، رؤوس أموال) يدعونا على الفور إلى طرح تساؤلات ثلاثة هي:

⇐ ما هو المال؟
⇐ ما هي الأموال؟
⇐ ما هي رؤوس الأموال؟

رأينا المفترى: لو تدبرنا الآية الكريمة التالية، لوجدنا بأن المال من زينة الحياة الدنيا:

- ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف: 46]

لكن لو تدبرنا الآية الكريمة التالية، لوجدنا بأن الأموال فتنة:

- ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنفال: 28]
- ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التغابن: 15]

السؤال: كيف تكون الأموال فتنة في حين أن المال هو من زينة الحياة الدنيا؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن هناك فرق بين المال (الزينة) والأموال (الفتنة)؟

السؤال: كيف ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن المال جزء من الأموال. لتكون التساؤلات الآن على النحو التالي:

⇐ ما هو المال الذي هو من زينة الحياة الدنيا؟
⇐ ما هي الأموال التي هي فتنة؟

جواب مفترى: نحن نظن أن المال يقتصر على ما نسميه نحن بالنقد (أي المال المنقول باللغة الدارجة)، وربما ليس أدل على ذلك برأينا مما جاء في الآية الكريمة التالي:

- ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾﴾ [الهمزة: 2]

فالمال إذن يمكن أن يجمع كما يمكن أن يعدد، وهذا برأينا لا يحصل إلا في حالة ما يسمى بالمال المنقول، أي النقد. فهو الذي يمكن أن يجمع على بعضه البعض ويمكن أن يعدد.

- ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝١١﴾ [الكهف: 11]
- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ۝٢٤﴾ [الجن: 24]
- ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ۝٢٨﴾ [الجن: 28]
- ﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝٩٤﴾ [مريم: 94]

أما الأموال فهي – برأينا- تشمل المال المنقول والمال غير المنقول، فالعقار مال، والخيل المسومة مال، والأنعام مال، والحرث مال، وجميعها معا تصبح أموال. والفتنة تقع في هذه الأموال. أما النقد (المتمثل بالذهب والفضة) فهو المال الذي هو زينة الحياة الدنيا.

نتيجة مفتراة 1: المال هو الذي يجمع ويعدد

نتيجة مفتراة 2: الأموال تشمل الثروة كلها بما فيها المال المنقول وغير المنقول

السؤال: ما هي رؤوس الأموال؟

رأينا المفترى: لقد تعرضنا في مقالات سابقة لنا خاصة في سلسلة مقالات الصلاة لمفردة الرأس، وافترينا القول من عند أنفسنا بأن الرأس هو منبت الحياة. فالجنين في بطن أمه ينبت من الرأس، لذا أطلق على بعض النباتات لفظ الرأس، كرأس البصل والثوم والملفوف والزهرة (باللغة الأردنية الدارجة)، وذلك لأن هذه النباتات تنبت من الرأس، وما أن يتم اقتلاعها من الأرض حتى تنتهي حياة تلك النبتة كلها على عكس الثمار الأخرى كالطماطم والبطيخ والشمام والتفاح والبرتقال التي وإن قطفت تلك الثمرة فإنها لا تؤثر على حياة الشجرة برمتها (للتفصيل انظر الجزء الأول من مقالة لماذا نصلي خمس مرات في اليوم والليلة؟).

فلكل مال رأسه، أي هو الذي يتكاثر منه المال لاحقا. فلا شك أن التاجر يبدأ ببعض النقد ثم ما يلبث أن يتزايد مع الوقت، فرأس ماله من النقد هو الذي بدأ به، أما المال فهو مجموع تلك الثروة منذ أول دولار فيها حتى آخر دولار. وهذا ينطبق على الأموال الأخرى كالنباتات (للمزارع) والدواب والأنعام (لتاجرها)، والعقار والأرض، وهكذا.

لذا جاء التوجيه الإلهي لمن أراد التوبة من أكل الربا، أن يكتفي برأس المال، قال تعالى:

- ﴿... وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ۝٢٧٩﴾ [البقرة: 279]

السؤال: كيف يكون ذلك؟

رأينا: نحن نظن أن هذا السؤال ينقلنا فورا إلى الحديث عن الربا نفسه، فإذا ما فهمنا ماهية الربا (إن أذن الله لنا بشيء من علمه في ذلك)، فإننا سنفهم (بحول الله وتوفيق منه) كيفية الاكتفاء برؤوس أموالنا عند التوبة.

باب الربا: رؤية جديدة

قال تعالى:

- ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة: 275-281]

نحن نفتري القول أن هذه الآيات الكريمة ستكون مرشدة لنا (كما نفهمها) في تحديد ماهية الربا وخطورة الوقوع فيه وطريقة تجنبه. فالله وحده أسأل أن يعلمني ما لم أكن أعلم وأن يزدني علما وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا. وأدعوه وحده أن لا أكون ممن يفترون عليه الكذب، وأساله أن يعلمني فلا أقول عليه إلا الحق، إنه هو العليم الحكيم- آمين.

السؤال: ما هو الربا؟

لعلي أظن أن رجال الدين قد استطاعوا في العصر الحديث أن يحصروا الربا بالمعاملات المالية التي تجري داخل البنوك التجارية، فكل معاملة بنكية - بالنسبة لهم- هي معاملة ربوبية، وقلما تحدثوا عن المعاملات الربوية خارج أسوار البنوك التجارية. والغريب في فتواهم هذه أن الإثم الذي يجره الربا يقع (حسب ظنهم) على الطرفين (البنك الدائن والزبون المدين). وهنا تبرز تساؤلات أولية نود أن نسلط الضوء عليها ضمن هذا المنهج المفترى من عند أنفسنا، نذكر منها؟

- ⇐ هل فعلا لا يوجد ربا خارج حدود البنوك التجارية؟
- ⇐ ألا يقع الأفراد أنفسهم في معاملاتهم التجارية بأعمال ربوية؟
- ⇐ وماذا عن زمن النبي نفسه؟ هل كان هناك بنوك تتعامل بالربا؟

⇐ وإلاّ، كيف كان الأشخاص العاديون يقومون بالأعمال الربوية فيما بينهم حتى جاء التحريم لهذه المعاملات الربوية واضحا في كتاب الله حينئذ؟
⇐ هل يقع الإثم على الطرفين الدائن والمدين؟
⇐ وهل يقع الإثم كذلك على شاهد الربا كما جاء في التراث الديني السائد؟
⇐ الخ.

دعنا نبدأ النقاش هنا بالتساؤل الأخير وهو: هل يقع الإثم في المعاملة الربوية على الطرفين الدائن والمدين؟

افتراء خطير جدا جدا من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن (ربما مخطئين) بأن الإثم الذي يتحصل في المعاملة الربوية لا يقع على الطرفين الدائن والمدين. انتهى.

السؤال: على من يقع أثم الربا في أي معاملة يشوبها الربا إذن؟ ربما يريد صاحبنا أن يسأل مباشرة

رأينا المفترى: نحن نظن أن أثم الربا لا يقع إلا على الدائن.

السؤال: لماذا؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: لو دققنا في الآيات الكريمة التالية، لربما حقّ لنا أن نستنبط أن النهي جاء للذين يأكلون الربا، قال تعالى:

- ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧٥﴾ [البقرة: 275]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٣٠﴾ [آل عمران: 130]

فالمس الذي يسببه الشيطان (بسبب الربا) يعاني منه من أكل الربا (الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ)، ولا شك عندنا أن الربا هو التضاعف في مقدار المال الذي رُبِي:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٣٠﴾ [آل عمران: 130]

ولا شك أيضا بأن الحرب المعلنة من الله ورسوله موجهة مباشرة على الذين لم ينتهوا عن أكل الربا:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٧٨ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ٢٧٩﴾ [البقرة: 278-279]

ولا شك عندنا كذلك أن الشخص المرابي هو من طلب الله منه التوبة فقط، والاكتفاء برأس ماله:

- ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٢٧٨ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ۝٢٧٩﴾ [البقرة: 278-279]

ولو دققنا في الآية الكريمة التالية، لوجدنا بأن الربا يقع في يد من يأخذه، فهم الذين يأكلون أموال الناس بالباطل:

- ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٦١﴾ [النساء: 161]

وهم الذين توعدهم الله بأن يمحق مال الربا الذي بين أيديهم:

- ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ۝٢٧٦﴾ [البقرة: 276]

تساؤلات محيّرة لي شخصيا

⇐ هل أكل (من استلف مالا في معاملة ربوية) المال أضعافا مضاعفة؟
⇐ هل أخذ مالا أضعافا مضاعفة؟
⇐ هل يمكن أن يتبقى في يده مالا مضاعفا ليمحقه الله؟
⇐ كيف له أن يتوب بالاكتفاء برأس ماله إن هو أراد التوبة من هذه المعصية؟
⇐ وهل فعلا أكل المدين مال الناس بالباطل عندما دفع من جيبه للآخرين ما يفوق كثيرا ما أخذه منهم؟
⇐ الخ

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن الشخص المحتاج الذي يمكن أن يُضطّر إلى معاملة ربوية هو من أخذ مالا ناقصا غير مزيد، فإن أنت (كمدين) عمدت إلى استلاف مبلغ عشرة الآلاف دولار، فإنك تقبض بيدك قيمة لا تزيد عن ذلك المبلغ، وربما تكون أقل من ذلك قليلا (خاصة في المعاملات البنكية بسبب ما يخصمه البنك من رسوم مسبقة على المدين)، ومن ثم عليك أن تتحمل تبعات ما يُزاد على هذا المبلغ من قبل الدائن، فقد يصل المبلغ المطلوب منك (كمدين) دفعه للدائن (كالبنك مثلا) أضعافا مضاعفة، وهنا يصبح المال الزائد هو الربا، وذلك لأن الربا هو الزيادة على الأصل. فإن أنت استلفت عشرة الآلاف دولارا، وطُلب منك تسديدها على نحو خمسة عشر ألف دولارا، فإن الزيادة هي خمسة الآلاف دولار على رأس المال الذي هو أصلا عشرة الآلاف فقط، أليس كذلك؟

إنّ ما يهمنا قوله (كافتراء من عند أنفسنا) هو أن ما وقع في يد المدين هو رأس المال (أي عشرة الآلاف دولارا) فقط غير مزيد، بينما الذي سيقع في يد الدائن فهو عشرة الآلاف دولارا (أي رأس المال) بالإضافة إلى خمسة الآلاف دولارا (وهي الزيادة على رأس المال). وهنا يبرز السؤال الحتمي: من الذي يأكل الربا (أي الزيادة وهي الخمسة الآلاف دولارا)، الدائن أم المدين؟ ومن الذي يمكن أن يصيبه مسّ من الشيطان بسبب أكل مال

الربا، الدائن أم المدين؟ ومن الذي طُلب الله منه الانتهاء عن أكل الربا أضعافا مضاعفة، الدائن أم المدين؟ ومن الذي يجب أن يأذن بحرب من الله ورسوله، الدائن أم المدين؟ ومن الذي طُلب منه التوبة بالاكتفاء برأس المال، الدائن أم المدين؟ الخ.

نتيجة مفتراة خطيرة جدا: نحن نظن (ربما مخطئين) بأن إثم الربا يقع على الدائن الذي أكل الربا (أضعافا مضاعفة) فقط، فهو الذي أخذ الربا، وهو الذي أكل الربا، وهو الذي يمكن أن يصيبه مسّ من الشيطان جراء أكله مال الربا، وهو من طلب الله منه التوبة بالانتهاء عن ذلك والاكتفاء برأس ماله. واقرأ عزيزي القارئ – إن شئت – الآيات الكريمة الخاصة بالربا مرة أخرى من هذا الجانب، فربما ترى وجاهة ما نفتريه من قول من عند أنفسنا في هذا السياق:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٣٠﴾ [آل عمران: 130]
- ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧٥﴾ [البقرة: 275]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٧٨ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ٢٧٩﴾ [البقرة: 278-279]
- ﴿وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ وَأَكۡلِهِمۡ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٦١﴾ [النساء: 161]
- ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ٣٩﴾ [الروم: 39]
- ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ٢٧٦﴾ [البقرة: 276]

سؤال: هل تريد منّا أن نصدقك ونكذّب الفكر الإسلامي الذي سادا قرونا من الزمن؟ هل تريد منا أن نصدقك بأن علماء الأمة الأكفاء لم ينتبهوا لهذه الجزئية على مرّ العصور؟ ربما يريد صاحبنا أن يسأل مستغربا وربما منكرا جملة وتفصيلا هذا الطرح الفردي من شخص قد لا يرقى إلى مستوى علماء الأمة الأكفاء على مرّ العصور.

جواب مفترى: سأبدأ الرد على هذا التساؤل الوجيه محسنا الظن بعلماء الأمة أجمعين، ربما مقدرا جهد الكثيرين منهم وإخلاص نواياهم، منكرا في الوقت ذاته (كعادتي) قدراتهم الفكرية التي قد لا أثق بها كثيرا. طارحا التساؤل المثير التالي: لم جاء تحريم أكل الربا أضعافا مضاعفة؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن السبب الرئيس في ذلك ربما يمكن استنباطه من الآية الكريمة التالية:

- ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٧﴾ [الحشر: 7]

فالمال يجب أن لا ينتهي بأن يكون دولة بين الأغنياء فقط في أي مجتمع من المجتمعات. ولعلي أجزم الظن بأن المال لا يمكن أن ينتهي أن يكون دولة بين الأغنياء فقط إلا في المجتمعات الربوية. فلو تم ضبط السوق المالي بطريقة غير ربوية لتوزعت الثروة بين الناس بطريقة عادلة، وسنرى تبعات هذا الظن بعد قليل بحول الله وتوفيق منه.

أما الآن دعنا نطرح التساؤل البسيط التالي: ما الفرق بين ما يسمى البنوك الربوية التقليدية من جهة والبنوك الإسلامية المستحدثة حاليا من جهة أخرى؟ هل فعلا تقوم ما يسمى بالبنوك الإسلامية بمعاملاتها التجارية بطريقة مختلفة تؤدي إلى عدم تكدس السلطة في يد حفنة من الناس على حساب المجتمع كله؟ والأهم من هذا كله هو: ما سبب ظهور ما يسمى بالبنوك الإسلامية؟ ومتى ظهرت هذه المؤسسات المالية في بلاد الإسلام؟

جواب مفترى خطير جدا: لعلي أظن (ربما مخطئا) أن سبب ظهور هذه المؤسسات المالية في بلاد الإسلام هو ما يمكن أن نستنبطه من الآية المرشدة لي في هذا الطرح، وهي قوله تعالى:

- ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣٤﴾ [التوبة: 34]

السؤال: كيف ذلك؟

رأينا المفترى: لو دققنا مليّا في هذه الآية الكريمة، لوجدنا أنه لا يمكن إنكار الحقيقة الثابتة التي تسطرها هذه الآية الكريمة وهي أن كثيرا من الأحبار والرهبان يأكلون أموال الناس بالباطل، أليس كذلك؟ ليكون السؤال المطروح فورا هو: كيف يمكن للأحبار والرهبان أن يأكلوا أموال الناس بالباطل؟ وبكلمات أخرى نحن نسأل: ما هي الآلية التي يمكن أن تؤدي إلى استيلاء الأحبار والرهبان على أموال الناس ليأكلوها بالباطل؟

جواب مفترى: لو دققنا في عبارة "أكل أموال الناس بالباطل" على مساحة النص القرآني كله، لما وجدناها قد وردت إلا في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١٨٨﴾ [البقرة: 188]
- ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٦١﴾ [النساء: 161]
- ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣٤﴾ [التوبة: 34]

فلو دققنا في هذه الآيات الكريمة مرة أخرى، لوجدنا أن احتمالية أن يأكل الناس أموال بعضهم البعض بالباطل واردة جدا، لذا جاء النهي الإلهي عن ذلك على النحو التالي:

- ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ١٨٨﴾ [البقرة: 188]

ليكون السؤال الحتمي هو: كيف يمكن أن نأكل أموال بعضنا بعضا بالباطل؟

رأينا المفترى: نحن نرى (ربما مخطئين) بأن النص القرآني – كما نفهمه- أن هناك طريقتان لأكل أموال الناس وهما:

1. أكل أموال الناس بالباطل: وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ
2. أكل أموال الناس بالإثم: لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ

السؤال: ما الفرق بين الحالتين؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن أكل أموال الناس بالإثم تتم عندما تدلى هذه الأموال إلى الحكام (وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ). فعندما يتم تقديم بعض المال إلى الحكام بغير الحق، فهذا يقع في باب أكل أموال الناس بالإثم. وهي ما يتعارف عليه (بغلتنا الدارجة) بمسمى الرشوة. فعندما يدلي بعض الناس (خاصة أصحاب الثروات الكبيرة) مالا إلى الحكام (بغض النظر عن درجتهم سواء كان رئيس بلدية أو محافظا أو وزيرا أو رئيس وزراء أو حتى رئيس الدولة)، فإن ذلك يعتبر رشوة، وذلك لأن الغاية منها يتمثل في أن يستفيد صاحب المال الذي قدم بعض المال إلى الحاكم من خلال القوانين التي يشرعها الحاكم له لتسهيل عملية قرصنته لأموال الآخرين. فغالبا ما تحصل التفاهمات الخفية بين بعض التجار من جهة وبعض الحكام من جهة أخرى (أي تحالف قارون مع فرعون)، فيقدم التاجر (قارون) بعضا من المال للحاكم (فرعون) مقابل أن يستفيد التاجر من القوانين التي يشرعها الحاكم، وهنا يحصل بالضبط أكل أموال الناس بالإثم، وهذا يقع – برأينا- في باب تعاونهم على الإثم والعدوان، قال تعالى:

- ﴿... وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ٢﴾ [المائدة: 2]

وهو ما حرمه الله تحريما لا لبس فيه، قال تعالى:

- ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٣٣﴾ [الأعراف: 33]

نتيجة مفتراة 1: عندما تدلى الأموال إلى الحكام فهذا يقع في باب أكل أموال الناس بالإثم

نتيجة مفتراة 2: الله حرم أكل أموال الناس بالإثم

السؤال: إذا كان هذا هو أكل أموال الناس بالإثم (كما تزعم)، فكيف يكون إذن أكل أموال الناس بالباطل؟ يسأل صاحبنا

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا أن أكل أموال بعضنا بعضا بالباطل يتم من خلال الربا:

- ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ١٦١﴾ [النساء: 161]

فلو تفقدنا الآية الكريمة جيدا، لوجدنا بأن أكل المال بالباطل تتم بين الناس أنفسهم، فالناس هم من يأكلون أموال بعضهم بعضا بالباطل:

- ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ١٨٨﴾ [البقرة: 188]

إذا كان هذا صحيحا (كما تزعم)، فكيف يمكن للأحبار والرهبان أن يأكلوا أموال الناس بالباطل؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: إنه الربا. انتهى.

السؤال: ما الذي تقوله يا رجل: كيف يمكن للأحبار والرهبان أن يأكلوا أموال الناس بالباطل عن طريق الربا؟ هل يقوم الأحبار والرهبان بالمعاملات الربوية هم أنفسهم؟

رأينا المفترى: لو تدبرنا الآيات الكريمة التالية:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ٩﴾ [المجادلة: 9]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةًۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٢ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ١٣﴾ [المجادلة: 12-13]

لوجدنا أن عملية التناجي تتطلب تقديم الصدقات بين يدي المناجَى، فالله هو من طلب من الذين آمنوا أن يقدموا بين يدي الرسول (في حالة مناجاته) صدقات:

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةًۚ

- ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍۚ
- فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ

ولو حاولنا ربط هذا بالآيات الكريمة السابقة وهي قوله تعالى:

- ﴿... وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٢﴾ [المائدة: 2]

لخرجنا بالجدول التالي:

فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ	وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ
وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِۚ	وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ

السؤال: ما هو التعاون؟ وما هي المناجاة؟ وما الفرق بينهما؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن المناجاة تحمل في ثناياه التقريب، فالله هو من قرب موسى نجيا:

- ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ۝٥٢﴾ [مريم: 52]

فأصبح هناك علاقة فريدة بين رب العالمين وعبده موسى.

وها هم إخوة يوسف في أرض مصر قد خلصوا بين بعضهم البعض نجيا:

- ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّاۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِىۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨٠﴾ [يوسف: 80]

نتيجة مفتراة: نحن نظن أن المناجاة تتمثل بإنشاء علاقة فريدة بين طرفين، هما المناجِي والمناجَى.

السؤال: ما الذي يمكن أن يعزز هذه العلاقة؟

جواب مفترى: نحن نظن أنه من الممكن تعزيز هذه العلاقة بين الطرفين المناجِي والمناجَى بشيء مادي كالصدقة مثلا في حالة مناجاة الرسول:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٢ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٣﴾ [المجادلة: 12-13]

ولكن الله نهى عن المناجاة (التقرب إلى الطرف الآخر) بالإثم والعدوان:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٩﴾ [المجادلة: 9]

فلا يحق للناس أن يقدموا بين يدي نجواهم ما هو إثم، وهو ما ينتج عنه أكل أموال الناس:

- ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٨٨﴾ [البقرة: 188]

ليعود عليهم بالمنفعة الفردية على حساب الصالح العام.

ولو دققنا في عملية المناجاة، لوجدنا أن المناجِي يمكن أن يكون شخصا عاديا، أما المناجَى فهو شخص ذو مكانة خاصة بين الناس (كالرسول مثلا). فالمناجاة هي عملية تقرب إلى شخص ذي مكانة رفيعة بين الناس، ويتم ذلك عن طريق تقديم أشياء مادية (كالصدقات) من أجل خطب ود هؤلاء الأشخاص أصحاب المكانة الرفيعة بين العامة من الناس.

والله نهانا عن المناجاة بالإثم والعدوان:

- فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ

كما نهانا عن أن نتعاون بالإثم والعدوان:

- وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ

والله هو من أمرنا بأن نتناجى بالبر والتقوى:

- وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ

كما أمرنا أن نتعاون على البر والتقوى:

- وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ

السؤال: ما الفرق بين المناجاة والتعاون؟

رأينا المفترى: المناجاة تتم بين طرفين غير متكافئين في المكانة كمناجاة بعض المؤمنين للرسول مثلا، أو كمناجاة الحاكم من قبل عامة الشعب. أما التعاون فنحن نرى (ربما مخطئين) بأنه يتم بين طرفين متكافئين، كتعاون الناس بين بعضهم بعضا.

فمن المفترض بنا أن لا نتناجى بالإثم والعدوان كما هو مفترض بنا أن لا نتعاون على الإثم والعدوان:

- فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ
- وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ

والمطلوب منا بالمقابل أن نتناجى بالبر والتقوى كما هو مطلوب منا أن نتعاون على البر والتقوى:

- وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ
- وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ

فالعلاقة بين الناس هي علاقة نجوى (إذا كان الطرفان غير متكافئين في المكانة الاجتماعية) وهي أيضا علاقة تعاون (إذا كان الطرفان متكافئين في العلاقة الاجتماعية). وهذه العلاقة محكومة بالتقوى في كلا الحالتين، عندما يكون هدفها جلب الود والمنفعة للطرفين وعدم أكل أموالهم بينهم بالباطل أو أكل أموالهم بالإثم.

السؤال: كيف يمكن تحقيق هذه الغايات؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن هذا يتمثل في العلاقات الاقتصادية بين الناس.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن أي علاقة اجتماعية بين الناس يمكن أن تكون سليمة إذا كانت مبنية على التناجي بالبر والتقوى والتعاون كذلك على البر والتقوى. وبخلاف ذلك تصبح العلاقة مشوبة لا تجلب معها إلا الإثم والعدوان.

السؤال: هل يمكن توضيح ذلك أكثر؟

جواب مفترى: نحن نظن أن ما يجب أن يقدمه أصحاب الأموال إلى الحاكم يجب أن يكون واقعا في باب الصدقات، أي ما يأخذه الحاكم ليوزعه على المستحقين من أصحاب الحاجات، حتى يضمن التكافل بين الناس. وهذا – برأينا- هو التناجي.

أما التعاون فهو – بالمقابل- يشمل علاقات الناس بعضهم ببعض لتسيير أمورهم، فالغني والفقير يتعاونون فيما بينهم، من أجل جلب المصلحة للطرفين وللمجتمع كله. فالفقير بحاجة إلى المال، والغني يملك هذا المال، لذا وجب أن تنظم العلاقة بينهم على أساس التعاون على البر والتقوى وتجنب الإثم والعدوان.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن ذلك يتم عن طريق تجنب الربا واللجوء إلى البيع.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا: إذا تجنب صاحب المال أن يأكل الربا أضعافا مضاعفة، ورضي بالبيع، فإن ذلك يحقق المصلحة للطرفين (الدائن والمدين)، ويصبح ذلك واقعا في باب التعاون على البر والتقوى، فلا يعتدي طرف على طرف. فليس من حق الدائن أن يأكل الربا أضعافا مضاعفة، وليس من حق المدين أن يأخذ المال ويعيده كما هو بعد أن جلب له هذا المال منفعة كبيرة. إذن يجب أن تتسم العلاقة بينهما (الدائن والمدين) بالتعاون على البر والتقوى.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: يقدم الدائن ما يحتاجه المدين من مال ويعيد المدين المال للدائن بعد أن يعمل على تنميته.

مثال: تخيل أنني بحاجة إلى مئة ألف دولار من أجل تجارة ما، ولكني لا أملك رأس مال كاف لها. فما الذي يمكنني فعله؟

رأينا المفترى: لا ضير بأن ألجأ إلى صاحب مال لأطلب منه المبلغ الذي أحتاجه شريطة أن أعيد له ماله زائدا غير ناقص، فتحقق المصلحة للطرفين: تنفيذ تجارة المدين المتوقف نماؤها على هذا المال، وتمنية مال الدائن فيزيد ولا ينقص. فمن غير المعقول أن آخذ منك مئة ألف دينار لأقيم بها تجارتي وأربح فيها وتتحسن حالتي الاقتصادية ثم أعيد لك في نهاية المطاف ما أخذته منك كدائن من مال كما هو. ففي هذه الحالة تتحقق مصلحة طرف واحد وهو المدين. فلا يقع ذلك في باب التعاون.

وبالمقابل فإن من غير المنطقي أن أخذ منك مبلغ مئة ألف دينا ثم أعيده لك أضعافا مضاعفة على حساب تجارتي التي استخدمت فيها المبلغ الذي استلفته منك، لأن ذلك سيزيد من حاجتي بينما يضاعف رأس مالك دون جهد يذكر منك. فتتحقق بذلك المنفعة لطرف واحد على حساب الطرف الآخر. فالمستفيد في هذه الحالة هو الدائن والمتضرر هو المدين. فلا يصبح ذلك واقعا في باب التعاون.

وحتى يتحقق التعاون، فلا بد أن تتحقق الفائدة للطرفين (الدائن والمدين). ولا يكون ذلك إلا بتجنب الربا واللجوء إلى البيع. ومن أجل التفريق بين البيع والربا، فإننا ندعو القارئ الكريم إلى العودة إلى الافتراءات التي قدمناها في الجزء الأول من هذه المقالة.

لكن ما يهمنا هنا هو ما جاء في الآية الكريمة التالية:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٧٨ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ٢٧٩﴾ [البقرة: 278-279]

لو تدبرنا الآية الكريمة، لوجدنا أن باب التوبة مفتوح لمن أكل الربا أضعافا مضاعفة، ويكون ذلك على النحو التالي:

- وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ

السؤال: كيف يمكن لمن تاب من الربا أن يكتفي برأس ماله؟

رأينا المفترى: لما كانت التوبة تقف عند الاكتفاء برؤوس الأموال، فإن ذلك سيشمل كل ما أدى إلى نماء تلك الأموال. وهذا يشمل الأموال المنقولة وغير المنقولة. فما أن يتوب آكل الربا حتى يكون ملزما بحصته من رؤوس الأموال وليس فقط من المال، وهذا يشمل الأموال التي بدأ بها تجارته مضافا إليها ربحه الحلال، وهو ما يساوي قيمة الجهد الذي بذله شخصيا والبنية التحتية التي طلبت لنماء رأس ماله. ولا شك أن هذه الزيادة (الربح) لا يمكن أن يكون أضعافا مضاعفة لرأس المال.

السؤال: لماذا؟ أي لماذا لا يجب أكل الربا أضعافا مضاعفة؟

رأينا: نحن نظن أن السبب في ذلك يكمن في أن لا يصبح المال دولة بين الأغنياء؟

- ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٧﴾ [الحشر: 7]

لو راقبنا تصرفت الأغنياء في البلاد التي تسمي نفسها إسلامية، لوجدنا أنه الثروة تتكدس بيد حفنة من الأغنياء بينما السواد الأعظم من الناس يرزحون تحت خط الفقر. فتولدت طبقتان متباينان في المجتمع: طبقة قليلة العد غنية جدا، وطبقة كثيرة العدد فقيرة جدا. ولعلي أكاد أجزم الظن أن هذا ما كان ليحصل لولا أن الربا قد أصبح سلوكا مشرعا، ظن كثير منهم أنه بيع حلال لا شائبة فيه.

السؤال: من المسئول عن هذا الوضع المزري القائم في بلاد الإسلام؟

رأينا المفترى: إنهم رجال الكهنوت الديني من الأحبار والرهبان الذين سموا أنفسهم شيوخا في بلاد الإسلام. فهم الذين أكلوا أموال الناس بالباطل.

السؤال: أي كيف يمكن للأحبار والرهبان أن يأكلوا أموال الناس بالباطل؟

- ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٤﴾ [التوبة: 34]

جواب مفترى:

دعنا نبدأ من الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [النحل: 116]

إن الذين يقومون بفعلي التحريم والتحليل هم لا شك عندنا رجال الدين (الأحبار والرهبان). فهم المطالبون على الدوام بمحاربة الإثم:

- ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [المائدة: 62-63]

وهم أولى الناس بأن يذروا ظاهر الإثم وباطنه، وبخلاف ذلك فإنهم سيجزون بما كان يقترفون:

- ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾ [الأنعام: 120]

ولا شك عندنا أن المال من الأشياء التي يمكن أن تقترف:

- ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: 24]

نتيجة مفتراة خطيرة جدا: إن المال الذي يقع بين أيدي رجال الدين بطريقة غير شرعية هو إثم، ستكون عاقبته عليهم وخيمة، لأن الله هو من توعدهم بالجزاء المناسب بهذا المال المقترف.

السؤال: كيف يمكن أن يحصل رجال الدين على هذا المال المقترف كإثم؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن هناك على الأقل ثلاث طرق يمكن أن يقع المال من خلالها بيد رجل الدين، ويكون هذا المال المقترف إثم يستوجب الجزاء من الله، وهي:

1. أن يدفع الناس لرجل الدين المال كنجوى للتقرب إليه، فيكون هذا واقعا في باب المناجاة بالإثم
2. أن يدفع رجل السياسة المال لرجل الدين من أجل أن يصفوا بألسنتهم الكذب فيحلون ويحرمون على أهواء الحاكم
3. أن يصبح رجل الدين نفسه هو التاجر الذي يأكل أموال الناس بالباطل.

ربما لا أحتاج أن أقدم الأمثلة على الطريقة الأولى والطريقة الثانية، فهي لا تخفى على الكثيرين، ولعل نظرة سريعة على ثروة رجال الدين المتنفذين بين الناس في كل الطواف ونظرة سريعة على ما يسمى بعلماء السلاطين، تغني عن كثير من الشرح والتفصيل.

لكن ما يهمنا هنا هو الطريقة الثالثة المتمثلة بأن يأكل رجال الدين أنفسهم أموال الناس بالباطل عندما يمتهنوا هم التجارة، فيحلون ويحرمون بناء على مصالحهم الشخصية أكثر من استنباط الأحكام الحقيقية من كتاب الله، قال تعالى:

- ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ١١٦﴾ [النحل: 116]

السؤال: هات الدليل على ما تفتري من قول على هؤلاء الناس. يطلب صاحبنا فورا.

رأينا المفترى: لعل الطامة الكبرى التي حصلت في بلاد الإسلام تمثلت – برأينا- بتشييد ما يسمى بالبنوك الإسلامية التي ظن العامة من الناس أنها لا تقوم بالأعمال الربوية، فظنوا أنها المخلّصة لهم من براثين البنوك الربويّة الأخرى!

السؤال: من المستفيد الأول والأخير من تشييد هذه الصروح التجارية باسم الدين؟ ومن هم فعلا أصحاب هذه البنوك التي غدت عملاقة في نفوذها المالي والسياسي في أرض الإسلام؟ وما هي طبيعة معاملاتهم التجارية التي تجعلها مختلفة عن منافسيهم من البنوك غير الإسلامية (أو الربوية بالمسميات الدارجة)؟

السؤال: هل حلت البنوك الإسلامية حاجات الناس دون أن تثقل كاهلهم أكثر مما تفعل البنوك الربوية؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: لو حاولت أن تتقدم بالمعاملة المالية نفسها لبنكين اثنين، أحدهما ربوي والآخر إسلامي (حسب التسميات الدارجة)، لوجدت أن البنك الربوي أكثر منطقية، وربما أقل تكلفة من البنك الإسلامي. لكن للأسف فإن استخدام ساطور الدين على رقاب العباد هي التي تجبر الناس (خاصة المهتمين لأمر الدين منهم) اللجوء إلى البنوك الإسلامية حتى وإن كانت التكلفة عليهم أكثر. فهم طلاب جنان هاربون من النيران، أليس كذلك؟

على أي حال، لن أدخل بفقه الفكر الإسلامي، لكن يكفيني هنا أن أشير أن أصحاب البنوك الإسلامية هم رجال الدين ومن لف لفهم، ولا غرابة أن تجد أن رجل الدين (غير المشارك في رأس مال البنك الإسلامي) يعمل كمستشار مالي لهذه البنوك، فيحصل على مردود مالي خاص به نتيجة وصفه المعاملات التجارية بصفات الإيمان والكفر. فإذا ما أفتى رجل الدين بحرمة معاملة مالية، فإنها تنتهي هناك، وإذا ما رخصها، فإنها تنفذ دون مسائلة حتى من رجل السياسة، صاحب الولاية على مقدرات الناس. فهؤلاء هم برأينا من تنطبق عليهم الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ١١٦﴾ [النحل: 116]

على أي حال، دعنا نطرح التساؤل التالي: بعيدا عن المعاملات البنكية سواء كانت ربوية أو إسلامية بمفهومهما الشعبي الدارج بين الناس، هل يمكن أن يحصل الربا في المعاملات التجارية غير البنكية؟ فهل يمكن لتاجر الخضار والفاكهة أن يقع في فعل الربا؟ وهل يمكن لتاجر الذهب أن يقع في فعل الربا؟ وهل يمكن لتاجر الأجهزة الكهربائية أن يقع في فعل الربا؟

السؤال: كيف يحصل الربا؟ ومتى يمكن أن يقع المتعاملون بالتجارة في السوق بفعل الربا؟

هذا ما سنحاول الإجابة عليه في الجزء القادم من هذه المقالة.

سائلين الله وحده أن يهدينا رشدنا، وأن يعلمنا ما لم نكن نعلم وأن يزيدنا علما وأن يهدينا لأقرب من هذا رشدا، ونعوذ به أن نفتري عليه الكذب أو أن نقول عليه ما ليس لنا بحق، إنه هو العليم الحكيم - آمين.

المدّكرون: رشيد سليم الجراح & علي محمود سالم الشرمان
بقلم د. رشيد الجراح
6 آب 2017



فقه الزكاة

الجزء الثالث



فقه الزكاة: الجزء الثالث

دعنا نبدأ هذا الجزء الجديد من المقالة بطرح تساؤلين اثنين هما:

1. ما هو الربا؟
2. كيف يمكن الوقوف على ماهية الربا؟

للإجابة على هذه التساؤلات، دعنا ندقق مليّا بما جاءنا في الآية الكريمة التالية:

- ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧٥﴾ [البقرة: 275]

لنخرج بالاستنباط المهم جدا جدا التالي: كل المعاملات التجارية على اختلاف أنواعها تقع في واحد من بابين اثنين لا ثالث لهما، فإما أن تكون بيعا أو أن تكون ربا. انتهى.

السؤال: ما الذي يجب أن نفهمه من ذلك؟

رأينا المفترى: عليك أخي المسلم أن تفهم بأن أي معاملة تجارية بغض النظر عن حجمها (كبيرة كانت أو صغيرة) وبغض النظر عن مكان إبرامها (سواء كان داخل أسوار البنك أو خارجه) يمكن أن تقع في باب البيع أو يمكن أن تقع في باب الربا. فشراؤك لبيضة دجاجة واحدة قد تقع في باب البيع وقد تقع في باب الربا، وكذلك تمويل صفقتك التجارية التي قد تصل إلى عشرات الملايين من الدولارات، قد تكون بيعا وقد تكون ربا.

السؤال: ما فائدة ذلك؟

جواب مفترى: لعل أول فائدة منشودة من ذلك هو عدم حصر الربا بالمعاملات البنكية. فالربا منتشر في الأسواق كلها، وفي جميع المعاملات مهما كان حجمها وبغض النظر عن المكان التي أبرمت فيه. انتهى.

السؤال: كيف يمكن للشخص العادي معرفة ماهية المعاملة التجارية سواء كانت بيعا أم كانت ربا؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الطريقة بسيطة جدا. وتتمثل بالمعادلة التالية: إذا لم تكن معاملتك بيعا فهي إذن ربا، والعكس صحيح: إذا لم تكن معاملتك ربا فهي بيع، أليس كذلك؟

السؤال: ماذا تقصد؟ لم أفهم شيئا. يرد صاحبنا قائلا.

جواب مفترى: مادام أن المسألة ثنائية (إما بيعا وإما ربا)، فإن معرفة واحدة تغني عن معرفة الأخرى. فإذا ما استطعت أن أُعرِّف البيع، يأتي تعرف الربا كتحصيل حاصل، والعكس صحيح. لذا فأنا أحتاج أن أقف على تعريف لواحدة منهما ليتحصل لي تعريف الأخرى دون جهد.

سؤال: إذا كان كلامك هذا صحيحا، فهل لك أن تعرف لنا واحدة منهما؟ يسأل صاحبنا.

جواب مفترى: دعنا ندقق في مفردة البيع في الآية الكريمة التالية:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩﴾ [الجمعة: 9]

لنخلص أن البيع بمجمله هو عبارة عن عملية تبادل السلع بين التاجر والزبون. فصاحب البضاعة هو من يقوم بفعل الشراء، والزبون الذي يحتاج البضاعة يقوم أيضا بعملية الشراء. لكن الفرق بين الطرفين تكمن في أن التاجر هو من بقوم بفعل "شرى" والزبون يقوم بفعل "اشترى"، كما نجد ذلك واضحا في سورة يوسف:

- ﴿وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ١٩ وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۢ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ٢٠﴾ [يوسف: 19-20]

فالسيارة هم من كانوا يملكون يوسف كبضاعة، فكانوا هم من شروه (أي باعوه بمفرداتنا الدارجة)، بينما كان الرجل الذي طلب يوسف من سوق مصر هو من اشترى يوسف:

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢١﴾ [يوسف: 21]

نتيجة مفتراة 1: شرى تعني تقديم البضاعة (أي باع بمفرداتنا الدارجة)

نتيجة مفتراة 2: اشترى تعنى أخذ البضاعة (أي اشترى بمفرداتنا الدارجة)

نتيجة مفتراة مهمة جدا: عملية تقديم البضاعة من التاجر (شرى) وعملية أخذ البضاعة من قبل الزبون (اشترى) يشكلان معا عملية البيع.

- ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١١﴾ [التوبة: 111]

نتيجة مفتراة 1: الله هو من اشترى من المؤمنين أنفسهم، فقدم لهم الجنة مقابل ذلك
نتيجة مفتراة 2: المؤمنون هم من اشتروا الجنة فقدموا أنفسهم مقابل ذلك

ولا تتوقف عملية الشراء عند الأشياء المادية الملموسة وإنما تشمل أيضا الأشياء غير الملموسة كلهو الحديث مثلا:

- ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٦﴾ [لقمان: 6]

نتيجة مفتراة مهمة جدا: البيع هو عملية تبادل البضاعة بفعلي شرى (أي أعطى البضاعة) واشترى (أي أخذ البضاعة)

الفرق بين التجارة والبيع

ولو دققنا في الآية الكريمة التالية، لوجدنا بأن هناك فرقا بين البيع (وهي عملية تبادل البضاعة، أي شرى واشترى) من جهة والتجارة من جهة أخرى، قال تعالى:

- ﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ٣٧﴾ [النور: 37]

ليكون السؤال المطروح إذن هو: ما هي التجارة مقابل ما هو البيع (تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ)؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأن التجارة هي عملية امتلاك البضاعة وكفى، قال تعالى:

- ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٤﴾ [التوبة: 24]

مادام أن التجارة يمكن أن يصيبها الكساد، فهي إذن عبارة عن تواجد البضائع المخزّنة عند التاجر في متجره، لذا تصبح الصورة على النحو التالي:

التجارة	عملية امتلاك البضاعة
التاجر	الشخص الذي يملك البضاعة
المتجر	المكان الذي تتواجد فيه التجارة

فالتجارة هي إذن عملية امتلاك البضاعة التي لازالت متوقفة، لكنها قابلة للتبادل التجاري (أي البيع)، قال تعالى:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ٢٩﴾ [فاطر: 29]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠﴾ [الصف: 10]
- ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ١١﴾ [الجمعة: 11]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١﴾ [الصف: 10-11]

نتيجة مفتراة 1: التجارة هي عملية امتلاك البضاعة القابلة للتداول

نتيجة مفتراة 2: البيع هو عملية تبادل تلك البضاعة بالثمن المطلوب، كما في الشكل التوضيحي التالي:

البيع	عملية تبادل البضاعة بالثمن
البائع	هو من يشري البضاعة، فيقبض الثمن بدل البضاعة
المشتري	هو من يشتري البضاعة، فيدفع الثمن مقابل البضاعة

ولو دققنا في النص القرآني، لوجدنا (حسب فهمنا طبعا) بأنه لا يوجد تحريم للتجارة بأي حال من الأحوال، فامتلاك البضاعة هي عملية مشروعة لا غبار عليها. ولو دققنا أكثر، لوجدنا أن التقابل واضح بين البيع والتجارة:

- ﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ٣٧﴾ [النور: 37]

فالله يحذرنا أن تلهينا التجارة والبيع عن ذكر الله. فالتاجر الذي يقبع في متجره ينتظر عملية البيع (التبادل التجاري) يجب أن لا تلهيه هذه التجارة عن ذكر الله، وحتى لو حصل البيع (التبادل التجاري) بقدوم الزبون إلى محله التجاري يطلب البضاعة، فإن ذلك يجب أن لا يلهيه أيضا عن ذكر الله. ولا شك عندنا أن البيع فيه إغراء أكثر للتاجر من التجارة نفسها. فتخيل عزيزي القارئ أن تاجرا ما قد سمع النداء إلى ذكر الله من يوم الجمعة وكان حينها منشغلا بالتجارة، فإنه قد لا يتردد أن يلبي النداء لذكر الله مادام أن تجارته راكدة لا بيع فيها، لكن إذا كان منشغلا بالبيع (أي في عملية تبادل تجاري مع بعض الزبون)، فإن ذلك سيشكل له إغراء أكبر أن لا يلبي النداء لذكر الله من يوم الجمعة، ولهذا جاء التوجيه الإلهي بأن لا تلهينا أموالنا عن ذكر الله أو عن إقامة الصلاة:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩﴾ [المنافقون: 9]
- ﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ٣٧﴾ [النور: 37]

وبالتالي السعي إلى ذلك الذكر خاصة في يوم الجمعة حتى وإن كان على حساب البيع (التبادل الفعلي للبضاعة بالثمن):

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩﴾ [الجمعة: 9]

نتيجة مفتراة: في حين أننا لم نجد تقابلا بين التجارة والربا، وجدنا أن هناك تقابلا واضحا بين البيع والربا (وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا)، قال تعالى:

- ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧٥﴾ [البقرة: 275]

فما أن تبدأ عملية تبادل البضاعة بالثمن حتى يكون هناك احتمالية بأن تكون هذه المعاملة التجارية بيعا أو ربا.

السؤال: متى تكون (عملية التبادل التجاري) بيعا؟ ومتى يمكن أن تكون ربا؟

رأينا المفترى: دعنا نحاول تعريف الربا. وليكن السؤال الآن هو: ما هو الربا؟

جواب مفترى: نحن نظن أن الآية الكريمة التالية تقدم لنا التعريف الأول اللازم للربا، قال تعالى:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٣٠﴾ [آل عمران: 130]

لتكون النتيجة المفتراة الأولى من عند أنفسنا هي: الربا يحمل في ثناياه مضاعفة رأس المال . انتهى.

السؤال: وماذا نعني بالمضاعفة (أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً)؟

رأينا: نحن نظن أن المضاعفة هي الزيادة بالمثل، فالواحد يصبح اثنين، والاثنين تصبح أربعة، والأربعة تصبح ثمانية، وهكذا. قال تعالى:

- ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ [الأحزاب: 30]

السؤال: هل تقصد أنه لا يجوز للتاجر أن يبيع بأكثر من الضعف؟ وكيف يمكن تحديد كمية الضعف هذه؟

رأينا: نحن نظن أن الآلية بسيطة جدا، لكن دعنا بداية نحاول التعرف على الغاية المنشودة من وراء ذلك، أي الغاية المنشودة من عدم أكل الربا أضعافا مضاعفة.

السؤال: لماذا يجب علينا أن لا نأكل الربا أضعافا مضاعفة؟

جواب مفترى: نحن نفتري القول بأن أكل الربا أضعافا مضاعفة ستكون نتيجته الحتمية هو تكدّس الثروة بيد حفنة من الناس (وهم الأغنياء)، قال تعالى:

- ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾ [الحشر: 7]

نتيجة مفتراة مهمة جدا: جاء الشرع الكريم ليبيّن لنا الطريقة التي لا تؤدي في نهاية المطاف إلى أن يكون المال دولة بين الأغنياء منا. (وسنرى تبعات ذلك لاحقا بحول الله وتوفيقه)

السؤال: وما الذي يمنع أن لا تصير الأموال دولة بين الأغنياء منا؟

جواب مفترى: نحن نظن أن هناك شرطان رئيسيان يحققان هذه الغاية، وهما:

1. عدم أكل الربا
2. إيتاء الزكاة

وانظر – عزيزي القارئ- في التقابل بينهما في الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الروم: 39]

ولو حاولنا ربط ذلك بمقدار الزكاة الواجبة في أموال الناس في قوله تعالى:

- ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ ﴾ [الأنفال: 41]

لربما تجرأنا على الافتراء التالي: الزكاة هي تطهير لمال المسلم من شبهة الربا. فإخراج خمس ما غنم المسلم هو تحقيق لمبدأ سلامة المال من كل ما يمكن أن يشوبه.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: الزكاة هي طهارة للمال من أذى الشيطان

ولو حاولنا ربط ذلك بالمحيض، لوجدنا بأن المحيض هو طهارة للمرأة من أذى الشيطان:

- ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة: 222]

منطقنا المفترى من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا أنه كما يطهّر المحيض جسم المرأة من أذى الشيطان، فإن الزكاة هي أيضا طهارة لمال المتصدق من أذى الشيطان. انتهى.

ولو حاولنا أيضا ربط ذلك بالمقدار، لوجدنا بأن المحيض يصيب المرأة فترة من الزمن تتراوح بين خمسة إلى سبعة أيام من كل شهر، فهي بمقدار ما يقرب من ستة أيام من الثلاثين يوما تقريبا. ولو حاولنا تحويل هذا إلى نسبة مئوية، لربما حق لنا أن نقسمها على النحو التالي (30 ⁄ 6 = 5)، أي بمقدار الخمس. وهو ما نظن أنه مقدار المال الواجب إخراجه مما غنم الشخص:

- ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ ﴾ [الأنفال: 41]

ولو حاولنا ربط ذلك بالصدقات أيضا، لوجدنا أن الصدقة تعمل كذلك على تطهير المال من كل ما دخل فيه من رجس الشيطان، فالمال الذي فيه ربا يكون الشيطان شريكا فيه، قال تعالى:

- ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾ [البقرة: 275]

فغالبا ما تساءل الناس عن السر الذي يؤدي إلى حصول الأمراض العضوية والنفسية عند الناس ربما دون سابق إنذار، فقد يصيب كثير من الناس الأمراض التي يصعب على الكثيرين تحديد سببها.

رأينا المفترى: لعلي أكاد أجزم الظن بأن كثيرا من الأمراض (خاصة النفسية منها) مرتبطة ارتباطا مباشرا بأكل الربا (وسنفرد لهذا الباب تفصيلا لاحقا بحول الله وتوفيق منه متى ما أذن الله لنا بشيء من علمه فيها.

فالله وحده أسأله أن يعلمني ما لم أكن أعلم، وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا، وأن يزدني علما إنه هو العليم الحكيم – آمين)

وأنا أدعو الجميع إلى مراقبة سلوكيات التجار الجشعين، ليجدوا أن حبّ المال قد سيطر على كل مناحي حياتهم حتى في طريقة تعاملهم مع كل من هم حولهم، فتراه ينظر إلى علاقته بأي شخص (حتى لو كان ولده أو زوجته) وكأنها صفقة تجارية، يحسبها من باب الربح والخسارة.

وغالبا ما يصيبهم الجشع الكبير الذي سببه تلك النار التي سعرّت في بطونهم، فتراهم لا يشبعون حتى لو كان مقدار المال الذي يجنيه يفوق الآلاف المرات ما يسد حوائجه، لذا لا أتردد أن أصفهم بالسعار، فنطلق عليه باللفظ الدارج بأن الرجل قد سُعِر، كما يصيب الكلبَ ذلك المرضُ اللعين المسمى بالسعار (rabies أو hydrophobia). فمن خصائص الكلب أنه يعظ، ويأكل اللحوم وينهش في العظام، لكن إن أصابه هذا المرض اللعين، فإنه سيعظ كل من يواجهه حتى لو كان صاحبه أو من هو على شاكلته، فيصبح لا يفرق بين قريب أو بعيد، ولا بين عدو ولا صاحب. وكذلك هي حال التاجر الذي أصبح ديدنه زيادة الأثمان أضعافا مضاعفة حتى أصبحت أسعارا.

نتيجة مهمة جدا: نحن نظن (ربما مخطئين) بأن الفرق بين الثمن والسعر هو نفسه الفرق بين البيع والربا. ففي حين أن الثمن هو القيمة الحقيقية للبضاعة، إلا أن السعر هو المضاعفة الكثيرة في الثمن.

ولو دققنا في السياقات القرآنية، لوجدنا أن هناك الثمن وهناك الثمن القليل وهناك الثمن البخس. قال تعالى:

- ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ٤١﴾ [البقرة: 41]
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٤﴾ [البقرة: 174]
- وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (20)
- ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ٢٠﴾ [يوسف: 20]

السؤال: إذا كان هناك ثمنا قليلا، فلم لا نجد في الآيات الكريمة على مساحة النص القرآني "ثمنا كثيرا"، أو "ثمنا كبيرا"؟

السؤال: ما هو الثمن الكثير الذي قد يقابل الثمن القليل أو الثمن البخس؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الثمن إذا زاد عن حده، ينقلب فورا ليكون سعرا، فتصبح الصورة على النحو التالي:

القيمة القليلة	القيمة الحقيقية	القيمة الزائدة
ثمنا قليلا ثمنا بخس	ثمن	السعر

السؤال: ولماذا يكون ذلك؟

جواب مفترى مهم جدا جدا: نحن نظن أن أكل الربا يجر معه أكل أموال الناس بالباطل، قال تعالى:

- ﴿وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ وَأَكۡلِهِمۡ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٦١﴾ [النساء: 161]

السؤال: كيف يجر أكل الربا معه أكل أموال الناس بالباطل؟

نتيجة مفتراة مهمة جدا جدا (1): نحن نظن أن المعاملة التجارية (أي معاملة) لا تكون ربا (وتصبح بيعا) إذا لم يحدث جراء ذلك أكل مال الناس بالباطل.

نتيجة مفتراة مهمة جدا جدا (2): نحن نظن أن المعاملة التجارية (أي معاملة) تقع في باب الربا إذا حدث جراء ذلك أكل أموال الناس بالباطل.

السؤال: كيف يمكن أن يأكل التاجر أموال الناس بالباطل؟ وما هو الباطل أصلا؟

رأينا: لو تفقدنا السياقات القرآنية التالية، لوجدنا أن الباطل هو النقيض المقابل للحق، قال تعالى:

- ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤٢﴾ [البقرة: 42]
- ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٧١﴾ [آل عمران: 71]
- ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٤﴾ [التوبة: 34]

نتيجة مفتراة: نحن نظن أن التقابل بين الحق والباطل هو التقابل نفسه بين البيع والربا، فالبيع (الثمن الحقيقي) يقع في باب الحق بينما يقع الربا (السعر) في باب الباطل، كما في الشكل التوضيحي التالي:

الحق	الباطل
البيع	الربا
ثمن	سعر

نتيجة مفتراة (1): إذا كانت المعاملة التجارية قد نتج عنها أكل أموال الناس بالحق فهي – لا شك عندنا- بيع.

نتيجة مفتراة (2): إذا كانت المعاملة التجارية قد نتج عنها أكل أموال الناس بالباطل فهي – لا شك عندنا- ربا.

ولو حاولنا تفقد الآيات الكريمة التالية، لوجدناها تنهانا عن أكل أموال الناس بالباطل:

- ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ١٨٨﴾ [البقرة: 188]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ٢٩﴾ [النساء: 29]
- ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ١٦١﴾ [النساء: 161]

ولو دققنا في الآية الكريمة الأولى وهي:

- ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ١٨٨﴾ [البقرة: 188]

لوجدنا أن أكل أموال الناس يقع في بابين، وهما:

1. أكل أموالهم بينهم بالباطل (وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ)
2. أكل أموال الناس بالإثم (وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ)

ولو دققنا في هاتين الحالتين، لوجدنا أن أكل الأموال بالباطل هو ما يقع بين المتعاملين بالمال أنفسهم (وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ)، لكن أكل أموال الناس بالإثم مرتبطة بالعلاقة بين أصحاب الأموال والحكام (وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ). انظر الجزء السابق من هذه المقالة.

ونحن نكاد نجزم الظن بأن الحالة الأول وهي أكل الأموال بالباطل له علاقة مباشرة بالربا، فكل حالات أكل الأموال بالباطل جاءت مرتبطة بالتجارة وبالربا. وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- في الآيات الكريمة نفسها:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٢٩﴾ [النساء: 29]
- ﴿وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ وَأَكۡلِهِمۡ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٦١﴾ [النساء: 161]

أما أكل أموال الناس بالإثم فقد جاءت مرتبطة بالحكام:

- ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٨٨﴾ [البقرة: 188]

لذا، نحن نتجرأ على الظن بأن أكل أموال الناس بالإثم هي ما يقدمه صاحب المال (المرابي) للحاكم من أجل الظفر بمغانم مادية أخرى من أموال الناس، أي هي ما يسمى باللغة الدارجة بيننا بالرشوة. فصاحب المال (خاصة الأغنياء) يمكن أن يأكلوا أموال الناس بطريقتين:

1. أكل أموال الناس بالباطل (وهو الربا)
2. أكل أموال الناس بالإثم (وهي الرشوة)

فيصبح المال كله (نتيجة ذلك) دولة بين الأغنياء:

- ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٧﴾ [الحشر: 7]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن ليس هناك مجتمع قد تكدست الأموال بيد فئة قليلة من الناس (وهم الأغنياء)، فأخذ المال ينتقل من يد غني إلى يد غني آخر على حساب الطبقات الاجتماعية الأخرى إلاّ بسبب أكل الأغنياء أموال الناس بالباطل (الربا) وكذلك أكلهم أموال الناس بالإثم (الرشوة)، فاختل التوازن الطبقي في المجتمع، فانقسموا إلى فئتين رئيسيتين: طبقة كبيرة فقيرة معدمة وأخرى قليلة غنية متخمة، وتلاشت الطبقة الوسطى التي كان من المفترض أن تكون هي الغالبية الساحقة من أبناء ذلك المجتمع. ولعل التوازن الطبقي هو الأكثر اختلالا في وقتنا الحاضر في المجتمعات التي تسمي نفسها بالمجتمعات الإسلامية. فهي المجتمعات التي تتكدس بها الثروات الطائلة بيد حفنة من الأغنياء المتخمين مقابل الغالبية الساحقة من الطبقة الفقيرة المعدمة. ولعلي أكاد أجزم الظن بأنها هي المجتمعات نفسها التي ينتشر فيها الربا وتنتشر فيها الرشوة بشكل فاضح لا يخفى حتى على البسطاء من الناس. فالأغنياء (المرابون والراشون) والحكام (الفاسدون والمرتشون) هم من يسيطرون على حركة السوق المالية في هذه المجتمعات، وتبقى الغالبية الساحقة من أبناء هذه المجتمعات يرزحون تحت نير الفقر بسبب جشع الأغنياء وظلم الحكام، اللذان تآمرا على المجتمع كله بالضبط كتآمر قارون (صاحب المال) مع فرعون (صاحب السلطة).

السؤال: متى يمكن أن يأكل التاجر أموال الناس بالحق ؟ ومتى يمكن أن يكون قد أكل أموال الناس بالباطل؟

جواب: نحن نظن أن الآية الكريمة التالية (كما نفهمها) تقدم لنا المفتاح الأول للإجابة على هذا التساؤل، قال تعالى:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٢٩﴾ [النساء: 29]

نتيجة مفتراة: نحن نظن أن الآية الكريمة (كما نفهمها) تسطر لنا القاعدة الأساسية الأولى في التجارة، ألا وهي حصول التراض بين الطرفين (إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ). انتهى.

السؤال: أليس ما يجري من معاملات تجارية في البنوك تكون مبنية على التراض بين الطرفين؟

جواب مفترى: كلا وألف كلا، لأنها مبنية على رضا طرف واحد وهو البنك نفسه. فالزبون لا يملك إلا الموافقة على الشروط التي يفرضها البنك نفسه، أي الشروط التي يفرضها صاحب المال. وهذا - برأينا- أول خطوات الوقوع في فعل الربا.

لذا، نحن نتجرأ على القول بأن المعاملات التي تجري في البنوك التي تسمي نفسها إسلامية لا تختلف قيد أنملة عن المعاملات التي تجري في أروقة ما يسمى بالبنوك الربوية، وذلك لانتفاء حصول التراض بين الطرفين. لذا، فهي ليست أكثر من معاملات انطلقت من مبدأ ربوي، وهي رضا طرف واحد على حساب الطرف الآخر. وهي في جميع الحالات تبنى على أساس رضا الغني المتخم على حساب غبن الفقير المحتاج. ولو نظرنا حولنا، لوجدنا أن هذه البنوك (ومن هم وراءها) يملكون معظم ثروة البلاد، فكان المال دولة بين الأغنياء. انتهى.

نتيجة مفتراة: كل معاملة تجارية لا تكون ناشئة عن رضا الطرفين هي معاملة يشوبها الباطل، أي الربا.

السؤال: وماذا عن المعاملات التجارية التي تجري في الأسواق، ألا تكون مبرمة برضا الطرفين؟

جواب مفترى: كلا وألف كلا، فمعظم المعاملات المبرمة في الأسواق مبرمة أيضا برضا طرف واحد، وهو التاجر.

السؤال: وكيف ذلك؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: لأن الزبون لا يعرف التكلفة الحقيقية للبضاعة المباعة، ولأن التاجر هو الوحيد الذي يعرف القيمة الحقيقية للبضاعة.

السؤال: وما علاقة هذا بأكل أموال الناس بالباطل؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن هذا السؤال يوصلنا إلى مبتغانا من هذا النقاش كله.

السؤال: وكيف ذلك؟

جواب مفترى: هل يقبل التاجر أن يفصح فعلا عن التكلفة الحقيقية للبضاعة المباعة؟

السؤال: وهل يجب على التاجر أن يفصح عن التكلفة الحقيقية للبضاعة؟

جواب مفترى: نعم. يجب عليه ذلك.

السؤال: لماذا؟ أي لماذا يجب على التاجر أن يفصح عن القيمة الحقيقية للبضاعة المباعة؟

جواب مفترى: نحن نظن أنه يجب على التاجر أن يفصح عن التكلفة الحقيقية للبضاعة حتى يحصل التراض في إبرام الصفقة التجارة. فالتجارة يجب أن تكون في الأساس مبنية على تراض بين الطرفين (إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْۚ).

السؤال: لماذا؟

جواب: تخيل - عزيزي القارئ - أنك قمت بشراء سلعة معينة بقيمة خمسين دينارا، ثم تبين لك لاحقا بأن قيمتها الحقيقية هي عشرة دنانير، هل تشعر عندها بالرضا؟ هل لو أفصح لك البائع عن قيمتها الحقيقية (وهي عشرة دنانير) وقت إبرام الصفقة التجارية، هل كنت سترضى أن تشتريها منه بخمسين دينارا؟ وماذا كنت ستنعت هذا التاجر الذي يبيع بضاعة كلفته عشرة دنانير بخمسين دينارا؟ ألا يكون هذا التاجر قد أكل مالا مضاعفا أضعافا كثيرة؟! من يدري؟!!!

جواب: لعلي أظن أن الغالبية الساحقة من الناس لن ترضى بذلك. لا بل وسينتابك شعور بالغبن، وربما لا تتردد أن تدعو الله أن يمحق تجارة هذا التجار المرابي، لأن ما فعله ليس أكثر من ربا، أكل من خلاله مالك بالباطل، قال تعالى:

- ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَـٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ۝٢٧٦﴾ [البقرة: 276]

(دعاء: اللهم أسألك أن تحقق وعدك، فتمحق الربا الذي أكل التجار المرابون به أموالنا بالباطل - آمين).

لكن بالمقابل، تخيل لو أنك اكتشفت لاحقا أن قيمة السلعة التي اشتريتها فعلا بخمسين دينارا هي أربعين أو خمسة وأربعين دينارا، هل كان سينتابك الشعور السابق (الغبن) حينها كما شعرت عندما علمت أن قيمتها الحقيقية هي عشرة دنانير فقط؟ هل كنت ستشعر الآن أن من باعك السلعة قد أكل مالك بالباطل؟ هل كنت ستدعو الله أن يمحق رباه؟

جواب: كلا، لأنك ستشعر أن التاجر لم يأكل مالك بالباطل، والأهم من ذلك هو أنه لو أفصح لك التاجر عن قيمتها الحقيقية (كأن تكون أربعين أو خمسة وأربعين دينارا) ستكون راض تمام الرضا، وربما ستدعو له بالخير والبركة.

(دعاء: اللهم أسألك أن تحقق وعدك، فتضاعف مال التجار الذي لم يأكل أموالنا بالباطل - آمين).

السؤال: ما الذي تقوله يا رجل؟ هل يجب على التاجر أن يفصح للزبون عن القيمة الحقيقة لكل سلعة يبيعها؟ هل هذا ممكنا؟

جواب مفترى: كلا، هو ليس مضطرا إلى أن يفصح عن ثمنها الحقيقي في كل مرة. لكنه – لا شك- مجبرا أن يفصح عن قيمتها الحقيقية للدولة عند مطالبته بالزكاة (أي الكشف الضريبي). وسنرى بحول الله وتوفيقه تبعات ذلك لاحقا.

السؤال: فما الذي يجب على التاجر فعله إذن؟ يسأل صاحبنا.

جواب مفترى: نحن نظن أنه يجب على التاجر المسلم المؤمن بربه (الذي ينشد البيع في معاملاته التجارية والذي يريد أن يتحرى أن لا يقع في فعل الربا) أن يكون نبراسه في تجارته القاعدة الإلهية الثانية التي جاءت لتحديد البيع الصحيح (وتبيان الربا الممنوع)، وهي – برأينا- ما جاء في قوله تعالى:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٧٨ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ٢٧٩﴾ [البقرة: 278-279]

نتيجة مهمة جدا: نحن نظن أن البيع الصحيح هو الذي يقوم على مبدأ نفي الظلم عن الطرفين (التاجر والزبون)، فلا التاجر يظلم الزبون ولا التاجر يظلم نفسه.

لذا، نحن نفتري القول بأنه على التاجر المؤمن بربه (الذي لا يريد الوقوع في الربا) أن يبني تجارته كلها على مبدأ " لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ". فعليه إذن أن يتحرى في تجارته أن لا يوقع الظلم على الآخرين كما عليه أن يتحرى أن لا يوقع الظلم على نفسه.

السؤال: وكيف يمكن تطبيق هذا المبدأ في التجارة؟

جواب مفترى: نحن نظن أن تطبيق هذا المبدأ غاية في البساطة، ويتمثل في أن يضع التاجر نفسه مكان الزبون قبل أن يقوم ببيع البضاعة له، فعليه أن يتخيل نفسه أنه هو الزبون الذي سيشتري البضاعة، ثم يقوم بحساب الربح بطريقة لا تلحق الضرر بالآخرين (لاَ تَظْلِمُونَ) ولا تلحق الضرر به شخصيا (وَلاَ تُظْلَمُونَ)، وهي الطريقة التي يتحقق فيها رضا الطرفين. فتاجر القماش سيضطر أن يشتري الخضار والفاكهة لأطفاله من السوق في نهاية اليوم، وسيحتاج أن يشتري الأثاث لبيته والسيارة لنفسه في نهاية الشهر من تاجر آخر، وسيحتاج أن يشتري الذهب في نهاية السنة من تاجر آخر، وهكذا. فهل يقبل أن يأكل هؤلاء ماله بالباطل كما أكل هو مال غيره يوم أن باعهم قطعة من القماش؟ فهل لو كان هو فعلا الزبون الذي سيدفع ثمن البضاعة، هل يرضى أن تؤكل أمواله بالباطل من قبل غيره؟

نتيجة مفتراة: عزيزي التاجر، كما تحب أن لا يأكل الناس أموالك بالباطل، فلا تأكل أموال الناس أنت بالباطل، أليس هذا هو المبدأ الإلهي (لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ).

مثال: تخيل - عزيزي القارئ- أنك كنت مقدما على شراء بضاعة ما، وكان ثمن هذه السلعة عشرة دنانير، هل تقبل أن تأخذها بأقل من تكلفتها الحقيقية؟

جواب مفترى: كلا وألف كلا، فذلك مما لا يقبله الطبع السليم، فأنت لن ترضى للتاجر أن يخسر، فلا تقدم مصلحتك على مصلحة التاجر، ولا تبني سعادتك على تعاسة الآخرين، أليس كذلك؟

سؤال: لماذا ترفض أن تأخذ البضاعة بأقل من تكلفتها الحقيقية؟

جواب: لأن في ذلك ظلم واضح للتجار، وهو ما نهانا الله عنه، فكما نحب أن لا نُظلَم، فيجب علينا أيضا أن لا نظلِم الآخرين (لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ)، أليس كذلك؟

السؤال: وماذا لو باعك التاجر البضاعة (التي كلفته عشرة دنانير) بأحد عشر دينار؟

جواب: لا شك أنك ستكون راض تمام الرضا، لا بل ستنظر إلى ذلك على أنه يقع في باب المودة.

السؤال: وماذا لو باعك إياها باثني عشر دينارا؟

جواب: لا شك أنك ستكون راض أيضا، وربما ستنظر إلى ذلك من باب العدل، وقد تدعو له بالخير والبركة.

السؤال: وماذا سيكون شعورك لو أنه باعك إياها بأكثر من ذلك؟

جواب مفترى: لا شك أن رضاك سيبدأ يتناقص كلما زاد التاجر في كمية الربح الذي أخذه منك.

السؤال: ومتى ستقع المعاملة في باب الربا.

جواب مفترى: إذا شعرت أنه قد أخذ مالك بالباطل، أي قد أخذ منك "ربحا" أكثر مما يجب.

السؤال: وكيف يمكن تحديد ذلك؟

جواب مفترى: نحن نظن أن هذا يقع في يد ولي الأمر نفسه، فهو المنظم المتحكم بالسوق، وهو الذي يحق له أن يحدد هامش الربح الذي يحقق المبدأ الإلهي (لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ)

السؤال: لماذا؟

جواب مفترى: لأنه هو من ستؤول إليه أموال الزكاة في نهاية المطاف. فعلى ولي الأمر أن يحدد هامش الربح الذي سيحاسب التاجر على ما غنم جراء ذلك عندما يقوم التاجر بتقديم كشف الزكاة.

السؤال: ما علاقة هذا بإيتاء الزكاة؟

جواب مفترى: عندما يكون التاجر مؤمنا ملتزما بالشرع الإلهي، وهو أن يدفع خمس ما يغنم لخزينة الدولة، فهو إذا سيعمد إلى تقليل هامش الربح، لأنه سيشعر أن من الأولى أن تبقى الأموال بيد أصحابها، فلا يأكلها بالباطل، وإلا سيضطر في نهاية المطاف أن يدفع قسطا كبيرا منها لخزينة الدولة (كزكاة)، والتي حدد الشارع الكريم مقدارها بخمس المغنم:

- ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٤١﴾ [الأنفال: 41]

فعند تقديم الكشف الضريبي (الزكاة) من قبل التاجر نفسه، فيجب أن يكون هذا الكشف على النحو التالي:

الصنف	التكلفة للقطعة الواحدة	الثمن (البيع) للقطعة الواحدة	الكمية المباعة	الغنيمة	الزكاة %20
بنطال	8 دينار	10	1000	2000	400
ثوب	20 دينارا	25	800	4000	800
قميص	5	7	1200	2400	480
حزام	4	5	2000	2000	400
طقم أولاد	12	15	3000	9000	1800
طقم بنات	12	12	3000	9000	1800
المجموع			**12000**	**28400**	**5680**

السؤال: ما الذي يحصل عندما لا يلتزم التاجر بذلك ويفضل أن يأكل أموال الناس بالباطل؟ فما هي عواقب أكل أموال الناس بالباطل من جراء الربا الفاحش؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن أن النتيجة ستكون لا محالة وخيمة، وهي على النحو الذي تصوره الآية الكريمة التالية:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٢٧٨ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ۝٢٧٩﴾ [البقرة: 278-279]

نعم، هي الحرب المعلنة من الله التي ستكون عاقبتها على النحو التالي:

- ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ۝٢٧٦﴾ [البقرة: 276]

نعم، النتيجة هي أن الله لا محالة سيمحق الربا، وسيرى الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون:

- ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ ۝٢٢٧﴾ [الشعراء: 227]

وسنرى لاحقا عندما نتعرض لهذه القضايا في مقالات منفصلة ومفصّلة بحول الله وتوفيق منه انعكاسات هذه القضايا على الفرد والمجتمع في باب النقد المستخدم في السوق، ولعلي لا أتردد في القول أن ما يحصل في بلاد المسلمين من فوضى عارمة هو وقوعهم في الربا، فكانت حرب الله عليهم معلنة، وكانت النتيجة أن الله قد محق أسواقهم. فبالرغم من وفرة المال في بلاد المسلمين (التي لا يكاد يوجد مثيل لها في بلاد أخرى على وجه الأرض)، إلا أنها البلاد الأكثر معاناة من الفقر والبطالة والبغضاء والتشاحن والحسد فيما بينهم.

(دعاء: فالله وحده أسأل أن يعيد الناس إلى رشدهم وأن يهيئ لهم من أمرهم رشدا، فلا يظلِمون ولا يظلَمون، إنه هو السميع المجيب. والله وحده أدعوه أن يهديني لما اختلف فيه الناس من الحق، إنه هو نعم المولى ونعم المجيب).

مصارف الزكاة والصدقات

حاولنا التفريق سابقا بين الزكاة من جهة والصدقات من جهة أخرى، وزعمنا الظن بأن الزكاة هي واجبة كوجوب إقامة الصلاة، فهي حق مفروض لله في أموال العباد، كما أن الصلاة هي حق مفروض لله في أعمال العباد، فجاء التلازم الذي لا يكاد ينفك بين إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة في كثير من الآيات القرآنية الكريمة، قال تعالى:

- ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ٤٣﴾ [البقرة: 43]
- ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ ٨٣﴾ [البقرة: 83]
- ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٠﴾ [البقرة: 110]
- ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖۗ قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ٧٧﴾ [النساء: 77]
- ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾ [الحج: 78]
- ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٥٦﴾ [النور: 56]
- ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٣﴾ [المجادلة: 13]
- ﴿۞إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ ٢٠﴾ [المزمل: 20]

أما الصدقات فهي – برأينا- بمثابة العمل التطوعي الذي يقوم به الشخص بنفسه لتطهير ماله مما تبقى فيه من رجس الشيطان، ولجلب المنافع له في الدنيا، فهي تقع – برأينا- في باب الشكر، مصداقا لقوله تعالى:

- ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ٧﴾ [إبراهيم: 7]

فالمؤمن الذي يطلب الزيادة من الخير، فعليه أن يعمل شكرا لله، كما كان آل داوود يعملون شكرا:

- ﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾ [سبأ: 13]

فشكر الله يتطلب عملا، وكذلك شكر الوالدين:

- ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ١٤﴾ [لقمان: 14]

فشكر الوالدين يتطلب أكثر من مجرد القول لهم "شكرا"، فمن غير المنطقي أن يدخل الشخص على والديه في اليوم والليلة ليقول لهم شكرا وكفى، بل لابد من عمل يقوم به تجاههما يبين أنه فعلا يشكر لهما، وليس أقل من ذكر أن يعتني بهما إن بلغ أحدهما أو كلاهما الكبر عنده، وأن يدعو لهما بالرحمة كما ربياه صغيرا:

- ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ٢٣ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ٢٤﴾ [الإسراء: 23-24]

فمطلوب منك أيها المؤمن أن تحسن لوالديك، كما هو مطلوب منك أن تقول لهما قولا كريما وكذلك أن تخفض لهما جناح الذل من الرحمة وأن تدعو الله أن يرحمهما كما ربياك صغيرا. ونحن نكاد نجزم الظن بأن هذه الأعمال كلها مجتمعة هو ما يبين شكرك لهما:

- ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ١٤﴾ [لقمان: 14]

فالشكر هو – برأينا- رد الجميل لمن عمل لك عملا حسنا، فحتى مجرد أن يأتيك أحدهم بفنجان من القهوة، فإن أول ردة فعل لك على هذا التصرف هو أن تقول للشخص الذي قدم لك هذا الفنجان من القهوة هو عبارة "شكرا"، أليس كذلك؟

ولا شك عندنا أن الشكر يجب أن يكون مواز للعمل نفسه، فمن غير الطبيعي أن تقول مجرد كلمة "شكرا" لوالديك لأن العمل الذي قدماه لك سابقا هو تربيتك. فأنت مطلوب منك الإحسان لهما والشكر لهما بمقدار ما ربياك صغيرا.

خروج عن النص في استراحة قصيرة: باب حقوق الوالدين

لو تتبعت الفقه الإسلامي الدارج في قضية حقوق الوالدين وبرهما، لوجدت أن هذه القضية قد أخذت حيزا كبيرا من النقاش الفقهي، ولعل القارئ البسيط لهذا الفقه سيخرج مباشرة بنتيجة مفادهما أن حقوق الآباء على الأبناء تفوق كثيرا حقوق الأبناء على الآباء، حتى وصل القول ببعضهم أن على الابن أن يكون مطيعا لوالديه في أمور الدنيا كلها، فلا يعصي لهما أمرا مطلقا. فكلما أراد هؤلاء الآباء تنفيذ مرادهم (الذي ربما لا يكون هو الحق بعينه) تسلحوا بساطورة الدين التي تقضي (حسب فهمهم) بحق الآباء شبه المطلق على أبنائهم. ولعلي أكاد أجزم الظن بأن هذا من الظلم الذي أوقع أهل العلم الناس فيه، وكثيرا ما استخدم بعض الآباء هذا الفقه الديني (ربما غير المتوازن) بطريقة تعسفية لا تمت – برأينا- إلى الدين بصلة.

وقد شاع بين الناس ما قاله أهل العلم فيما جاء في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: 23-24]

فحرموا على الأبناء حتى أن يقولوا لآبائهم أف لكم (بالمعنى الدارج لمفردة الأُف). فكان ذلك كما السيف المسلط على رقاب الأبناء من قبل كثير من الآباء.

السؤال: هل حقا يستطيع أحد من الأبناء أن لا يتأفف في وجه والديه؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن العلاقة بين الآباء والأبناء يجب أن تتسم بالعدالة، فلا يطغى حق أحد منهم على حق الآخرين. فالآباء لهم حق على أبنائهم كما للأبناء حق على آبائهم.

السؤال: وكيف يكون ذلك؟

رأينا المفترى: لو دققنا في قصة إبراهيم مع أبيه، لوجدنا أن إبراهيم قد قال لآبيه وقومه أجمعين أف لكم:

- ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء: 66-67]

فلو تدبرنا مفردة الأف التي قالها إبراهيم، لوجدنا بأنها خاصة بالعلاقة الدينية بين الطرفين (أي العبادة)، فالأبناء مطالبون بعدم طاعة الوالدين إن هما جاهداك على الإشراك بالله:

- ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [العنكبوت: 8]
- ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ [لقمان: 14-15]

فعندما جاهد أب إبراهيم ابنه إبراهيم على أن يشرك بالله لم يطعه، وكانت ردة فعله تجاهه قد تمثلت بأنه قال له (ولقومه) أف لكم فعلا. وقد تحدثنا في مقالة سابقة لنا عن معنى الأف وذكرنا أن هذا يقع في باب القطيعة الدينية:

- ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافرون: 1-6]

فلا يجب على الأبناء إطاعة الوالدين إذا ما كانت العلاقة بين الطرفين غير مستوية من الناحية الدينية. ولكن هذا يجب أن يكون في سياق أن الوالدين لازالا قادرين على خدمة أنفسهم بأنفسهم، أي قبل أن يبلغا الكبر. فإبراهيم قد ترك أباه وارتحل من البلاد التي يسكنها، وكان قد اعتزلهم من قبل ذلك:

- ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ۖ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾ [مريم: 46-49]

نتيجة مفتراة 1: يحق للأب أن يطلب من ولده أن يهجره

نتيجة مفتراة 2: يحق للابن أن يعتزل أبويه إذا وجد أن لكل واحد منهم دينا يختلف عن دين الآخر

نتيجة مفتراة 3: يحق للابن أن يهجر أبوية إذا ما وجد أن لغة التواصل بين الطرفين قد وصلت إلى طريق مسدود

السؤال: متى يصبح هذا الاعتزال أو الهجران غير ممكن؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أنه ليس من حق الولد أن يهجر والديه أو أن يعتزلهم في حالة بلوغ أحدهما أو كلاهما الكبر:

- ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: 23-24]

لذا، يجب على الأبناء أن يعكفوا على خدمة والديهم في حالة بلوغ أحدهما أو كلاهما الكبر. وفي هذا الوقت يصبح من الواجب على الأبناء القيام على رعاية الآباء تحت جميع الظروف والأحوال حتى وإن لم يكونوا مؤمنين.

السؤال: لماذا؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن السبب في ذلك يعود إلى أنه قد حان الوقت لرد المعروف بالمعروف (أي الشكر). فكما ربياك صغيرا، عليك أن تقوم على رعايتهما إذا بلغا الكبر:

- ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: 23-24]

ولو تدبرنا الآية الكريمة جيدا، لوجدنا أنها مبنية على مبدأ المساواة التامة (وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا)، فكما أحسن والداك إليك وأنت صغير عندما كنت محتاجا إلى الرعاية، فعليك بالمقابل أن تحسن لهما عند بلوغهما الكبر وقد أصبحا الآن بحاجة إلى من يرعاهما.

ولو تدبرنا الآية أكثر، لوجدنا أنه ليس مطلوب من الأبناء الإحسان بأكثر مما أحسنا إليك في صغرك، فالله هو من طلب منا الإحسان كما أحسن هو إلينا:

- ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَاۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [القصص: 77]

فبالرغم أنه مطلوب مني أن أحسن كما أحسن الله إلي، لكن يستحيل أن أحسن أكثر مما أحسن الله إلي.

وهنا نتوقف عند ثلاث مفردات متقاربة في المعنى وردت عند الحديث عن علاقة الأبناء بالآباء وهي مفردات الشكر والإحسان والبر، فكيف يمكن التفريق بين هذه المفردات المتقاربة؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا، لن ندخل في الأدلة على ما سنفتريه هنا لأننا سنفرد لذلك بحول الله وتوفيقه مقالات مستقلة لاحقا متى ما أذن الله لنا بشيء من علمه فيها، فالله وحده أسأله أن يعلمني ما لم أكن أعلم وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا وأن يزدني علما إنه هو السميع البصير.

لذا سأكتفي بتسطير الفروقات التي نظن أنها رئيسة بين هذه المفردات كما في الجدول التوضيحي التالي:

الشكر	يحتمل النقصان	أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ
الإحسان	مبني على التكافؤ	وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَۖ ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن: 60]
البر	يحتمل الزيادة	﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ [الممتحنة: 8]

عندما يقدم لك شخص معروفا، فإن أول ردة فعل لك هي أن تقول له شكر، فكلمة شكرا بنفسها لا تعادل المعروف الذي قدمه لك حتى لو كان فنجانا من القهوة.

ولكن عندما أحسن إليك (بأن قدم لك معروفا)، فإنك لن تتردد متى ما سنحت لك الفرصة أن تقدم له معروفا بمثله (كفنجان القهوة)، وهنا تكون قد أحسنت إليه كما أحسن إليك (هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ).

لكن الذي لم يقدم لك معروفا، وقمت أنت بتقديم معروف له لا ترجو منه مقابلا على ذلك فهذا يقع في باب البر. فالمعروف مع من لا ترجو معروف منه هو بر. فمريم لم يكن لها فضلا على المسيح، فهي لم ترضعه، وهي لم تربيه، وهي لم تحسن له بشيء، فجاء قول المسيح على النحو التالي:

- ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾ [مريم: 32]

وعندما يموت الوالد أو الوالدة، وتقدم المعروف لهما حتى بعد موتهما، فإن ذلك يقع في باب برهما، كما فعل يحيي:

- ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾﴾ [مريم: 14]

وسنتحدث عن ذلك بالتفصيل عند التعرض لحياة نبي الله يحيى لاحقا بحول الله وتوفيق منه، فالله وحده من نسأل دائما أن يأذن لنا شيء من علمه في ذلك لا ينبغي لغيرنا إنه هو السميع البصير.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا 1: نحن مطلوب منا الإحسان كما أحسن الله إلينا (وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ)، لذا يستحيل أن أحسن أكثر مما أحسن الله إلي. فمن المنطقي أن يكون الله قد أحسن إلينا أكثر مما نستطيعه نحن. لكن مادام أن المطلوب هو الإحسان، فيجب أن تكون العلاقة مبنية على مبدأ التكافؤ (هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ)

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا 2: نحن مطلوب منا الإحسان إلى والدينا والدعاء لهما كما ربياني صغيرا (وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا)، لذا يستحيل أن أحسن إليهما كما أحسنوا هم إلي. فمن المنطقي أن تكون العلاقة مبنية على مبدأ التكافؤ (هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ).

نتيجة مفتراة خطير جدا جدا: نحن نظن أن للأبناء حق على الآباء لا يقل عن (وربما يفوق) حق الآباء على الأبناء. وهذا برأينا يقلب الأمور رأسا على عقب، فينقلب الفكر (متى صح) كله. فبدل من الخطب غير المنتهية عن حقوق الآباء، يجب أن يكون هناك خطب أكثر عن حقوق الأبناء على الآباء.

السؤال: ما المشكلة في الفكر السائد؟

لو تفقدنا الفكر السائد، لوجدنا بأنه يطلب من الأبناء أكثر مما يطلب من الآباء، ويحمل الأبناء من حيث المبدأ أكثر مما يحمل الآباء، لكن يبقى التساؤل التالي مطروحا: ماذا لو استغل الآباء هذه السلطة (أو لنقل السطوة) الدينية؟ وماذا لو كان هناك أب ظالم؟ وماذا لو أن الآباء لم يحسنوا لأبنائهم في صغرهم (وما أكثرهم)؟

جواب مفترى: لو تدبرنا الآية الكريمة السابقة، لوجدنا أن إحسان الأبناء لآبائهم يجب أن يكون مبينا في الأساس على إحسان الآباء لأبنائهم من ذي قبل. فأنت أيها الابن مطالب أن تحسن لوالديك بمقدار ما قد أحسنوا هم إليك من ذي قبل ولا تزد على ذلك. فأنت مطلوب منك أن تصاحبهما في الدنيا معروفا، لكن لا تدعهم يستغلوك بحجة أن لهم واجبا عليك أكثر مما كان يتوجب عليهم فعله لك. فالعلاقة مبينة في الأساس على التكافؤ (وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا)، فلا يحق لطرف أن يطغى على الطرف الآخر. فكما لكل طرف حق، فعليه أيضا واجب بمثله. وهذا هو مبدأ العدل الذي يجب أن يكون سائدا في كل العلاقات البشرية.

السؤال: كيف يمكن الحفاظ على مبدأ التكافؤ في العلاقة بين الآباء والأبناء؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأنه ما دام الوالدان يتمتعان بالصحة الكافية التي تمكنهما من أن يقوما على رعاية أنفسهم بأنفسهم، فكل ما أنت مطالب به هو حسن صحبتهم بالدنيا بالمعروف. ولا مانع أن تجادلهم بالمعروف حتى لو وصل الأمر بك أن تقطع العلاقة معهما كليا كما فعل إبراهيم، أي أن تقول لهما أف. والأُف هي - برأينا - قطع العلاقة معهما تماما بالاعتزال والهجران لاختلاف العقائد. لكن إذا بلغ أحدهما أو كلاهما الكبر عندك، فعليك أن لا تخوض معهم في نقاشات عقائدية مهما كانت عقيدتهم التي يؤمنون بها حينئذ، فأنت مطالب بالإحسان لهما لأنهما أحسنا إليك يوم أن كنت طفلا صغيرا، فلم يجريا معك نقاشا عقائديا حينئذ. وهذا يندرج تحت مبدأ المعاملة بالمثل.

السؤال: لماذا؟ لم يجب أن يكون للأبناء حق على الآباء لا يقل عن حق الآباء على الأبناء؟

رأينا المفترى: عندما تزوج أبي بأمي، لم يكن يخطط ذلك من أجل سواد عيوني أنا (كما نقول في اللغة الدارجة). فلم يكن في مخياله أنه قد تزوجها لينجبني أنا على وجه الخصوص. فسواء أنجبني أنا أو أنجب غيري، فإن الأمر بالنسبة له سيان. ففي تلك الليلة الظلماء التي قبع فيها والدي على بطن أمي ليشبع غريزته الجنسية، لم يكن يفعل ذلك من أجل إنجابي أنا على وجه التحديد، فحتى لو نتج عن ذلك الجماع الغريزي شخص عاق مثلي أو شخص بار مثل مشايخنا العلماء، فالأمر بالنسبة للأب (كأبي مثلا) سيان، فلم يكن في حسبان أبي ساعة وصوله إلى الذروة الجنسية من فرج أمي أن ينجب ولدا مثلي. وما كان نزول أمي عند رغبة أبي طلبا لإنجابي بل تلبية لرغبة زوجها فيها، فحتى لو أنجبا جروا (صغير الكلب) من ذلك الجماع، لما كان ذلك سيقتلهما حسرة علي أنا على وجه التحديد. فوالداي أقاما علاقة جنسية بينهما في تلك الليلة الحمراء تلبية لرغبتهما الجنسية وعلاقتهما الحميمية وليس طلبا لإنجابي أنا على وجه التحديد. فحتى لو لم يتحصل من ذلك الجماع حملا، لما كانا (أي والداي) سيقتلون أنفسهم حسرة عليّ. فكم قبع والدي على بطن أمي قبل أن ينجبني وما تحسروا عليّ حين لم أولد لهما؟ وكم قبع على بطنها بعد أن أنجباني وما كفهم إنجابي عن ذلك العمل المشين؟ وما كان

مجيئي أنا (بالنسبة لهم) إلا من قبيل المصادفة البحتة. فكم من مرة سمعت من أمي تقول لي بملء الفيه بالعامية الأردنية (يا ريت جبت جرو ولا جبتك)!

تساؤلات

⇐ إذا كان مجيئك للدنيا ليس طلبا شخصيا من الوالدين، فلم يكن لهما علينا حق أصلا إن صح ما تقول؟ يسأل صاحبنا مستغربا.
⇐ وإذا كان قدومي سببه رغبة جنسية من الوالد في الوالدة، فما ذنبي أن أتحمل أنا (على وجه التحديد) تبعات عملهم المخجل هذا؟
⇐ ألم يكن أكثر لباقة لو أنهم قضوا تلك الليلة برومانسية بريئة بدلا من الوقع في فعل فاضح يكون نتيجته شخص "غير مؤدب" مثلي؟
⇐ ألم يكن يكفي أمي تلك الوردة الحمراء والهدية الذهبية التي قدمها والدي لها في تلك الليلة؟ هل كان يجب أن تتنازل له مقابل ذلك عن شيء من طهرتها؟ يا عيب!!!
⇐ الخ.

رأينا المفترى: لا شك أن غريزة الإنسان للولد هي غريزة فطرية، بالرغم من أنها تجلب له الشقاء، لكنه لا شك يتمتع بها، ويجهد نفسه في طلبها، فلو ظلت العلاقة بين والدي ووالدتي علاقة جنسية بحتة غير منجبة، لما استمرت بالشكل الطبيعي إلى الأبد، ولما تردد والدي حينها (أنا أتخيل) بالبحث عن فرج امرأة أخرى تجلب له الولد. وليس أدل على ذلك مما فعل زكريا، فبالرغم من العلاقة الطويلة مع امرأته، إلا أن هذا لم يمنعه من طلب الذرية في نهاية المطاف:

- ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٨﴾ [آل عمران: 38]

فالإنسان يحتاج في علاقته الزوجية تحقيق أمرين اثنين ربما لا ثالث لهما، وهما:

1. تلبية الرغبة الجنسية أولا
2. طلب الذرية ثانيا

إن هذا المنطق المفترى من عند أنفسنا يتطلب منا تسطير الافتراء الخطير التالي: أنت بالنسبة لوالدك حاجة رقم 2، وليس حاجة رقم 1، فالحاجة الأولى هي تفريغ طاقته الجنسية وإشباعها، والحاجة الثانية هي الحصول على الذرية. فقبل الحصول على الذرية يكون الإنسان منشغلا بتلبية حاجته الجنسية، وأثناء الحصول على الذرية يستمر الإنسان في تلبية رغبته الجنسية، وحتى بعد الحصول على الذرية لا يكف الإنسان عن تلبية رغبته الجنسية غير المنقطعة. فالرغبة الجنسية هي الحاجة الملحة الأولى عند الأب، بينما الحصول على الذرية هي الرغبة الثانية غير المباشرة.

نتيجة مفتراة: مادمت أنا حاجة رقم 2 عند والدي، فليس له عليّ واجب أن يكون حاجة رقم 1 عندي. فهو يجب أن يكون بالنسبة لي رقم 2، وليس رقم 1

لكن بالرغم أنه هو بالنسبة لي حاجة رقم 2، فأنا يجب أن أكون بالنسبة له حاجة رقم 1 إن أراد أن يكون هو بالنسبة لي حاجة رقم 1.

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: إن هذا المنطق سيعيدنا فورا إلى قصة الخلق من أولها، لنسطر من خلال ذلك الافتراء الخطير جدا جدا التالي: بالرغم أن والدي لم يختاراني أنا على سبيل التحديد إلا أني أنا قد اخترتهما على سبيل التحديد. فأنا من اخترت والداي بالرغم أنه كان بمقدوري أن أختار غيرهما. انتهى.

السؤال: وكيف ذلك؟ هل تهذي يا رجل؟ أيعقل أن تقول أن الطفل هو من اختار والديه بالذات بالرغم أنهما لم يختاراه هو على سبيل التحديد؟

رأينا المفترى: لقد تعرضا لمثل هذه الجزئية في بعض المقالات السابقة، لكني سأعيد هنا فقط الخطوط العريضة لمثل هذا الفكر، وذلك لأهميتها في النقاش هنا.

أولا، جاء خلق البشر جميعا مرة واحدة مع خلق آدم:

- ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ١١﴾ [الأعراف: 11]

ثانيا، أخذ الله البشر جميعا فجعلهم ذرية في ظهر آدم:

- ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (34)
- ﴿ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٤﴾ [آل عمران: 34]

ثالثا: طلب الله من الملائكة السجود لآدم:

- ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ١١﴾ [الأعراف: 11]

رابعا: أخذ الله هذه الذرية من ظهور بني آدم وأشهدهم على أنفسهم أنه ربهم فشهدوا:

- ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ١٧٢﴾ [الأعراف: 172]

خامسا: بدأ البشر يتكاثرون بالتناسل (ذرية بعضها من بعض):

- ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗاۚ وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ١١﴾ [فاطر: 11]
- ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٦٧﴾ [غافر: 67]

إن أهم ما نريد التركيز عليه هنا هو أننا كنا في عالم الذرية (أي في ظهور الآباء) واعين مدركين لأفعالنا، قادرين أن نتحمل تبعاتها. فما دمت أنت ذرية في ظهر آبائك فإنك عاقل بالغ راشد قادر على اتخاذ القرار، وهذا ما نفهمه نحن (ربما مخطئين) من الآية الكريمة التالية.

- ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ١٧٢﴾ [الأعراف: 172]

لذا، عندما حصل الجماع بين أبي وأمي في تلك الليلة الحمراء (لا زلت أذكر)، نزلت أنا رشيد (كحيوان منوي) من ظهر أبي، وكنت حينها مدركا واعيا تماما لما أفعل، أعلم أن هذا والدي وهذه والدتي، فرحت أبحث عن المخرج من عالم الذر (من هذا السجن)، فاخترقت جدار البويضة (المركبة) التي ستخرجني من تلك الظلمات إلى النور:

- ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ٦﴾ [الزمر: 6]

فقاتلت بشراسة وببسالة منقطعة النظير (كحيوان منوي) جميع من نافسني على ذلك الكرسي (وما أكثرهم!) في تلك المركبة (البويضة)، وفزت أنا بالنجاة إلى عالم النور بعد أن كنت في الظلمات أبحث عن من يخرجني منها. فكان ذلك أعظم انجاز حققته في رحلتي في الحياة كلها. وكنت حينها أدرك تماما بأن هؤلاء هما من سيكونا والداي، فكنت راضيا مقتنعا بذلك. فأنا من اخترت والدي مباشرة بالرغم أنهما لم يختاراني مباشرة.

السؤال: لماذا اخترت أن يكونا هذان على وجه التحديد هما والداي؟ لِم لم أختر غيرهما؟ لِم لم أختر أن أكون أبن ملك أو ابن مسئول فاسد كبير (وما أكثرهم)؟ ولم لم أختر أن أكون ابن رجل ثري مسعور؟ فما الذي دفعني وأنا واع تماما مدرك لما أفعل أن لا أختر غيرهما؟

توقف يا رجل ما الذي تقوله؟ هل فعلا كنت في تلك اللحظة واع مدركا لما تفعل؟

رأينا المفترى من عند نفسي: نعم. أعتقد جازما أني كنت واع مدرك لما أفعل عندما كنت ذرية في ظهر والدي (كحيوان منوي).

السؤال: وأين الدليل على ذلك؟

جواب مفترى: نحن نظن بأننا نستطيع تقديم دليلين اثنين على صحة زعمنا هذا، أحدهما نقلي والآخر فطري. أما الدليل النقلي فهو الآية الكريمة السابقة التي وردت في النقاش السابق، وهو قوله تعالى:

- ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف: 172]

فالله إذن هو من أخذ من بني آدم من ظهورهم ذريتهم، وهو من أشهدهم على أنفسهم بأنه هو ربهم، وهم من شهدوا على ذلك. فهل يستطيع أحد إنكار ما جاء في هذه الآية الكريمة؟

نتيجة مفتراة 1: عندما كنا ذرية في ظهور آبائنا كنا واعين مدركين قادرين على الاختيار، أليس كذلك؟

أما الدليل الفطري، فهو يتمثل بتلك الكينونة التي وجدت في ظهور الآباء وهي الذرية. فنحن نتعارف فيما بيننا بأن خلق الإنسان قد بدأ من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين:

- ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [السجدة: 7-9]

وهذا الخلق قد بدأ بكلماتنا الدراجة بـ "الحيوان المنوي" الذي يخرج من بين الصلب والترائب:

- ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾﴾ [الطارق: 5-8]

فالله هو من أمرنا أن ننظر ممّ خلقنا (فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ)، لنجد أننا قد خلقنا من ماء دافق (خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ)، وهذا الماء هو الذي يخرج من بين الصلب والترائب (يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ). وقد وجدنا بأن هذا الماء الدافق يحتوي على عدد هائل من الكائنات الحية التي تسمى بالحيوانات المنوية. ليكون السؤال المطروح الآن هو: لماذا نسمى (نحن البشر) هذه الكائنات الحية التي تخرج من بين الصلب والترائب (وهي أساس الحياة) بالحيوانات المنوية؟

السؤال: ما هو الحيوان المنوي؟ ولم يسمى بالحيوان المنوي أصلا؟

لعل نظرة سريعة في الآيات الكريمة عن مفردة "المنوي"، سنجد أنها متواجدة في أكثر من موضع في النص القرآني، قال تعالى:

- ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [النجم: 45-46]
- ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الواقعة: 58-59]

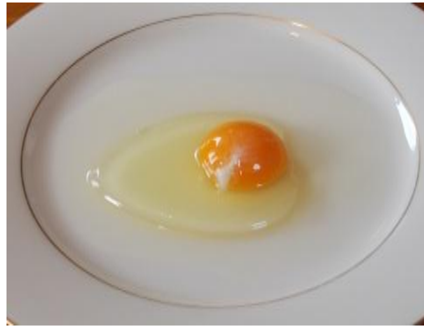
- ﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ٦﴾ [المدثر: 6]

وقد تعرضنا في سلسلة مقالاتنا عن كيفية خلق عيسى بن مريم لمفردة المنّ الواردة في قوله تعالى:

- ﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٥٧﴾ [البقرة: 57]
- ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١٦٠﴾ [الأعراف: 160]
- ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ٨٠﴾ [طه: 80]

وزعمنا القول حينئذ بأن المن هو البيض، وهذا البيض هو مصدر الحياة كما أن ماء الرجل هو منّ لأنه أيضا مصدر الحياة. فظننا أن هناك علاقة مباشرة بين المَنّ (بيض المائدة) والمنيّ (إنزال ماء الشهوة عند الرجال). فحاولنا ربط المفردتين معا بعد تدبرنا المائدة السائلة المتكوّنة في داخل كينونة بيض المائدة ومقارنتها بالمائدة التي تنزل من الرجل بالشهوة. فزعمنا أنهما متطابقتان في الشكل والتركيب من جهة وفي الوظيفة من جهة أخرى.

أما بالنسبة للشكل، فهو مألوف لمن بلغ الحلم من الرجال ولمن تزوجت من النساء، فهو يشبه المادة المتواجدة في بيض المائدة كما في الشكل التوضيحي التالي:



أما بالنسبة للتركيب، فنجد أن ما بداخل صدفة بيض المائدة (egg shell) هو عبارة عن مادتين لزجتين، وهما المادة البيضاء (egg white) والمادة الصفراء (egg yolk)، ونترك لأهل الأعجاز العلمي ليدخلوا المنّ (البيض) والمنيّ (ماء شهوة الرجل) إلى المختبر للتحليل والتمحيص.

وأما بالنسبة للوظيفة- وهو الأهم بالنسبة لنا هنا- فتكمن في الظن أن وظيفة ماء الرجل الذي ينزل بالشهوة لا تتجاوز وظيفة السائل المتواجد داخل بيض المائدة: إنها الحياة. فحياة الكائن الحي تخرج إما من الماء الذي ينزله الرجل في رحم المرأة (المنيّ) أو من السائل المتواجد في داخل بيض المائدة (المنّ)، لذا انقسمت الكائنات الحياة إلى قسمين:

1. قسم يتكاثر بالمنيّ (ماء الشهوة الذي يصبه الذكر في رحم الأنثى)
2. قسم يتكاثر بالمنّ (السائل المتواجد داخل بيض المائدة)

السؤال: إذا كان هذا هو المنّ فعلا، ومنه اشتقت مفردة منوي، فلم نسميه (نحن البشر) بالحيوان المنوي؟ لم هو حيوان؟ وما هو الحيوان أصلا؟

رأينا المفترى: نحن نفتري القول أن مفردة الحيوان لم ترد في النص القرآني إلا في موضع واحد، قال تعالى:

- ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٦٤﴾ [العنكبوت: 64]

السؤال: ما معنى "حيوان" هنا؟ ولم تكون الدار الآخرة هي الحيوان أصلا؟ أليس هذا من العجائب القرآنية التي ربما لا زالت عصية على أهل العلم؟

دعنا نرى بداية ما جادت به عقول أهل الدراية عن هذه الآية في بطون أمهات كتب التفسير كتفسير القرطبي مثلا:

وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب

أي شيء يلهى به ويلعب أي ليس ما أعطاه الله الأغنياء من الدنيا إلا وهو يضمحل ويزول ; كاللعب الذي لا حقيقة له ولا ثبات قال بعضهم : الدنيا إن بقيت لك لم تبق لها وأنشد : تروح لنا الدنيا بغير الذي غدت وتحدث من بعد الأمور أمور وتجري الليالي باجتماع وفرقة وتطلع فيها أنجم وتغور فمن ظن أن الدهر باق سروره فذاك محال لا يدوم سرور عفا الله عمن صير الهم واحدا وأيقن أن الدائرات تدور قلت : وهذا كله في أمور الدنيا من المال والجاه والملبس الزائد على الضروري الذي به قوام العيش والقوة على الطاعات وأما ما كان منها لله فهو من الآخرة وهو الذي يبقى كما قال : " ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام " [الرحمن : 27] أي ما ابتغي به ثوابه ورضاه

وإن الدار الآخرة لهي الحيوان

أي دار الحياة الباقية التي لا تزول ولا موت فيها وزعم أبو عبيدة : أن الحيوان والحياة والحي بكسر الحاء واحد كما قال : وقد ترى إذ الحياة حي وغيره يقول : إن الحي جمع على فعول مثل عصي والحيوان يقع على كل شيء حي وحيوان عين في الجنة وقيل : أصل حيوان حييان فأبدلت إحداهما واوا ; لاجتماع المثلين

لو كانوا يعلمون

أنها كذلك

أو كتفسير القرطبي:

وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون

القول في تأويل قوله تعالى : { وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون } يقول تعالى ذكره : { وما هذه الحياة الدنيا } التي يتمتع منها هؤلاء المشركون { إلا لهو ولعب } يقول : إلا تعليل النفوس بما تلتذ به , ثم هو منقض عن قريب , لا بقاء له ولا دوام { وإن الدار الآخرة لهي الحيوان } يقول : وإن الدار الآخرة لفيها الحياة الدائمة التي لا زوال لها ولا انقطاع ولا موت معها . كما : 21214 - حدثنا بشر , قال : ثنا يزيد , قال : ثنا سعيد , عن قتادة , قوله : { وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون } حياة لا موت فيها . 12115 - حدثني محمد بن عمرو , قال : ثنا أبو عاصم , قال : ثنا عيسى ; وحدثني الحارث , قالا : ثنا الحسن , قال : ثنا ورقاء جميعا , عن ابن أبي نجيح , عن مجاهد , قوله { لهي الحيوان } قال : لا موت فيها. 21216 - حدثني علي , قال : ثنا أبو صالح , قال : ثني معاوية , عن علي , عن ابن عباس , في قوله { وإن الدار الآخرة لهي الحيوان } يقول : باقية . وقوله : { لو كانوا يعلمون } يقول : لو كان هؤلاء المشركون يعلمون أن ذلك كذلك , لقصروا عن تكذيبهم بالله , وإشراكهم غيره في عبادته , ولكنهم لا يعلمون ذلك .

السؤال: أين التفسير الذي من المفترض أنه يوضح هذه الآية الكريمة وخاصة كلمة الحيوان الواردة فيها؟ هل يرقى مثل هذا القول أن يكون تفسيرا؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن هذا لا يرقى أن يكون تفسيرا يمكن الوثوق به. انتهى.

السؤال: كيف يمكن أن تُفسّر إذن؟ يسأل صاحبنا ربما مستغربا

جواب مفترى: لو دققنا في الآية الكريمة لوجدنا بأن المقابلة هي بين الحياة الدنيا من جهة والآخرة من جهة أخرى، وأن من مميزات الحياة الدنيا هي أنها لهو ولعب، لكن الآخرة بالمقابل هي الحيوان، كما في الشكل التوضيحي التالي:

الحياة الدنيا	الآخرة
لهو ولعب	الحيوان

السؤال: إذا كانت الحياة الدنيا تقابل الآخرة في الآية الكريمة نفسها، فكيف يكون اللهو واللعب (مواصفات الحياة الدنيا) يقابلان معا "الحيوان (ما يصف الآخرة)؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: عند البحث عن مفردات اللهو واللعب في كتاب الله، وجدناها مقابلة للحق كما في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ۝١٧ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ۝١٨﴾ [الأنبياء: 17-18]
- ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ۝٥٥﴾ [الأنبياء: 55]

ولو دققنا في هذه الآيات الكريمة، لوجدنا على الفور أن اللهو واللعب يقابلان معا الحق. فالله لم يتخذ لهوا ولكنه يقذف بالحق على الباطل. ومن جاء بالحق يستحيل أن يكون من اللاعبين.

السؤال: ما الذي يمكن أن نستفيده من هذا؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن من اتصف باللهو واللعب يستحيل أن يكون ممن جاء بالحق. والعكس صحيح، فيستحيل أن يكون من جاء بالحق من الذين يلهون ويلعبون، أليس كذلك؟

السؤال: لم أفهم ما تريد قوله؟ هل يمكن التوضيح أكثر؟ يرد صاحبنا ربما مستعجلا الإجابة.

رأينا المفترى: ربما نريد أن نستنتج من هذا الطرح بداية بأن اللهو واللعب من صفات الحياة الدنيا بينما الحق من صفات الآخرة، ليكون السؤال المطروح الآن هو: لماذا؟ أي لم تكون الحياة الدنيا لهو ولعب؟ ولم تكون الآخرة غير ذلك؟ ألا يوجد في الآخرة لهو ولعب؟ ولم لا يوجد في الآخرة لهو لعب؟

رأينا المفترى: نحن ننفي أن يكون في الآخرة لهو ولعب وذلك لأن المحرك للهو واللعب هو الأمل، قال تعالى:

- ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾ [الحجر: 3]

السؤال: لم يكن الأمل هو الذي يلهي الناس؟ أي ما علاقة الأمل باللهو؟

رأينا المفترى الخطير جدا جدا: دقق عزيزي القارئ – إن شئت- في الآية السابقة جيدا، ألا تجد بأن الذي يجعل الناس يلهون ويلعبون في الحياة الدنيا هو عدم العلم؟

نتيجة مفتراة مهمة جدا جدا: مادام أن الإنسان ينقصه العلم، فهو إذن يتعلق بالأمل، وهذا الأمل هو الذي حرك اللهو عندهم. فلو كان عندهم علم، لما وقعوا في اللهو واللعب الذي يحركه الأمل. انتهى.

السؤال: ومتى سيأتي الناس العلم فيكفوا عن اللهو اللعب ولا يصبحون متعلقين بالأمل؟

جواب مفترى: دقق عزيزي القارئ في الآية السابقة مرة أخرى، ألا تجد أن العلم موجل (فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ). فمتى سيعلمون إذن؟ هل سيكتمل علمهم في الحياة الدنيا؟ ومتى يمكن أن يكتمل علمهم ويصبحوا موقنين؟

رأينا المفترى: نحن نؤمن باستحالة أن يأتي اليقين ما لم يكتمل العلم، كما نظن جازمين باستحالة أن يكتمل العلم في الحياة الدنيا وأن الآخرة هي المكان الوحيد الذي يمكن أن يكتمل العلم فيها.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا (1): الحياة الدنيا هي دار أمل، لذا تتصف باللهو واللعب.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا (2): الآخرة هي دار العلم اليقين، لذا ينتفي أن يكون فيها لهو ولعب.

السؤال: ما الذي يمكن أن نستنبطه من هذا كله؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: لما كانت الحياة الدنيا هي دار أمل، لذا يستحيل أن نصل فيها إلى اليقين، لكن بالمقابل لما كانت الآخرة هي دار العلم، فإن اليقين من أهل ميزاتها.

السؤال: متى يمكن أن يأتينا اليقين؟

جواب مفترى: دقق عزيزي القارئ في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ۝٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ۝٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤٦ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ۝٤٧ فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ۝٤٨﴾ [المدثر: 43-48]

ألا ترى أنه من الاستحالة بمكان أن يأتيك اليقين قبل البعث والنشور والحساب؟ فاليقين هو إذن الحالة التي يستحيل أن يتواجد معها الشك أو الظن، قال تعالى:

- ﴿وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ۝١٥٧﴾ [النساء: 157]
- ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ۝٩٩﴾ [الحجر: 99]
- ﴿فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ۝٢٢﴾ [النمل: 22]
- ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ ۝٨٩ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ۝٩١ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٩٢ فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ ۝٩٣ وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ ۝٩٤ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ ۝٩٥ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ۝٩٦﴾ [الواقعة: 88-96]

- ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾ [الحاقة: 49-52]

نتيجة مفتراة: لما كانت الحياة الدنيا مبنية على الظن، فإن الأمل هو المحرك الرئيس للناس فيها، لذا لن يترددوا أن يلهوا ويلعبوا ما دام أن العلم فيها غير يقيني، لكن الآخرة بالمقابل فهي الدار المبنية على العلم اليقيني، لذا يستحيل أن يكون فيها أمل، ويستحيل أن يلهو ويلعبوا فيها.

السؤال: ما علاقة هذا بقوله تعالى:

- ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت: 64]

فلم وصفت الآخرة على أنها هي الحيوان إذن؟

جواب مفترى خطير جدا (لا تصدقوه إن شئتم): الدار الآخرة هي الحيوان لأنه لا لهو فيها ولا لعب، وذلك لانتفاء وجود محرك اللهو واللعب وهو الأمل، وهذا سببه أنها دار اليقين (أي العلم المطلق الثبات والصحة)، إنها دار الحق.

السؤال: ما هو الحيوان إذن؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الحيوان هو الحالة التي ينتفي فيها الشك ويكون العلم فيها يقينا. انتهى.

الدليل

لعل من المفيد الإشارة هنا إلى مفردة الحيوانات الدارجة على لسان البشر، فلم نطلق على الكائنات الأخرى (غير الإنسان) بالحيوانات في لغتنا الدارجة بالرغم أن مفردة الحيوانات نفسها لا ترد إطلاقا في النص القرآني؟ فجل ما ورد في كتاب الله لوصف هذه الكائنات الأخرى هو لفظتي الدواب والأنعام، قال تعالى:

- ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر: 28]

السؤال مرة أخرى: لم نطلق على الأنعام والدواب معا لفظ الحيوانات؟ لم هذه الكائنات الحية حيوانات؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن السبب في ذلك هو أن هذه الكائنات (الدواب والأنعام) لا تلهو ولا تلعب. ولا يحركها الأمل، فهي مفطورة على اليقين، فهي إذن لا تمزح ولا تكذب ولا تقطع الوعود لغيرها أو لبعضها البعض، ولا تغوي غيرها، فهي تقوم بمهمات ووظائف ثابتة، ولها سلوكيات محددة لا يمكن

أن تتباين بين لحظة وأخرى أو في مكان ما غير مكان آخر. فالدواب والأنعام في كل أصقاع الأرض وفي كل الأزمنة لا تغير سلوكها ولا تتلون بتلون الظروف وتبدل الأيام.

والأغرب من ذلك كله هو أن هذه الحيوانات لا تكسب سلوكها من البيئة المحيطة بها، فبعض أنواع الحيوانات تأتي إلى الحياة في غياب الأم تماما، ولكنها ما أن تولد حتى تتصرف وتقوم بنفس سلوكيات الأم التي وضعتها حتى وإن لم تتواجد معها إطلاقا.

السؤال: لماذا؟ كيف تعلمت هذه الكائنات الحية (الحيوانات) هذه السلوكيات الثابتة التي لا يمكن أن تحيد عنها؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن السبب في ذلك هو لأنها حيوانات، فعلمها ثابت لا يتغير ولا يتأثر بالظروف المحيطة، فهي لا تلهو إذن ولا تلعب، ولا يحركها الأمل.

السؤال مرة أخرى: ما الذي يمكن أن نستنبطه إذن عن معنى مفردة "الحيوان" الواردة في الآية الكريمة إذن؟

- ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٦٤﴾ [العنكبوت: 64]

رأينا المفترى: نحن نظن أن مفردة الحيوان تعني المعيشة بالعلم اليقيني الذي لا يمكن أن تغيره الظروف أو أن تبدله الأيام والسنون.

السؤال الخطير جدا: ما علاقة هذا بالحيوان المنوي الذي يخرج من بين الصلب والترائب في ظهور الآباء ويفرغ في بطون الأمهات في عملية التزاوج ومن ثم الإنجاب؟

جواب مفترى خطير جدا: لما كنت أنا حيوانا منويا في ظهر آبائي، فقد كنت واصلا مرحلة اليقين، فما كنت ألهو ولا كنت ألعب. وما كان الأمل هو المحرك لي، ولكني كنت على دراية مطلقة بالسبب الذي من أجله خلقت ألا وهو:

- ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦﴾ [الذاريات: 56]

لقد كنت في تلك المرحلة على علم تام (لا شك فيه) أن محرك وجودي كله هو العبادة، فكنت أقاتل كذرية في ظهر آبائي بأن أخرج لتحقيق هذه الغاية الجليلة وهي عبادة الله وحده، فلا أشرك به شيئا. فما كان يهمني حينئذ أن أولد لعائلة غنية أو فقيرة، وما كان يهمني أن أولد في عائلة رفيعة المقام أو في عائلة لا شأن لها بين الناس، وما كان يهمني أن يكون أبي فلانا أو علانا، وما كان يشغلني أن أكون في هؤلاء القوم أو في أولئك، وما كان يقلقني أن أوجد في هذا الزمان أو في غيره، وهكذا. ولكن كان جلّ العلم عندي هو أني قد خلقت لأعبد الله، وكل ما خلا ذلك فهو باطل باطل لا يزيد في الأمر ولا ينقص منه شيئا. وهذا بالضبط هو ما نطق به المسيح عيسى بن مريم يوم أن نطق في المهد صبيا:

- ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم: 30-33]

نتيجة مفتراة خطيرة جدا جدا: لو خرجنا إلى الحياة مباشرة كما خرج المسيح عيسى بن مريم، لم نسينا العهد الذي قطعناه على أنفسنا أمام ربنا في ذلك المشهد العظيم:

- ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا ۛ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف: 172]

السؤال: لم إذن نشغل أنفسنا كثيرا في هذه الأمور بعد أن نخرج إلى هذه الحياة الدنيا؟ لم يصبح همنا منصبا على ظروف الحياة التي وجدنا أنفسنا فيها كالعائلة والمكان الاجتماعية والحالة المادية والصحية ونحوهما؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن السبب في ذلك هو ما جاء في قوله تعالى:

- ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل: 78]

نعم، لقد خرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئا، لذا ربما حق لنا أن نستنبط (ربما مخطئين) أن المشكلة كلها قد حصلت في بطون الأمهات. فمكوثنا في بطون أمهاتنا بعد أن انتقلنا إليها من ظهور آبائنا فترى الحمل (تسعة أشهر) هو الذي أدى بنا أن نخرج لا نعلم شيئا على عكس ما حصل مع المسيح عيسى بن مريم.

نتيجة مفتراة 1: كنا في ظهور آبائنا حيوانات (حيوان منوي)، فكنا نعلم علم اليقين سبب خلقنا

نتيجة مفتراة 2: انتقلنا إلى بطون أمهاتنا فمكثنا فيه تسعة أشهر

نتيجة مفتراة 3: خرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئا.

السؤال: ما الذي حصل لنا إذن في هذه الرحلة في بطون الأمهات على وجه التحديد؟

جواب مفترى: إنه النسيان. انتهى.

فبدل أن نخرج حيوانات لا تلهو ولا تلعب، ولا يحركنا الأمل، خرجنا أناسا نلهو نلعب ويلهنا الأمل. انتهى.

خروج عن النص في استراحة قصيرة أخرى

كيف يمكن أن نفهم قوله تعالى:

- ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: 23]

رأينا المفترى: غالبا ما ظن الناس أن هذه الآية الكريمة تصور لنا إلها مطلق الحرية فيما يفعل كيفما يريد، ولكن الناس بالمقابل هم الذين يسألون لأن حريتهم مقيدة. وقبل أن نلقي بمثل هذا الفهم الذي نظنه خاطئا في سلسة المهملات، دعنا نستعرض ما نقله لنا أهل الرواية عن أهل الدراية في بطون أمهات التفسير عن هذه الآية الكريمة. فقد جاء الشرح التالي في تفسير القرطبي لهذه الآية الكريمة:

لا يسأل عما يفعل وهم يسألون

قاصمة للقدرية وغيرهم . قال ابن جريج : المعنى لا يسأل الخلق عن قضائه في خلقه وهو يسأل الخلق عن عملهم ; لأنهم عبيد . بين بهذا أن من يسأل غدا عن أعماله كالمسيح والملائكة لا يصلح للإلهية . وقيل : لا يؤاخذ على أفعاله وهم يؤاخذون . وروي عن علي رضي عنه أن رجلا قال له يا أمير المؤمنين : أيحب ربنا أن يعصى ؟ قال : أفيعصى ربنا قهرا ؟ قال : أرأيت إن منعني . الهدى ومنحني الردى أأحسن إلي أم أساء ؟ قال : إن منعك حقك فقد أساء , وإن منعك فضله فهو فضله يؤتيه من يشاء . ثم تلا الآية : " لا يسأل عما يفعل وهم يسألون " . وعن ابن عباس قال : لما بعث الله عز وجل موسى وكلمه , وأنزل عليه التوراة , قال : اللهم إنك رب عظيم , لو شئت أن تطاع لأطعت , ولو شئت ألا تعصى ما عصيت , وأنت تحب أن تطاع وأنت في ذلك تعصى فكيف هذا يا رب ؟ فأوحى الله إليه : إني لا أسأل عما أفعل وهم يسألون .

وجاء هذا الشرح لها في تفسير الطبري للقرآن العظيم:

لا يسأل عما يفعل وهم يسألون

القول في تأويل قوله تعالى : { لا يسأل عما يفعل وهم يسألون } يقول تعالى ذكره : لا سائل يسأل رب العرش عن الذي يفعل بخلقه من تصريفهم فيما شاء من حياة وموت وإعزاز وإذلال وغير ذلك من حكمه فيهم ; لأنهم خلقه وعبيده , وجميعهم في ملكه وسلطانه , والحكم حكمه , والقضاء قضاؤه , لا شيء فوقه يسأله عما يفعل فيقول له لم فعلت ؟ ولم لم تفعل ؟ { وهم يسألون } يقول

جل ثناؤه : وجميع من في السماوات والأرض من عباده مسئولون عن أفعالهم , ومحاسبون على أعمالهم , وهو الذي يسألهم عن ذلك ويحاسبهم عليه ; لأنه فوقهم ومالكهم , وهم في سلطانه . وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل . ذكر من قال ذلك : 18514 - حدثنا بشر , قال : ثنا يزيد , قال : ثنا سعيد , عن قتادة , قوله : { لا يسأل عما يفعل وهم يسألون } يقول : لا يسأل عما يفعل بعباده , وهم يسألون عن أعمالهم . 18515 - حدثنا القاسم , قال : ثنا الحسين , قال : ثني حجاج , عن ابن جريج , قال : قوله : { لا يسأل عما يفعل وهم يسألون } قال : لا يسأل الخالق عن قضائه في خلقه , وهو يسأل الخلق عن عملهم . 18516 - حدثت عن الحسين , قال : سمعت أبا معاذ يقول : أخبرنا عبيد , قال : سمعت الضحاك يقول في قوله : { لا يسأل عما يفعل وهم يسألون } قال : لا يسأل الخالق عما يقضي في خلقه , والخلق مسئولون عن أعمالهم .

السؤال: هل فهمت شيئا عزيزي القارئ مما جاء في هذه التفاسير الجليلة (أنا أحاول أن أكون مؤدبا على غير عادتي طبعا)؟

أما أنا، فلم أفهم شيئا، لا بل وأعتبر أن هذا لا يعدو أكثر من تخريصات لا تمت إلى كتاب الله بصلة.

السؤال: كيف يمكن أن نفهمها إذن؟ يسأل صاحبنا وهو يستشيط غضبا على إرث آبائه الأولين.

رأينا المفترى: دعنا ندقق في مفردة "يسأل" أولا. فما الذي يمكن أن نفهمه من هذه المفردة يا سادة؟

جواب مفترى: لو استعرضنا الآيات الكريمة التالية، لوجدنا فيها العجب، خاصة قوله تعالى (﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ) وقوله تعالى (فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ):

- ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [القصص: 78]
- ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾﴾ [الرحمن: 39]

منطقنا المفترى: إذا كان الله هو خالق البشر وهو الوحيد صاحب الحق في أن يسأل خلقه كما أشارت كتب التفاسير السابقة، فلم لا يسأل المجرمون عن ذنوبهم ؟ ولم لا يسأل إنس ولا جان عن ذنبه يومئذ؟ أليس من الواجب أن يسألهم؟

رأينا المفترى: لو دققنا في هذه الآية الكريمة التالية جيدا، لوجدنا أنها تبين لنا أن الناس يسألون عما يفعلون؟

- ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: 23]

ولو دققنا في الآيات الأخرى السابقة، لوجدنا أنهم (والجن) لا يسألون:

- ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٧٨﴾ [القصص: 78]
- ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ ۝٣٩﴾ [الرحمن: 39]

فكيف يمكن أن نوفق بين هاتين الحالتين؟ هل يسألون أم لا يسألون؟ نريد جوابا واضحا صريحا.

رأينا المفترى: لو دققنا في الآية الكريمة جيدا، لوجدنا أن نفي السؤال عنهم (الإنس والجن) يكون في الآخرة بدليل مفردة (فَيَوۡمَئِذٖ) الواردة في الآية الكريمة:

- ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ ۝٣٩﴾ [الرحمن: 39]

السؤال: لم إذن لا يسأل عن ذنوبهم المجرمون يومئذ؟ ولم لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان يومئذ؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: لأن الآخرة هي الحيوان. انتهى.

السؤال: وكيف ذلك؟

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: لمّا كانت الآخرة هي الحيوان، كان العلم فيها يقيني، لذا لا داع للسؤال. انتهى.

السؤال: لم أفهم ما تقول، هل يمكن أن توضح أكثر؟ يرد صاحبنا ربما بقليل من الاستغراب

جواب مفترى: متى تقوم أنت عزيزي القارئ الكريم بطرح السؤال؟ ألا يكون ذلك من أجل الحصول على المعلومة، فهل لو كنت تعرف الإجابة هل يكون هناك داع أن تطرح السؤال أصلا؟ وما فائدة طرحك السؤال مادمت تعرف الإجابة مسبقا؟ ألا يصبح ذلك من باب إضاعة الوقت والجهد والتسلية واللهو؟

نتيجة مفتراة 1: نحن نظن أن الهدف من طرح السؤال (أي سؤال): هو الحصول على المعلومة

ثانيا، تخيل عزيزي القارئ أنك دخلت بيتك كالمعتاد، ولم تجد أن هناك تغييرا في الوضع القائم، فأنت قد وجدت أن الأمور تسيير على ما يرام، هل عند ذلك تقوم بطرح السؤال، وتبدأ عملية المسائلة؟

جواب مفترى، كلا وألف كلا، فليس هناك داع للمسائلة أصلا.

لكن بالمقابل، تخيل أنك قد دخلت بيتك ووجدت أن الوضع مختلف، وأن هناك مشكلة قائمة لا تعلم تفاصيلها بعد، هل تقوم عندها بطرح السؤال، والبدء بعملية المسائلة لمن في البيت؟

السؤال المحوري: لم تقوم بذلك في هذه الحالة؟

جواب مفترى: ألا تبدأ بعملية المسائلة ليتحصل لك العلم بما حصل في غيابك، أليس كذلك؟ فلو كنت تعلم ما حصل فعلا، لما كان هناك داع أن تسأل، أليس كذلك؟

ثالثا، عندما تحصل المشكلة، ألا يحق لك أن تسأل عن ماهية المشكلة وسببها والمشتركين فيها، وهكذا؟

جواب مفترى: نعم. هذا ما يحصل على أرض الواقع.

نتيجة مفتراة: نحن نظن أن فعل المسائلة لا يحصل إلا لوجود مشكلة.

السؤال: ما سبب حصول المشكلة أصلا؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن المشكلة (أي مشكلة) لا تحصل إلا بسبب خطأ ما، بغض النظر عن ماهيته ودوافعه والمشتركين فيه، أليس كذلك؟

السؤال: ما الذي تريد قوله؟ هات ما عندك بسرعة

جواب مفترى: نحن نفتري الظن بأن فعل المسائلة لا يقع إلا في حالة حصول مشكلة، قد وقعت بسبب خطأ ما، فتكون غاية السائل الوقوف على طبيعة المشكلة وسببها والمشتركين فيها، وهكذا.

مثال: هل لو كنت تسوق سيارتك في الطريق، ولم تفتعل مشكلة تذكر، هل تتوقع من شرطي الطريق أن يوقفك ويبدأ بمسائلتك؟ وماذا لو فعل ذلك؟ ألا تستغرب من تصرفه؟ ألا تكون أول ردة فعل لك هي محاولة معرفة السبب الذي من أجله أوقفك ليسألك؟

لكن، لو أنك فعلا افتعلت مشكلة بسيارتك على الطريق، ألا تتوقع أن يوقفك شرطي الشارع ليسألك؟ هل تستغرب من تصرف الشرطي هذا؟

ألا تكون إذن عرضة للمسائلة مادام أنك قد افتعلت مشكلة إذن؟

جواب مفترى: نعم. لا أستغرب ذلك مادمت قد افتعلت مشكلة؟

السؤال الجريء: لم إذن لا يسأل الله عما يفعل؟

- ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: 23]

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نفتري القول بأن الله لا يسأل عما يفعل لأن الله لا يفتعل مشكلة أبدا، لذا لا داع أن يسأل

السؤال: ولم نحن نسأل؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: لأننا نحن من نفتعل المشاكل على الدوام، لذا نحن دائما عرضة للمسائلة مادام أننا نحن من افتعلنا المشاكل.

- ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ۝٢٣﴾ [الأنبياء: 23]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن (ربما مخطئين) بأن الله لا يُسأل عما يفعل مادام أنه لا يحدث مشكلة أبدا، بينما نحن نُسأل عما نفعل لأننا نحن من نفتعل المشاكل على الدوام.

السؤال: لماذا؟

جواب مفترى: نحن نظن أن الله لا يفتعل مشكلة لأن علمه مطلق، فلا يحركه الأمل، وبالتالي فهو لا يلهو ولا يلعب. أما نحن فإن جل ما عندنا من العلم هو ليس أكثر من الظن الذي لا يغني عن الحق شيئا، لذا فإن محرك أعمالنا (في غياب العلم المطلق) هو الأمل وبالتالي فإننا نلهو ونلعب.

السؤال: لم جاء النص القرآني على النحو التالي في الآيات الكريمة التالية التي تصور لنا أحداث ما بعد البعث:

- ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًاۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٧٨﴾ [القصص: 78]
- ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ۝٣٩﴾ [الرحمن: 39]

جواب لما كانت هذه الآيات الكريمة تصور لنا ما سيحصل بعد البعث، فإننا إذن قد أصبحنا في الحياة التي هي الحيوان (الآخرة)، وهناك يصبح العلم فيها يقينا، فلا داع إذن للسؤال مادام العلم بحيثيات الأمور (جلها ودقها) قد أصبح حقيقة واقعة لا ظن فيها. انتهى.

السؤال: ما علاقة هذا كله بالزكاة والصدقات وعقوق الوالدين وقصة الخلق الأولى التي تطرقت لها في بداية هذه المقالة أصلا؟

جواب: شو بدريني؟ هيه هيك أجت معي؟ اللي مو عاجبه لا يقراش. لكن اللي عاجبه، فلينتظر الجزء القادم إن شاء الله، عسى الله أن يهدينا رشدنا، فنحاول لملمة أشلاءنا المتناثرة هنا وهناك.

سائلين الله وحده أن يأذن لنا بشى من علمه فى ذلك كله، ونعوذ به أن نفتري عليه الكذب أو أن نقول عليه ما ليس لنا بحق إنه هو السميع المجيب.

المذّكرون: رشيد سليم الجراح & علي محمود سالم الشرمان
بقلم د. رشيد الجراح
10 آب 2017



فقه الزكاة

الجزء الرابع



فقه الزكاة: الجزء الرابع

الخطوط العريضة في فقه الزكاة كما افتريناها في الأجزاء السابقة

- ⇐ الزكاة تؤتى إيتاء (قسرا، أي كضريبة بالمفردات الدارجة) لأنها حق معلوم في المال
- ⇐ قيمة الزكاة هي الخمس من المغنم
- ⇐ تدفع الزكاة مرة واحدة فقط
- ⇐ تدفع الزكاة لبيت مال المسلمين، لذا فهي علانية لا يجوز إخفاؤها
- ⇐ يجوز إخفاء الصدقات ويجوز إبداؤها
- ⇐ الصدقات والزكاة لا يجوز إنفاقها إلاّ على الفئات المستحقة المذكورة نصا في الآيات الكريمة.
- ⇐ الزكاة والصدقات تطهر المال من مخاطر الربا
- ⇐ الربا هو أكل أموال الناس بالباطل
- ⇐ الربا هو كل معاملة تجارية يقع في ظلم على الناس
- ⇐ البيع يكون بالثمن والربا يكون بالسعر (مضاعفة الثمن)
- ⇐ إثم الربا لا يقع إلا على آكله
- ⇐ الخ

وسنتابع في هذا الجزء الجديد من المقالة القضايا الأخرى المتعلقة بالزكاة والصدقات،

سائلين الله أن يهدينا رشدنا، وأن يعلمنا ما لم نكن نعلم، وأن يهدينا لأقرب من هذا رشدا، وأن يزيدنا علما. ونعوذ به أن نكون ممن يفترون عليه الكذب أو ممن يقولون عليه ما ليس لهم بحق، إنه هو العليم الحكيم - آمين.

أما بعد،

باب الاحتكار

لعل واحدة من أهم الانعكاسات الإيجابية في فهم ماهية الربا (إن صح فهمنا) هو منع الاحتكار للسلع. وهنا يبرز التساؤل التالي: كيف يمكن منع الاحتكار عندما نفهم ماهية الربا؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن واحدة من أسباب الاحتكار هو رغبة التاجر في رفع أثمان البضاعة في السوق، فعندما يكون التاجر الرئيس في البلد يتحكم بسلعة معينة، فإنه يعمد أحيانا إلى حجب السلعة عن السوق فترة من الزمن، فيقل المعروض مقابل الطلب عليها في السوق، وفي هذه الحالة يعمد تجّار التجزئة إلى

رفع أثمان البضاعة (أو تسعيرها بكلمات أكثر دقة)، وما هي إلا فترة قصيرة من الزمن حتى ترتفع أثمان البضاعة المحجوبة عن السوق عن المعدل المألوف، وعادة ما يرتفع الثمن بمقدار مدة حجب البضاعة عن السوق، وهو ما يتحكم به التاجر الرئيس الذي اتخذ قرارا شخصيا برفع ثمن البضاعة عن المألوف، ولا يفرج عن البضاعة حتى تسعّر إلى الحد الذي يرغب به ذلك التاجر الجشع. فكلما رغب بسعر أعلى، حجب البضاعة مدة أطول من الزمن.

السؤال: هل هذا تصرف مشروع؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: لعل الفكر التقليدي السائد قد حارب هذه الظاهرة وأنكرها، وظهرت المؤلفات العديدة التي تحاول تبيان حرمة الاحتكار، لكن ما يؤخذ على الفكر التقليدي هو أنه لم يبين للناس سبب حرمتها، وآلية الحد منها، فظن الكثيرون بأن هذا يعود إلى حركة السوق التجارية، فرخصها التجار الجشعون بحجة أن المعروض في السوق من بعض البضائع أقل من الطلب عليها. فظنوا أنها حركة تجارية اعتيادية، وما ربطوها بالدين والتشريع الصحيح.

السؤال: كيف يمكن محاربة الاحتكار؟ وكيف يمكن لجم جشع كثير من التجار الذي يلجئون إلى مثل هذه الحيل؟

جواب مفترى: لعلي أكاد أجزم الظن بأن محاربة هذه الظاهرة في بلاد الإسلام والحد من انتشارها تكمن في كلمة واحدة: الربا.

السؤال: كيف يكون ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن على أهل العلم أن يبينوا للناس بأن احتكار السلعة في محاولة لرفع سعرها يقع في باب أكل أموال الناس بالباطل، لذا فهو ربا، ليأذن من أكله بحرب من الله ورسوله:

- ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٢٧٨ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ۝٢٧٩ وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٢٨٠ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ۝٢٨١﴾ [البقرة: 278-281]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن بأن أول موجبات الدعوة إلى منع الاحتكار تتطلب أن يربط أهل العلم الربا (بكل أشكاله وصوره) بالإيمان، فيبينوا للناس بأن عليهم بأن يختاروا بين واحده منهما: الربا أو الإيمان. فعلى الذي لا يختار أن يذر ما بقى من الربا أن يفهم بأن مسألة إيمانه فيها وجهة نظر، وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- في الآية الكريمة نفسها لتختار أنت بنفسك لنفسك، قال تعالى:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٧٨﴾ [البقرة: 278]

لاحظ عزيزي التاجر الكريم كيف أن ترك الربا (بجميع أشكاله وصوره) مرتبط بصدق الإيمان أو إدعائه (وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ).

افتراء من عند نفسي: اعلم عزيزي التاجر بأنه إذا لم تستطع أن تكبح جماح نفسك في أن تترك كل ما بقي من الربا فأن إيمانك كله في خطر. فالمؤمن سيختار لا محالة أن يذر ما بقي من الربا، ولكن إيمان الذي لا يذر كل ما بقي من الربا فيه شك.

السؤال: كيف يمكن تطبيق هذا على أرض الواقع؟

جواب مفترى: لعل الغالبية الساحقة من التجار (صغيرهم وكبيرهم) يتسلحون بذريعة (هي برأينا) سخيفة، ليبرروا لأنفسهم أكل أموال الناس بالباطل، وبالتالي الوقوع في الربا عن قصد أو عن غير قصد منهم. والذريعة التي يتحججون بها تكمن في أنهم يظنون أنهم ليسوا مسئولين بأنفسهم عن تحديد الأثمان في الأسواق. فهم يظنون بأن تحديد الثمن يمر بسلسلة من التجار تبدأ عند تاجر الجملة الأكبر وتنتهي عن تاجر التجزئة الأصغر، وبينهما وسطاء كثيرون. فالكل تعذر بمن هو فوقه. فالتاجر الصغير يتعلل بأن الوسيط هو من رفع ثمن البضاعة عليه، والوسيط يتعلل بأن تاجر الجملة الأكبر هو من رفع ثمن البضاعة عليه، والتاجر الأكبر يتعلل بظروف الاستيراد والتصدير والضرائب والبنية التحتية، وهكذا. وفي النهاية، يكون الغرض من هذا هو أنهم يبررون لأنفسهم سوء ما عملته أيديهم، ربما ليخدعوا أنفسهم (والناس من حولهم) بأن ما يقومون به من مضاعفة لأثمان البضاعة هو عمل تجاري مشروع لا غبار عليه.

رأينا المفترى: إن ما نريد طرحه هنا هو أن هذا السلوك لا يمكن أن يكون سلوكا سويا لمن كان في قلبه إيمان بربه وباليوم الآخر، قال تعالى:

- ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ٩ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ١٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ١١ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ١٢﴾ [البقرة: 8-12]

ولو تدبرنا هذه الآيات الكريمة لوجدنا أنها تصف سلوك بعض الناس وليس سلوك كل الناس، بدليل قوله تعالى (وَمِنَ ٱلنَّاسِ)، وهذه الفئة من الناس هم الذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، فهم يقولون أنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر (وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ)، ولكنهم في الحقيقة ما هم بمؤمنين (وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ)، ولا يعدو قولهم هذا الذي ينافي فعلهم الحقيقي أكثر من عملية مخادعة لله وللذين آمنوا (يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا)، ولكن يجب أن تصلهم الرسالة واضحة

وجلية لا لبس فيها (loud and clear) بأنهم في الحقيقة لا يخدعون إلا أنفسهم حتى وإن كانوا لا يشعرون بذلك (يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ)، وليكن معلوم للجميع أن هذه الفئة من الناس ما سولت لهم أنفسهم فعل ذلك إلا لأن في قلوبهم مرض (فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ)، وليعلموا أيضا بأن النتيجة الحتمية لفعلهم المفضوح هذا هي أن الله سيزيدهم مرضا (فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ)، وسيلقون حتما العذاب الموجب لمثل هذا الفعل لاحقا (وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ)، لأنهم ليسوا أكثر من كاذبين (بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ).

ولو تدبرنا الآيات الكريمة أكثر، لوجدنا بأن السبب الموجب لعذابهم هو فسادهم في الأرض حتى وإن تغنوا ليل نهار بكل وسائل الإعلام لنشر المعلومة المتاحة من عندهم بأنهم هم المصلحون (وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ). فالله الذي يعرف حقيقة ما في صدورهم هو من بيّن لنا بأنهم هم أنفسهم المفسدون حتى لو لم يشعروا بذلك (أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ).

إن النتيجة الحتمية التي نحاول الترويج لها (ربما مخطئين) بأن أكل أموال الناس بالباطل (كثيرا كان أم قليلا) يقع في باب الفساد في الأرض. فالتاجر الذي يحتكر السلع على الناس ليضاعف في أثمانها هو من الذين يفسدون في الأرض حتى وإن تغنى بصلاحه.

عزيزي التاجر الكريم ليكن معلوم عندك بأن رفعك لثمن أي سلعة مهما غلى ثمنها أو قل هو من باب الفساد في الأرض. فأنت محاسب عليها حتى وإن ظننت أنك لست المسئول عن رفعها.

السؤال: كيف يكون ذلك؟

رأينا المفترى الخطير جدا جدا: عندما يرتفع ثمن سلعة ما، فعليك (أيها التاجر المؤمن بربك) أن لا ترفع ثمنها في السوق إطلاقا. بل من الواجب عليك أن تستمر في بيعها بالثمن المعهود.

السؤال: أيعقل هذا؟ كيف لي أن أستمر في بيع السلعة بثمنها الحقيقي حتى وإن ارتفع ثمنها في السوق؟ أليس هذا من باب الجنون؟ أتريدنا أن نخسر تجارتنا؟ ربما يريد أن يرد التاجر علينا قائلا.

جواب مفترى: لا. لا أريد لك أن تخسر ولن تخسر بإذن الله وعليك أن تستمر في بيع السلعة بثمنها الحقيقي.

السؤال: كيف ذلك؟

رأينا المفترى: ليكن معلوم عندك أخي التاجر بأن مسؤوليتك تحدد بمقدار السلع الموجودة في متجرك. فهذه السلع هي التي يجب أن تحرص على بيعها بالثمن المعهود حتى وإن ارتفع ثمنها في السوق.

السؤال: لم أفهم ما تقصد. هل يمكن التوضيح أكثر؟

جواب مفترى: نعم يمكننا توضيح ذلك بتقديم المثال التالي:

تخيل عزيزي التاجر أنك تملك في متجرك ألف كرتونة من جبنة البقرة الضاحكة لافاشكيري (La vache qui rit : لافاش تعني الضاحك من الكلمة الانجليزية laughing وكيري تعني البقرة من الكلمة الإنجليزية cow). وكان سعر الكرتونة الواحدة دولارا واحدا، وفي هذه الأثناء قام التاجر الكبير المستورد لهذه البضاعة من بلاد الفرنجة (فرنسا) برفع ثمن هذه البضاعة على وجه التحديد حتى وصل الثمن إلى دولار ونصف الدولار للكرتونة الواحدة في السوق. فما الذي أنت فاعله في هذا الوقت بالذات؟ وكيف ستبيع البضاعة الموجودة في متجرك حينئذ؟ هل ستستمر في بيعها بالسعر القديم (لأنك أصلا تملكتها بذلك السعر) أم ستسارع على الفور إلى رفع ثمنها على النحو الدارج الآن في السوق بعد رفع ثمنها؟

جواب مفترى: لعل الغالبية الساحقة من تجار التجزئة يعمدون فورا إلى رفع ثمن البضاعة المتواجدة في متاجرهم ومخازنهم ليتماشى مع حركة السوق الجديدة الخاصة بهذه السلعة على وجه التحديد، فيرفعون ثمن البضاعة الموجودة أصلا في متاجرهم قبل عملية الرفع هذه. ليكون السؤال المشروع: هل يقع هذا في باب التجارة المشروعة؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن (ربما مخطئين) بأن هذا يقع في باب الاحتكار، وبالتالي فهو ربا محرم، دعانا الله إلى أن نذره، وإلا فلنأذن بحرب منه. انتهى.

منطقنا المفترى: إن كان التاجر الكبير قد أصابه الجشع عندما قرر رفع ثمن البضاعة باحتكارها، فلم تسوّل لك نفسك أن ترفع ثمن بضاعة قليلة في متجرك بغية كسب حفنة قليلة من الدولارات؟ لم تسوّل لك نفسك اغتنام الفرصة للتضييق على الناس؟ ألم تكن تبيع البضاعة بثمنها المعهود وكانت تجارتك ناجحة؟ ما الذي دفعك لاستغلال هذه الفرصة ومضاعفة الثمن بالرغم أن البضاعة المتوافرة الآن في مخزنك لم تكلفك السعر الجديد؟

السؤال: ما الذي يجب على التاجر فعله؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن على التاجر أن يستمر في بيع البضاعة المتوافرة في متجره بالثمن المعهود فلا يرفع ثمنها حتى وإن ارتفع ثمنها عند التاجر الأكبر منه، وعليه أن يحاول أن لا يشتري بضاعة ذلك التاجر الكبير بالسعر الجديد حتى نفاذ جميع المخزون لديه، فيكون ذلك أداة ضغط منه على التاجر الكبير أن يكف عن فعلته، والعودة إلى صوابه. وأتخيل بأنه لو التزم تجار التجزئة بذلك، لما تجرأ التاجر الكبير على هذه الفعلة، وذلك لأن معظم البضائع لها فترة صلاحية يخشى التاجر الكبير أن تنقضي، فتفسد عليه بضاعته كلها.

ولعلي أكاد أجزم الظن بأن هذا من مسؤولية رجل الدين الذي كان من المفترض به أن يبين للناس بأنه إذا حصل ذلك، فإن كل قرش يكسبه التاجر من رفع البضاعة المتواجدة في متجره فوق الثمن المعهود الذي شراه واشتراه به هو ربا موضوع. وأن من حق التاجر فقط هو ما كان يكسبه قبل الرفع.

ولو حصل أن قام تاجر التجزئة بشراء البضاعة من التاجر الكبير بعد احتكار البضاعة ورفع ثمنها، فعليه أن يضع السلعة نفسها في رفين متجاورين، ويكتب على كل رف الثمنَ الذي تباع به البضاعة، فيكون على الرف الأيمن كراتين جبنة البقرة الضاحكة لافاشكيري المتواجدة في متجره قبل الرفع ويكون ثمنها دولارا واحدا، ويكون بالمقابل على الرف الأيسر جبنة البقرة الضاحكة لافاشكيري التي اشتراها حديثا بعد الرفع، ويكون سعرها دولارا ونصف الدولار، ويترك للزبون حرية الاختيار حتى نفاذ الكمية الأولى.

السؤال: لماذا يجب أن يفعل تاجر التجزئة المؤمن بربه ذلك؟ ما الذي يمكن أن يكسبه من جراء هذا الفعل (ربما الذي قد يبدو غريبا للبعض)؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن التاجر الذي يعمد إلى مثل هذا السلوك يحقق غايات جليلة نذكر منها:

أولا، أنه ينقذ نفسه من الوقوع في الربا، فهو الذي لم يرض أن يكسب أكثر مما يجب، فلا يأكل أموال الناس بالباطل مستغلا الظروف الموجبة للكسب السريع.

ثانيا، أنه ينأ بنفسه عن المشاركة في الاحتكار، فلا تسوّل له نفسه تكديس البضائع المتوقع ارتفاع ثمنها بغية الحصول على الربح السريع والسهل

ثالثا، أنه يوصل رسالة واضحة وجلية إلى الزبون بأنه لا يشارك في احتكار السلع، ولا يدفع إلى رفع أثمان البضائع طمعا في الربح السريع. فهذا هو التاجر الصدوق الموثوق به، الذي يجب التعامل معه ومساعدته بالشراء من متجره على حساب المتاجر الأخرى التي شاركت في الاحتكار. فهكذا تمد جسور الثقة بين التاجر والزبون. فأنت تتعامل معه بمصداقية كما يتعامل هو معك بمصداقية.

رابعا، يشكل مثل هذا التصرف رادعا قويا لجشع التاجر الكبير، الذي سيعلم حينها أن الإثم (إن حصل بسبب الربا، فهو المسئول المباشر عنه، ويشاركه في ذلك كل تاجر تعاون معه على أكل أموال الناس بالباطل، كل له نصيبه من الإثم بقدر ما كسب من المال بطريقة غير مشروعة.

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١﴾ [النور: 11]

باب القرض الحسن

قال تعالى:

- ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٤٥﴾ [البقرة: 245]
- ﴿۞وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١٢﴾ [المائدة: 12]
- ﴿۞وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ١٧﴾ [الكهف: 17]
- ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ١١ يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۖ بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٢﴾ [الحديد: 11-12]
- ﴿إِنَّ ٱلۡمُصَّدِّقِينَ وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقۡرَضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعَفُ لَهُمۡ وَلَهُمۡ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ١٨ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١٩﴾ [الحديد: 18-19]
- ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٦ إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ١٧﴾ [التغابن: 16-17]
- ﴿۞إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ ٢٠﴾ [المزمل: 20]

السؤال: ما هو القرض؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن القرض يحمل فيه ثناياه العطاء. فهذه هي الشمس تقرض فتية الكهف ذات الشمال:

- ﴿۞وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ١٧﴾ [الكهف: 17]

فالمقرض هي الشمس، والفتية هم الذين يستفيدون مما كانت الشمس تقرضهم. لكنها هي نفسها لا تأخذ منهم ما أقرضتهم. لكن ما يهمنا إثباته هنا هو أن الإقراض لا يكون إلا بمقدار الحاجة. فلو أن الشمس أقرضت فتية الكهف من طاقتها (الحرارة) أكثر مما هم بحاجة إليه، لتسبب ذلك بحصول الأذى لهم. فهي قد أقرضتهم فقط ما كانوا بحاجة إليه لديمومة الحياة فيهم.

نتيجة مفتراة: القرض هو عطاء من طرف لطرف الآخر يستفيد منه هذا الطرف الآخر. ويكون ذلك بمقدار الحاجة. فلا نزيد عن إعطاء الشخص أكثر من حاجته، انتهى.

ولو تدبرنا الآيات الكريمة جيدا، لوجدنا أن القرض الحسن يختلف عن الزكاة وعن الصدقات بدليل التجاور اللفظي بينهم، قال تعالى:

- ﴿إِنَّ ٱلۡمُصَّدِّقِينَ وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقۡرَضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعَفُ لَهُمۡ وَلَهُمۡ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ١٨﴾ [الحديد: 18]
- ﴿... وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ ٢٠﴾ [المزمل: 20]

فالصدقات شيء وإيتاء الزكاة شيء آخر والقرض الحسن شيء ثالث مختلف تماما. ولو تدبرنا النصوص الكريمة مرة أخرى لوجدنا أن الله يمكن أن يكون هو الذي يُقرَض، فأنت تستطيع أن تُقرض الله نفسه قرضا حسنا:

- ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٤٥﴾ [البقرة: 245]
- ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ١١﴾ [الحديد: 11]

السؤال: كيف يمكن أن نقرض الله قرضا حسنا؟ هل الله بحاجة لهذا القرض؟

رأينا المفترى: لو تدبرنا الآية الكريمة التالية التي جاء فيها ذكر القرض الحسن لله، سنجد أن هذا يقع في باب تقديم الإنسان لنفسه من الخير، قال تعالى:

- ﴿... وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ ٢٠﴾ [المزمل: 20]

نتيجة مفتراة: القرض الحسن يكون لله لأن هذا ما يقدمه الإنسان لنفسه وليس لغيره. وهذا لا ينطبق فقط في حالة القرض الحسن وإنما أيضا في حالتي تقديم الصدقات وإيتاء الزكاة، قال تعالى:

- ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ [التوبة: 104]
- ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾ [البقرة: 110]

السؤال: لماذا هو قرض حسن؟ لم لا يكون قرضا وكفى؟

جواب مفترى: نحن نفتري الظن بأن الشيء الحسن هو خاص بالله وحده، وذلك لأنه يكون مكتملا تماما لا ينقص منه شيء. فأنت تأخذ أجره كاملا غير منقوص. (للتفصيل في معنى مفردة أحسن أدعو القارئ الكريم للعودة إلى مقالتنا تحت عنوان قصة يوسف خاصة الجزء الخاص بمعنى أحسن القصص)

السؤال: كيف يكون ذلك؟

جواب مفترى: مادام أن القرض الحسن هو لله، فإن الله هو من سيقوم بمضاعفته لك أضعافا كثيرة، لذا فإن مردودة سيصل إلى أقصى درجة ممكنة:

- ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة: 245]
- ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الحديد: 11]

تخيل عزيزي القارئ – إن شئت- أن لديك شيئا من المال، لكنك لا تعرف كيفية تنميته بأحسن الطرق، لذا ربما تلجأ إلى تاجر متمرس في السوق، يستطيع بخبرته أن ينمي لك هذا المال، فيضاعفه لك، ولا شك أنك ستمنحه للتاجر الأقدر إن كان عندك أكثر من خيار، والهدف من ذلك أنك تبحث عن الذي يستطيع تنمية مالك أكثر وأكثر، والآن تخيل أن الذي سينمي لك مالك هو الله نفسه، فكيف سيكون المردود؟ هل ستخشى من الخسارة؟ وهل ستشك في الربح؟ ألن تنام قرير العين بأن الله سيضاعف لك مالك بأحسن طريقة؟

جواب مفترى: نعم ذلك هو القرض الحسن، إنه القرض الذي سينمى أضعافا كثيرة، فلا تخشى الخسارة فيه، وستكون على يقين باستحالة أن ينمى أكثر من ذلك مادام أنه قد وصل إلى أقصى درجات تنميته لأن الله هو القائم على ذلك المال.

السؤال: لمن يعطى القرض الحسن؟

جواب مفترى: نحن نفتري الظن أن القرض الحسن يقدم لصاحب الحاجة لكنه يقرض لله.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: عندما يجد أصحاب المال أن هناك شخصا محتاج للمساعدة لأي سبب (غير التجارة)، كحاجة شخص لإطعام أهله أو للعلاج أو المأوى ونحو ذلك، فإنه يعمد أن يعطي هؤلاء المحتاجين وفي نيته أنه يقرض الله نفسه، وهديُه في ذلك قول الله تعالى:

- ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾ [الإنسان: 9]

تخيل عزيزي القارئ أن شخصا ميسور الحال لا يأخذ الصدقات قد أصابته ظروف الحياة فجأة، فما عاد قادرا على سداد مستلزمات ذلك الظرف الطارئ، فأصبح هذا الشخص ذا عسرة، فكيف يجب أن يتصرف أصحاب المال من حوله؟

رأينا المفترى: في مثل هذه الظروف نحن نتوقع أن نجد صاحب المال (المؤمن بربه) سيشعر أن عليه واجبا دينيا تجاه هذا الشخص، فلا يعمد إلى استغلال حاجته بالربا، فالله هو من أمرنا بأن لا نستغل ظرف من كان في عسرة:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٢٧٨ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ۝٢٧٩ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٨٠ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٢٨١﴾ [البقرة: 278-281]

وفي هذه الحالة، يجب عليك أخي صاحب المال أن تقدم المال إلى من كان في عسرة، ولا تستغله بالربا، وتنظره إلى ميسرة، ويكون ذلك بالقرض الحسن. فلك أن تقدم له المال حتى تتيسر له الأمور، ويرد لك ما أخذ منك من مال غير منقوص ولا مزيد (وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ)، وسيكون من الأفضل لصاحب المال أن يجعل ذلك صدقة إن كان في الأمر سعة عنده (وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ).

وإن لم يكن في الأمر سعة، فعليه أن يقدم له المال في باب القرض الحسن، فيجعله قرضا لله نفسه، راجيا الله وحده أن يضاعفه له أضعافا كثيرة.

نتيجة مهمة جدا: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن القرض الحسن هو مقدار من المال يقدمه صاحب المال للمحتاج حاجة اضطرارية ولا يسترده إلا كما هو دون أي زيادة، طامعا في أن يكون هذا قرضا لله ينميه الله عنده لهذا الشخص ليستفيد منه في الآخرة مادام أنه لم يستفيد منه في الدنيا.

مقدار القرض الحسن

نحن نظن أن مقدار القرض الحسن يجب أن يكون بالحجم الذي لا يؤثر ماليا على صاحب المال نفسه. فإن كان كل ما تملكه هو عشرة الآلاف دولار، فمن غير المنطقي أن تقدم هذا المال كله كقرض حسن، بل تقدم ما تجود به نفسك فقط، وبما لا يؤثر عليك سلبيا في حياتك المعتادة. ولعلي أكاد أجزم القول بأن هذا يقع في باب التكافل الاجتماعي الذي يجب أن يشارك به الجميع.

السؤال: كيف يكون ذلك؟

رأينا المفترى: إنْ وجد أصحاب الحي الواحد وذوي القربى أن أحدا من بينهم قد أصابته العسرة (لظرف اضطراري خارج عن قدرة الشخص نفسه)، وجب على كل من يعرف بذلك أن يسارع بمد يد العون لهذا الشخص من باب القرض الحسن. فتخيل أن شخصا قد وقع في جريمة القتل الخطأ ووجبت عليه الديّة مثلا، ولكنه لا يستطيع بمفرده أن يتكفل بتكاليف ذلك كله بنفسه، فما الواجب على من هم حوله أن يفعلوا تجاه هذا الشخص الذي أصبح في عسرة من أمره؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأنه من الواجب على كل من يعرف بحالة هذا الشخص الاضطرارية أن يشارك في مدّ يد العون لهذا الشخص في باب القرض الحسن، كل حسب مقدرته، فهو إذن يقدم ما يستطيعه لأن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها:

- ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة: 286]
- ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الأعراف: 42]
- ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [المؤمنون: 60-62]

فمطلوب من الشخص أن لا يجعل يده مغلولة إلى عنقه ولكنه بالمقابل مطلوب منه أن لا يبسطها كل البسط:

- ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإسراء: 29]

خروج عن النص في استراحة لغوية: نفي المجاز عن كتاب الله

باب وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ

لقد كان موقفنا الثابت يمتثل على الدوام بنفي المجاز عن كتاب الله، ومن أراد الاطلاع على تفاصيل هذه القضية فليرجع إلى مقالتنا تحت عنوان جدلية الحقيقة والمجاز في كتاب الله. لكن كان المعارضون لموقفنا هذا يجلبون المثال تلو المثال لإثبات عكس ما نفتري في هذا الصدد، ولعل هذا التعبير القرآني (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ) الذي يرد في الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإسراء: 29]

كان على الدوام واحد من الأمثلة التي يظن المخالفون أنها تبت زعمهم (بإثبات المجاز في كتاب الله) وتبطل افتراءنا (بنفي المجاز عن كتاب الله)، فهم يريدون منا (إن صح افتراؤنا) فهما لا مجاز فيه وتفسيرا حقيقيا لهذه العبارة لا يتخلله المجاز، فهل إلى ذلك من سبيل؟ هم يسألون ولسان حالهم يقول باستحالة فهم هذه العبارة على الحقيقة ولابد من إدخال المجاز فيها لكي يبين معناها للعامة من الناس، وهم لا يترددون أن يقتبسوا أقوال السادة العلماء فيها، ظانين أنهم قد وجدوا ضالتهم في جلب المجاز إلى كتاب الله.

ولتبيان رأينا بخلاف ذلك، دعنا بداية نبدأ بما جاءنا من عند أهل الدراية كما نقله لنا أهل الرواية في تفسير القرطبي مثلا:

وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ

هذا مجاز عبر به عن البخيل الذي لا يقدر من قلبه على إخراج شيء من ماله ; فضرب له مثل الغل الذي يمنع من التصرف باليد . وفي صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل البخيل والمتصدق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد قد اضطرت أيديهما إلى ثديهما وتراقيهما فجعل المتصدق كلما تصدق بصدقة انبسطت عنه حتى تغشى أنامله وتعفو أثره وجعل البخيل كلما هم بصدقة قلصت وأخذت كل حلقة بمكانها . قال أبو هريرة رضي الله عنه : فأنا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بأصبعيه هكذا في جيبه فلو رأيته يوسعها ولا تتوسع .

وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ

ضرب بسط اليد مثلا لذهاب المال , فإن قبض الكف يحبس ما فيها , وبسطها يذهب ما فيها . وهذا كله خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد أمته , وكثيرا ما جاء في القرآن ; فإن النبي صلى الله عليه وسلم لما كان سيدهم وواسطتهم إلى ربهم عبر به عنهم على عادة العرب في ذلك . وأيضا فإنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يدخر شيئا لغد , وكان يجوع حتى يشد الحجر على بطنه من الجوع . وكان كثير من الصحابة ينفقون في سبيل الله جميع أموالهم , فلم يعنفهم النبي صلى الله عليه وسلم ولم ينكر عليهم لصحة يقينهم وشدة بصائرهم . وإنما نهى الله سبحانه وتعالى عن الإفراط في الإنفاق , وإخراج ما حوته يده من المال من خيف عليه الحسرة على ما خرج من يده , فأما من وثق بموعود الله عز وجل وجزيل ثوابه فيما أنفقه فغير مراد بالآية , والله أعلم . وقيل : إن هذا الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم في خاصة نفسه , علمه فيه كيفية الإنفاق , وأمره بالاقتصاد . قال جابر وابن مسعود : جاء غلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن أمي تسألك كذا وكذا . فقال : (ما عندنا اليوم شيء) . قال : فتقول لك اكسني قميصك ; فخلع قميصه فدفعه إليه وجلس في البيت عريانا . وفي رواية جابر : فأذن بلال للصلاة وانتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج , واشتغلت القلوب , فدخل بعضهم فإذا هو عار ; فنزلت هذه الآية . وكل هذا في إنفاق الخير . وأما إنفاق الفساد فقليله وكثيره حرام , كما تقدم .

نهت هذه الآية عن استفراغ الوجد فيما يطرأ أولا من سؤال المؤمنين ; لئلا يبقى من يأتي بعد ذلك لا شيء له , أو لئلا يضيع المنفق عياله . ونحوه من كلام الحكمة : ما رأيت قط سرفا إلا ومعه حق مضيع . وهذه من آيات فقه الحال فلا يبين حكمها إلا باعتبار شخص شخص من الناس .

فَتَقۡعُدَ مَلُومًا مَّحۡسُورًا

قال ابن عرفة : يقول لا تسرف ولا تتلف مالك فتبقى محسورا منقطعا عن النفقة والتصرف ; كما يكون البعير الحسير , وهو الذي ذهبت قوته فلا انبعاث به ; ومنه قوله تعالى : " ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير " [الملك : 4] أي كليل منقطع . وقال قتادة : أي نادما على ما سلف منك ; فجعله من الحسرة , وفيه بعد ; لأن الفاعل من الحسرة حسر وحسران ولا يقال محسور . والملوم : الذي يلام على إتلاف ماله , أو يلومه من لا يعطيه

وهذا ما جاء في تفسير الطبري للعبارة نفسها:

وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومًا مَّحۡسُورًا

القول في تأويل قوله تعالى { ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا } . وهذا مثل ضربه الله تبارك وتعالى للممتنع من الإنفاق في الحقوق التي أوجبها في أموال ذوي الأموال , فجعله كالمشدودة يده إلى عنقه , الذي لا يقدر على الأخذ بها والإعطاء . وإنما معنى الكلام : ولا تمسك يا محمد يدك بخلا عن النفقة في حقوق الله , فلا تنفق فيها شيئا إمساك المغلولة يده إلى عنقه , الذي لا يستطيع بسطها { ولا تبسطها كل البسط } يقول : ولا تبسطها بالعطية كل البسط , فتبقى لا شيء عندك , ولا تجد إذا سئلت شيئا تعطيه سائلك { فتقعد ملوما محسورا } يقول : فتقعد يلومك سائلوك إذا لم تعطهم حين سألوك , وتلومك نفسك على الإسراع في مالك وذهابه , { محسورا } يقول : معيبا , قد انقطع بك , لا شيء عندك تنفقه . وأصله من قولهم للدابة التي قد سير عليها حتى انقطع سيرها , وكلت ورزحت من السير , بأنه حسير . يقال منه : حسرت الدابة فأنا أحسرها , وأحسرها حسرا , وذلك إذا أنضيته بالسير ; وحسرته بالمسألة إذا سألته فألحفت ; وحسر البصر فهو يحسر , وذلك إذا بلغ أقصى المنظر فكل . ومنه قوله عز وجل : { ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير } 67 4 وكذلك ذلك في كل شيء كل وأزحف حتى يضنى . وبنحو الذي قلنا في ذلك , قال أهل التأويل . ذكر من قال ذلك : 16805 - حدثنا محمد بن بشار , قال : ثنا هودة , قال : ثنا عوف , عن الحسن , في قوله { ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك } قال : لا تجعلها مغلولة عن النفقة { ولا تبسطها } : تبذر بسرف . 16806 - حدثنا ابن حميد , قال : ثنا يوسف بن بهز , قال : ثنا حوشب , قال : كان الحسن إذا تلا هذه الآية { ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا } يقول : لا تطفف برزقي عن غير رضاي , ولا تضعه في سخطي فأسلبك ما في يديك , فتكون حسيرا ليس في يديك منه شيء . 16807 - حدثني محمد بن سعد , قال : ثني أبي , قال : ثني عمي , قال : ثني أبي , عن أبيه , عن ابن عباس , قوله { ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا } يقول هذا في النفقة , يقول { لا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك } يقول : لا تبسطها بالخير { ولا تبسطها كل البسط } يعني التبذير { فتقعد ملوما } يقول : يلوم نفسه على ما فات من ماله { محسورا } يعني : ذهب ماله كله فهو محسور . * - حدثني علي , قال : ثنا أبو صالح , قال : ثني معاوية , عن علي , عن ابن عباس , قوله { ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك } يعني بذلك البخل . 16808 - حدثنا بشر , قال : ثنا يزيد , قال : ثنا سعيد , عن قتادة , قوله { ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك } أي لا تمسكها عن طاعة الله , ولا عن حقه { ولا تبسطها كل البسط } يقول : لا تنفقها في معصية الله , ولا فيما يصلح لك , ولا ينبغي لك , وهو الإسراف . قوله { فتقعد ملوما محسورا } قال : ملوما في عباد الله , محسورا على ما سلف من دهره وفرط . * - حدثنا محمد بن عبد الأعلى , قال : ثنا محمد بن ثور , عن معمر , عن قتادة { ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك } قال : في النفقة , يقول : لا تمسك عن النفقة { ولا تبسطها كل البسط } يقول : لا تبذر تبذيرا { فتقعد ملوما } في عباد الله { محسورا } يقول : نادما على ما فرط منك . 16809 - حدثنا القاسم , قال : ثنا الحسين , قال : ثني حجاج , عن ابن جريج , قال : لا تمسك عن النفقة فيما أمرتك به من الحق { ولا تبسطها كل البسط } فيما نهيتك { فنقعد ملوما } قال : مذنبا { محسورا } قال : منقطعا بك . 16810 - حدثني يونس , قال : أخبرنا ابن وهب , قال : قال ابن زيد , في قوله { ولا

تجعل يدك مغلولة إلى عنقك } قال : مغلولة لا تبسطها بخير ولا بعطية { ولا تبسطها كل البسط } في الحق والباطل , فينفد ما معك , وما في يديك , فيأتيك من يريد أن تعطيه فيحسر بك , فيلومك حين أعطيت هؤلاء , ولم تعطهم

السؤال: هل عبارة وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ هي فعلا من باب المجاز في القول؟ وإن لم تكن كذلك (كما تزعم) فكيف يمكن فهمها على الحقيقة؟ يسأل المخالف لنا على الفور؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن ننفي جملة وتفصيلا أن تقع هذه العبارة (وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ) في باب المجاز ويجب أن تفهم على الحقيقة.

السؤال: وكيف ذلك؟

جواب مفترى: نحن نظن أن ذلك ممكنا لو أننا توقفنا قليلا لنفهم بداية آلية الإنفاق. طارحين التساؤل المثير التالي: لماذا يتصف بعض الناس بالبخل بينما يتصف آخرون بالجود والكرم؟ ما الذي يجعل فلانا من الناس معطاء كريما ويجعل آخر ممسكا بخيلا؟ لِم أكن أنا بخيلا وتكون أنت كريما؟ وهل البخل والكرم يتحدد بالكم من المال المتوافر بين أيدي الشخص؟

جواب مفترى: كلا وألف كلا، فكم من الأثرياء جدا جدا الذين نجدهم لا ينفقون إلا بشح الأنفس! وكم من قليل المال كريم النفس ينفق كالذي لا يخشى الفقر أبدا.

وبالمقابل هناك من الأثرياء من ينفق حتى تكاد تقول له كفاك يا رجل. وهناك من قليلي المال الذي لا ينفق إلا كالذي يغشى عليه من الموت!

السؤال: ما المحرك لهذا السلوك: الإنفاق أو البخل؟

لو تدبرنا الآيات القرآنية على مساحة النص كله لوجدنا أن الإنفاق هو فعل خاص بتقديم شيء مما رزقنا الله أو شيئا من المال:

- ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣﴾ [البقرة: 3]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٤﴾ [البقرة: 264]

كما أن فعل الإنفاق يتم بالعفو:

- ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾ [البقرة: 219]

السؤال: كيف يمكن ربط الإنفاق بالعفو؟

رأينا المفترى: لو تتبعنا مفردة العفو في كتاب الله، لوجدناها قد وردت في السياقات القرآنية التالية:

- ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [البقرة: 52]
- ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾ [البقرة: 109]
- ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾ [البقرة: 219]
- ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾ [البقرة: 237]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾ [النساء: 43]
- ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النساء: 99]
- ﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾ [النساء: 149]
- ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾﴾ [النساء: 153]
- ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [المائدة: 15]
- ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الأعراف: 95]
- ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: 199]
- ﴿۞ ذَٰلِكَ ۖ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾ [الحج: 60]

- ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٢٢﴾ [النور: 22]
- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ٢٥﴾ [الشورى: 25]
- ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠﴾ [الشورى: 30]
- ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ٢﴾ [المجادلة: 2]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوّٗا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤﴾ [التغابن: 14]

والمتدبر لهذه السياقات القرآنية سيجد على الفور أن الله هو العفو الغفور:

- ﴿۞ ذَٰلِكَۖ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ٦٠﴾ [الحج: 60]
- ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورٗا ٩٩﴾ [النساء: 99]

وهو الذي يعفو عن كثير:

- ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠﴾ [الشورى: 30]

وهو من حثنا عليه:

- ﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّۖ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ ١٠٩﴾ [البقرة: 109]

لأن العفو هو أقرب للتقوى:

- ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَاۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلِ ٱلْعَفْوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ٢١٩﴾ [البقرة: 219]

السؤال: بماذا يكون العفو؟

رأينا: لا شك أن العفو يكون أولا عن السيئات:

- ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرًا ١٤٩﴾ [النساء: 149]
- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ٢٥﴾ [الشورى: 25]

ولكن العفو يشمل الأموال على اختلاف أصنافها كالذي يتوجب للمرأة من الرجل مثلا:

- ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾ [البقرة: 237]

فمن حق المرأة أن تأخذ ما فرض لها في عقد النكاح كله إن حصل المس. ولكن في حالة عدم حصول المس، فإن حقها يتراجع إلى النصف، وفي هذه الحالة يحق له أن تعفو عن ذلك كما يحق لمن بيده عقدة النكاح كالأب أو الأخ أن يعفو عن ذلك.

فكيف يكون العفو في هذه الحالة؟

رأينا: نحن نظن أن الذي عفا عن ماله أو شيء منه، فهو كمن أنفقه في سبيل الله:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [البقرة: 178]

فتخيل أن المطلقة قد فرض لها عشرة الآلاف دولار، ثم حصل الطلاق قبل المس، فإن لها حق في خمسة الآلاف من المبلغ (نصف ما فرض لها)، ثم قامت بعد ذلك بالعفو، وتنازلت عن هذا المبلغ ألا تكون بذلك قد أنفقت، ولكنها بدل أن تنفق المال، فقد أنفقت العفو (وهو كامل ما يحق لها من ذلك المبلغ). ويمكن تصور المشهد نفسه في حالة الديّة، فذلك حق لأهل المتضرر، ولكنهم إن عفو عنه، فهم بذلك قد أنفقوا العفو. قال تعالى:

- ﴿... وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾ [البقرة: 219]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نفتري القول بأن إنفاق المال يتم بالعفو عندما تتنازل عنه لعلمك أن ذلك خير:

- ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾ [البقرة: 237]

تلخيص ما سبق: نحن نظن أن إنفاق المال يتم بصرفه كما يتم بالعفو فيه، ويتلخص ذلك بقوله تعالى:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾﴾ [البقرة: 267]

وعكس الإنفاق هو البخل. قال تعالى:

- ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾ [آل عمران: 180]
- ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾﴾ [النساء: 37]
- ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [التوبة: 75-76]
- ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾ [محمد: 37-38]
- ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحديد: 24]
- ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [الليل: 8]

نتيجة مفترزة: الإنفاق يتم بتقديم شيء مما آتاك الله من فضله

نتيجة مفترزة 2: البخل يتم بعدم الإنفاق مما آتاك الله من فضله:

- ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [التوبة: 75-76]

والإنفاق يمكن أن يكون في سبيل الله:

- ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: 261]

ويمكن أن يكون للصد عن سبيل الله:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنفال: 36]

وبناء عليه، يصبح عندنا ثلاث فئات من الناس:

⇐ **الفئة الأولى** تنفق مما رزقهم الله في سبيله
⇐ **الفئة الثانية** تنفق مما رزقهم الله ليصدوا عن سبيله
⇐ **الفئة الثالثة** تبخل فلا تنفق

وهذه الفئة الثالثة على وجه التحديد هي التي تجعل يدها مغلولة إلى عنقها:

- ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ٢٩﴾ [الإسراء: 29]

وهؤلاء هم من كانت لهم أنفس الشح:

- ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٢٨﴾ [النساء: 128]

وعلى العكس تماما من هؤلاء، نجد من يوق شح نفسه، فيؤثرون على أنفسهم لو كان بهم خصاصة:

- ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٩﴾ [الحشر: 9]
- ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٦﴾ [التغابن: 16]

فالذي يبخل هو حقيقة يبخل على نفسه:

- ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ٣٨﴾ [محمد: 38]

السؤال المحوري: ما هي آلية الإنفاق التي يقابلها آلية البخل؟

رأينا المفترى الخطير جدا جدا: نحن نفتري الظن بأن آلية الإنفاق تتم باليد. فاليد هي التي تنفق، فتكون مبسوطة، واليد هي التي تبخل، فتكن مغلولة. قال تعالى:

- ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۚ وَأَلۡقَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٦٤﴾ [المائدة: 64]

نتيجة مفتراة 1: عندما تكون اليد مبسوطة فإنها تنفق

نتيجة مفتراة 2: عندما تكون اليد مغلولة فإنها تبخل

السؤال: كيف يمكن أن تكون اليد مبسوطة؟ ما معنى مفردة بسط اليد؟

رأينا المفترى: تعرضنا في مقالة سابقة لنا عن معنى بسط اليد، وزعمنا الظن بأن بسط اليد لا تكون على صورة الشكل التالي لليد:



لأن شكل اليد لا تكون على هذه الهيئة عند الإنفاق. وليس أدل على ذلك من قوله تعالى:

- ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَـٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿١٤﴾﴾ [الرعد: 14]

فلو كان البسط على شاكلة الصورة السابقة، لاستطاع من يبسط كفيه للماء أن يبلغ فاه، فنحن أصلا نملأ كفينا بالماء (أو أي شيء آخر) بهذه الطريقة. أليس كذلك؟

السؤال: كيف يكون إذن بسط اليدين بحيث يستحيل أن يبلغ الماء الفاه؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأن بسط اليد وبالتالي بسط الكفين يكون على الشكل المعكوس تماما، كما في الصورة التالية لليد المبسوطة:



وبهذه الهيئة (من البسط) يستحيل من يبسط كفيه للماء أن يبلغ فاه، لاستحالة أن يتجمع شيء من الماء يزيل عطش هذا الظّمآن.

ولا أظن أن هناك توضيحا أكثر لهذا من طرقة بسط الكلب يديه، قال تعالى:

- ﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ١٨﴾ [الكهف: 18]

فالكلب يبسط ذراعيه على النحو التالي:



نتيجة مفتراة مهمة جدا جدا:نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن عملية بسط اليد أو الكفين أو الذراع تكون على نحو أن تكون راحة اليد إلى الأسفل. لذا نهانا الله عن بسط أيدينا كل البسط، لأن ذلك سيكون بمثابة إنفاق المال كله وبسرعة شديدة، عندها ستقعد ملوما محسورا:

- ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ٢٩﴾ [الإسراء: 29]

لذا، مطلوب منك أيها المؤمن أن تبسط يدك لكن ليس كل البسط، حتى لا تنفق المال كله بسرعة شديدة، ويحق لك أن تبسطها لكن بحكمة، فتفتح راحتها إلى الأسفل بمقدار ما لا يجعلك تقعد ملوما محسورا في نهاية المطاف. والشكل التالي يوضح كيفية عدم بسط اليد كل البسط:



وبهذه الطريقة يمكنك أن تقبض وتبسط بحكمة، لأن الله هو نفسه من يبسط ويقبض وكل شيء عنده بمقدار:

- ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة: 245]
- ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الرعد: 26]
- ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ [الإسراء: 30]
- ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [القصص: 82]
- ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ [العنكبوت: 62]
- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الروم: 37]
- ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [سبأ: 36]
- ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [سبأ: 39]
- ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الزمر: 52]
- ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الشورى: 12]

فالكل إذن مطلوب منه أن ينفق بحسب مقدرته:

- ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾ [الطلاق: 7]
- ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة: 195]

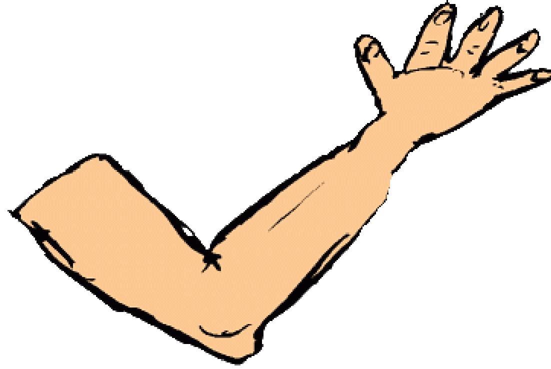
إن ما يهمنا قوله هنا هو أن بسط اليد كل البسط يقع في باب إلقاء النفس في التهلكة. لذا وجب على المنفق أن لا يبسط يده كل البسط.

نتيجة مفتراة خطيرة جدا: نحن نظن أن اليد هي التي تؤدي بك إلى التهلكة إن لم تقبضها وتبسطها بمقدار:

- ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة: 195]

ويقابل بسط اليد كل البسط على الطرف الآخر جعل اليد مغلولة إلى العنق، فكيف يكون ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن اليد تبسط ككتلة واحدة، تبدأ من منطقة العنق حتى أطراف الأصابع، كما في الشكل التوضيحي التالي:



بدليل أن هناك اليد التي تبسط كلها في عملية القتل كما جاء في قوله تعالى:

- ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨﴾ [المائدة: 28]

وهناك اليد إلى المرفق، وهي التي تغسل عند القيام إلى الصلاة:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦﴾ [المائدة: 6]

ولو راقبنا سلوك الناس المنفقين، لوجدنا أنهم يمدوا أيديهم، فتتحرك اليد ككتلة واحدة كلها، فتمد وتقبض بمقدار بسبب وجود المفاصل الثلاثة الرئيسية، وهي:

⇐ المفصل الأعلى الذي يربط اليد بالعنق

⇐ المفصل الأوسط الذي يربط المرفق بالعضد

⇐ المرفق الأدنى الذي يربط راحة اليد بالساعد

فتبدوا ويكأنها منتعشة، متحررة، سهلة الحركة لأن فيها مرونة كبيرة، ولا شك عندنا أنه كلما كان الإنفاق أكثر، كانت حركة اليد أكثر، وظهر ذلك على منطقة صدر المنفق، فيمشي رافعا الرأس، منتعش الصدر، واضحا ذلك على محيّاه.

لكن بالمقابل، فإن الذي يبخل، تجد أن يده لا تتحرك إلى بشق الأنفس، فتتباطأ يده في الحركة إلى درجة الجمود، ويتضح ذلك في حديث العامة من الناس، فعندنا في الأردن مثلا يقول الناس عن البخيل الذي لا يريد العطاء بأنه "بقصع بكتافه".

راقب عزيزي القارئ مجلسا فيه كثير من الناس حيث يطلب منهم دفع المال لغرض ما وخاصة المنطقة التي تربط اليد مع العنق (الكتف بالمفردات الدارجة)، عندها سترى بأم عينك من يبسط يده، ومن يغلها إلى عنقه، فتجد المنفق مرفوع الرأس، عريض الصدر ممدود اليد، وتجد على النقيض من ذلك من بقي رأسه مطأطأ وصدره حرجا ضيقا كمن يصعد في السماء، ويده مكفوفة لا تمتد أبدا. فهل في ذلك مجازا يا سادة؟ من يدري؟!!!

نتيجة مفتراة: إن آلية الأنفاق تبدأ من المنطقة التي تربط اليد بالعنق (الكتف)، فإذا ما كان هذا الكتف متحررا، فإن اليد تبدأ بالحركة من هناك، فتبسط اليد بمقدار ما تحرك الكتف، فكلما مد إلى الأمام أكثر كلما كان العطاء أكبر. وكلما تقاعس الكتف عن الحركة كلما قل العطاء إلى درجة أن تكون هذه اليد مغلولة إلى العنق، وفي هذه الحالة يصبح الشخص في أقصى درجات البخل. والله هو من نهانا عن مثل هذا التصرف:

- ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ۝٢٩﴾ [الإسراء: 29]

وتستطيع أن تكشف الأنفس الشح بأبسط تصرفات العطاء كمد سيجارة من الدخان لمن حولك. فتجد من يمد السيجارة بحركة سريعة بطول اليد إلى من حوله، وتجد من يمدها بتردد وبكأن يده لا تريد أن تمتد، وتجد من لا يمدها إطلاقا. فهذا التصرف على بساطته يعكس نفسية الشخص، فهو كذلك في كل تصرفاته. ونحن لا نريد القول بأن على الشخص أن يمد يده على الدوام لإعطاء السجائر لمن حوله، لكن هذا ليس إلا تصرفا بسيطا قد يلهمك شيئا عن نفسية هذا الشخص إن كان تصرفه على هذه الشاكلة في كل وقت وحين.

استراحة لغوية أخرى: هو خير مقابل هو خيرا

راقب عزيزي القارئ – إن شئت- عبارة هو خير مقابل عبارة هو خيرا في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝١٨٠﴾ [آل عمران: 180]
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١١﴾ [النور: 11]
- ﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ

يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ ﴿٢٠﴾ [المزمل: 20]

لو دققنا مليا في هذه السياقات، لوجدنا أن مفردة خير تأتي تارة مرفوعة () وتأتي تارة أخرى منصوبة بعد الضمير المنفصل هو، ليكون السؤال هو: لماذا هو خيرا وليس هو خير بالرغم أن الضمير المنفصل هو يعرب (حسب قواعد الأعراب) مبتدأ يحتاج إلى خير مرفوع؟ فلم إذن جاءت تارة (هُوَ خَيْرٌ) كخبر مرفوع؟ ولِمَ تأتي تارة أخرى (هُوَ خَيْرًا) تميزا منصوبا (كما يحب بعض أهل اللغة إعرابها في هذه الحالة)؟ فأين خبر الضمير المنفصل هو في هذه الحالات؟

رأينا المفترى: دعنا نضع قواعد الآباء جانبا بعض الوقت، ونحاول النظر إلى الموضوع من زاوية أخرى، علنا نستطيع بإذن الله (إن شاء) أن نخرج بفهم مختلف يتوافق فيه اللفظ مع المعنى.

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن بداية أن الفرق بين المرفوع والمنصوب هو الحالة.ويتمثل رأينا المفترى بأن المرفوع حالته ثابتة أم المنصوب فحالته متغيرة. انتهى

مثال: عندما نقول فلان غني، فإن ذلك يعتبر جملة وصفة لحالة هذا الشخص كما نراها بأم أعيننا. لكن بالمقابل إذا قلنا وجدت فلانا غنيا، فإني بذلك أعبر عن حالتين لهذا الشخص، أحدهما صريحة (explicature) والأخرى ضمنية (implicature). أو لنقل الحالة الحالية مقابل حالته السابقة، فحالته الحالية هو أنه غني، وهي الحالة المصرح بها (غنيا)، لكن هذا يحمل ضمنا معنى مصاحبا وهو أن هذا الشخص ربما لم يكن كذلك من ذي قبل.

السؤال: ما علاقة هذا بالقضية الأعرابية؟ وكيف يؤثر هذا على فهم النص (هُوَ خَيْرٌ) مقابل (هُوَ خَيْرًا)؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن المرفوع يعبر عن حالة حقيقية ثابتة لا يمكن إنكارها، بينما يعبر المنصوب عن حالة متغيرة، فهو أساسا مفعولا. وعند إسقاط هذا الفهم المفترى من عند أنفسنا على الآية الأولى:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١١﴾﴾ [النور: 11]

نجد أن المجيء بالإفك هو فعلا خير لا جدال فيه، يستحيل أن يحدث فيه تغيير. وهذا – برأينا- ينطبق على كل السياقات القرآنية التي ترد فيها كلمة خير مرفوعة كخبر للضمير المنفصل هو، قال تعالى:

- ﴿أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾ [البقرة: 184]
- ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة: 216]

- ﴿إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٢٧١﴾ [البقرة: 271]
- ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ١٥٠﴾ [آل عمران: 150]
- ﴿قُلۡ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبۡتُم بِهِۦۚ مَا عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦٓۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ يَقُصُّ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰصِلِينَ ٥٧﴾ [الأنعام: 57]
- ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٞ مِّنكُمۡ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٞ لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ فَٱصۡبِرُواْ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ بَيۡنَنَاۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٨٧﴾ [الأعراف: 87]
- ﴿إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدۡ وَلَن تُغۡنِيَ عَنكُمۡ فِئَتُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَوۡ كَثُرَتۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٩﴾ [الأنفال: 19]
- ﴿وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٣﴾ [التوبة: 3]
- ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٥٨﴾ [يونس: 58]
- ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ١٠٩﴾ [يونس: 109]
- ﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٨٠﴾ [يوسف: 80]
- ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩٥﴾ [النحل: 95]
- ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ١٢٦﴾ [النحل: 126]
- ﴿هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا ٤٤﴾ [الكهف: 44]
- ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ٣٠﴾ [الحج: 30]
- ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٥٨﴾ [الحج: 58]
- ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ خَرۡجٗا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيۡرٞۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٧٢﴾ [المؤمنون: 72]
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١﴾ [النور: 11]

- ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۚ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [سبأ: 39]

فالله هو خير الرازقين وهو خير الحاكمين، وما عند الله خير يستحيل أن يعتريه تغيير أو تبديل.والتوبة وتعظيم حرمات الله هو خير في كل زمان ومكان. والصبر هو لا محالة خير للصابرين جميعا في كل ظرف وحين، الخ.

ولكن بالمقابل لو استعرضنا الآيات التي جاءت مفرد خير فيها منصوبة في العبارة نفسها (هُوَ خَيْرًا)، لوجدنا أنها تتحدث بشكل أساسي عن الإنفاق، قال تعالى:

- ﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ ۙ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾ [المزمل: 20]
- ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾ [آل عمران: 180]

السؤال: لماذا؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن السبب في ذلك هو أن ذلك الشيء قد أصبح خيرا، فما بقي على حالته الأولى، وذلك لأنه قد حصل عليه تغيير. فمن يقدم لنفسه من خير لن يجده عند الله خير (كما هو على حالته الأولى التي قدمها به)، ولكنه سيجده قد تضاعف أضعافا كثيرة، فأصبح خيرا كثيرا نتج في الأصل عن خير محدد، قال تعالى:

- ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة: 245]
- ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الحديد: 11]

فأنت عزيزي المؤمن عندما أقرضت الله قرضا حسنا، فإنك – لا شك- قد قدمت كمية من المال محددة بالكم والمقدار، ولكن لما كان الله هو من اقترضها منك، فإنه قد عمد إلى مضاعفتها لك أضعافا كثيرة، فما عادت على الحالة نفسها التي قدمتها بها، ولكنها أصبحت أضعافا كثيرة (تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا)، أي أصبحت خيرا. انتهى.

وبالمقابل فإن الذي لم يقرض الله قرضا حسنا، وبخل بما آتاه الله، وقام هو بتمنيته فضاعفه لنفسه، حتى ظن أن هذا قد أصبح خيرا كثيرا:

- ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾ [آل عمران: 180]

ولكن الذي غفل عنه هذا الشخص هو أن هذا الخير الذي يراه أمام عينه قد تضاعف (هُوَ خَيْرًا) ليس أكثر من خداع بصري، لأنه يحسبه خيرا وهو في الحقيقة ليس كذلك (وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ). فحسبته هذه هي حسبة خاطئة لا تمت إلى الحقيقة بصلة، لأن الحقيقة هو أن ذلك شر لهم (بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ).

عودة على بدء

نحن نريد أن نثير من خلال هذا النقاش الطويل الفكرة التي مفادها أن القرض الحسن يعطى للناس ويرد منهم كما هو دون زيادة تذكر في الدنيا، وينتظر الشخص الذي قدم هذا القرض مضاعفته له في الآخرة لأن الله هو المتكفل بتنميته له، لذا سيجده عند الله هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا. انتهى.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: ما تقدمه أخي المؤمن بربك من خير لنفسك كقرض لله نفسه هو خيرا وهو أعظم أجرا لأن الله قد غير حالته لك فما عاد ثابتا كما قدمته، قال تعالى:

- ﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾﴾ [المزمل: 20]

باب الدين

السؤال: إذا كان هذا هو القرض الحسن (إن صح زعمكم)، فكيف يختلف عن الدّين؟ ربما يريد صاحبنا أن يسأل. ألا يرد الدّين على تلك الشاكلة بدون زيادة تذكر على المبلغ المقدم من الدائن إلى المدين؟ ربما يريد أن يضيف صاحبنا قائلا.

جواب مفترى من عند أنفسنا خطير جدا لا تصدقوه: كلا وألف كلا.

السؤال: هل جننت يا رجل؟ هل يزيد المدِين على المال الذي استدانه من صاحبه عند سداده؟

جواب مفترى: نعم هو كذلك. يجب الزيادة على "الدين" عند سداده. انتهى.

السؤال: وأين الدليل على ما تزعم؟

رأينا المفترى: دعنا ندقق في آية الدَّين نفسها لننظر أنهتدي أم نكون من الذين لا يهتدون. قال تعالى:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٨٢﴾ [البقرة: 282]

أما بعد،

افتراء 1: الدين يكون بين المؤمنين (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ)
افتراء 2: الدين يكون لأجل مسمى (إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى)
افتراء 3: الدين يجب أن يكتب (فَاكْتُبُوهُ)
افتراء 4: الذي يقوم بالكتابة هو كاتب متخصص (يسمى كاتب العدل بالمفردات الدارجة) (وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ)
افتراء 5: يجب على الكاتب أن يكتب كما علمه الله (وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ)
افتراء 6: الذي يملّ هو الذي عليه الحق (وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ)
افتراء 7: على الذي عليه الحق أن يتق الله ربه (وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ)
افتراء 8: على الذي عليه الحق أن لا يبخس منه شيئا (وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا)
افتراء 9: في حالة أن كان الذي عليه الحق سفيها أو لا يستطيع أن يمل هو، يقوم بذلك وليه بالعدل (فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ)
افتراء 10: يجب أن يكون هناك شهداء للدين، رجلين أو رجل وامرأتان (وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ)
افتراء 11: سبب وجود المرأتين هو أن تضل أحداهما فتذكر إحداهما الأخرى (أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ۚ)
افتراء 12: لا يحق للشهداء أن يأبوا الشهادة (وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ۚ)

افتراء 13: الدين يجب أن يكتب سواء كان صغيرا أو كبيرا (وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ)
افتراء 14: سبب كتابة الدين هو أن ذلك أقوم للشهادة (وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ) وأدنى أن تحصل الريبة (وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا)
افتراء 15: يجوز عدم كتابة الدين في حالة واحدة وهي أن تكون تجارة حاضرة (إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا)
افتراء 16: في حالة التبايع يجب توافر الشهادة (وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ)
افتراء 17: لا يلحق الشهيد ولا الكاتب أي ضرر جاء ذلك (وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ)
افتراء 18: إذا وقع ضرر على الشهود أو الكاتب، فإن ذلك يقع في باب الفسق (وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ)
افتراء 19: يُحكّم ذلك كله بتقوى الله (وَاتَّقُوا اللَّهَ)
افتراء 20: إذا بني العقد على هذه الشروط فإن النتيجة هي أن الله لا محالة سيعلمنا لأنه هو بكل شيء عليم (وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

(دعاء: اللهم أدعوك وحدك أن أكون من عبادك المتقين الذي تعلمهم إنك أنت وحدك بكل شئ عليم - آمين)

السؤال: كيف يمكن أن نفهم هذا كله؟

لكي نفهم هذا الأمر على حقيقته، فلابد من طرح تساؤلات عديدة، نذكر منها:

- ⇐ لم يجب أن يكتب الدين؟
- ⇐ كيف يجب أن يكتب الدين إلى أجل مسمى؟ وما هو الأجل المسمى للدين؟ وكيف يمكن تحديده؟
- ⇐ لم يجب أن يكتب الدين كاتب بالعدل؟ لم لا يكتبه الدائن والمدين معا وكفى؟
- ⇐ كيف يمكن للكاتب أن يكتب كما علمه الله؟
- ⇐ لم يجب أن يملّ الذي عليه الحق؟
- ⇐ ما المشكلة إذا كان الذي يمل هو الذي له الحق (صاحب الدين)؟
- ⇐ لم يجب على الذي عليه الحق أن يتق الله ربه ولا يبخس من الدين شيئا؟ وكيف يمكن أن يبخس الذي عليه الحق من الدين؟
- ⇐ لم يشترط وجود الولي للذي عليه الحق إن كان هذا الأخير سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هو؟
- ⇐ ومتى يمكن أن يكون الذي عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هو؟
- ⇐ لم يجب أن يكون هناك شهود؟
- ⇐ لم يجب كتابة الدين مهما كانت كميته؟

⇐ لم لا تتوجب كتابة الدين إذا كانت تجارة حاضرة تدار عن تراض بين الطرفين؟
⇐ كيف يمكن أن يحصل التبايع في حالة الدين؟
⇐ لم لا يجب أن يلحق ضرر بالكاتب أو الشهود؟
⇐ لم يحكم العقد كله بتقوى الله؟
⇐ الخ.

باب وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا

نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن النقطة المحورية في فهم ماهية الدين على حقيقته تكمن في تدبر هذه العبارة (وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا) الواردة في الآية الكريمة نفسها، فكيف يمكن أن يبخس المدين الذي يمل الدين على الكاتب من الدين شيئا؟ فهل إذا أدنتك أنا ألف دولار، هل يمكن لك أن تبخس من ذلك الدين شيئا عندما تقوم أنت الذي عليك الحق بإملاء ذلك الدين على الكاتب بالعدل؟ وكيف يمكن لك أن تبخس من ذلك المبلغ شيئا إن أردت؟ وهل يمكن لي أنا كدائن أن أقبل بأن تبخس من ذلك المبلغ شيئا؟ هل يمكن أن أقبل أن أعطيك ألف دولار وتقوم أنت بإملاء ذلك على الكاتب بالعدل على نحو أن المبلغ الذي يجب أن ترده إلي هو تسع مئة دولار مثلا؟ هل يمكن أن يقبل أي دائن لمثل هذا التصرف؟

نتيجة مفتراة مهمة جدا جدا: نحن نفتري ابتداء بأن هناك احتمالية أن يبخس الذي عليه الحق من الدين شيئا (وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا).

السؤال: كيف يمكن أن يبخس الذي عليه الحق من الدين شيئا؟

رأينا المفترى: لو تفقدنا مفردة تبخس ومشتقاتها في كتاب الله، لوجدنا أنها قد وردت في السياقات القرآنية التالية:

- ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأعراف: 85]
- ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [هود: 85]
- ﴿۞ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾﴾ [الشعراء: 181-183]

ولو تفقدنا هذه الآيات الكريمة على وجه التحديد، لوجدنا على الفور بأن النقيض من البخس هو وفاء الكيل. فمن وفّى الكيل هو الذي لم يبخس الناس أشياءهم، لكن الذي لم يوفّ الكيل فهو الذي بخس الناس أشياءهم. فتكون الصورة على النحو التالي:

أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ	وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ

منطقنا المفترى: إن أول ما يمكن أن نستنبطه من هذا المنطق المفترى من عند أنفسنا هو التالي:

⇐ إيفاء الكيل تحمل في ثناياها الزيادة
⇐ بخس الناس أشياءهم تحمل (بالمقابل) في ثناياها النقصان.

وهذا يعني بمفردات بسيطة أنك إذا أوفيت الكيل، تكون قد أعطيت الشخص حقه مزيدا غير منقوص كما كان يفعل يوسف مثلا:

- ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ٥٩﴾ [يوسف: 59]

لكن بخسن الشيء تعني – بالمقابل- نقصانه، كما حصل مع الذين شروا يوسف:

- ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ٢٠﴾ [يوسف: 20]

وهذا التقابل واضح جلي في الآية الكريمة التالية:

- ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ١٥﴾ [هود: 15]

نتيجة مفتراة مهمة جدا جدا: يجب على الذي عليه الحق (المدين) أن يوفي الدين (فيزيده) ولا ينقص منه شيئا. وهذا برأينا (ربما مخطئين) معنى وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا.

السؤال: كيف يكون ذلك؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن ذلك يكون على نحو أن القرض يجب أن يرد مزيدا غير منقوص.

السؤال المحوري: لم يجب أن يكون الذي يمل الدين هو الذي عليه الحق؟

رأينا المفترى: نحن ننفي جملة وتفصيلا أن يكون الذي يمل الدين هو الدائن (صاحب المال)، فالنص صريح لا لبس فيه في كتاب الله على نحو أن الذي يجب أن يمل الدين هو الذي عليه الحق، قال تعالى:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ ...﴾ [البقرة: 282]

ولو حصل أن كان الذي عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هو، فإن ذلك التكليف ينتقل إلى ولي الذي عليه الحق، قال تعالى:

- ﴿... فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ [البقرة: 282]

السؤال: لماذا؟ أي لم يجب أن يكون الذي يمل هو الذي عليه الحق أو وليه؟

رأينا المفترى الخطير جدا جدا (فلا تصدقوه): نحن نفتري الظن بأن هذا هو الشعرة التي تفصل الحلال عن الحرام، وبكلمات أكثر دقة فإننا نظن بأن هذا الشرط هو الذي يفصل بين الدين (الحلال) والربا (الحرام). انتهى.

السؤال: وكيف ذلك؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نظن أنه في حالتي الدين والربا، هناك زيادة تقع في المال الذي تم أخذه من طرف لحساب الطرف الآخر، فأنت إذا أخذت مبلغا من المال، يجب أن تعيده لصاحبه مزيدا غير منقوص، لكن المشكلة تكمن في التفريق بين ما هو دين وما هو ربا. فكيف يمكن أن نميز بينهما؟

رأينا المفترى: إذا كانت الزيادة التي أضيفت إلى المال قد حددها المدين وأقرها بنفسه وهو الذي أملاها على كاتب العدل بوجود الشهود، فإن ذلك يصبح دينا. لكن بالمقابل إذا كانت الزيادة قد حددها صاحب المال وهو الذي أملاها على المدين، فإن ذلك يقع في باب الربا.

السؤال: لماذا؟ وما الفرق بين الحالتين؟

رأينا المفترى: دعنا بداية نعود إلى المعاملات الربوية سواء حصلت داخل أسوار البنك أم خارجه، لنجد أن البنك أو الدائن (كصاحب المال) هو الذي يحدد نسبة الزيادة في المال المدين. وهنا يكون البنك أو

صاحب المال هو الذي ملّ شروط الدين، وهنا تقع أو مخالفة لأحكام الشرع، وهو وجوب أن يكون الذي يمل الدين هو الذي عليه الحق. فيصبح ذلك ربا محرما بدل أن يكون دينا مشرعا. انتهى.

السؤال: كيف يمكن تطبيق ذلك على أرض الواقع؟

جواب مفترى: هذا ما ستناوله بالتفصيل بحول الله وتوفيق منه في الجزء القادم من هذه المقالة إن أذن الله لنا بشيء من علمه فيها،

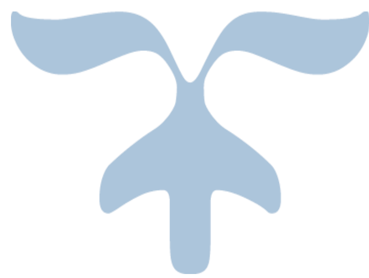
فالله وحده أسأل أن يعلمني، وأن يزيدني علما، وأن يهدين لأقرب من هذا رشدا. وأعوذ به وحده أن أكون ممن يفترون عليه الكذب أو ممن يقولون عليه ما ليس لهم بحق، وأعوذ به أن يكون أمري كأمر فرعون، إنه هو العليم الحكيم - آمين.

المدكرون: رشيد سليم الجراح & علي محمود سالم الجراح
بقلم د. رشيد الجراح
24 آب 2017



فقه الزكاة

الجزء الخامس



فقه الزكاة: الجزء الخامس

خلصنا في الأجزاء السابقة من هذه المقالة إلى افترائنا القول بأن هناك ثلاث طرق لتقديم المال للغير، وهي على النحو التالي:

⇐ القرض
⇐ الدين
⇐ الربا

فالمال يمكن أن يقدم للغير بواحدة من هذه الطرق الثلاث، فإما أن تقرض وإما أن تدين وإما أن ترابي. ولعل أفضلها على الإطلاق هو القرض، وذلك لأن القرض لله نفسه، قال تعالى:

- ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة: 245]
- ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الحديد: 11]

فأفضلية القرض تأتي بأنه لله، وأن الله هو من يقوم بمضاعفته لك أضعافا كثيرة، وما ذلك كله إلا لأنك (نحن نفتري الظن من عند أنفسنا) لم تستفد منه في الحياة الدنيا وأجلت الفائدة منه إلى اليوم الذي ترجع فيه إلى الله. فيكون لك بذلك أجر كريم. والقرض يعطى لصاحب الحاجة لسداد حاجته فقط، فلا يستفيد منه في تنمية المال، ويعطى بمقدار الحاجة، فلا يزاد فيه. فإن كانت حاجة الشخص مئة دولار، أُعطي مئة دولار، وإن كانت حاجته ألفا، أُعطي ألفا. ويكون السداد على ذلك النحو، فلا يأخذ صاحب القرض (المقرِض) فلسا واحدا زيادة على ما أعطى. وعلى صاحب المال أن يعطي فسحة من الوقت لمن أعطاه القرض إن وجد أنه ذو عسرة ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ﴾، ويحق لصاحب المال أن يعتبره صدقة إن وجد أن صاحب الحاجة لا يستطيع سداده ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. فيكون له ذلك هو خيرا وأعظم أجرا:

- ﴿... وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾﴾ [المزمل: 20]

أما الدين، فإنه يعطى لشخص يريد تنمية المال والاستفادة منه. فالشخص الذي يطلب الدين لا يكون بحاجة لهذا المال لقضاء حاجته كما في حالة القرض، وإنما لاستخدام هذا المال في تجارة ما والاستفادة منه، وبالتالي فإن على من أخذ هذا المال دينا أن يرده فلا يبخس منه شيئا، فيرده مزيدا غير منقوص.

وقد ذكرنا في الجزء السابق من هذه المقالة الشروط الواجب تحرِّيها عند تنفيذ عملية الدين، وهذه الشروط هي التي وردت في آية الدين التالية:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٨٢﴾ [البقرة: 282]

ونعيدها هنا للخوض في تفاصيلها الواحدة تلو الأخرى:

افتراء 1: الدين يكون بين المؤمنين (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ)

افتراء 2: الدين يكون لأجل مسمى (إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى)

افتراء 3: الدين يجب أن يكتب (فَٱكۡتُبُوهُ)

افتراء 4: الذي يقوم بالكتابة هو كاتب متخصص، وهو ما يسمى بالمفردات الدارجة بكاتب العدل (وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ)

افتراء 5: يجب على الكاتب أن يكتب كما علمه الله (وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ)

افتراء 6: الذي يملّ هو الذي عليه الحق (وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ)

افتراء 7: على الذي عليه الحق أن يتق الله ربه (وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ)

افتراء 8: على الذي عليه الحق أن لا يبخس منه شيئا (وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ)

افتراء 9: في حالة أن كان الذي عليه الحق سفيها أو لا يستطيع أن يمل هو، يقوم بذلك وليه بالعدل (فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ)

افتراء 10: يجب أن يكون هناك شهداء للدين، رجلين أو رجل وامرأتان (وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ)

افتراء 11: سبب وجود المرأتين هو أن تضل أحداهما فتذكر إحداهما الأخرى (أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ)

افتراء 12: لا يحق للشهداء أن يأبوا الشهادة (وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ)

افتراء 13: الدين يجب أن يكتب سواء كان صغيرا أو كبيرا (وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ)

افتراء 14: سبب كتابة الدين هو أن ذلك أقوم للشهادة (وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ) وأدنى أن تحصل الريبة (وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ)

افتراء 15: يجوز عدم كتابة الدين في حالة واحدة وهي أن تكون تجارة حاضرة (إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَاۗ)

افتراء 16: في حالة التبايع يجب توافر الشهادة (وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ)

افتراء 17: لا يلحق الشهيد ولا الكاتب أي ضرر جراء ذلك (وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌۚ)

افتراء 18: إذا وقع ضرر على الشهود أو الكاتب، فإن ذلك يقع في باب الفسق (وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمْۗ)

افتراء 19: يُحكّم ذلك كله بتقوى الله (وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ)

افتراء 20: إذا بني العقد على هذه الشروط، فإن النتيجة هي أن الله لا محالة سيعلمنا لأنه هو بكل شيء عليم (وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

باب الدين يكون بين المؤمنين فقط

قال تعالى:

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ

السؤال: لماذا يكون الدين بين المؤمنين فقط؟

جواب مفترى: نحن نظن (ربما مخطئين) بأن السبب في أن يكون الدين بين المؤمنين هو أن الدين يجب أن يخضع لشروط الشريعة نفسها. فمادام الدائن والمدين من الذين آمنوا، فهم إذن يقبلون بشروط العقيدة الدينية التي يؤمنون بها. ولا ننسى بأن تنفيذ عقد الدين (أي كتابته) تتم من خلال الكاتب بالعدل الذي يجب أن يكتب كما علمه الله:

- ... وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلْيَكْتُبْ ...

كما أن عملية تنفيذ عقد الدين يجب أن تكون محكومة كلها بتقوى الله:

- وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ

فلو كان أحد طرفي الدين من غير المؤمنين، فإن هذه الشروط لن تكون ملزمة له، لأنه أصلا من غير الذين آمنوا. وهنا يصبح لا ضمانة لأن يبرم عقد الدين بتقوى الله، وقد يصبح أحد طرفي العقد غير ملزم بشروط العقد حسب شريعة المؤمنين. وهذا بالضبط ما افتريناه في باب عقد النكاح في مقالات أخرى سابقة لنا. فقد زعمنا الظن بأن عقد النكاح لا يبرم إلا بين المؤمن والمؤمنة، وذلك لأن النكاح لا يقع إلا على مؤمن أو مؤمنة، قال تعالى:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۖ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ١٠﴾ [الممتحنة: 10]

وقال تعالى:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٤٩﴾ [الأحزاب: 49]

والسبب (نحن نرى ربما مخطئين) في أن يكون عقد الزواج بين المؤمن والمؤمنة هو عقد نكاح هو أن كلا الطرفين يتحاكمون إلى الشرعة ذاتها في حالة نشوب الخلاف بينهما. فلا يوضع في ذلك العقد شروط أخرى غير ما تنص عليه الشريعة التي يؤمن بها طرفا العقد (المؤمن الناكح والمؤمنة المنكوحة أو العكس المؤمنة الناكحة أو المؤمن المنكوح). لكن لو كان أحد طرفي العقد من غير المؤمنين، فإنه لا يبرم بينهما عقد نكاح، وإنما يبرم بينهما عقد مكاتبة:

- ﴿وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا لِّتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَمَن يُكۡرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٣﴾ [النور: 33]

والسبب في ذلك هو إمكانية استحداث شروط يتفق عليها الطرفان مسبقا، تكون هي الفصل بينهما في حالة نشوب الخلاف. فلو كان الناكح مؤمنا وكانت المنكوحة من أهل الكتاب، فمن الطبيعي أن لا يقبل أحدهما بشروط الشريعة التي يؤمن بها الآخر، لذا لابد من وجود اتفاق مسبق بينهما تملى شروطه عند عقد الزواج، ويكون ذلك عقد مكاتبة أو عقد استمتاع. (للتفصيل انظر سلسلة مقالاتنا السابقة).

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا مهمة جدا: عقد الدين يجب أن يكون بين المؤمنين الذي يرضون التحاكم إلى الشريعة ذاتها في حالة نشوب خلاف بينهما (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ). انتهى.

باب الأجل المسمى

نحن نظن أن الشرط الثاني لإبرام عقد الدين هو الاتفاق المسبق بين الطرفين على الأجل المسمى بينهما، قال تعالى:

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى...

فالدين يجب أن يتحدد موعد سداده مسبقا. وهذا ما يجب أن يحدد عند كتابة الدين برضا الطرفين (الدائن والمدين). ولا شك عندنا أن الأجل المسمى يختلف من حالة إلى حالة. فربما أحتاج أنا مبلغا من المال من أجل تجارة ما لمدة سنة أو سنتين أو عشرا، وذلك لأن هذه التجارة المنوي تشغيلها بمال الدين ربما لن تؤتي أكلها إلى بعد حين، وهذا يختلف من حالة إلى أخرى.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: لما كان الأجل المسمى يختلف من حالة إلى حالة، فإن من الواجب الاتفاق بين الطرفين على الأجل المسمى لذلك الدين عند كتابة الدين. فقد يكون الأجل المسمى شهرا واحدا وقد يكون عاما كاملا وقد يكون أكثر من ذلك أو أقل، لكن ما يهمنا هو ليس طول الفترة الزمنية ولكن تحديدها بالأجل المسمى بين الطرفين كما ينص عليه عقد الدين. ولعلي أكاد أجزم الظن بأن الذي يستطيع تحديد هذا الأجل هو المدين بشرط موافقة الدائن.

ولما كان الأجل المسمى يختلف من حالة إلى حالة، كان من الضروري أن يؤخذ ذلك بعين الاعتبار في سداد الدين، فلا يحق للمدين أن يبخس من الدين شيئا بناء على الفترة الزمنية التي حددها لسداد الدين. فمن غير المنطقي أن أعطيك مئة ألف دولار لتعيدها إلي مئة ألف دولار بعد عشر سنوات مثلا. لأن ذلك سيلحق ضررا كبيرا بي كصاحب المال. وربما لن أقبل (كصاحب مال) أن أعطيك هذا المبلغ لتعيده إلي مئة ألف وعشرا بعد عشر سنين مثلا. لكن ربما أقبل أن أعطيك هذا المبلغ لتعيده لي مئة ألف وعشرا بعد عام واحد مثلا.

افتراء خطير جدا: إن ما نود افتراءه (ربما مخطئين) هو أن مقدار فائدة صاحب المال من المال المدين يحدده طول الفترة الزمنية المتفق عليها بين الطرفين (أي الأجل المسمى بينهما).

باب كتابة الدين (فَاكْتُبُوهُ)

السؤال: لم يجب كتابة الدين؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن السبب الرئيس في كتاب الدين هو لأنه يجب أن يحدد بأجل مسمى. فلو كان الدين لا يتحدد بأجل مسمى لما دعت الحاجة إلى كتابته كما في حالة القرض الحسن. ولو حاولنا عقد مقارنة بين عقد الدين من جهة وعقد النكاح من جهة أخرى، لوجدنا أن عقد النكاح لا يشترط به الكتابة، ويكتفي بأن يتم ذلك بإذن أهلهن، قال تعالى:

- ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۚ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [النساء: 25]

- ﴿وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٣٧﴾ [البقرة: 237]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٤٩﴾ [الأحزاب: 49]

كما أن المقارنة هنا تقتضي التنبيه أن عقد الدين يجب أن يكون مشهودا، أي توافر الشهود فيه:

- وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ

وهذا الأمر غير منصوص عليه في عقد النكاح. وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- مرة أخرى في آيات النكاح:

- ﴿وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖۚ فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡۚ وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٥﴾ [النساء: 25]
- ﴿وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٣٧﴾ [البقرة: 237]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٤٩﴾ [الأحزاب: 49]

السؤال: لم لا تجب كتابة عقد النكاح ولم لا يشترط حضور الشهود؟

جواب مفترى: نحن نظن أن السبب في ذلك يعود إلى أن عقد النكاح لا يتحدد بأجل مسمى. لذا، لا داعي لوجود الشهود أو لكتابته بحضور الشهود. ويكتفى بأخذ الإذن من أهل المنكوحة من النساء:

- ... فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ ...

أما الدين، فيجب كتابته بحضور الشهود (نحن نفتري الظن من عند أنفسنا) لسببين اثنين على الأقل:

⇐ الاتفاق المسبق بين الطرفين على الأجل المسمى
⇐ تحديد كمية الفائدة التي سيجنيها صاحب المال كما أملاها من كان عليه الحق.

باب وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ

السؤال: لم يجب أن تكون عملية كتابة الدين من قبل الكاتب بالعدل؟ لم لا يكتبه صاحب المال الدائن؟ ولم لا يكتبه المدين؟ ما أهمية وجود طرف ثالث يتولى كتابة الدين بيمينه؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن السبب في ذلك (ربما مخطئين) هو انتفاء حصول الريبة مادام أن الذي كتب الدين هو كاتب بالعدل، قال تعالى:

- ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ۝٤٨﴾ [العنكبوت: 48]

فلو كان الذي خط عقد الدين بيمينه هو أحد طرفي العقد (الدائن أو المدين)، لربما حصل في ذلك ريبة عند الطرف الآخر. وهنا يأتي دور محلل الخطوط في النزاعات. فمادام أن عقد الدين قد خط بيمين طرف ثالث (وهو الكاتب بالعدل)، فيستحيل أن تحصل الريبة من قبل أي طرف (الدائن أو المدين)، فتنتفي احتمالية التلاعب بالعقد من قبل أي طرف بالإضافة أو الحذف أو التزوير، لاسيما أن العقد مسمى لأجل بعينه، فقد يكون هذا الأجل بعيدا. فمن يدري ما يمكن أن تصبح عليه نفوس العباد بعد فترة طويلة من الزمن. كما ينفي احتمالية التلاعب بالعقد من أي طرف في حالة الوفاة لأحد طرفي العقد أو كلاهما.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأن الضامن لاستبعاد احتمالية التلاعب بالعقد المكتوب بين الطرفين هو كتابة هذا العقد من طرف ثالث هو الكاتب بالعدل، بالإضافة لوجود الشهود على ذلك العقد.

السؤال: لماذا يسمى هذا الذي يكتب عقد الدين كاتب بالعدل؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن سبب تسميته بالكاتب بالعدل هو أنه الشخص الذي يحكم بين الطرفين بالعدل، فيكون ضامنا بأن لا يحصل البغاء من طرف على الطرف الآخر، قال تعالى:

- ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٥٨﴾ [النساء: 58]

فهذا الكاتب مخول بأن يحكم بالعدل، فلا يحصل البغاء من طرف على الطرف الآخر

- ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩﴾ [الحجرات: 9]

والعدل يقتضي عدم المحاباة حتى لو كان الشخص من الأقربين:

- ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ [النساء: 135]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [المائدة: 8]

فكاتب العدل لا يتبع الهوى، وهو الذي لا يجرمنه شنآن القوم أن يعدل، فلا يلوي ولا يعرض.

السؤال: كيف يمكن لكاتب العدل أن يحكم بين الطرفين بالعدل؟ وكيف يمكن لكاتب العدل أن يصلح بين الطرفين بالعدل لو حصلت الخصومة بينهما؟

رأينا المفترى: بالشهود

السؤال: وكيف يحكم الكاتب بين الطرفين بالعدل بالشهود؟

جواب مفترى: نحن نظن أن الإجابة على هذا التساؤل يتطلب بداية الوقوف على الفرق بين الشاهد من جهة والشهيد من جهة أخرى. فكلا لمفردتين وردتا في النص القرآني، فمفردة الشاهد وردت في كتاب الله في السياقات القرآنية التالية:

- ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [آل عمران: 53]
- ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: 81]
- ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المائدة: 83]
- ﴿قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾﴾ [المائدة: 113]
- ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾ [التوبة: 17]
- ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾ [هود: 17]
- ﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [يوسف: 26]

- ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٥٦﴾ [الأنبياء: 56]
- ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ٧٨﴾ [الأنبياء: 78]
- ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٤٤﴾ [القصص: 44]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ٤٥﴾ [الأحزاب: 45]
- ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ١٥٠﴾ [الصافات: 150]
- ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠﴾ [الأحقاف: 10]
- ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ٨﴾ [الفتح: 8]
- ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ١٥﴾ [المزمل: 15]
- ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ٣﴾ [البروج: 3]

ووردت مفردة الشهيد في السياقات التالية:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١٤٣﴾ [البقرة: 143]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ٢٨٢﴾ [البقرة: 282]
- ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ٩٨﴾ [آل عمران: 98]
- ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ٣٣﴾ [النساء: 33]
- ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ٤١﴾ [النساء: 41]

- ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾﴾ [النساء: 72]
- ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾ [النساء: 79]
- ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء: 159]
- ﴿لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ [النساء: 166]
- ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة: 117]
- ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّا أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنعام: 19]
- ﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [يونس: 29]
- ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [يونس: 46]
- ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾﴾ [الرعد: 43]
- ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [النحل: 84]
- ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل: 89]
- ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾ [الإسراء: 96]
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحج: 17]
- ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ۖ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [الحج: 78]
- ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [القصص: 75]
- ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [العنكبوت: 52]
- ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ۗ وَاتَّقِينَ اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾ [الأحزاب: 55]
- ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾ [سبأ: 47]

- ﴿۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾﴾ [فصلت: 47]
- ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت: 53]
- ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾﴾ [الأحقاف: 8]
- ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ [الفتح: 28]
- ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾ [ق: 21]
- ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: 37]
- ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾﴾ [المجادلة: 6]
- ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾﴾ [البروج: 9]
- ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾﴾ [العاديات: 7]

إن أهم ما يمكن أن نطرحه هنا هو أن الله شهيد لكنه ليس شاهدا. السؤال: لماذا؟

جواب مفترى: نحن نظن أن الله شهيد لأنه لا يغفل ولا يغيب. فلا يعزب عن ربك مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

أما الشاهد، فليس بالضرورة أن يكون حاضرا، وليس أدل على ذلك من قوله تعالى:

- ﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [يوسف: 26]

فذلك الشاهد (نحن نتخيل) لم يكن حاضرا الموقف، وجلّ شهادته قد كانت بالخبرة. انتهى.

السؤال: ما علاقة هذا بشهداء الدين؟

جواب مفترى: نحن نظن أن السبب في ذلك يعود إلى أن شهيد الدَّين يجب أن يكون حاضرا على كتابته. انتهى.

السؤال: لماذا يجب حضور الشهيدين؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن شهداء الدَّين يجب أن يكون لهم دور في تحديد كمية الفائدة من الدين. فكاتب العدل يستعين بهؤلاء الشهداء لتحديد كمية الفائدة حتى لا يحصل الظلم لأي طرف من الأطراف. وهنا يصبح الكاتب كاتبا بالعدل، لأنه يعدل بين الطرفين، فلا يظلم طرف على حساب الطرف الآخر. فلو كانت مهمة الكاتب هي الكتابة فقط لكان أسمه كاتبا وكفى، لكنه هو كاتب بالعدل لأنه يحكم بينهما بالعدل:

- ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ٥٨﴾ [النساء: 58]
- ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٧٦﴾ [النحل: 76]
- ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾ [النحل: 90]
- ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٩﴾ [الحجرات: 9]

(وسنتابع النقاش في ذلك لاحقا بحول الله وتوفيقه)

باب فَإن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ

افترينا الظن في الجزء السابق من هذه المقالة بأن الذي يجب أن يملّ الدين هو الذي عليه الحق، وكان هذا – برأينا- هو الحد الفاصل في أن تكون المعاملة المالية دينا مشرّعا أو ربا محرّما. فإذا كان صاحب المال هو الذي يضع الشروط، فإن ذلك يصبح ربا محرما، وذلك لأن الظلم سيحصل لا محالة في المعاملة المالية، وسيكون المستدين هو الذي يقع عليه الظلم مقابل الفائدة الكبيرة التي سيضمنها صاحب المال لنفسه. فيصبح الهدف هو الربا وليس البيع، قال تعالى:

- ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧٥﴾ [البقرة: 275]

إن الهدف من الدين هو البيع، وذلك بإنشاء تجارة يتحصل من ورائها ربحا حلالا لكل الأطراف. أما الربا، فهو محرم لأن الفائدة لن تكون إلا لصاحب المال، فيضمن بذلك تكدس الثروة بيد حفنة من الأغنياء:

- ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٧﴾ [الحشر: 7]

لكن إذا كان الذي يملّ الشروط هو المدين (من عليه الحق)، فإن ذلك يصبح دينا مشرعا، لأن المدين هو الأعلم بظروف تلك التجارة المتوقع إنشائها، وبهامش الربح الممكن أن يتحصل من ورائها، وبالفترة الزمنية اللازمة لسداد الدين، فلا يظلم نفسه ولا يظلم غيره خاصة بوجود الشهود على الدين، وفي الوقت ذاته، فهو مطالب أن لا يبخس الناس أشيائهم، لذا عليه أن لا يبخس من الدَّين شيئا مادام أنه متق لله:

- ﴿... وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ... ﴿٢٨٢﴾﴾ [البقرة: 282]

وهنا تبرز التساؤلات المثيرة التالية:

⇐ كيف يمكن أن يكون الذي عليه الحق سفيها؟
⇐ وكيف يمكن أن يكون ضعيفا؟
⇐ وكيف يمكن أن يكون من الذين لا يستطيعون أن يملّوا؟

نحن نجد أن الآية الكريمة تحدّد ثلاث حالات يتعذر حينها أن يكون الذي عليه الحق هو الذي يملّ الدين، وينتقل الأمر إلى وليّه. فكيف يكون ذلك؟

باب: من كان سفيها

لو تفقدنا مفردة السفيه ومشتقاتها في النص القرآني على مساحته، لوجدنا أن لها علاقة مباشرة بالعقيدة، قال تعالى:

- ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [البقرة: 130]

فالذي يرغب عن ملة إبراهيم ولا يرضى بها، فهو إذن شخص قد سفه نفسه، وهذا هو ديدن الذي لا يؤمنون بما شرعه الله، قال تعالى:

- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [البقرة: 13]
- ﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾ [البقرة: 142]
- ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأعراف: 155]

ولعل إبليس هو سفيه الجن الأول، وذلك لأنه فسق عن أمر ربه:

- ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطٗا ٤﴾ [الجن: 4]

ولعل السفهاء هم الذين ينقصهم العلم الحقيقي:

- ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدۡ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٤٠﴾ [الأنعام: 140]

وهؤلاء هم الذين أرشدنا الله بأن لا نؤتيهم أموالنا:

- ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٥﴾ [النساء: 5]

السؤال: إذا كان الله قد أمرنا أن لا نؤتي السفهاء أموالنا، فكيف يمكن أن نعطيهم الدَّين؟

جواب مفترى: نحن ننفي جملة وتفصيلا أن يعطى السفهاء المال بما في ذلك الدَّين إطلاقا.

سؤال: لكن آية الدَّين تجيز إعطاء السفيه المال، فهل في ذلك شك؟

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٨٢﴾ [البقرة: 282]

السؤال مرة أخرى: ألا تشير الآية الكريمة إلى احتمالية أن يكون المدين سفيها؟

جواب مفترى: نعم؟

السؤال: فكيف إذن تزعم أنه لا يجوز أن نعطيه المال (كدين مثلا)؟

رأينا المفترى: عندما لا يكون الذي عليه الحق سفيها، فلا يتوجب وجود الولي له، ويكتفى بوجود الكاتب بالعدل والشهداء، أليس كذلك؟

لكن - بالمقابل - عندما يكون الذي عليه الحق سفيها، فلابد من وجود الوليّ (وهو ما نسميه بمفرداتنا الدارجة بالكفيل). لذا فإن المال الذي يعطى للسفيه هو أصلا يعطى لولي السفيه (وهو المتكفل بشروط عقد الدين) وليس للسفيه نفسه. انتهى.

نتيجة المفتراة: يكون المتكفل بالدين (في حالة أن يكون الذي عليه الحق سفيها) هو الولي، فهو الذي يملّ الدين، وذلك لأنه هو الذي يجب عليه الإيفاء به في حينه.

نتيجة مفتراة: لا يؤتى المال للسفيه إلا في حالة وجود الولي له، وهذا الوليّ هو الذي يرضى بأن يلتزم بشروط العقد. انتهى.

السؤال: كيف يمكن فهم هذا على أرض الواقع؟

رأينا المفترى: عندما يكون طالب الدين سفيها، فهو إذن من الذين لا يحسنون التصرف بالمال، لذا وجب في هذه الحالة أن لا يعطى هذا الشخص (من عرف أنه سفيها) الدين إلا في حالة واحدة ألا وهي وجود الوليّ له الذي يرضى بأن يلتزم بشروط عقد الدين المبرمة بين الطرفين، كما يملها هذا الولي بنفسه، فيكتبها الكاتب بالعدل ويشهد على ذلك الشهداء. والسبب في ذلك هو ضمان حق صاحب المال في استرداد ماله مزيدا غير منقوص، ففي حالة أن يعجز السفيه عن السداد بنفسه، فإن ذلك يقع على الفور على عاتق الوليّ، وذلك لأنه رضي بأن يقوم مقام المدين (السفيه)، فيفي بالالتزامات المترتبة على صاحبه.

ولا تقتصر الولاية (أي وجود الوليّ) على السفيه، وإنما تتعدى لمن كان ضعيفا، ولمن كان لا يستطيع أن يمل أيضا. ليكون السؤال الآن هو: من هو الضعيف؟ وما هو الضعف هنا؟ ولم يجب أن يكون للضعيف وليّا في حالة طلبه للدين؟

باب الضعف

مادام أن الولي هو الذي يكون متكفلا بالدين في حالة أن يكون الذي عليه الحق ضعيفا، فإنه يتوجب علينا أن نفهم كيفية ذلك. لذا، علينا أن نبدأ النبش في معنى مفردة الضعيف ومشتقاتها في النص القرآني على مساحته، قال تعالى:

- ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ۝٩١﴾ [هود: 91]
- ﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ۝٤٧﴾ [غافر: 47]

- ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعًا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ ٢١﴾ [إبراهيم: 21]
- ﴿ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٦٦﴾ [الأنفال: 66]

لو تدبرنا هذه الآيات الكريمة، لربما وجدنا أن الضعف يتولد (نحن نرى) من حالتين اثنتين، الحالة الأولى هي الضعف الجسمي، قال تعالى:

- ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٞ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٞ فِيهِ نَارٞ فَٱحۡتَرَقَتۡۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ٢٦٦﴾ [البقرة: 266]
- ﴿۞ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ ٥٤﴾ [الروم: 54]

فالبنية الجسدية تتسم بالضعف في مرحلة الولادة حتى مرحلة ما قبل بلوغ الأشد، وهذا ما نسميه نحن بالضعف الفردي.

أما الحالة الثانية للضعف فتحصل (برأينا) في حالة قلة العدد، قال تعالى:

- ﴿ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٦٦﴾ [الأنفال: 66]

فعندما تواجه فئة قليلة فئة كثيرة، فإن من أهم سمات الفئة القليلة هو الضعف، وهذا ما نسميه نحن بالضعف الجماعي.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن الفرد بذاته قد يكون ضعيفا (لضعف بنيته الجسدية) وقد يكون ضعيفا (بسبب قلة عدد من هم حوله ليساندوه).

ولو تفقدنا النص القرآني عن مفردة ضَعِيفًا على وجه التحديد، لما وجدناها قد وردت إلا في السياقات القرآنية التالية:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٨٢﴾ [البقرة: 282]
- ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ٢٨﴾ [النساء: 28]
- ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ٧٦﴾ [النساء: 76]
- ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ٩١﴾ [هود: 91]

ولو تدبرنا الآية الكريمة الأخيرة الخاصة بشعيب (كشخص)، لوجدنا أن القوم من حوله ينعتونه بالضعف، فيكون السؤال الحتمي هو: كيف كان شعيب ضعيفا فيهم؟ وهل كان ضعف شعيب هو ضعف فردي جسمي أم كان ضعفه جماعي بسبب قلة عدد من هم حوله؟

رأينا المفترى: نحن نظن (ربما مخطئين) بأن شعيبا كان فيه ضعف فردي جسدي كما كان فيه أيضا ضعف جماعي لقلة عدد من حوله ليساندوه ويشدوا من أزره، وذلك لسببين اثنين على الأقل، هما:

أولا، لم يكن الذين حول شعيب (المناصرون له) أكثر من رهط. وانظر الآية الكريمة عزيزي القارئ – إن شئت- مرة أخرى:

- ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ٩١ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ٩٢﴾ [هود: 91-92]

ولا شك عندنا أن الرهط هم مجموعة قليلة في العدد بدليل قوله تعالى:

- ﴿وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ٤٨﴾ [النمل: 48]

أما الدليل الثاني على ضعف شعيب فيأتي من الحقيقة الماثلة في الآيات الكريمة كما جاءت على لسان ابنتيه اللتين سقا لهما موسى يوم أن ورد ماء مدين:

- ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ٢٣﴾ [القصص: 23]

منطقنا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن بأنه لو لم يكن شعيب ضعيفا، لما كان أصلا بحاجة أن يجعل بناته هن من يقمن على سقاية الماشية ورعايتها، فهو الآن شيخ كبير كما جاء على لسان إحداهن:

- ﴿... قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ٢٣﴾ [القصص: 23]

فمادام شعيب قد أصبح الآن شيخا كبيرا، فهو من رُدّ الآن إلى مرحلة الضعف والشيبة بعد مرحلة القوة:

- ﴿۞ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ ٥٤﴾ [الروم: 54]

هذا بالنسبة لضعف بنية شعيب الجسدية الفردية الآن، أما بالنسبة لضعفه الجماعي، فنحن نرى بأنه لو كان حول شعيب ما يكفي من الرجال الأقوياء ليعينوه على أعباء الحياة اليومية على الأقل، لما تركوا بنات نبيهم يقمن بهذه المهمة بأنفسهن. فقد كان من حوله أمة يقومون بفعل السقاية ولا يتركون المجال لبنات شعيب إلا من بعد أن ينتهوا من سقايتهم لمواشيهم الخاصة بهم. والأهم من ذلك أنهم لم يكونوا يقومون بفعل السقاية لبنات شعيب حتى بعد أن ينهوا سقاية مواشيهم. وانظر عزيزي القارئ - إن شئت- في النص نفسه مرة أخرى:

- ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ٢٣﴾ [القصص: 23]

ولا تتوقف الحجة عند هذا الحد، فنحن نظن (ربما مخطئين) بأنه لو كان حول شعيب من يعينه على تلك المسؤولية، لما دعته الحاجة أن يطلب من موسى إجارته ثمان حجج مقابل أن ينكحه إحدى أبنتيه:

- ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾ [القصص: 27]

فقد وجدت إحدى ابنتي الرجل (وهن الأدرى بظروف أبيهم المعيشية) في موسى الرجل القوي الأمين المؤهل لأن يتحمل المسؤولية عن كاهل الشيخ الكبير:

- ﴿قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ٢٦﴾ [القصص: 26]

فشعيب (الضعيف في قومه) يحتاج إلى من هو قوي (كموسى) ليسانده على تحمل أعباء الحياة. فلقد وجد شعيب (الشيخ الكبير) ضالته المفقودة (القوة) في موسى الشاب القوي.

ولتوضيح ماهية الضعف أكثر، دعنا نتدبر الآية الكريمة التالية التي تصور لنا هارون ضعيفا في قوم موسى بعد أن استخلفه فيهم:

- ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ [الأعراف: 150]

السؤال: كيف استضعف القوم هارون؟

رأينا المفترى: تعرضنا لهذه الجزئية في مقالة سابقة لنا، وزعمنا الظن من عند أنفسنا (ربما مخطئين) بأن هارون كان من آل فرعون لأنه أخ لموسى من أمه بدليل قوله له في أكثر من موضع في كتاب الله (قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ). لذا لمّا وجد هارون نفسه محاطا بالعدد الهائل من بني إسرائيل (قوم موسى)، أصبح فيهم ضعيفا لا يستطيع أن يدفع أذاهم عن نفسه، فسكت على ما فعلوا حتى رجع إليهم موسى. (للتفصيل انظر المقالات السابقة كقصة موسى وباب السامري وقصة يونس).

السؤال: ما علاقة هذا بالضعيف الذي يجب أن يكون له وليا في حالة طلبه الدين كما جاء في آية الدين (محور الدراسة هنا) نفسها:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾ [البقرة: 282]

رأينا المفترى من عند أنفسنا: غالبا ما يكون طالب الدين قد بلغ أشده، ملي ماليا بنفسه، يستطيع أن يسدّ دينه، وذلك لتنوع مصادر الدخل عنده، فهو إذن غير ضعيف لأنه ربما قوي بأمواله المنقولة وغير المنقولة، وربما يكون مسنودا كذلك من قبل من هم حوله من الأهل والأقارب، فهو يكون (بمفرداتنا الدارجة) ملي ماليّا ليس فقط بذاته، وإنما كذلك بمن هم حوله. فمن غير المنطقي أن يقع شخص ذو مكانة في قومه

وأهله بالدين ويعجز عن الإيفاء بالتزاماته، ثم لا تجد أن أهله من حوله يساندوه على الإيفاء بالتزاماته المادية. فالأب عادة يتكفل بولده، والولد يتكفل بوالده، والإخوة غالبا ما يكونون عصبة يشد بعضهم أزر بعض. لذا يكون صاحب المال (الدائن) مرتاح لا يخشى أن يضيع ماله مادام أنّ طالب الدين مسنودا من أهله وعشيرته الأقربين (أي ملي ماليا). فهو قد لا يحتاج في هذه الحالة إلى ولي ليتكفل سداد الدين عنه في حالة عجزه عن السداد بنفسه، لأن المدين لديه من الأموال المنقولة وغير المنقولة ما يضمن سداد الدين في أجله ليس فقط بكفاءته المالية الفردية وإنما بمساندة أهله من حوله له.

أما إذا وجد صاحب المال أن الشخص طالب الدين ضعيفا (لا يسنده أحد من أهله من حوله)، فإن من دواعي ضمان سداد الدين أن يطلب صاحب المال وليا ليتكفل هو بنفسه الإيفاء بالتزامات هذا الضعيف المالية في حالة عجزه عن القيام بذلك بنفسه.

باب لا يستطيع أن يمل هو

أما الحالة الثالثة التي تستوجب وجود الولي لصاحب الدين فهي أن يكون هذا المدين لا يستطيع أن يمل هو. ليكون السؤال الآن هو: كيف يمكن أن نفهم ذلك؟ ما معنى أن يكون المدين غير مستطيع أن يمل هو؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نجد أن مفردة الاستطاعة قد وردت في السياقات القرآنية التالية:

- ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾ [البقرة: 217]
- ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران: 97]
- ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ [الكهف: 97]
- ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [يس: 67]
- ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الذاريات: 45]
- ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾ [البقرة: 273]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن

كَانَ ٱلَّذِى عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٌ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٨٢﴾ [البقرة: 282]

- ﴿إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا ﴿٩٨﴾﴾ [النساء: 98]
- ﴿إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [المائدة: 112]
- ﴿وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾ [الأعراف: 192]
- ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾﴾ [الأعراف: 197]
- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [هود: 20]
- ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [النحل: 73]
- ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ﴿٤٨﴾﴾ [الإسراء: 48]
- ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا ﴿١٠١﴾﴾ [الكهف: 101]
- ﴿بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةٗ فَتَبۡهَتُهُمۡ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الأنبياء: 40]
- ﴿أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَ أَنفُسِهِمۡ وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنبياء: 43]
- ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ﴿٩﴾﴾ [الفرقان: 9]
- ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾﴾ [الشعراء: 211]
- ﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ تَوۡصِيَةٗ وَلَآ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [يس: 50]
- ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَهُمۡ وَهُمۡ لَهُمۡ جُندٞ مُّحۡضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [يس: 75]
- ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [القلم: 42]
- ﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٢٩﴾﴾ [النساء: 129]
- ﴿أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ﴿٤١﴾﴾ [الكهف: 41]
- ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٦٧﴾﴾ [الكهف: 67]

- ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝٧٢﴾ [الكهف: 72]
- ﴿۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝٧٥﴾ [الكهف: 75]
- ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ۝٧٨﴾ [الكهف: 78]
- ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ۝١٩﴾ [الفرقان: 19]

السؤال: ما هي الاستطاعة؟

جواب مفترى: نحن نفتري القول من عند أنفسنا بأن الاستطاعة تعني توافر الإمكانات اللازمة لتنفيذ الأمر على أرض الواقع بالطريقة الشرعية. انتهى.

فالكفار يحاولون قتال المؤمنين وردهم عن دينهم إن استطاعوا إلى ذلك سبيلا:

- ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝٢١٧﴾ [البقرة: 217]

فما الذي يمنعهم عن تنفيذ هدفهم هذا؟

جواب مفترى: الاستطاعة، أي ما توافر لهم من إمكانات لتحقيق ذلك على أرض الواقع. فلو توافرت الاستطاعة الكاملة عندهم، لما ترددوا لحظة عن رد المؤمنين عن إيمانهم.

ولو تفقدنا الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝١٢٩﴾ [النساء: 129]

لوجدنا أن الذي يمنعنا عن العدل بين النساء هو الاستطاعة.

السؤال: ما معنى أن يكون طالب الدين لا يستطيع أن يمل هو؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن طالب الدين قد لا يكون مستطيعا لأنه لا يملك الإمكانات اللازمة التي تضمن الإيفاء بالدين في أجله. وهذا ما نسميه بمفرداتنا الدارجة (المدين غير الملي ماليا). فلا أخال أن يأتيك شخص ليس لديه الخبرة الكافية لتنمية المال، ولا يملك من المقومات المالية ما قد يساعده على الإيفاء بالدين

بنفسه، ثم تقوم بإعطائه المال لينشئ بذلك تجارة جديدة ربما لا تكون موثوقة النتائج. ففي هذه الحالة لا يعذر صاحب المال أن لا يطلب وليا يتكفل هو بنفسه بالإيفاء بالتزامات عقد الدين بين الطرفين.

والجدول التالي يلخص الحالات التي تستوجب طلب الولي لطالب الدين:

أن يكون سفيها	لا يحسن التصرف بالمال
أن يكون ضعيفا	لا يوجد من يسانده من أهله
لا يستطيع أن يمل هو	ليس لديه الملاءة المالية بنفسه

وربما يؤكد افتراءاتنا هذه ما جاء في الآية التي تلي مباشرة آية الدين نفسها. فانظر عزيزي القارئ – إن شئت- الآيتين معا:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٨٢ ۞وَإِن كُنتُمۡ عَلَىٰ سَفَرٖ وَلَمۡ تَجِدُواْ كَاتِبٗا فَرِهَٰنٞ مَّقۡبُوضَةٞۖ فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥۗ وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٢٨٣﴾ [البقرة: 282-283]

فلو تدبرنا الآية الثانية، لوجدنا أنها تصور لنا حالة من حالات الدين وهي السفر، وهذه الحالة هي التي قد تعذر فيها وجود الكاتب بالعدل، نجد كذلك غيابا للشهود وغيابا للولي، ويسد محل هذا كله الرهان المقبوضة. ليكون السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن من أهم شروط وقوع الدين هو توافر القدرة (أو لنقل الاستطاعة) على سداده في أجله المسمى. لذا جاءت الشروط السابقة في آية الدين تبين كيفية إنشاء عقد الدين في الحالة العادية (أي في الحضر)، وهي الحالة الأكثر شيوعا. لكن الشارع الكريم الذي أحاط بكل شيء علما، وفصل كل شيء تفصيلا، لم يدع الاستثناءات الممكنة حتى يتم معالجة الأمر من جميع جوانبه الممكنة، فأفرد الحالة الاستثنائية وهي احتمالية وقوع الدين في حالة السفر. وفي هذه الحالة، قد لا يتأتى وجود الكاتب بالعدل والشهود والولي، لذا كان لابد من تبيان كيفية ضمان سداد الدين في أجله المسمى لمن كان على سفر (أي خارج أرضه

وبلده وأهله). ولا يمكن في هذه الحالة أن يتم عقد الدين إلا بشرط واحد وهو الرهان المقبوضة. فكيف يكون ذلك؟

مثال: تخيل أني كنت على سفر خارج بلدي وأهلي، وكنت بحاجة إلى مبلغ من المال اضطررت إلى استدانته من شخص آخر، فكيف سيضمن الدائن سداد المال المدين في أجله المسمى؟

رأينا المفترى: في هذه الحالة لا ضير أن يطلب صاحب المال (الدائن) رهان مقبوضة تواز لا بل وتزيد عن قيمة الدين المطلوب. فلو كنت بحاجة إلى عشرة الآلاف دولار، فيجب علي أن أوفر رهان (كمصاغ ذهبي مثلا) يواز في قيمته السوقية العشرة الآلاف دولار التي طلبتها من صاحب المال. وهذه الرهان المقبوضة هي التي تضمن لي أن يقوم المدين بسداد دينه في أجله المسمى.

افتراء من عند أنفسنا: لما كان صاحب المال يريد ضمان أن يسد المدين المال في أجله المسمى فلابد أن يلجأ إلى طريقة تجعل المدين ملزما بالسداد. فلو كانت القيمة السوقية للرهان المقبوضة تساوي أو ربما تقل عن قيمة الدين، فإن ذلك لن يجبر المدين على سداد الدين، لأنه أصلا على سفر. فلو عاد لبلاده الأصلية، ربما لن يكون مضطرا أن يعيد المال المدين إلى صاحبه مادام أن قيمة الرهان المقبوضة تساوي أو تقل عن قيمة الدين نفسه.

لكن بالمقابل، لو كانت قيمة الرهان المقبوضة أكثر من قيمة الدين، فإن هذا سيشكل عاملا ملزما للمدين أن لا يتلكأ عن سداد ما عليه من التزامات مالية لصاحب المال في حينه، لأن ذلك يعني له خسارة كبيرة تفوق ما أخذه من مال. ولتوضيح الصورة أكثر، دعنا نتخيل المثال السابق نفسه. فلو أخذت منك دينا بقيمة عشرة الآلاف دولار، وقدمت لك رهان مقبوضة بقيمة خمسة عشر ألف دولار، فإني لن أحاول اللف والدوران والتلكؤ عن سداد الدين، لأني كصاحب المال أملك في يدي رهان تفوق في قيمتها السوقية ما أخذته مني من مال. لذا ستحاول أنت كمدين أن تعيد المال في أجله المسمى حفاظا على رهانك التي قبضتها أنا كضمانة لسداد الدين من طرفك أنت كمدين.

نتيجة مفتراة: الرهان المقبوضة هي الضمان الذي يسد محل الكاتب بالعدل والشهود والولي. انتهى.

ولو تفقدنا الآية الكريمة نفسها، لوجدنا أنها تحث على أداء الأمانة:

- ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾ [البقرة: 283]

السؤال: لماذا؟

رأينا: نحن نظن أن الرهان المقبوضة هي التي أصبحت أمانة في يد الدائن، وعلى هذا الشخص أن لا تسول له نفسه أن لا يرد هذه الأمانة (الرهان المقبوضة) متى ما تحصل على ماله من المدين صاحب الرهان المقبوضة. فقد تسول لمن كانت نفسه مريضة أن يطمع في تلك الرهان المقبوضة (التي أصبحت في يده أمانة) أن لا يردها إلى صاحبها مادامت قيمتها السوقية تفوق قيمة الدين نفسه. لهذا جاء الحث في الآية نفسها على أداء الأمانة (فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ) وعلى التقوى (وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ).

ولضمان أداء الأمانة، جاءت الشهادة لتكون حاضرة في المشهد (وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ). لذا، فإن الشرط الوحيد هنا (نحن نفتري الظن) هو تقديم الرهان المقبوضة على الملأ، أي لابد من حضور الناس في حالة أخذ الدين وتقديم الرهان من أجل إقامة الشهادة على الطرفين. ولو دققنا في الآية أكثر، لما وجدنا وجود شهيدين ولكننا نجد الشهادة فقط، ليكون السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: مادام أن الدَّين لم يكتبه كاتب بالعدل، فإن من الواجب حضور أكبر عدد من الناس ليشهدوا عملية تبادل الدين بالرهان المقبوضة، وهنا جاء الأمر الإلهي بأن يشهد هؤلاء جميعا إذا ما دعوا إلى الشهادة، ولا يحق لأحد ممن حضر عملية التبادل هذه أن يكتم الشهادة (وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ)، لأن النتيجة الحتمية هي على نحو أن من يكتم الشهادة، فإن قلبه آثم (وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ).

باب شهداء للدين

لو دققنا في آية الدين الذي يكتبه كاتب بالعدل، لوجدنا أن من شروط إتمام عقد الدين على الوجه الأكمل هو وجود شهيدين على نحو أن يكونا رجلين أو رجل وامرأتان

- ... وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ ...

ليكون السؤال المطروح على الفور هو: لماذا؟ لم يتوجب وجود الشهداء مادام كتابة عقد الدين قد تمت من قبل الكاتب بالعدل، وبحضور الدائن والمدين (والولي في الحالات الواجب فيه حضور هذا الولي)؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن واحدة من مهمة الشهداء الذين يحضرون كتابة الدين هو ضمان عدم اعتداء طرف على الطرف الآخر، قال تعالى:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ

وَأَقْوَمُ لِلشَّهَـٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَاۗ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌۚ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمْۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ [البقرة: 282]

رأينا المفترى: نحن نظن (ربما مخطئين) أن مشروعية وجود الشهيدين ليس فقط حضورهم على العقد لمعرفة تفاصيله وبالتالي الشهادة بالعين المجردة، ولكن أيضا لضمان عدم وقوع ظلم من طرف على طرف. فالشهود يشهدون بخبرتهم بأن شروط العقد غير مجحفة بحق طرف على حساب الطرف الآخر، فإذا ما طلب صاحب المال زيادة أكثر مما يجب، كان الشهود له بالمرصاد، حتى لا يقع الربا، وإذا ما بخس المدين من الدين شيئا، كانوا هم الضمانة الحقيقية بأن هذا ظلم لصاحب المال. فهم بمثابة الميزان الذي لا يدع كفة ترجح على الكفة الأخرى. لذا جاء النص الإلهي ليبين لنا الشرط الواجب توافره فيمن تقبل شهادتهم في هذه الحالة، وهو قوله تعالى (مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ)، ولو دققنا في مفردة ترضون على وجه التحديد، لوجدنا بأنها تتطلب عقد مقارنة بين طرفين، كما جاء في الآية الكريمة التالية:

- ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: 24]

ففي الطرف الأول هناك كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ وفي الطرف الثاني هناك ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ وعملية الرضا لا تتم إلا بعد موازنة هذه بتلك. فهناك من يقدم الأولى على الثانية وهناك من يفضل الثانية على الأولى، وهذا لا يتم إلا بأن يرضى الشخص بواحدة على حساب الأخرى.

السؤال: لم يجب أن يكون الشهداء ممن يرضى به أطراف عقد الدين (الدائن والمدين)؟

لو تدبرنا الحالات التي يجب توافر الشهداء فيها، لوجدنا أنها غير مشروطة برضا الأطراف كحالة الشهادة على الإفك:

- ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾ [النور: 13]

أو حادثة رمي المحصنات:

- ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَـٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَـٰدَةً أَبَدًاۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٤﴾﴾ [النور: 4]

فلب القول هنا أن الشهادة تجوز من أي شخص ولا داع لتوافر عامل الرضا من أي طرف من الأطراف.

السؤال: لم إذن يشترط وجود عامل الرضا في شهادة الدين؟

رأينا المفترى: لو أن الشهادة هنا مقتصرة فقط على الرؤيا بالعين المجردة، لجاء النص على نحو (وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٌ وَٱمۡرَأَتَانِ) وكفى، ولما دعت الحاجة إلى أن تأتي عبارة (مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ)، ويصبح النص القرآني على النحو التالي:

- ... وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٌ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ ...

ولكن لما كان الشهود هم بمثابة العامل المثبت لموازين العقد حتى لا يقع الظلم من طرف على طرف آخر، كان لابد أن يكون حضور الشهداء برضا أطراف الدين. فعند إبرام عقد الدين، يقوم الكاتب بالعدل المكلف بكتابة العقد بسؤال طرفي العقد عن رضاهم بالشهود الحاضرين، فإن قبل الطرفان بالشهود، وجب على الكاتب بالعدل أن يأخذ برأي الشهود في بنود الاتفاق. فإن وجد الكاتب بالعدل أن الشهود يقبلان الشهادة على العقد، ظانين أنه قد تم إبرامه بطريقة شرعية، فإن هؤلاء الشهود هم فقط الواجب دعوتهم للشهادة في حالة حصول خلاف بين الطرفين لاحقا. فحتى لو حضر أناس كثيرون عملية إبرام عقد الدين، فإن المحكمة لا تستدعي كل من كان حاضرا إبرام ذلك العقد في حينه، ولكنها تستدعي فقط الشهود اللذين رضي الطرفان بهما. وهذا بخلاف حالة الرهان المقبوضة في حالة السفر، حيث يمكن لكل من حضر الواقعة أن يشهد بذلك سواء رضي الأطراف بهم أم لم يرضيا بهم. ففي حالة الرهان المقبوضة، لا يحق لم دعي للشهادة أن يكتمهما لأنه حينئذ يكون قلبه آثم:

- ﴿۞ وَإِن كُنتُمۡ عَلَىٰ سَفَرٖ وَلَمۡ تَجِدُواْ كَاتِبٗا فَرِهَٰنٞ مَّقۡبُوضَةٞۖ فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥۗ وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٢٨٣﴾ [البقرة: 283]

وفي هذه الحالة فإن الآيات الكريمة تكون هي الحكم على جميع الشهود الذين حضروا عملية مقايضة الدين بالرهان المقبوضة:

- ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٣٥﴾ [النساء: 135]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٨﴾ [المائدة: 8]

فكل من حضر الشهادة عليه أن يشهد بالقسط حتى ولو على أنفسهم أو الوالدين أو الأقربين، وعليه أن يشهد فلا يجرمنه شنآن القوم، ولا يحق لهؤلاء الشهداء الحاضرين أن يتبعوا الهوى أن يعدلوا أو أن يلووا أو أن يعرضوا. فأنت كشهيد حاضر للواقعة ملزم بالشهادة ولا يحق لك أن تتعذر بأي سبب أن لا تشهد.

باب الرجلين أو الرجل وامرأتين

السؤال: لم يجب أن يكون شهيدا كتابة الدين رجلين أو رجل وامرأتين؟

رأينا المفترى 1: يمكن أن يكون شهيدا الدين رجلين

رأينا المفترى 2: يمكن أن يكون شهيدا الدين رجل وامرأتين

رأينا المفترى 3: لا يمكن أن يكون شهيدا الدين أربعة من النساء

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: لابد من وجود رجل واحد على الأقل في شهادة الدين كما في الجدولين التوضيحين التاليين:

شهيد 1	شهيد 2
رجل	رجل

شهيد 1	شهيد 2
رجل	امرأتان

لكن يستحيل أن يكون على النحو التالي:

شهيد 1	شهيد 2
امرأتان	امرأتان

السؤال: لماذا؟

جواب مفترى: نحن نفتري الظن بأن القاعدة الموجهة لهنا في هذا الصدد هو قوله تعالى:

- ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ ... ﴿١١﴾ [النساء: 11]

فكما تنطبق هذه السنة الإلهية (لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ) في الميراث، فهي تنطبق كذلك (نحن نظن) في حالة الشهادة وغيرها. لكن يبقى هنا تساؤلين أثنين لابد من التعرض لهما:

السؤال الأول: لم يجب وجود الرجل (على الأقل رجل واحد) في الشهادة على الدين، ولا يجوز أن يكون جميع الشهود من النساء كما نفتري الظن من عند أنفسنا؟

- ... وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ ...

السؤال الثاني: لم جاءت الضلالة خاصة في حالة النساء فقط (أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰ)؟

- وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ ...

أليس من الممكن أن يضل الرجل، فيذكر أحداهما الآخر؟ لم اقتصرت الضلالة على النساء، فجاء النص ليبين أن أحداهما يمكن أن تظل، فيكون دور إحداهما أن تذكّر الأخرى؟

رأينا المفترى: إنّ هذا الطرح المفترى من عند أنفسنا يدعونا على الفور إلى فتح ملف الضلالة برمته، محاولين أن نفهم (بإذن الله وحده) ماهيتها وكيفية حدوثها، فالله وحده نسأل أن يهدينا رشدنا وأن يعلمنا ما لم نكن نعلم، ونعوذ به أن نفتري عليه الكذب أو أن نقول عليه ما ليس لنا بحق، إنه هو السميع العليم – آمين.

أما بعد،

باب الضلالة

دعنا نبدأ النقاش في هذا الباب بالافتراء الخطير جدا جدا التالي الذي هو لا شك من عند أنفسنا: نحن نفتري القول بأن فعل الضلالة يمكن أن يقع فيه النساء لكن يستحيل أن يقع فيه الرجال. انتهى.

السؤال: وكيف ذلك؟ هل أنت بكامل قواك العقلية يا رجل؟ أليس فعل الضلالة عام شامل للجميع؟ ألا تدل الآيات الكريمة على أن الجميع (سوءا كانوا رجالا أو نساء) يمكن أن يضلوا؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: كلا وألف كلا. نحن نعاود القول بأن فعل الضلالة لا يمكن أن يحدث للرجال ولكن يمكن أن تقع فيه النساء،

السؤال: ما الدليل الذي يمكن جلبه لإثبات هذا الافتراء ربما غير المسبوق؟ يسأل صاحبنا مستغربا

رأينا المفترى: نحن نظن أنه من أجل إثبات هذا الظن فإنه يتوجب علينا بداية أن نفهم ماهية الضلالة التي نتحدث عنها، والتي يمكن أن تقع فيها النساء ولا يقع فيها الرجال.

أما بعد،

لنبدأ جلب الدليل على هذا الافتراء بمناقشة بعض ما جاء في الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ٢٣﴾ [القصص: 23]

في هذا السياق القرآني نجد موسى وقد وصل إلى ماء مدين ليجد هناك امرأتين تذودان، فما كان من موسى إلى أن استغرب سبب عدم سقايتهما وابتعادهما عن القوم، فطرح عليهن السؤال التالي: قَالَ مَا خَطۡبُكُمَا؟

فجاء الرد منهما على الفور على النحو التالي: قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ

وهنا نود أن نطرح التساؤل الغريب جدا التالي: كيف جاء ردهما بصيغة المثنى: ق قَالَتَا ؟ من التي ردت منهن على سؤال موسى؟

جواب مفترى: نحن نظن أن كلاهما ردت على سؤال موسى؟

السؤال: وكيف ذلك؟ هل ردتا معا وكأنهما يحفظن الإجابة عن ظهر قلب وينطقن بها ويكأنها قصيدة شعرية؟

جواب مفترى: كلا، لم ينطقن بالإجابة معا.

السؤال: وكيف إذن قَالَتَا ؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: لو دققنا في رد المرأتين، لوجدنا أنهما معلومتان اثنتان يمكن قسمتهما على النحو التالي:

- ... لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ۖ
- ... وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ

ونحن نفتري الظن بأن المعلومة الأولى (لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ۖ) قالتها المرأة الأولى، ثم تابعت المرأة الأخرى الكلام فنطقت بالمعلومة الثانية (وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ) كما في الشكل التوضيحي التالي:

المرأة الأولى	لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ۖ
المرأة الثانية	وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ

السؤال: ما الذي يمكن أن نستفيده من ذلك؟

رأينا المفترى: بمثل هذا الفهم، ربما يحق لنا أن نقول أن أحد المرأتين لم تعط المعلومة كاملة، فما كان من الأخرى إلا أن تذكر أختها بالمعلومة الأخرى. فاكتملت المعلومة بمشاركة المرأتين معا على النحو التالي:

- ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القصص: 23]

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: عندما ورد موسى ماء مدين، وجد امرأتين تذودان، فما كان من موسى إلا أن توجه إليهما بالسؤال: قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ؟ فردت الأولى (وأظنها الكبرى منهما) قائلة (لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ)، ولم تزد على ذلك.

السؤال: لماذا توقفت هذه المرأة عند هذا الحد؟ لم لم تكمل هذه المرأة المعلومة الأخرى بنفسها؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن السبب الذي منعها عن إعطاء المعلومة الأخرى هو الحياء.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الحياء قد اعترى هذه المرأة لأن شيئا من حب موسى قد وقع في قلبها، فسبب لها الإرباك، فما أرادت أن تكمل الحديث مع موسى لخجلها، فهذه المرأة (نحن لازلنا نتخيل) هي التي جاءت موسى لاحقا على استحياء لتدعوه إلى بيت أبيها:

- ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥﴾ [القصص: 25]

وهي نفسها التي طلبت من أبيها استئجار موسى:

- ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ٢٦﴾ [القصص: 26]

أي هي التي طلبت من أبيها أن ينكحها موسى، فما خفي ذلك على أبيها، فتوجه إلى موسى بالقول:

- ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾ [القصص: 27]

(للتفصيل حول هذه القضية، انظر مقالاتنا السابقة)

أما ما نود قوله هنا هو أن الحياء هي الصفة التي سيطرت على هذه المرأة بوجود موسى، وما كان ذلك (نحن نتخيل) إلا لحب وقع في قلبها لموسى منذ أن رأته لأول مرة (حب من أول نظرة). فعندما تكون المرأة (نحن نجزم الظن) في حضرة الرجل الذي وقع في قلبها حب له حتى تكون غاية في الارتباك، فتحاول اختصار الحديث للحرج والرهبة من الموقف. فالمرأة وإن كانت لا تستطيع أن تخفي مشاعرها كليا، فتظهر أعراضها بطريقة غير مباشرة عليها، إلا أنها تكون حريصة كل الحرص أن لا تبدي تلك المشاعر بطريقة مباشرة وعلانية أمام من قد وقع في نفسها شيء من الحب لذلك الرجل الذي يقف أمامها. فالمرأة الأولى التي خاطبت موسى قائلة على عجل وباختصار شديد (لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ)، قد قالت ذلك بلهجة المرتبكة التي تحاول إخفاء مشاعرها تجاه هذا الرجل قوي البنية ومليح الشكل الذي يقف أمامها، وهو ما صرحت به لأبيها لاحقا:

- ﴿قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ٢٦﴾ [القصص: 26]

لكن المرأة الأخرى التي لم يقع شيء من حب موسى في قلبها (والتي لا شك لاحظت مشاعر أختها تجاه الرجل حينئذ) كانت أكثر جراءة على الطلب من موسى أن يساعدهما في سقاية الماشية، فجاء ردها على النحو التالي:

- ﴿... وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ٢٣﴾ [القصص: 23]

ويكأنها تقول لموسى (نحن نفهم ربما مخطئين) أننا بحاجة للمساعدة (لأن أبينا شيخ كبير) ولا يوجد من يعيننا على هذه المهمة، فهلا فعلت ذلك شاكرين ومقدرين؟

ولعل هذا يقع (نحن نظن) في باب كيد النساء، فالمرأة الثانية تحاول أن تجر رجل موسى إليهما، ربما لإدراكها بمشاعر أختها الأخرى تجاه الرجل. فلعلي أكاد أجزم الظن أن الهدف من كلامها لم يكن السقاية بحد ذاتها بقدر ما كان استدعاء موسى إلى بيت أبيها حتى يتسنى اللقاء مرات ومرات مع هذا الغريب الذي وقع في نفس أختها شيء من حبه.

ولا أظن أن موسى قد فاته الفهم بأن المرأتين بحاجة إلى مساعدة فورية وعاجلة، فما كان منه إلا أن شمر على الفور عن ساعديه ليسقي لهما:

- ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ٢٤﴾ [القصص: 24]

فتحقق مراد المرأتين على نحو ما يرضيهن، وتابعت فصول القصة على النحو الذي جاء تبيانه في كتاب الله.

السؤال: ما علاقة هذا بقصة التذكير في حالة الدين؟

- وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ ...

رأينا المفترى: نحن نظن أنه عندما تتواجد امرأتان، فإن المعلومة قد لا تصدر كاملة من أحدهما، فيأتي تذكير أحدهما الأخرى لإتمام المعلومة. انتهى.

السؤال: كيف نفهم ذلك في سياق الحديث عن تذكير المرأة الأولى المرأة الأخرى في حالة الشهادة للدين؟

رأينا المفترى: لو تفقدنا السياق القرآني الخاص بالشهادة نفسه، لوجدنا أن السبب في ذلك يعود إلى احتمالية وقوع فعل الضلال من قبل إحداهما، قال تعالى:

- وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ ...

السؤال: كيف يمكن أن يقع فعل الضلال؟ وما علاقة ذلك بإتمام المعلومة من قبل المرأتين معا؟

رأينا المفترى: لا بد بداية من تسطير الافتراء الخطير جدا جدا التالي: استحالة حصول الضلال في حالة أن يكون الشهداء من الرجال، لكن هذا ممكن في حالة وجود النساء. انتهى.

السؤال: هل جننت يا رجل؟ كيف يمكن أن لا يحدث فعل الضلال في حالة أن يكون الشهيدان رجلين؟ ولم يمكن أن يحصل الضلال في حالة أن يكون أحد أطراف الشهادة امرأتين؟

رأينا المفترى: إن مثل هذا الطرح (ربما الخاطئ) يدعونا على الفور إلى محاولة تفقد ماهية فعل الضلال وكيفية وقوعه، لذا لابد أن نبدأ النبش في مفردة الضلال ومشتقاتها على مساحة النص القرآني كله، سائلين الله وحده أن يهدينا رشدنا وأن يعلمنا ما لم نكن نعلم، ونعوذ به أن نفتري عليه الكذب أو أن نقول عليه ما ليس لنا بحق، إنه هو السميع البصير – آمين.

أما بعد،

السؤال: ما هو الضلال؟

جواب مفترى: لو تفقدنا الآية الكريمة التالية، لوجدنا على الفور أنه إذا لم يتوافر البيان الواضح لنا من الله في كتابه الكريم، فإن احتمالية الضلال تكون حينئذ واردة جدا (يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ):

- ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞۚ فَإِن كَانَتَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ١٧٦﴾ [النساء: 176]

لذا، فإن السبيل لتجنب الوقوع في الضلال هو إتباع آيات الله وعلم الكتاب والحكمة، كما بيّنها الله لنا في كتابه الكريم، قال تعالى:

- ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ١٦٤﴾ [آل عمران: 164]

فنحن إذا قد كنا في ضلال مبين حتى جاءنا البيان من الله بتلاوة آياته علينا وتعليمنا كذلك الكتاب والحكمة. فهناك إذن حالتان متناقضتان تماما: الحالة الأولى هي السابقة لتلاوة الآيات وتعليم الكتاب والحكمة

(وهنا كنا لا محالة في ضلال مبين)، والحالة الثانية هي اللاحقة لتلاوة الآيات وتعليمنا الكتاب والحكمة (وهو ما أنقذنا من الضلال الذي كنا فيه من قبل).

نتيجة مفتراة مهمة جدا: نحن نحتاج لما بيّنه الله لنا حتى لا نضل، وبخلاف ذلك سنبقى في ضلال مبين.

ولو تدبرنا الآية الكريمة التالية، لوجدنا أن حصول الضلال هو أمر وارد جدا إذا ما حصلت الفتنة:

- ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ١٥٥﴾ [الأعراف: 155]

نتيجة مفتراة 2: عندما تقع الفتنة من الله (إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ)، فإن الضلال أمر وارد جدا (تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاء وَتَهْدِي مَن تَشَاء). ولا يمكن الخروج من الضلال الذي حصل بالفتنة إلا بإتباع الآيات التي تليت علينا.

ولو تفقدنا السياق القرآني التالي، لوجدنا أن الضلالة يمكن أن تشترى:

- ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ٤٤﴾ [النساء: 44]

نتيجة مفتراة 3: يمكن شراء الضلالة حتى من قبل من أوتوا نصيبا من الكتاب، ولا يكون غرض هؤلاء إلا أنهم يريدوننا أن نضل السبيل.

ولو تفقدنا الآيات الكريمة التالية، لوجدنا أن الضلالة قد تقع بفعل فاعل، فالله نفسه قد يضل قوما ما:

- ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٢٣﴾ [الجاثية: 23]

وهؤلاء قوم موسى قد أضلهم السامري:

- ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ٨٥﴾ [طه: 85]

والشيطان هو عامل فاعل في وقوع الضلال، خاصة بالوعد والأماني:

- ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء: 119-120]
- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [النساء: 60]
- ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ۗ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأعراف: 30]

ويمكن أن يكون الخليل (الصاحب المقرب جدا) هو الدافع للوقوع في الضلال:

- ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ۗ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان: 27-29]

وكذلك المجرمون:

- ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الشعراء: 97-99]

وكذلك الأصنام كما جاء على لسان إبراهيم:

- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [إبراهيم: 35-36]

ولا يجب أن نغفل بأن سبب الضلال هو الإتباع:

- ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾﴾ [القمر: 24]
- ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾﴾ [نوح: 23-24]

السؤال: كيف يمكن أن نربط ذلك بضلال النساء على وجه التحديد كما جاء في آية الدين؟

- ﴿... وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ۚ ... ﴿٢٨٢﴾﴾ [البقرة: 282]

ولم لا يمكن (كما زعمت سابقا) أن يقع الرجال في الضلال؟ ربما يريد صاحبنا أن يسأل مستغربا.

رأينا المفترى الخطير جدا جدا (فلا تصدقوه) 1: نحن ننفي أن يقع الضلال من قبل الرجل وذلك لأن الرجل إذا ضل فإنما يظل على علم، ويكون قابلا لذلك من تلقاء نفسه.

رأينا المفترى الخطير جدا جدا (فلا تصدقوه) 2: نحن نظن – بالمقابل- أن المرأة قد تضل وهي غير راضية عن ذلك.

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: نحن نظن أنه لما كان الرجل يتمتع باستقلالية تامة، لذا يستحيل أن يكون هناك من يوقعه في الضلال إلا إن كان هو أصلا متقبلا لذلك، راضيا به، عندها يكون ضلاله من نفسه، فلا يمكن أن يعزى السبب إلى عامل خارجي.

الدليل

دعنا نعود إلى سياقات الضلال التي أوردناها سابقا لنناقشها من هذا المنظور، قال تعالى:

- ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: 23]

السؤال: كيف يمكن أن نفهم أن الله يضل بعض الناس ويهدي بعض الناس؟ هل المسألة إذن رغبة إلهية؟ ولم أكن أنا من أضله الله وتكون أنت من هداه الله؟ أليس هذا هو الظلم بعينه؟ ألا يناقض هذا قول الله تعالى:

- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء: 40]

السؤال: كيف إذن يمكن أن نخرج من هذا المأزق الذي قد يضعنا فيه الفهم السطحي لآيات الكتاب الحكيم؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن (ربما مخطئين) بأن باب الخروج من مثل هذا المأزق هو محاولة فهم الآيات الكريمة التالية:

- ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [النحل: 93]
- ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾ [فاطر: 8]

السؤال: كيف يجب أن نفهم ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نؤمن يقينا بأن الله لا يظلم مثقال ذرة، لذا فإن الله يضل من الناس (الرجال البالغين المكلفين) من يشاء الضلالة بنفسه (يُضِلُّ مَن يَشَاء) ويهدي من يشاء منهم الهداية بنفسه (وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ)، فيستحيل إذن أن يضلك الله ما لم تكن أنت بنفسك ممن يشاءون الضلالة. فالله يضل من يشاء لعلمه بأن هذا الشخص يريد الضلالة:

- ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٢٣﴾ [الجاثية: 23]

وهذا المنطق ينطبق كذلك على كل السياقات القرآنية التي جاءت الضلالة من مصدر خارجي، كالسامري الذي أضل قومه مثلا:

- ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ٨٥﴾ [طه: 85]

فما كان السامري يستطيع أن يضل من قوم موسى إلا من شاء الضلالة بنفسه، وإلا كيف نفهم عدم وقوع هارون في الضلالة حينئذ بالرغم أنه كان بينهم.

نتيجة مفتراة: ما أضل السامري من بني إسرائيل إلا من كان يريد الضلالة منهم.

أو كالشيطان الذي توعد الناس بالضلال:

- ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ١١٩ يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ١٢٠﴾ [النساء: 119-120]
- ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ٦٠﴾ [النساء: 60]
- ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ٣٠﴾ [الأعراف: 30]

فالشيطان يطلق دعوته لهم، لكنه لا يستطيع أن يضل إلا من يستجيب له:

- ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٢﴾ [إبراهيم: 22]

نتيجة مفتراة: ليس للشيطان سلطان إلا على من اتخذه وليا:

- ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ۗ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأعراف: 30]

نتيجة مفتراة: لا يقع في الضلالة إلا من حقت عليه، وهم الذين اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله

أو كالخليل (الصاحب المقرب جدا) الذي قد يضل صاحبه:

- ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ۗ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان: 27-29]

أو كالمجرمين الذين أضلوا من هم حولهم:

- ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الشعراء: 97-99]

أو كالآلهة التي قد تضل المتبعين:

- ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾﴾ [نوح: 23-24]

أو كالأصنام التي أضلت كثيرا من الناس:

- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [إبراهيم: 35-36]

السؤال المحوري: هل إذا أضلك الله، تلقي باللائمة عليه فتنجو من العقاب؟ وهل إذا أضلك الشيطان، تلقي باللائمة عليه فتنجو من العقاب؟ وهل إذا أضلك الخليل، تلقي باللائمة عليه فتنجو من العقاب؟ وهل إذا أضلك المجرمون، تلقي باللائمة عليهم فتنجو من العقاب؟ وهل إذا أضلتك الأصنام، تستطيع أن تلقي باللائمة عليها فتنجو من العقاب؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: كلا وألف كلا، إنك لا تستطيع أن تلقي باللائمة على من أضلك، لأنك ببساطة أنت من أردت الضلالة، ولو لم تكن مستعدا لذلك، قابلا لها، لما استطاعوا أن يضلوك. انتهى.

(دعاء: أعوذ بك رب أن أكون ممن يشاءون الضلالة، وأسألك وحدك أن أكون ممن يشاءون الهداية، وأدعوك أن أكون ممن أناب إليك، فهديتهم صراطك المستقيم - آمين)

السؤال: كيف يمكن أن نطبق المنطق هذا في حالة النساء؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن النساء يمكن أن يضللن لكن يستحيل أن يكون ذلك عن رغبة ذاتية من تلقاء أنفسهن.

السؤال: كيف ذلك؟

رأينا المفترى: **جواب مفترى**: هذا ما ستناوله بالتفصيل بحول الله وتوفيق منه في الجزء القادم من هذه المقالة إن أذن الله لنا بشيء من علمه فيها،

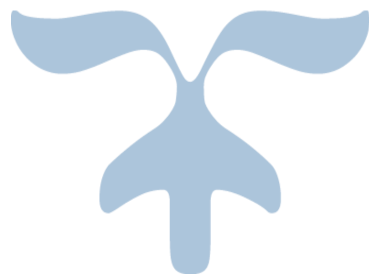
فالله وحده أسأل أن يعلمني، وأن يزيدني علما، وأن يهدين لأقرب من هذا رشدا. وأعوذ به وحده أن أكون ممن يفترون عليه الكذب أو ممن يقولون عليه ما ليس لهم بحق، وأعوذ به أن يكون أمري كأمر فرعون، إنه هو العليم الحكيم - آمين.

المدّكرون: رشيد سليم الجراح & علي محمود سالم الجراح
بقلم د. رشيد الجراح
26 أيلول 2017



فقه الزكاة

الجزء السادس



فقه الزكاة: الجزء السادس

أنهينا النقاش في الجزء السابق من هذه المقالة بتقديم الافتراء الخطير جدا التالي الذي هو -لا شك- من عند أنفسنا: استحالة حصول الضلال في حالة أن يكون الشهداء من الرجال، لكن هذا ممكن في حالة النساء. انتهى.

وقد جاء ذلك في سياق محاولتنا فهم آلية وقوع النساء على وجه التحديد في فعل الضلال عند شهادة الدين كما جاء في قوله تعالى:

- ﴿... وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰۚ ...﴾ [البقرة: 282]

فقد طرحنا التساؤل المربك لنا التالي: لمَ تبين الآية الكريمة احتمالية حصول الضلال من قبل العنصر النسائي (أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا) ولا تذكر احتمالية حصول مثل ذلك من قبل العنصر الذكوري (فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰۚ)؟

ومن أجل الخروج من هذا المأزق الذي نضع أنفسنا فيه، حاولنا تبيان معنى الضلال، فخلصنا إلى أن الضلال قد يكون مصدره خارجي، فالله هو نفسه من قد يضل قوما:

- ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: 23]

والشيطان هو عامل فاعل في وقوع الضلال عندنا:

- ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء: 119-120]
- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [النساء: 60]
- فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ اللهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (30)

والسامري هو من سبّب الضلال لقوم موسى:

- ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾﴾ [طه: 85]

ويمكن أن يكون الخليل (الصاحب المقرب جدا) هو الدافع للوقوع في الضلال:

- ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان: 27-29]

وكذلك المجرمون:

- ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الشعراء: 97-99]

وكذلك الأصنام كما جاء على لسان إبراهيم:

- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [إبراهيم: 35-36]

لكن بالرغم من ذلك، فإنك لا تستطيع أن تلقي باللائمة على من أضلك لتنجو من العقاب، فبالرغم أن الله قد أضل قوما، إلا أنهم سيحاسبون على ضلالتهم، وكذلك هي الحال بالنسبة لمن أضلهم السامري أو أضلهم الخليل أو أضلهم المجرمون، الخ. فهم جميعا محاسبون على فعل الضلال الذي وقعوا فيه بالرغم أن المسبب لضلالتهم هو عامل خارجي.

السؤال: لماذا؟ أي لماذا نحاسب على الوقوع في فعل الضلال التي كان محركه الله نفسه أو الشيطان أو السامري أو الخليل أو المجرمون؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأننا محاسبون على الضلال حتى وإن كان محركه عامل خارجي لسبب بسيط، ألا وهو وجود الاستعداد عند الشخص نفسه للوقوع فيه، مصداقا لقوله تعالى:

- ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [النحل: 93]
- ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾ [فاطر: 8]

فالله لا يضل إلا من يشاء الضلالة بنفسه، وكذلك الشيطان، فليس للشيطان سلطان علينا إلا أنه دعانا، فاستجبنا له:

- ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم: 22]

نتيجة مفتراة: نحن نظن أن الشخص (الذكر) يتمتع باستقلالية تامة، لذا يستحيل أن يكون هناك من يوقعه في الضلال إلا إن كان هو أصلا متقبلا لذلك، راضيا به، عندها يكون ضلاله من ذاته، فلا يمكن أن تعزى الضلال للعامل الخارجي الذي دفعك إليه. لذا، وجب على من وقع في فعل الضلال أن يتحمل تبعات قراره، أي تقبله للضلال من تلقاء ذاته. انتهى.

السؤال: من الذي يملك الاستقلالية التامة لاتخاذ القرار؟

جواب مفترى خطير جدا جدا (لا تصدقوه): إنه الرجل فقط

السؤال: وهل تملك المرأة مثل هذه الاستقلالية التامة التي يملكها الرجل؟

جواب مفترى خطير جدا جدا (لا تصدقوه): كلا، وألف كلا.

السؤال: ما الفرق بين وقوع الرجل في الضلال مقابل وقوع المرأة فيه؟

جواب مفترى خطير جدا جدا (لا تصدقوه): عندما يقع الرجل في فعل الضلالة فهو يقع بذلك من تلقاء ذاته، فهو المسئول الوحيد عن قراره ذاك. وعليه أن يتحمل تبعات قراره. لكن عندما تقع المرأة - بالمقابل - في فعل الضلال، فهي قد لا تقع في ذلك بقرار شخصي منها. انتهى.

السؤال: هل المرأة مسئولة تماما عن ضلالها؟

جواب مفترى خطير جدا جدا (لا تصدقوه): كلا، وألف كلا. فالمرأة غير مسئولة كليا عن الضلال إن هي وقعت فيه، لذا جاء الحث الإلهي في الآية الكريمة على النحو التالي:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ [التحريم: 6]

نتيجة مفتراة خطيرة جدا 1: يقع الرجل في الضلال لأنه يشاء ذلك
نتيجة مفتراة خطيرة جدا 2: ربما تقع المرأة في الضلال حتى وإن لم تشاء ذلك

الدليل

دعنا نعود إلى سياقات الضلال التي أوردناها سابقا لنناقشها من هذا المنظور، قال تعالى:

- ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٢٣﴾ [الجاثية: 23]

السؤال: كيف يمكن أن نفهم أن الله يضل بعض الناس ويهدي بعض الناس؟ هل المسألة إذن رغبة إلهية؟ ولم أكن أنا من أضله الله وتكون أنت من هداه الله؟ أليس هذا هو الظلم بعينه؟ ألا يناقض هذا قول الله تعالى:

- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ٤٠﴾ [النساء: 40]

السؤال مرة أخرى: كيف إذن يمكن أن نخرج من هذا المأزق الذي قد يضعنا فيه الفهم السطحي لآيات الكتاب الحكيم؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن (ربما مخطئين) بأن باب الخروج من مثل هذا المأزق يكمن في محاولتنا فهم الآيات الكريمة التالية على حقيقتها:

- ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٩٣﴾ [النحل: 93]
- ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ٨﴾ [فاطر: 8]
- ﴿... وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ٣٥﴾ [الأنعام: 35]

السؤال: كيف يجب أن نفهم ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نؤمن يقينا بأن الله لا يظلم مثقال ذرة (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ)، لذا فإن الله يضلّ من الناس (أي الرجال البالغين المكلفين) من يشاء الضلالة بنفسه (يُضِلُّ مَن يَشَآءُ) ويهدي من يشاء منهم الهداية (وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ)، فيستحيل إذن أن يضلك الله ما لم تكن أنت ذاتك ممن يشاءون الضلالة. فالله يضل من يشاء، لعلمه المطلق بأن هذا الشخص يريد الوقع في الضلال، ومستعد لتحمل تبعات قراره هذا:

- ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٢٣﴾ [الجاثية: 23]

وهذا المنطق المفترى من عند أنفسنا ينطبق كذلك على كل السياقات القرآنية التي جاء الضلال فيها من محرك خارجي، كالسامري الذي أضل قوم موسى في غيابه عنهم مثلا:

- ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ۝٨٥﴾ [طه: 85]

فما كان السامري يستطيع (نحن نرى) أن يضل من قوم موسى إلا من شاء منهم الضلال، وإلاّ كيف يمكن أن نفهم عدم وقوع هارون في الضلال حينئذ بالرغم أنه كان بينهم؟

نتيجة مفتراة: ما أضل السامري من بني إسرائيل إلا من كان يريد الضلال منهم. وهم الذين طلبوا من موسى أن يجعل لهم إلها كما لأهل تلك القرية آلهة:

- ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٖ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٖ لَّهُمْۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٞ تَجْهَلُونَ ۝١٣٨﴾ [الأعراف: 138]

وهذا المنطق ينطبق على من أضلهم الشيطان، وهو من توعّد الناس أجمعين بالضلال:

- ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَأٓمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانٗا مُّبِينٗا ۝١١٩ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ۝١٢٠﴾ [النساء: 119-120]
- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ۝٦٠﴾ [النساء: 60]
- ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۝٣٠﴾ [الأعراف: 30]

فالشيطان يطلق دعوته لهم، لكنه لا يستطيع أن يضلّ إلا من يستجيب له:

- ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٢٢﴾ [إبراهيم: 22]

نتيجة مفتراة: نحن نؤمن يقينا بأن الشيطان قد يضلّك لكنه لا يستطيع ذلك مع عباد الله المخلصين:

- ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٤٠﴾ [الحجر: 39-40]

- ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٨٣﴾ [ص: 82-83]

(دعاء: اللهم أسألك وحدك أن أكون من عبادك المخلصين، إنك أنت السميع البصير- آمين)

فليس للشيطان سلطان إلاّ على من اتخذه وليا:

- ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۝٣٠﴾ [الأعراف: 30]

لذا، لا يقع في الضلال (نحن نفتري القول) إلا من حق عليه، وهم الذين اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله

أو كالخليل (الصاحب المقرب جدا) الذي قد يضل صاحبه:

- ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ۝٢٩﴾ [الفرقان: 27-29]

أو كالمجرمين الذين أضلوا من هم حولهم:

- ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩٨ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٩٩﴾ [الشعراء: 97-99]

أو كالآلهة التي قد تضل المتبعين:

- ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ۝٢٣ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ۝٢٤﴾ [نوح: 23-24]

أو كالأصنام التي أضلت كثيرا من الناس:

- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ۝٣٥ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣٦﴾ [إبراهيم: 35-36]

السؤال المحوري: هل إذا أضلك الله، تلقي باللائمة عليه فتنجو من العقاب؟ وهل إذا أضلك الشيطان، تلقي باللائمة عليه فتنجو من العقاب؟ وهل إذا أضلك الخليل، تلقي باللائمة عليه فتنجو من العقاب؟ وهل إذا أضلك المجرمون، تلقي باللائمة عليهم فتنجو من العقاب؟ وهل إذا أضلتك الأصنام، تستطيع أن تلقي باللائمة عليها فتنجو من العقاب؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: كلا وألف كلا، إنك لا تستطيع أن تلقي باللائمة على من أضلّك، لأنك ببساطة أنت من أردت الضلالة، ولو لم تكن مستعدا لذلك، قابلا لها، لما استطاعوا أن يضلّوك. انتهى.

(دعاء: أعوذ بك رب أن أكون ممن يشاءون الضلالة، وأسألك وحدك أن أكون ممن يشاءون الهداية، وأدعوك أن أكون ممن أناب إليك، فهديتهم صراطك المستقيم - آمين)

السؤال: كيف يمكن أن نطبق مثل هذا المنطق المفترى من عند أنفسنا هذا في حالة النساء؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن النساء يمكن أن يضللن، لكن ربما لا يكون ذلك عن رغبة ذاتية من تلقاء أنفسهن.

السؤال: كيف ذلك؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن الإجابة على هذا التساؤل تكمن في إعادة النظر بالفرق بين الذكر والأنثى من هذا الجانب.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: لقد افترينا الظن في أكثر من مقالة سابقة لنا بأن الرجل عبارة عن كينونتين مختلفتين (X and Y)، بينما المرأة عبارة عن كينونتين متجانستين (X and X). وهنا نطلق العنان للتفكر بهذا الاختلاف الجذري بين الجنسين، سائلين الله وحده أن يؤتينا رشدنا وأن يهدينا صراطه المستقيم.

أما بعد،

لو تدبرنا الآية الكريمة التالية، لوجدنا أن الأنثى مخلوقة من أنفسنا، قال تعالى:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [النساء: 1]
- ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ٧٢﴾ [النحل: 72]
- ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢١﴾ [الروم: 21]

- ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ [الشورى: 11]

لذا، فالأنثى مكونة كلها من نفس، فهي عبارة عن نفس (X) كبويضة أنثوية وتلقّحت بحيوان منوي أنثوي من الرجل (X)، فأصبحت نفس على نفس (XX)، لكن الرجل بالمقابل فهو عبارة عن نفس (X)، أي البويضة، تلقحت بحيوان منوي ذكري (Y)، فأصبح كينونتين اثنتين مختلفتين هما (XY)، لذا جاء الخطاب الإلهي على النحو التالي:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ [التحريم: 6]

السؤال: من الذي سيقي من؟

نتيجة مفتراة خطيرة جدا: نحن مطالبون أن نقي أنفسنا وأن نقي أهلينا نارا وقودها الناس والحجارة، أليس كذلك؟

منطقنا المفترى: إذا كنّا مطالبين أن نقي أنفسنا، فكيف السبيل إلى ذلك؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أننا كذكور (Y) مكلفين أن نقي أنفسنا (X) نارا وقودها الناس والحجارة. فالذكر (Y) هو صاحب القرار، فهو من يستطيع اتخاذ القرار وهو من يتحمل تبعات ذلك القرار.

أما النفس (X) – بالمقابل- فهي ليست صاحبة قرار، وذلك لأن النفس لا تستطيع اتخاذ القرار، وجل ما تستطيع فعله هو أن تأمر بالسوء:

- ﴿۞وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣﴾ [يوسف: 53]

فاتخاذ القرار شيء والأمر بالسوء شيء آخر. لذا نحن نتجرأ على تقديم الافتراءات التالية التي هي لا شك من عند أنفسنا:

نتيجة مفتراة 1: الذكر (Y) هو صاحب القرار

نتيجة مفتراة 2: الأنثى (X) قد تأمر بالسوء.

السؤال: كيف نفرق بين الشخص ونفسه؟

رأينا المفترى: علينا أن نفرق بين ذات الشخص (Y) ونفس الشخص (X). فذات الشخص هو الشخص، أما نفسه فهي كينونة أخرى يستطيع هو أن يتحكم بها:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ [التحريم: 6]

فالنص القرآني يبين الفصل الواضح بين ذات الشخص من جهة ونفسه من جهة أخرى، قال تعالى

- ﴿لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ١٠٢﴾ [الأنبياء: 102]
- ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٦﴾ [النور: 6]

فنفس الإنسان قد تكون هي شاهدة عليه. فكيف ذلك؟

رأينا المفترى: لو دققنا في الآيات الكريمة التالية، لوجدناها تبين أن هناك ذات الشيء مقابل نفسه، قال تعالى:

- ﴿هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١١٩﴾ [آل عمران: 119]
- ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٥٤﴾ [آل عمران: 154]
- ﴿وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖۚ فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡۚ وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٥﴾ [النساء: 25]
- ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٧﴾ [المائدة: 7]
- ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١﴾ [الأنفال: 1]

- ﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧﴾ [الأنفال: 7]
- ﴿إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٤٣﴾ [الأنفال: 43]
- ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٥﴾ [هود: 5]
- ﴿۞وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ١٧﴾ [الكهف: 17]
- ﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ١٨﴾ [الكهف: 18]
- ﴿يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ٢﴾ [الحج: 2]
- ﴿وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ ذَاتِ قَرَارٖ وَمَعِينٖ ٥٠﴾ [المؤمنون: 50]
- ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ٦٠﴾ [النمل: 60]
- ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٢٣﴾ [لقمان: 23]
- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٣٨﴾ [فاطر: 38]
- ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٧﴾ [الزمر: 7]
- ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٢٤﴾ [الشورى: 24]
- ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ ٧﴾ [الذاريات: 7]
- ﴿وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ١٣﴾ [القمر: 13]
- ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ١١﴾ [الرحمن: 11]
- ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٦﴾ [الحديد: 6]
- ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٤﴾ [التغابن: 4]

- ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٣﴾ [الملك: 13]
- ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ١﴾ [البروج: 1]
- ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ٥﴾ [البروج: 5]
- ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ١١ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ١٢﴾ [الطارق: 11-12]
- ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ٧﴾ [الفجر: 7]
- ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ٣﴾ [المسد: 3]

نتيجة مفتراة: إن ذات الشخص موجودة في صدره. لذا فإن الوسواس الخناس هو الذي يوسوس في صدور الناس. فهو يستطيع أن يصل إلى ذاتك ليوسوس لها.

أما الأنفس فهي التي يتوفاها الله في حالتي الموت والنوم:

- ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ٤٢﴾ [الزمر: 42]

السؤال: أين هي الأنفس؟

رأينا المفترى الخطير جدا جدا: نحن نظن أن محل النفس هو العنق، فالله هو من ألزمنا طائرنا في أعناقنا، وذلك لأن ذاك الطائر هو الموكّل بحمل النفس إلى بارئها في رحلتي الموت والنوم:

- ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ١٣﴾ [الإسراء: 13]

فالطائر يحمل تلك النفس ليضعها في الصندوق المقفل عند ربها، وتكون مهمتنا يوم الدين أن نخرج أنفسنا من تلك الصناديق التي أقفلت عليها:

- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ٩٣﴾ [الأنعام: 93]

(للتفصيل انظر مقالتنا تحت عنوان وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه)

وللتفصيل أكثر فإننا نفتري الظن بأن ذات الشخص هو ما يتحدث عنه علماء النفس بمفردة الأنا (Ego-I)، فهذا فرعون يخطب في قومه قائلا:

- ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٤﴾ [النازعات: 24]

فكل ما فعله فرعون كان عن قصد، ولم يكن نتيجة وسوسة من الشيطان أو نتيجة لما سولت له نفسه. لذا نحن نفرق بين ما يفعله الشخص من جهة وما يعمله من جهة أخرى. فالفعل هو ما كان عن قرار ذاتي لا دخل للآخرين به، أما العمل فهو ما تسول لك به نفسك أو ما كان تأثيره خارجي. فهذا فرعون "يعاتب" موسى على قتله الرجل من آل فرعون عندما دخل المدينة ذات مرة، فيوجه الخطاب له قائلا:

- ﴿وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩﴾ [الشعراء: 19]

فيرد عليه موسى قائلا:

- ﴿قَالَ فَعَلۡتُهَآ إِذٗا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ٢٠﴾ [الشعراء: 20]

فموسى لا ينكر إذا بأنه هو من فعل تلك الفعلة، لذا كان هو من ظلم نفسه:

- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٦﴾ [القصص: 16]

نتيجة مفتراة: نحن نظن بأن ما يقوم به الإنسان بذاته (فيكون صادرا منه، أي من Y أو Ego) فهو فعل مقصود. أما ما يعمله الإنسان من عمل فهو نتيجة تأثير آخر كالنفس مثلا أو كالشيطان، لذا نجد السياق القرآني التالي يتحدث عن ما تعمل الأنفس:

- ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٣٠﴾ [آل عمران: 30]

ولو حاولنا التدقيق أكثر، لوجدنا أننا (ذكورا وإناثا) قادرين على العمل كما نحن قادرين على الفعل، ففي حين أن العمل يأتي من مصدر خارجي كالشيطان والنفس، فإن الفعل يأتي من مصدر داخلي (مع تحفظي الحالي على دقة الألفاظ)، فتكون الصورة (كما هي في ذهننا) على النحو التالي:

الذكر	Y (داخلية محلها القلب- أنا)	X (فوقية - نفس)
الأنثى	X (داخلية محلها القلب – أنا)	X (فوقية – نفس)
ما يحدث على أرض الواقع	فعل (عن سبق وإصرار)	عمل (ما تسول به النفس)

فالأنثى (كنفس X) تستطيع أن تفعل في نفسها الأخرى (X) ما تريد كما جاء في قوله تعالى:

- ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٢٣٤﴾ [البقرة: 234]

والرجل (كذات Y) يستطيع أن يفعل في نفسه (X) ما يريد:

- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ [القصص: 16]

فما فعله إخوة يوسف في أخيهم كان عن سبق وإصرار:

- ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [يوسف: 89]

نتيجة مفتراة: الفعل هو ما كان نابع من ذات الشخص، وهو يكون عن سبق وإصرار، فالإنسان الذي لا يصلي ولا يريد أن يصلي، فهو إذا يقوم بذلك عن إصرار مسبق، وذلك لأنه نابع من ذاته، فيكون ذلك إذن (نحن نرى) واقعا في باب الفعل. أما المصلي الذي قد يتلكأ عن صلاة ما، فهو ليس مصرا على ذلك، لأن ذلك يقع في باب ما سولت له نفسه حينئذ، فهو حدث طارئ غير مقصود بذاته، لذا هو عمل وليس فعل. فالذي ينام وليس عنده نية إطلاقا لأن يصحو لصلاة الفجر، فهذا يقع في باب الفعل، لأنه مقصود. أما الذي ينام وعنده نية أن يصحو لصلاة الفجر كالعادة، ولكن عندما نادى المنادي للصلاة بقوله "الله أكبر"، فوجد أنه غير مدفوعا بالرغبة لتلبية النداء حينئذ لسبب ما (كالرغبة في النوم أو غيرها)، فإن ذلك يكون عملا سيئا، لا يلبث أن يتغير في الأيام التالية.

تلخيص ما سبق: إن ما يهمنا طرحه هنا هو أن الإنسان (كذَكر) عبارة عن كينونتين اثنتين متباينتين، هما: ذاته التي في صدره (Y) ونفسه التي في عنقه (X)، وتكمن مهمة هذا الشخص هو أن يق نفسه (التي في عنقه) كما يقي أهله نارا وقودها الناس والحجارة. فمكان اتخذا القرار موجود في الصدر (Y)، أما النفس فهي خاضعة لما يأمرها به ذات الشخص التي في صدره (أي قلبه). فقد كان إسماعيل يأمر أهله بالصلاة:

- ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ [مريم: 54-55]

فكان صادق الوعد، وذلك – برأينا- لأنه لم يكن يتبع هوى النفس:

- ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴿٤٠﴾﴾ [النازعات: 40]
- ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى ﴿٢٣﴾﴾ [النجم: 23]
- ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴿١٣٢﴾﴾ [طه: 130-132]

توضيح: تخيل أني أنا من أمرتك بالسوء، فهل هذا يعني أنك ستقع به حتما؟ ألا تكون قادرا على أن ترفض أمري، وتنجو من ذلك بقرار ذاتي منك؟

جواب مفترى: بلى. إن أمري لك بالسوء لا يعني بأي حال من الأحوال وقوعك فيه، لأنك صاحب قرار، تستطيع أن لا تنزل عند أمري، بل على العكس يمكن أن تعمل عكس ما أمرتك به، أليس كذلك؟

السؤال: ماذا عن النساء؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الأنثى (X)، ليست صاحبة قرار، لذا عندما تؤمر بالسوء، فإنها لا تستطيع إلا أن تقع فيه حتى وإن كانت غير راغبة بذلك.

مثال: وقوع آدم في المعصية

عندما وقع آدم في المعصية، كان هو من اتخذ القرار، بدليل أنه هو من عصى وهو من غوى:

- ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾ [طه: 121]

وعندما حصلت التوبة الإلهية كانت منصبّة على آدم ذاته:

- ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة: 37]
- ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طه: 122]

السؤال: ما الذي عملته زوج آدم؟ هل عصت ربها؟ هل غوت؟ هل تاب الله عليها؟

جواب مفترى: كلا وألف كلا، وذلك لأنها أصلا لم تعص ربها ولم تغوى، فما كانت التوبة الإلهية لتصيبها.

السؤال: لماذا؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: لأن زوج آدم هي عبارة عن نفس، لذا لا تستطيع أن تتخذ قرارا بالمعصية وبالتالي الغواية والتوبة.

نتيجة مفتراة: منذ ذلك الوقت كانت الزوج (الأنثى، X) تابعة وليس متبوعة. فكانت تتلقى القرار من زوجها الذكر (Y) لأنها هي غير مستعدة لاتخاذ القرار بنفسها.

نتيجة مفتراة مكررة: كان وقوع آدم في المعصية بقرار ذاتي منه، وكان وقوع زوج آدم في فخ الشيطان طاعة لزوجها الذي اتخذ القرار نيابة عنها.

عودة على بدء:

كيف يمكن أن تضل المرأة في الشهادة عند كتابة الدين؟

- ﴿... وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰۚ ... ﴿٢٨٢﴾﴾ [البقرة: 282]

رأينا المفترى: عندما يكتب الدين، فإن من متطلبات كتابته وجود رجل واحد على الأقل كشاهد على ذلك، وذلك لاستحالة أن يضل الرجل إلا بقرار ذاتي منه، فهو ذاته من يستطيع اتخاذ القرار، ولا يمكن أن يتخذ قراره إلا عن سبق وترصد، فهو إن أراد أن يضل، يستطيع ذلك. وإن أراد أن لا يضل، يستطيع ذلك أيضا، فهو إذن قادر على اتخاذ القرار باستقلالية تامة، لذا سيكون هو وحده محاسب على قراره. انتهى.

أما المرأة، فهي لا يمكن أن تضل إن أرادت ذلك، لأنها (نحن نرى) ليست صاحبة قرار، ولكن يمكن أن تقع في فعل الضلال بتأثير مباشر ممن هم حولها من الذكور الذين يستطيعون اتخاذ القرار نيابة عنها كوليها مثلا.

ويمكن فهم ذلك من خلال وجوب وجود ولي للأنثى في حالة النكاح، فالرجل (Y) لا يحتاج لولي له عند كتابة عقد النكاح، لأنه قادر بذاته على اتخاذ القرار، ولكن الأنثى (X) بحاجة لولي لها ليتخذ القرار نيابة عنها، قال تعالى:

- ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْۚ وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [النساء: 25]
- ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾ [البقرة: 237]

السؤال: لماذا؟ لماذا يتوجب وجود الولي للأنثى في حالة عقد النكاح بينما لا يتوجب وجود الولي للذكر في تلك الحالة حتى وإن تساويا أو تفاوتا في العمر؟ فحتى لو بلغت الأنثى العشرين أو الثلاثين أو حتى الأربعين من العمر تبقى بحاجة أن يكون وليها حاضرا عند إبرام عقد النكاح. ولكن هذا لا ينطبق على الذكر الذي يكفي حضوره بذاته لإتمام العقد. فلم ذلك؟

جواب مفترى: نحن نظن أن السبب يعود إلى أن الذكر يستطيع اتخاذ القرار بذاته، وهوالذي سيتحمل تبعاته، أما الأنثى فهي غير قادرة على اتخاذ قرار تتحمل هي بنفسها تبعاته.

ولو راقبنا بروتوكولات إبرام عقد النكاح، لوجدنا أن ولي الأنثى يقول للخاطب (زوّجتُك ابنتي أو أختي)، فهو من قام بفعل التزويج، بينما نجد الخاطب بالمقابل يقول "وأنا قبلت زواج ابنتك أو أختك"، فهو ذاته من قام بفعل الزواج.

ولو عدنا إلى قضية الدين، فإننا نستطيع أن نفتري الظن من عند أنفسنا بأنه ربما تضل إحدى النساء بتأثير خارجي ممن هم حولها من الذكور، ولكن يستحيل أن يحصل الضلال من قبل الرجل بأثير خارجي إلا إن كان هو ذاته راغبا في ذلك. انتهى.

مثال: ماذا لو كانت زوجتي شاهدة على كتابة الدين، فقمت أنا بأمرها أن لا تشهد على ذلك بالحق؟ فهل تستطيع زوجتي حينها أن تخالف أمري؟ ماذا سيكون تبعات ذلك لو أنها فعلا فعلت غير ما أمرتها أنا به؟ ألا يمكن أن يصل الأمر إلى الطلاق وبالتالي خراب البيوت؟

لكن بالمقابل، ماذا لو كنت أنا (كرجل) شاهدا على كتابة الدين؟ هل تستطيع زوجتي أن تفرض عليّ الشهادة بغير ما أحب وأرضى؟ ألا أستطيع أن أخالف رأيها وأشهد كما يحلو لي؟ هل سترتب على ذلك تبعات جمة كالطلاق وبالتالي خراب البيوت؟

باب القراءات القرآنية

بناء على فهمنا (ربما الخاطئ) لهذه الآية الكريمة، فإننا نتجرأ على القول أن الآية الكريمة التالية:

- ﴿... وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٞ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰۚ ... ﴿٢٨٢﴾ [البقرة: 282]

يجب أن يعاد النظر في طريقة قراءتها خاصة ما يتعلق بفعل الضلالة (تَضِلَّ). فنحن نرى أن قراءتها على هذه الشاكلة هو ما أوقعنا في الإرباك، لكن لو تمت قراءتها بطريقة أخرى على نحو (تُضَلَّ)، فربما يستقيم المعنى هذا الذي هو في ذهننا فقط.

منطقنا المفترى: نحن نظن أن ضلال الرجل يأتي من تلقاء ذاته، فيكون هو من يضل، ولكن ضلال المرأة – بالمقابل- لا يكون من تلقاء نفسها، فهي إذن يمكن أن تُضَلَّ، فتصبح الآية الكريمة على النحو التالي:

- ﴿... وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٞ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰۚ ... ﴿٢٨٢﴾ [البقرة: 282]

السؤال: ما تبعات هذا الظن؟

رأينا المفترى: نحن نرى أن شهادة الرجل هي الأصل، وأن شهادة المرأة هي شهادة ثانوية مرجحة لشهادة الرجل. فلو شهد الرجل بطريقة ما، وشهدت المرأتان بطريقة مطابقة لشهادة الرجل، فإن ذلك يكون

مرجحا لشهادة الرجل، فيتم تثبيتها. ولو شهد الرجل بطريقة ما، وشهدت إحدى المرأتين بطريقة مخالفة لشهادة الرجل، فيتم تثبيت شهادة الرجل لترجيحها بشهادة المرأة الأخرى.

نتيجة مفتراة: نحن ننفي جملة وتفصيلا أن تضل كلا المرأتين، لأن النص القرآني أثبت احتمالية ضلال إحداهن (أَن تُضَلَّ إِحْدَاهُمَا)، لكنه لم يثبت احتمالية ضلال كلاهما. فلو كان هناك احتمالية واردة (نحن نرى) لضلالة كلا المرأتين، لأثبت النص القرآني ذلك بالقول (أن تضلا) أو (أن تضل كلاهما).

ولو تفقدنا السياقات الخاصة بالضلال على مساحة النص القرآني، لوجدنا أنها تثبت احتمالية الضلال الجماعية بحق الرجال كما جاء في قوله تعالى:

- ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾﴾ [النساء: 176]

نتيجة مفتراة خطيرة جدا 1: هناك احتمال وارد أن يحصل الضلال الجماعي للرجال، فيمكن للرجال أن يجتمعوا على ضلال

نتيجة مفتراة خطيرة جدا 2: ليس هناك احتمالية واردة أن يحصل الضلال الجماعي للنساء، فيستحيل أن تجتمع النساء على ضلال. انتهى.

السؤال: ما الذي يمكن أن نستفيده من ذلك؟

رأينا المفترى: لمّا كان الضلال من الرجل سببه الرجل ذاته، فهو إذن من سيتحمل تبعاته في الدنيا والآخرة، فحتى لو ضل الرجلان اللذان يشهدان على كتابة الدين، فإن القاضي يأخذ برأيهما، وذلك لأنهما سيتحملان بذاتهما عواقب ضلالتهما في الدنيا والآخرة. أما لو ضلت إحدى المرأتين، فإن القاضي لا يأخذ بشهادة من تضل منهما، لأنه يعلم يقينا بأن هذه المرأة التي ضلت غير مسئولة كليا عن فعلتها، لعلمه بأن ضلالتها هذه قد جاءت بتأثير من هم حولها من أوليائها، كوالدها أو أخيها أو زوجها مثلا.

فالرجل هو (نحن نفتري القول) المسئول في حالة ضلال المرأة، لأن الشارع الكريم قد وجه الخطاب له بأن يكون هو من يقي نفسه وأهله نارا وقودها الناس والحجارة:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحريم: 6]

ولو دققنا في هذه الآية الكريمة، لوجدنا أن فيها ما قد لفت انتباه الأخ والصديق المهندس عمر النمرات الذي تساءل عن السبب الذي وردت فيه مفردة (وَأَهْلِيكُمْ) بدلا من مفردة (أَهْلِيكُمْ) التي ترد في سياقات قرآنية أخرى، ليكون سؤاله بكلمات أكثر دقة هو: ما الفرق بين مفردة أَهْلِيكُمْ التي ترد في هذا السياق القرآني ومفردة أهلكم التي ترد في سياقات أخرى؟

كانت محاولتنا الإجابة على هذا السؤال تتطلب (كالعادة) استدعاء كل السياقات القرآنية التي ترد فيها هاتان المفردتان، سائلين الله وحده أن يؤتينا رشدنا وأن يعلمنا ما لم نكن نعلم، إنه هو العليم الحكيم.

أما بعد،

باب وَأَهْلِيكُمْ وأهلكم

لو تفقدنا مفردة أَهْلِيكُمْ ومشتقاتها (وَأَهْلِيكُمْ) على مساحة النص القرآني، لوجدناها قد وردت في السياقات التالية:

- ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المائدة: 89]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحريم: 6]
- ﴿فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ [الزمر: 15]
- ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الشورى: 45]
- ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الفتح: 12]

لكن بالمقابل، وردت مفردة أَهْلِهِنَّ ومشتقاتها (أَهْلِيكُمْ) في السياقات التالية:

- ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ

مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖۚ فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡۚ وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٥﴾ [النساء: 25]

- ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [يوسف: 93]

السؤال: ما الفرق بين أَهْلِيكُمْ من جهة أَهْلِكُمْ من جهة أخرى؟ ما الذي فعلته الياء في مفردة أَهْلِيكُمْ؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الياء في مفردة أَهْلِيكُمْ قد حددت جزءً من الأهل، فجعلتها أكثر تحديدا من مفردة أَهْلِكُمْ. وبكلمات أكثر دقة، نحن نفتري القول من عند أنفسنا بأن مفردة أهليكم لا تشمل من الأهل إلا من كان ضمن نطاق مسئولية الرجل، فهم الذين وجب على الرجل إعالتهم وكسوتهم، كما جاء في قوله تعالى:

- ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المائدة: 89]

وهم الذين لازالوا يعيشون مع الرجل تحت سقف واحد، وهم الذين ينقلب إليهم الرجل بعد خروجه من بيته لمهمة ما:

- ﴿بَلۡ ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهۡلِيهِمۡ أَبَدٗا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمۡ وَظَنَنتُمۡ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ وَكُنتُمۡ قَوۡمَۢا بُورٗا ﴿١٢﴾﴾ [الفتح: 12]

فابنك وابنتك المتزوجون الذين يعيشون في بيت غير بيتك هم من أهل الرجل لكنهم ليسوا من أهليه. فقد طلب يوسف من أخوته أن يأتوه بأهلهم أجمعين:

- ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [يوسف: 93]

فكان لزاما أن يأتوه بمن يعيشون معهم تحت سقف واحد ومن لا يعيش منهم تحت السقف نفسه، لأنه طلب منهم أن يأتوه بأهلهم أجمعين.

نتيجة مفتراة 1: أهل الرجل هم والداه وإخوانه وزوجته وأولاده وذريتهم جميعا

نتيجة مفتراة 2: أهلي الرجل هم الذين يعيش من أهله منهم تحت سقف واحد وتقع مسئولية الإنفاق عليهم على الرجل ذاته، وهو من يتحمل مسئوليتهم، لذا جاء قول الحق أن يقي الرجل نفسه وأهليه نارا وقودها الناس والحجارة:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ [التحريم: 6]

نتيجة مفتراة: إن كل شخص قادر على اتخاذ القرار بنفسه يخرج من نطاق أهلي الرجل حتى وإن بقوا من أهله. فالأب الذي يتخذ القرار بذاته يخرج من نطاق أهلي الرجل، وكذلك الأم فهي ليست من أهلي الرجل إلا إذا توفي زوجها وأصبح ولدها هو المسئول عنها. أما إذا كان زوجها لازال حيا، يتخذ القرار عنها فهي ليست من أهلي ابنها إن كان له بيت خاص به. وكذلك الأبناء والبنات. فمن بلغ منهم الحلم، وخرج من بيت والده (بالزواج مثلا)، فإنه يصبح خارج أهلي الرجل حتى وإن بقوا من أهله. أما الزوجة فهي من أهل الرجل وهي أيضا من أهليه، لأنها ببساطة ضمن دائرة مسؤولية الرجل.

السؤال: من الذي يمكن أن يَضِّل؟ ومن الذي يمكن أن يُضَّل؟

جواب مفترى: نحن نظن أن الذي يمكن أن يَضل هو صاحب القرار (الرجل)، أما الذي يمكن أن يُضل، فهو من ليس صاحب قرار ذاتي، ويمكن للمسئول عنه أن يتخذ القرار نيابة عنه، وهم الزوجة والأولاد الذين لازالوا دون سن المسئولية. فالرجل يمكن أن يضل أهليه، لذا طُلب منه أن يقيهم نارا وقودها الناس والحجارة:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ [التحريم: 6]

لكنه لا يمكن أن يضل جميع أهله، لأن فيهم من هو قادر على اتخاذ القرار بذاته، فيكون هو مسئول عن تبعات قراره في الدنيا والآخرة. وسنرى تبعات هذا الفهم لاحقا في قضايا مفصلية في العقيدة، فالله وحده نسأل أن يأذن لنا بشيء من علمه فيها، لكن حتى لا نخرج عن سياق الحديث، الآن دعنا نعود إلى تفصيلات الدين الذي هو لب موضوع البحث في هذه المقالة.

باب عدم كتابة الدين

خلصنا في المقالات السابقة إلى افتراء الظن بأن الهدف من تقديم الدين هو التجارة التي ستجر فائدة على الطرفين: الدائن والمدين. أما إذا كانت الحاجة خاصة بسد عوز المدين، فإن ذلك يكون عن طريق القرض الحسن. لذا، نحن نتجرأ على افتراء الظن بأن الدين يجب أن يجر ربحا لصاحب المال يتحدد بمقدار الأجل. وهنا ننطلق إلى تقديم الافتراءين التاليين:

1. يمكن عدم كتابة الدين في حالة أن يكون تجارة تدار بين الطرفين
2. يمكن أن يباع الدين بوجود الشهداء

أما بعد،

قال تعالى:

- ﴿... وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾ [البقرة: 282]

فالآية الكريمة توجهنا إلى كتابة الدين بغض النظر عن مقداره (صغيرا كان أو كبيرا)، ويجب أن يتحدد ذلك بالأجل (... وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ). فكتابة الدين يقع في باب القسط، وانتفاء حصول الريبة في القادم من الأيام بين الطرفين (ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ).

لكن عدم كتابة الدين مدعاة (نحن نفتري الظن) لعدم القسط ولحصول الريبة كذلك. ويستثنى من ذلك التجارة التي يديرها التجار بينهم. فتناقل البضاعة بين التجار على أساس الدين لا يتوجب كتابتها (إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا). فيحق لي كتاجر تجزئة مثلا أن أحصل على بضاعة من تجار الجملة، وليس هناك مانع من عدم كتابتها، وذلك لأنها تجارة دائرة.

السؤال: ما معنى تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ ؟

رأينا المفترى: عند محاولتنا تفقد السياقات القرآنية عن مفردة (تُدِيرُونَهَا)، لم نحصل على هذه المفردة بعينها إلا في سياق آية الدين نفسها (إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ)، لذا حاولنا البحث في المفردات التي تشاركها الجذر، فوجدنا أن المفردة لها علاقة بمفردة الديار التي ترد في السياق القرآني التالي:

- ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾﴾ [الإسراء: 5]

فالديار هي إذن المنطقة الجغرافية التي يقطنها نفر من الناس، وقد وردت هذه المفردة في السياقات القرآنية التالية:

- ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [البقرة: 84]

- ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ٨٥﴾ [البقرة: 85]
- ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ٢٤٣﴾ [البقرة: 243]
- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٢٤٦﴾ [البقرة: 246]
- ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ١٩٥﴾ [آل عمران: 195]
- ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ٦٦﴾ [النساء: 66]
- ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ٤٧﴾ [الأنفال: 47]
- ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ٦٧﴾ [هود: 67]
- ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ٩٤﴾ [هود: 94]
- ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ٤٠﴾ [الحج: 40]
- ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ٢٧﴾ [الأحزاب: 27]
- ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ٢﴾ [الحشر: 2]

- ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [الحشر: 8]
- ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ [الممتحنة: 8]
- ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الممتحنة: 9]

فالديار هي إذن الأرض المسكونة من قبل مجموعة من الناس، وليس أدل على ذلك من قوله تعالى:

- ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب: 27]

ولو دققنا النظر في هذه الآية الكريمة على وجه التحديد، لوجب علينا الفصل بين أرض القوم من جهة (أَرْضَهُمْ) وديار القوم من جهة أخرى (وَدِيَارَهُمْ)، فأرض القوم (نحن نرى) تشمل كل المنطقة الجغرافية التي تعود ملكيتها للقوم، ولكن ديارهم هي المنطقة الخاصة بسكناهم. فعندما كان العذاب الإلهي يحل بالمشركين، كانت ديارهم هي التي يصيبها الدمار:

- ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾﴾ [الإسراء: 5]

وبالإضافة إلى الديار، نجد النص القرآني يتحدث عن الدار، فدار الشخص (نحن نرى) هي مكان سكناه، فهذا قارون وقد خسف الله الأرض به وبداره على وجه التحديد:

- ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ [القصص: 81]

نتيجة مفتراة 1: ديار القوم هي مكان سكن القوم جميعا

نتيجة مفتراة 2: دار الرجل هي مكان سكنه الخاص به

وفي خضم بحثنا عن مفردة الديار، جاءت الآيات الكريمة التالية الخاصة بنوح:

- ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح: 26-27]

مما دفعنا لطرح التساؤلات المثيرة التالية:

⇐ من هم الديّارون؟
⇐ لماذا دعا نوح ربه بهلاك هؤلاء على وجه التحديد؟
⇐ هل الدّيارون هم القوم جميعا أم فئة محددة من بينهم؟
⇐ كيف علم نوح أن هؤلاء هم الذين يضلوا عباد الله؟
⇐ كيف علم نوح أنهم لن يلدوا إلا فاجرا كفارا؟
⇐ الخ

رأينا المفترى: نحن نظن بداية أن مفردة دَيَّارًا لها علاقة مباشرة بالمفردات السابقة وهي " تُدِيرُونَهَا " و " وَدِيَٰرَهُمْ " و" وَبِدَارِهِ ". وبناء على فهمنا المفترى لهذه المفردات، فإننا نتجرأ على تسطير بعض الافتراءات ربما غير المسبوقة بخصوص مفردة الدّيارون التي وردت في دعاء نوح على قومه (رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا)، نذكر منها:

⇐ الديارون مجموعة محددة من قوم نوح
⇐ الديارون هم الذين أضلوا الناس
⇐ الديارون لا يلدوا إلا فاجرا كفارا
⇐ الخ

السؤال: من هم؟

رأينا المفترى: من أجل محاولة الإجابة على هذا التساؤل، فإننا نحتاج أن نعود إلى بعض تفاصيل قصة نوح كما يصورها النص القرآني حسب ما نستطيع نحن فهمه منها. ونحن نرى (ربما مخطئين) أن أول السياقات القرآنية التي وجب جلبها إلى هذا النقاش هو الآية الكريمة التالية التي تصور لنا جانبا من حياة القوم حينئذ، قال تعالى:

- ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ٢٣﴾ [نوح: 23]

فلو دققنا في هذه الآية الكريمة لوجدنا الفصل جليا لا لبس فيه بين آلهة القوم من جهة (ءَالِهَتَكُمۡ) ومجموعة أخرى وهم ودا وسواع ويغوث ويعوق ونسرا (وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا) من جهة أخرى. فلقد جاء الحث للقوم جليلا أن لا يذروا آلهتهم (لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ) كما جاء الحث واضحا أيضا أن لا يذروا هؤلاء على وجه التحديد (وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا). ليكون السؤال التالي على الفور هو: من هؤلاء (وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا)؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا أن هؤلاء (وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا) هم الدّيارون الذين دعا نوح ربه أن لا يذر منهم أحدا، وهؤلاء هم من أضلوا عباد الله حينئذ، وهم أنفسهم من لا يلدوا إلا فاجرا كفارا.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: لو أمعنا التفكر في هؤلاء، لوجدنا أنهم خمسة على وجه التحديد، ليكون السؤال الآن هو لم خمسة على وجه التحديد؟ لِم لَم يكونوا أقل من ذلك (ثلاثة أو أربعة مثلا) أو أكثر من ذلك (ستة أو سبعة مثلا)؟

رأينا المفترى: للإجابة على هذا التساؤل، نحن نرى (ربما مخطئين) بأن الحاجة ماسة لتدبر الآية الكريمة التالية الخاصة بقوم نوح، قال تعالى:

- ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾﴾ [النجم: 52]

ليكون السؤال الآن هو: لم كان قوم نوح هم أظلم وأطغى؟

رأينا المفترى: لو تفقدنا الآية الكريمة جيدا، لربما وجب جلب الانتباه إلى ما يدعو إلى الغرابة في هذه الآية الكريمة وهو جود الضمير "هم"، فلِم لَم تأت الآية بدون هذه المفردة على النحو التالي مثلا:

- ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا ... أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾﴾ [النجم: 52]

ألا تفيد المعنى نفسه، فهل الضمير هُمْ في هذه الآية يعود على قوم نوح جميعا؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن ذلك غير ممكنا لأنه يصبح ذلك من باب الحشو الزائد الذي لا طائلة فيه، فضمير الجمع المتصل (وا)، أي واو الجماعة في الفعل كَانُوا تفي بالغرض ذاته، فما فائدة وجود ضميرين اثنين أحدهما متصل (وا) والآخر منفصل (هم) لتعود على الكينونة ذاتها؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الضمير الذي يعود على قوم نوح بمجموعهم هو واو الجماعة (وا) في الفعل كَانُوا، لكن الضمير هُمْ لا يعود على قوم نوح بمجموعهم ولكنه يعود على مجموعة محددة منفصلة من بين القوم جميعا، وهم الطغاة منهم الذين سببوا الضلالة لعباد الله من حولهم.

افتراء من عند أنفسنا: لو كان الضمير هُمْ يعود على قوم نوح بمجموعهم، لكان ذلك ينفي تفاوت الظلم بين أفراد القوم جميعهم، فهل يعقل أن يكون قوم نوح بمجموعهم هم الأظلم والأطغى؟ ألا يمكن أن يكون من بينهم من هو أكثر ظلما وطغيانا من غيرهم؟

رأينا: كلا وألف كلا، فنحن نفتري أن قوم نوح بمجموعهم كانوا ظالمين، لكنهم كانوا متفاوتين في الظلم والطغيان، لكن كان من بينهم مجموعة محددة بذاتهم هم الأكثر ظلما وطغيانا. وهذه الفئة على وجه التحديد هي السبب وراء ظلال القوم بكليتهم.

السؤال: من هم هؤلاء الذين كانوا سببا في طغيان قوم نوح؟

رأينا المفترى: إنهم الدّيارون

السؤال: وكيف ذلك؟ ومن هم أصلا هؤلاء الديارون؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: كان قوم نوح يعبدون أكثر من إله من دون الله، فقد كان لهم آلهة متعددة، بدليل قولهم:

- ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ ... ٢٣﴾ [نوح: 23]

وهذه الآلهة هي التي أضلت الناس كما جاء على لسان إبراهيم:

- ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ٣٥ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٦﴾ [إبراهيم: 35-36]

فعبادة الأصنام هي عبادة قائمة من قبل إبراهيم، ولا شك أن قوم نوح هم أقدم زمنيا من قوم إبراهيم، وقد كان قوم نوح من الذين يعبدون هذه الأصنام، فيتخذونها آلهة لهم من دون الله. لكن يبقى التساؤل المشروع قائما هو كيف أضلت الأصنام كثيرا من الناس؟ وهل تستطيع الأصنام فعلا أن تضل الناس؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الأصنام تستطيع فعلا أن تضل الناس، وذلك لأنها تستطيع أن تحدث للقوم أمورا عجيبة يعجزوا عن إحداثها بدون هذه الأصنام. فالسامري مثلا أخرج للقوم عجلا جسدا له خوار من حلي القوم، فما كانت ردة فعلهم إلا على النحو التالي:

- ﴿فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ٨٨﴾ [طه: 88]

فالقوم هم من شهدوا أن هذا العجل هو إلههم وإله موسى. ليكون السؤال الآن هو: كيف شهد القوم بأنفسهم أن هذا العجل هو إلههم؟ ما السر العجيب الذي وجد في هذا العجل حتى شهد القوم بأنفسهم أنه إلههم؟

جواب مفترى: نحن نظن بأن العجل كان فيه من الميزات الخارقة ما قد جعل القوم يشهدون بأنفسهم أنه إلههم. وما كان ذلك ليحصل (نحن نرى) لولا وجود السامري، فالسامري هو من أضل قوم موسى في غيابه كما أخبره بذلك ربه في ذلك اللقاء الشهير بينهم:

- ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ۝٨٥﴾ [طه: 85]

السؤال: ما الذي يمكن أن نستنبطه من ذلك؟

رأينا المفترى: إن أبسط ما يمكن أن نستنبطه من ذلك أن السامري كان هو محرك الضلالة للقوم، وما كانت وسيلته لذلك يمكن أن تنجح إلا بوجود العجل. انتهى.

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: لأن السامري هو من كان قادرا على التواصل مع العجل (إلههم المزعوم)، فبدون السامري (نحن نرى) يستحيل أن يفعل العجل فيهم تلك الفعلة. فالآلهة المزعومة تحتاج إلى من لديه القدرة على التواصل معها وبالتالي إخراج مكنوناتها الغامضة. فحتى الإله الحقيقي (نحن نرى) قد اختار واصطفى من بين الناس والملائكة من هم قادرون على التواصل معهم وهم الرسل:

- ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝٧٥﴾ [الحج: 75]

فكان هؤلاء الرسل هم حلقة الوصل بين الإله الحقيقي والناس كافة، وبالمنطق المفترى من عندنا نفسه، فإننا نظن أن الآلهة المزيفين يحتاجون إلى حلقة وصل تربطهم بالناس الذين يعبدونهم. فالسامري هو حلقة الوصل بين العجل (الإله المزعوم) وقوم موسى.

فما أن خرج قوم موسى من البحر بعد غرق فرعون وجنوده حتى كان طلبهم على النحو التالي:

- ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝١٣٨﴾ [الأعراف: 138]

السؤال: ما الذي دفع القوم بعد كل ما فعله موسى أمام ناظريهم أن يطلبوا منه مثل هذا الطلب.

رأينا المفترى: نحن نظن أنه لولا أن قوم موسى قد وجدوا في تلك الأصنام ما يثير الانتباه فإنهم لن يتجرءوا على مثل هذا الطلب. فنحن نرى أنهم قد وجدوا في تلك الأصنام ما دفعهم لأن يطلبوا أن يكون لهم من مثل تلك الأصنام آلهة كما للقوم آلهة.

السؤال: ما الذي وجدوه في هذه الأصنام؟

جواب مفترى: نحن نفتري الظن بأن هذه الأصنام كان فيها من السر ما يجعلها تحقق لمن يعبدوها مرادهم. فمن يعبد إلها يتوقع أن يستفيد منه. لكن يبقى التساؤل القائم هو آلية تفعيل هذه الآلهة: فكيف يمكن الاستفادة من هذه الآلهة التي هي من دون الله؟

رأينا المفترى: لكي يمكنك الاستفادة من هذه الآلهة فلابد (نحن نرى) من وجود من يستطيع تفعيلها، وبالتالي التواصل معها. فحتى الاستفادة من الإله الحقيقي تتطلب القدرة على التواصل معه. فتواصلك مع الإله بالطريقة الصحيحة يتمخض عنه الحصول على مرادك منه بكل يسر وسهولة.

السؤال: ما هي طريقة التواصل مع هذه الآلهة؟

جواب مفترى: ليس كل الناس قادرين على التواصل مع الإله، لكن هناك من هو قادر على ذلك. فالرسل هم القادرون على التواصل الأمثل مع الإله الحقيقي. وكذلك فإن هناك من الناس من هو قادر على التواصل مع الآلهة التي هي من دون الله.

السؤال: ما علاقة هذا كله بقوم نوح؟

رأينا المفترى: لما كان قوم نوح لهم آلهة عديدة من دون الله، كان من بينهم من هو قادر على التواصل الفعلي معها، لذا نحن نتجرأ على القول بأن هؤلاء هم الذين كانوا أظلم وأطغى، وهم سدنة المعابد أو الدّيارون وهم الذين جاء ذكر أسمائهم صراحة في كتاب الله:

- ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ۝٢٣﴾ [نوح: 23]

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: لقد كان في قوم نوح خمسة من الآلهة التي يعبدونها من دون الله، فكان كل واحد منهم موجود في ديار القوم، وكان في كل دار من هذه الديار واحد من سدنة المعابد، وهو القادر على التواصل المباشر مع تلك الآلهة، ومن خلال تواصله هذا كان قادرا على أن يضل القوم من حوله. فهؤلاء هم من يعرفون سر القوة الكامنة في هذه الآلهة، وبالتالي تسخيرها لخدمة الناس، وبالتالي ضلالهم عن الإله الحقيقي، كما فعل فرعون:

- ﴿وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ۝٧٩﴾ [طه: 79]

فقوم فرعون قد صدقوا فرعون بأنه إلههم، فكان قادرا على أن يفعل لهم الأعاجيب التي ظنوا أنها تغنيهم عن طلب ذلك من الإله الحقيقي، وهو إله موسى. ولو لم يكن فرعون قادرا على إثبات إلوهيته للقوم، لما تبعوه وألقوا بكل الآيات التي جاء بها موسى لهم وراء ظهورهم.

ولو دققنا في الآية الكريمة نفسها:

- ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ۝٥٢﴾ [النجم: 52]

لوجدنا بأن هؤلاء (أي هم) أظلم وأطغى، وهنا نتوقف عند طرح التساؤلين التالين:

أولا، لما كان هؤلاء هم الأظلم؟

ثانيا، لم كان هؤلاء هم الأطغى؟

جواب مفترى 1: لو دققنا في حصول الظلم، لوجدناه منتشرا في جميع الأقوام، لكن فكرة الأظلم على وجه التحديد نجدها في الآيات الكريمة العديدة. وربما يحق لنا أن نستنبط الأمور التالية منها:

أولا، الأظلم هو الذي منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها:

- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [البقرة: 114]

لذا، كان الأظلم من قوم نوح هم الذين منعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعوا في خرابها

ثانيا، الأظلم هو من ذكر بآيات الله فأعرض عنها:

- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾ [الكهف: 57]
- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [السجدة: 22]

لذا، كان الأظلم من قوم نوح هم الذين ذكروا بآيات الله فأعرضوا عنها.

ثالثا، الأظلم هو الذي يكذب بآيات الله:

- ﴿أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأنعام: 157]

رابعا، الأظلم هو من كتم شهادة عنده من الله:

- ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾ [البقرة: 140]

لذا، كان الأظلم من قوم نوح يكتمون عندهم شهادة من الله.

خامسا: الأظلم هو الذي يفتري على الله الكذب:

- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنعام: 21]

- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ۖ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنعام: 93]
- ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ۗ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الأنعام: 144]
- ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأعراف: 37]
- ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾ [يونس: 17]
- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ [هود: 18]
- ﴿هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾ [الكهف: 15]
- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [العنكبوت: 68]
- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾﴾ [الصف: 7]

نتيجة مفتراة: الأظلم هو الذي يكذب على الله:

- ﴿۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الزمر: 32]

لذا، نحن نرى أن الأظلم من قوم نوح هم الذين كانوا يكذبون على الله.

ولا يتوقف أمرهم عند إحداث الظلم بافتراء الكذب على الله، لكنه يتعدى إلى الطغيان، فلقد كان هؤلاء هم الأطغى أيضا. ولو تفقنا السياقات القرآنية الخاصة بالطغيان، لوجدنا أن الآية الكريمة تصور حالهم أحسن تصوير، قال تعالى:

- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ [البقرة: 13-15]

فهؤلاء هم الذين لا يؤمنون كما آمن الناس، فهم يظنون أن الناس من حولهم سفهاء، وأنهم هم العقلاء من بين الخلق جميعا. وهم الذين يخفون ما لا يبدون، فهم الذين يخلون إلى شياطينهم ليعلموهم، فعلاقتهم بالشياطين غير منقطعة.

لذا، نحن نفتري الظن بأن الأطغى من قوم نوح هم تلك الفئة التي كانت تخلو إلى شياطينهم، فيظهرون للعامة من الناس في العلن ما لا يخفون في أنفسهم من الكفر. فكل من يخفي ما لا يعلن فهو من هذه الفئة.

ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل هم الذين يزيدون على ما أنزل الله. فكل ما زيد على ما أنزل الله، فهو من باب الطغيان، والذين يفعلون ذلك هم الطغاة الحقيقيون، وهم الموقدون للحرب، وهم الذين يسعون في الأرض فسادا:

- ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۚ وَأَلۡقَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٦٤﴾ [المائدة: 64]
- ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۖ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٨﴾ [المائدة: 68]

فما كان ما زاد أهل التوراة في تلمودهم إلا (نحن نرى) طغيانا وكفرا. وهذا المنطق ينسحب أيضا على أهل الإنجيل وأهل القرآن. فما جاء به الطغاة من أهل الكهنوت الديني في كل الشرائع السماوية زيادة على ما أنزل الله تحت مسميات مختلفة لم يكن أكثر من الطغيان والكفر بما أنزل الله

مثال: نقرأ في كتب أهل التراث الحديث المنسوب (برأينا زورا وبهتانا)إلى الرسول الكريم:

أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلَا يُوشِكُ رَجُلٌ يَنْثَنِي شَبْعَانًا عَلَى أَرِيكَتِهِ يَقُولُ: عَلَيْكُمْ بِالْقُرْآنِ، فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلَالٍ فَأَحِلُّوهُ، وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ، أَلَا لَا يَحِلُّ لَكُمْ لَحْمُ الْحِمَارِ الْأَهْلِيِّ، وَلَا كُلُّ ذِي نَابٍ مِنَ السِّبَاعِ، أَلَا وَلَا لُقَطَةٌ مِنْ مَالِ مُعَاهَدٍ إِلَّا أَنْ يَسْتَغْنِيَ عَنْهَا صَاحِبُهَا، وَمَنْ نَزَلَ بِقَوْمٍ، فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَقْرُوهُمْ (1) ، فَإِنْ لَمْ يَقْرُوهُمْ، فَلَهُمْ أَنْ يُعْقِبُوهُمْ بِمِثْلِ قِرَاهُمْ . " صحيح رواه أحمد في المسند (28 / 410) (17173) وأبو داود في سننه (4 / 200) (4604) وغيرهما.

وبالوقت ذاته نقرأ الآية الكريمة التالية:

- ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ٨٨﴾ [الإسراء: 88]

السؤال: كيف يمكن أن نجمع بين ما روي في الحديث (أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ) مقابل ما جاء في الآية الكريمة (قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا). فهل يستطيع بشر بمفرده (حتى وإن كان رسولا من الله) أن يأتي بمثل القرآن؟ ألم ينفي الله احتمالية قدرة الجن والإنس مجتمعة معا أن تأتي بمثل هذا القرآن؟

السؤال: كيف يمكن أن نرى هذا الحديث المروي في كتب التراث؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن هذا قد جاء ليشرعن الزيادة على ما أنزل الله. فكان هذا من باب الطغيان والكفر. والذين جاءوا بمثل هذه المرويات هم الذين زادوا على ما أنزل الله، فكانوا في طغيانهم يعمهون.

لذا، نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن الأطغى من قوم نوح هم الذين زادوا على ا أنزل الله، فما كانت فعلتهم تلك إلا من باب الطغيان، فكانوا هم الأطغى.

ولن تكون حالهم بأفضل مما تصوره الآيات الكريمة التالية:

- ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: 110]
- ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [الأعراف: 186]
- ﴿۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾ [يونس: 11]
- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَـٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾ [الإسراء: 60]
- ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَـٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾﴾ [الكهف: 80]
- ﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَـٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المؤمنون: 75]

ولو رجعنا إلى ما فعل فرعون، لوجدنا أنه قد طغى:

- ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [طه: 24]
- ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ [طه: 43]
- ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [النجم: 17]

وللحديث بقية

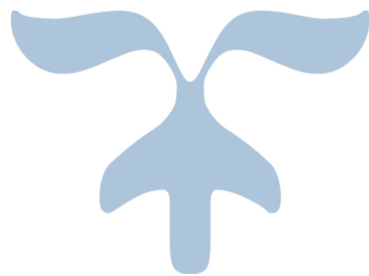
فالله وحده أسأل أن يعلمني، وأن يزيدني علما، وأن يهدين لأقرب من هذا رشدا. وأعوذ به وحده أن أكون ممن يفترون عليه الكذب أو ممن يقولون عليه ما ليس لهم بحق، وأعوذ به أن يكون أمري كأمر فرعون، إنه هو العليم الحكيم - آمين.

المدكرون: رشيد سليم الجراح&علي محمود سالم الشرمان
بقلم د. رشيد الجراح
3 كانون أول 2018



فقه الزكاة

الجزء السابع



فقه الزكاة: الجزء السابع

تحذير

أننا سنعرض في هذا الجزء على وجه التحديد نوعا من المعلومات المشفرة التي نحبذ أن لا يطّلع عليها إلا قلّة من الناس، فهي بالمفردات الأجنبية **classified material**، وهي لست مجانية للجميع. لذا نحن نحذر بلهجة ربما غير مسبوقة أن يتم تداول ما قد يرد في سطورها من معلومات غريبة جدا على الملأ بأي طريقة كانت غير الرجوع المباشر إلى المصدر. فمن أراد المعلومة، فعليه أن يقرأها بنفسه من هنا، وكل من ينقل المعلومة أو أي جزء منها بغير هذه الطريقة، فهو خصمنا أمام الله يوم تجتمع الخصوم. لذا على من يقرأ هذه المقالة أن يقسم أولا بالتالي:

أقسم بالله العظيم أن لا أبوح بالمعلومة أو أي جزء منها بأي طريقة كانت غير إحالة المهتم إلى النص الأصلي نفسه. والله على كل شئ شهيد.

أما بعد،

أنهينا الجزء السابق من هذه المقالة بمحاولتنا تدبر الآيات الكريمة التالية التي جاءت في كتاب الله على لسان نوح:

- ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ۝٢٧﴾ [نوح: 26-27]

وقد قادنا النقاش حينئذ إلى محاولة تدبر قوله تعالى:

- ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ۝٥٢﴾ [النجم: 52]

فافترينا القول من عند أنفسنا بأن قوم نوح لم يكونوا بمجموعهم الأظلم والأطغى، لأنه لو كان هذا هو الحال، لربما جاءت الآية الكريمة بدون الضمير هُمْ، على النحو التالي:

- ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ ... أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ۝٥٢﴾ [النجم: 52]

لكن وجود الضمير هُمْ في هذه الآية الكريمة حدّد لنا (نحن نفتري الظن) مجموعة بعينها من أولئك القوم (هُمْ)، فكانوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى. وقد افترينا الظن بأن هذه المجموعة (الذين هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ) هم الديّارون الذين دعا نوح ربه بأن لا يذر على الأرض منهم أحدا، لأنهم هم من أضلوا عباد الله وما ولدوا إلا فاجرا كفارا:

- ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ۝٢٧﴾ [نوح: 26-27]

وقد جنح بنا التفكير إلى افتراء القول من عند أنفسنا بأن هؤلاء هم الذين جاء ذكرهم في قوله تعالى:

- ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ۝٢٣﴾ [نوح: 23]

فهؤلاء (وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا) ليسوا آلهة القوم بدليل الفصل الواضح بينهم من جهة وآلهة القوم من جهة أخرى (وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا)، ولكنهم (نحن نرى) هُمْ الديّارون، أي رجال الدير، أي الذين اتخذوا أديرة (أماكن عبادة خاصة بهم)، فكانوا هم المراجع الدينية لمن حولهم، فهم – برأينا- أهل الكهنوت الديني حينئذ. فكانوا (نحن لازلنا نتخيل) يقدّموا للقوم أفهامهم العقائدية التي لا تتطابق مع التشريعات السماوية الحقيقية كالتي جاء بها نوح (نبي القوم). والأهم من هذا كله هو ظننا بأن قناعة الناس بما يقولون لم تكن لتصبح مطلقة لولا قدرة هؤلاء (الديّارين) على إثبات فاعلية عقائدهم للناس على أرض الواقع. فالناس قد اقتنعوا بما يقوله هؤلاء لهم لأنهم ببساطة قدّموا الدليل العملي لما يشرّعون. ويمكن مقارنة ما فعله هؤلاء للقوم من حولهم بما فعله السامري يوم أن أخرج للناس عجلا جسدا من حليهم، فكانوا هم من انطلقت ألسنتهم بنعت العجل على أنه إلههم وإله موسى:

- ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ۝١٤٨﴾ [الأعراف: 148]

فكما أُشرب العجل في قلوب قوم موسى:

- ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٩٣﴾ [البقرة: 93]

استطاع الديّارون أن يشربوا آلهة القوم في قلوب الناس من حولهم، فما آمن لنوح إلا القليل ممن كان يُنظر إليهم بعين التحقير:

- ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ۝٢٧﴾ [هود: 27]

ونحن نتجرأ على الظن بأن الذي صدّ الناس عن دعوة نوح، وبالتالي جعل تمسك الناس حينئذ بآلهتهم شديدة، هم هؤلاء الديّارون، حتى كانت ردة فعل نوح على القوم على النحو التالي:

- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦﴾ [نوح: 5-6]

وذلك لأنهم قابلوا دعوة رسولهم بالطريقة المستفزة التالية:

- ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾﴾ [نوح: 7]

السؤال: كيف استطاع الديّارون أن يقنعوا القوم برفض دعوة نوح لهم؟

رأينا المفترى: نحن نظن (ربما مخطئين) بأن قدرة الديّارين لم تكن ممكنة لولا استطاعتهم إثبات دعواهم للناس بالدليل المادي المحسوس. ليكون السؤل الآن هو: ماذا كانت آلية ما فعل هؤلاء الديّارون لثني الناس عن تصديق دعوة نوح؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الذين كانوا قادرين على الوقوف في وجه دعوة كل رسول إلى قوم من الأقوام هم رجال الدين (أي الكهنوت الديني المسيطر على رقاب العباد في كل وقت وحين). فرجال الدين التقليدين هم الذين وقفوا على الدوام مروجين لعقائدهم الإبائية (أي ما ورثوه عن آبائهم)، صادين الناس في الوقت ذاته عن سماع دعوة الرسول الذي بعث فيهم. فلو وقفت للحظة أمام الخطيب المفوّه من أهل الإسلام مثلا، لوجدته يروج للفكرة البسيطة التي مفادها بأن رجال الدين من أهل الديانة اليهودية هم من أضلوا الناس عن سماع كلمة الحق التي جاء بها موسى، ولوجدتهم يرفعون أصواتهم عالية أيضا قائلين بأن رجال الدين من النصارى هم الذين حرفوا النصرانية عن مسارها الصحيح كما جاء بها أنصار عيسى بن مريم (الحواريين)، ولوجدتهم أيضا يروجون بأن رجال الدين من أهل العقيدة البوذية أو الهندوسية أو المجوسية هم الذين أضلوا الناس عن علم، وهكذا. ولكن عندما يصل الخطيب إلى أهل الدين من طائفته أو ملته، لوجدته يقلب الخطاب على الفور، ليروج للفكرة التي مفادها أن رجال الدين وأهل العلم من طائفته هم الذين هدوا الناس سواء السبيل. وهذا المنطق ينطبق (نحن نجزم القول) على كل طوائف الأرض، فرجل الدين من كل طائفة ينظر إلى رجال الدين من طائفته على أنهم ملائكة بثوب بشري يهدون الناس إلى صراط الله المستقيم، بينما يرى رجال الدين من كل الطوائف الأخرى يقودون الناس إلى طريق جهنم وبئس المصير. وباللسان اللعجمي:

Ours are saints and angels; theirs are demons and devils

ونحن نتجرأ على الظن بأن هذا ما حصل فعلا على أرض الواقع في حالة قوم نوح. فعندما جاء نوح كرسول في قومه حيث كانت مهمته أن يدعوهم ليغفر الله لهم، كان المكان (نحن نتخيل) يعج حينئذ برجال الدين الذين يدافعون (وينافحون) عن دين آبائهم السابقين. فانبرى رجال الدين حينئذ لصد الناس عن الدعوة الجديدة، ومطالبة من حولهم بالتمسك بإرث الآباء وعدم تصديق دعوة هذا الداع لهم أن يتركوا ما وجدوا آبائهم عليه. فقوم نوح كانوا على عادة عبادة آلهة كثيرة من دون الله، بدليل وجود الآلهة المتعددة عندهم حينئذ:

- ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ ... ﴿٢٣﴾﴾ [نوح: 23]

فكانت دعوة نوح تتلخص بترك الآلهة المتعددة، وبالتالي عبادة الله وحده. لذا، كانت الاسطوانة التي عزف عليها الديّارون هو غرابة المطلب، المتمثل بأن هذا الرجل (كرسول من ربه) ينهانا أن نعبد ما كان يعبد آباؤنا:

- ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٧٠﴾ [الأعراف: 70]
- ﴿۞ قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ١٠﴾ [إبراهيم: 10]
- ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٞ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمۡ عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُكُمۡ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٞ مُّفۡتَرٗىۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٤٣﴾ [سبأ: 43]

وقد كان جل منطقهم يتمثل في أن العبادة يجب أن تكون لآلهة متعددة، وأن عبادة إله واحد هو من باب الشيء العجاب:

- ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ٥ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ٦ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ٧﴾ [ص: 5-7]

ولو دققنا في هذه الآيات، لوجدنا أن المحرك للناس، المروج لهذا المنطق الكاذب هم الملأ (وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ). فهم الذين دافعوا عن فكرة تعدد الآلهة، ووقفوا حاجزا مانعا لقبول الناس لفكرة عبادة الإله الواحد كما جاء بها رسل الله على الدوام.

السؤال: لِمَ كان النجاح باهرا لهؤلاء الملأ؟ كيف استطاعوا أن يحشدوا معهم السواد الأعظم من الناس؟ ولِم لَم يكن ليؤمن مع الرسول المبعوث فيهم إلا قلة قليلة من الناس؟ وبكلمات أكثر دقة نحن نسأل: كيف استطاع الديّارون (رجال الكهنوت الديني) في قوم نوح مثلا أن يقنعوا الناس بالانضمام إلى صفهم على حساب الطائفة القليلة الموحدة المؤمنة مع الرسول الذي بعث فيهم؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نعتقد جازمين (وربما مخطئين) بأن هؤلاء ما كانوا لينجحوا في مسعاهم، وبالتالي تحقيق هدفهم، في غياب الآلهة التي اتخذها القوم:

- ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ٢٣﴾ [نوح: 23]

فقوة الحجة لهؤلاء الديّارين كان مصدرهما (نحن نتخيل) وجود هذه الآلهة عندهم. ولو لم تكن هذه الآلهة موجودة عندهم، لما استطاع هؤلاء (نحن نفتري الظن) النجاح في مسعاهم. فهؤلاء الديارون كانوا (نحن نفتري الظن) يستمدوا الحجة على إثبات دعواهم من آلهتهم التي كانوا يعبّدون الناس لها. انتهى.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نفتري القول من عند أنفسنا بأن هؤلاء الديّارين كانوا قادرين على تفعيل تلك الآلهة، وبالتالي الاستفادة منها، بالضبط كما فعل السامري عندما أضل قوم موسى بالعجل، وكذلك فعل فرعون وهو من أضل قومه وما هدى.

السؤال: كيف فعلوا ذلك؟ ألا تستطيع أن توضح ما تقصد بطريقة يسهل فهمها؟ يسأل صاحبنا مستعجلا الإجابة كعادته!

جواب: نعم، أظن أني استطيع توضيح ذلك أكثر، لكن هذا يتطلب منا أن نقسّم النقاش في أبواب. فنحن نحتاج أن نفهم ما فعله السامري بالعجل، وما فعل العجلُ بقوم موسى، وكيف أُشرب قوم موسى في قلبهم ذلك العجل. كما نحتاج أن نفهم كيف فعل فرعون ذلك بنفسه، أي كيف استطاع أن يقنع القوم بأنه هو إلههم في ضوء معرفتهم المسبقة بأن فرعون نفسه له آلهة:

- ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَـٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الأعراف: 127]

فالسؤال المنطقي عندنا الآن هو: لِم لَم يطلب فرعون من القوم أن يعبدوا تلك الآلهة التي هي أصلا آلهته مادام أن لفرعون نفسه آلهة (كما جاء على لسان ملئه)؟

- ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [القصص: 38]

فالجميع يعلم بأن لفرعون آلهة (وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ)، ولكنهم يقرون في الوقت ذاته بأن فرعون هو إلههم فقط (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى)، فلم لم تكن آلهة فرعون هي آلهتهم أيضا؟ وبالمقابل، نحن نسأل: لِم لَم يدّعي السامري (وهو مخرج العجل) الإلوهية لنفسه، فاكتفى بأن تكون الإلوهية المزعومة في العجل الذي أخرجه لهم؟

كما نحتاج أن نفهم كيف نظر الناس إلى المسيح عيسى بن مريم، ولم ضلّ كثير من الناس من بعده لدرجة أن اتخذوه إلها بالرغم أنه لم يطلب منهم ذلك.

لذا، سنبدأ النقاش في الباب الأول وهو باب السامري والعجل. طارحين التساؤل المحوري التالي: لِم لم يكن السامري نفسه هو إله القوم وهو من أخرج العجل بنفسه؟

(دعاء: نسأل الله وحده أن يأذن لنا بشئ من علمه في ذلك لا ينبغي لأحد غيرنا إنه هو العلي العظيم - آمين)

باب السامري والعجل

أما بعد،

السؤال مرة أخرى: لِم لَم يكن السامري هو نفسه مدعي الإلوهية؟ أليس هو من أخرج لهم ذاك العجل؟ لم جعل السامري العجل إلها للقوم ولم يدعي لنفسه الإلوهية بالرغم أنه هو صانعها؟

جواب مفترى: نحن نظن أن الإجابة على هذا السؤال ربما تمهد لنا الإجابة على تساؤلات أخرى مشابهة مثل: لِم لَم يكن الديارون (وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا) من قوم نوح هم أنفسهم مدّعين الإلوهية؟ أي لِم لَم يقل هؤلاء للناس بأنهم هم أنفسهم آلهة؟ وبالمقابل، لم أدعى فرعون بالذات الإلوهية لنفسه بالرغم من وجود آلهة له كما جاء على لسان ملئه؟

- ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الأعراف: 127]

السؤال المحوري: من يستطيع أن يدّعي الإلوهية؟ أو من يستطيع أن يكون فعلا إلها من دون الله؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن الإله لا يمكن أن يكون كذلك إلا بشرطين اثنين، وهما أن يكلمهم وأن يهديهم. انتهى.

الدليل

لو دققنا في الآية الكريمة التالية الخاصة بالعجل الذي اتخذه قوم موسى إلها في غياب موسى نفسه، لوجدنا أن الله ينفي عن العجل صفة الإلوهية الحقيقية لأنه ببساطة لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا:

- ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأعراف: 148]

وبناء على هذا، فإننا نتجرأ على تقديم الافتراءين التاليين:

نتيجة مفتراة 1: الإله الحقيقي هو الذي يكلّم

نتيجة مفتراة 2: الإله الحقيقي هو الذي يهدي السبيل

السؤال: كيف يمكن للإله أن يكلّم؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الإله يكلّم عباده، لأن الكلام لا يكون باللسان. انتهى.

السؤال: لم ذلك؟ وكيف لا يكون الكلام باللسان؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأن الكلام لا يكون باللسان، وذلك لأن ما يستطيعه اللسان هو القول فقط:

- ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾﴾ [الفتح: 11]
- ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾ [النساء: 46]

السؤال: لماذا؟ وما فائدة مثل هذا الافتراء أصلا؟

رأينا المفترى: نحن نظن أنه لما كان اللسان يستطيع القول، فإنه قد لا يقول الحقيقة؛ وذلك لأن اللسان قد يقول ما ليس في القلب (يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ)، فاللسان هو الأداة التي تمكن صاحبه من تغيير الحقيقة (لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ)، أي هو أداة الكذب. فمن كان له لسان يمكن أن يكذب، ولكن من لم يكن له لسان، لا يستطيع أن يكذب، لذا كان فرعون إلها كاذبا، لأنه كان له لسان:

- ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾﴾ [البلد: 8-9]

فمادام أن لفرعون لسان، لذا كانت احتمالية الكذب وارده؛ وذلك لأنه قادر على أن يقول بلسانه ما ليس في قلبه، وهو (نحن نرى) ما جعله يقلب الحقائق لمن حوله، فكان سببا في عدم هدايتهم:

- ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾ [طه: 79]

فكان منهج فرعون في قومه هو ما تصوره ما جاء في الآية الكريمة التالية:

- ﴿... قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾ [غافر: 29]

لكن الإله الحقيقي هو الذي يقول الحق ويهدي السبيل:

- ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾﴾ [الأحزاب: 4]

نتيجة مفتراة: فرعون كان له لسان. لذا، كان يقول بفيه، فلم يقل الحق ولا هدى السبيل

نتيجة مفتراة 2: الإله الحقيقي ليس له لسان. لذا هو لا يقول بفيه، فهو إذن – لا محالة - يقول الحق ويهدي السبيل

ونحن نفتري الظن أيضا بأن اللسان ليس خاصا بفرد واحد بعينه، بل هو ملكية للقوم جميعا. لذا، يستحيل على من يتكلم بلسان قومه أن يكون إلها حقيقيا، فالإله الحق ليس له قوم:

- ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٤﴾ [إبراهيم: 4]

السؤال بطريقة أخرى: هل للإله قوم حتى يكون له لسان كالآخرين؟

جواب مفترى: كلا، وألف كلا. فالله نفسه ليس له لسان، ولا يقول بفيه، ولكنه في الوقت ذاته يكلّم عباده، قال تعالى:

- ﴿۞وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ ٥١﴾ [الشورى: 51]
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٤﴾ [البقرة: 174]
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٧﴾ [آل عمران: 77]

لذا، جرى الخطاب بين الله نفسه من جهة وموسى من جهة أخرى في الواد المقدس بطريقة التكليم:

- ﴿وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾ [النساء: 164]

وهنا نصل إلى قضية محورية خطيرة جدا تتمثل بطرح السؤال التالي: ما هي ماهية الكلام الإلهي مادام أن الإله ليس له لسان ولا يقول بفيه (كما نزعم)؟

جواب مفترى: نحن نظن بداية بأن القرآن العظيم هو كلام الله، بدليل قوله تعالى:

- ﴿۞أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٧٥﴾ [البقرة: 75]

- ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ ٦﴾ [التوبة: 6]
- ﴿سَيَقُولُ ٱلۡمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقۡتُمۡ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأۡخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعۡكُمۡۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمۡ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبۡلُۖ فَسَيَقُولُونَ بَلۡ تَحۡسُدُونَنَاۚ بَلۡ كَانُواْ لَا يَفۡقَهُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٥﴾ [الفتح: 15]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: القرآن هو إذن - لا محالة - كلام الله

لكن هنا يبرز التساؤل التالي: هل القرآن (كلام الله) هو أيضا ما قاله الإله نفسه كما وصلنا؟ هل القرآن هو ما قاله الله بلسانه؟ هل قاله الله بفيه؟

جواب مفترى: كلا وألف كلا، وذلك لأن الإله الحق ليس له لسان ولا فيه.

السؤال: كيف نفهم أن القرآن الكريم هو كلام الله في الوقت الذي نفتري الظن من عند أنفسنا بأن الله لم يقله بلسانه ولا بفيه؟

جواب مفترى من عند أنفسنا خطير جدا: نحن نظن أن القرآن هو (بمفرداتنا اللغوية الدارجة) كلام الله غير المباشر؟

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا خطيرة جدا جدا: القرآن ليس كلام الله المباشر، لكنه كلام الله غير المباشر.

السؤال: وما الفرق بين أن يكون القرآن هو كلام الله المباشر أو كلام الله غير المباشر؟

جواب مفترى: لو كان القرآن هو كلام الله المباشر، لأصبح لزاما أن نستنبط بأن لله لسانا عربيا، وللزم علينا أن نستنبط أن لله قوم، هم الأعراب أهل اللسان العربي الذي بعث فيهم محمد رسولا:

- ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٤﴾ [إبراهيم: 4]

وهذا المنطق المفترى من عند أنفسنا ينطبق كذلك على كل الكتب السابقة كالتوراة والإنجيل. فلو كان التوراة كلام الله المباشر، لكان للإله لسان عبرانيا. ولو كان الإنجيل كلام الله المباشر، لكان للإله لسان كلسان حواري المسيح عيسى بن مريم، وهكذا.

السؤال: ما المخرج؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن المخرج من هذه المعضلة تتمثل في تنزيه الإله عن المشابهة، قال تعالى:

- ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ [الشورى: 11]

فالله لا يتخذ لنفسه لسانا كلسان الرسل الذين كلّفوا أن يبلغ كل واحد منهم رسالة ربه بلسان قومه:

- ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٤﴾ [إبراهيم: 4]
- ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ١٩٥﴾ [الشعراء: 193-195]

السؤال: ما هو إذا الكلام الإلهي المباشر؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الكلام الإلهي المباشر هو المحكم من الآيات قبل تفصيلها (أي ترجمتها) إلى لسان القوم الذي بعث فيهم الرسول:

- ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾ [هود: 1]
- ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۢ بَعِيدٖ ٤٤﴾ [فصلت: 44]

فتفصيل الكتاب (كما حاولنا تبيان ذلك في مقالات سابقة لنا) هو عملية جعل (أي تحويل) من صيغته الإلهية المحكمة إلى صيغته البشرية المتشابهة، فالصيغة الإلهية المحكمة هي الوحي كما جاء في قوله تعالى:

- ﴿حمٓ ١ عٓسٓقٓ ٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٣﴾ [الشورى: 1-3]

السؤال: ما فائدة هذا التفريق بين الكلام الإلهي المحكم (بنصه الأصلي) عن الكلام الإلهي المفصل بلسان قوم الرسول (أي المترجم بلسان قوم الرسول المبعوث في كل أمة من الأمم)؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن كلام الإله المباشر يتم بالصيغة المحكمة قبل تفصيلها إلى لسان قوم الرسول الذي بعث فيهم. لذا فإن الآيات المحكمات هي التي لم تفصل، أما الآيات المفصلة فهي الآيات المتشابهات فيه:

- ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧﴾ [آل عمران: 7]

فالآيات بالأحرف المتقطعة (كما درجنا على تسميتها) هي الآيات المحكمات، بينما بقية القرآن هو كله آيات متشابهات لأنه بلسان قوم الرسول (أي بلسان عربي مبين):

- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ٨٧﴾ [الحجر: 87]

نتيجة مفتراة: أنزل الله على نبيه شيئين اثنين هما (1) سبعا من المثاني و (2) القرآن العظيم

نتيجة مفتراة: السبع المثاني هي ما نسميه بالأحرف المتقطعة وهي أربعة عشر حرفا (أو بكلمات أكثر دقة أربعة عشر مقطعا صوتيا)، ولو تم تجميعها بشكل ثنائي (binary) لأصبحت سبعا من المثاني

نتيجة مفتراة: القرآن العظيم هو كل ما في القرآن باستثناء هذه المقاطع الصوتية الأربعة عشر (سبعا من المثاني)

السؤال مرة أخرى: ما فائدة التفريق بين كلام الله المباشر (بالآيات المحكمات) عن كلام الله غير المباشر بالآيات المتشابهات التي فصلت بلسان قوم الرسول؟

رأينا المفترى: كان الوحي الإلهي لرسله يتمثل بأن يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده، فيكون ذلك وحيا بآيات محكمات (أي بالصيغة الإلهية المباشرة)، فيتولى الرسول بنفسه تفصيل هذه الآيات (أي ترجمتها) بلسان قومه حتى يستطيع الناس أن يفهموها، لذا جاء قوله تعالى:

- ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ٤٠﴾ [الحاقة: 40]
- ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ١٩﴾ [التكوير: 19]

نتيجة مفتراة: القرآن هو كلام الله

نتيجة مفتراة: القرآن هو قول رسول كريم

(للتفصيل انظر مقالاتنا السابقة)

إن ما يهمنا طرحه هنا هو أن الإله يكلّم (فيكون كلاما مباشرا)، وأن كلام الإله ينقل بلسان الرسل الذين بعثهم الله في كل الأمم (فيكون كلاما غير مباشر). وما تكلم الإله بكلام مباشر مع بشر إلا من خلال الطرق التالية:

- ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ٥١﴾ [الشورى: 51]

وهذا الطرح (على ركاكته) يعيدنا على الفور إلى قصة الآلهة المزعومة من دون الله كآلهة قوم نوح وقوم عاد وآلهة فرعون وفرعون نفسه (كإله) وعجل السامري.

السؤال: لم لا تكون هذه آلهة حقيقية؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن هذه ليست آلهة حقيقية لأنها ببساطة لا تكلّم الناس مباشرة. انتهى.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: لو تدبرنا الآية الكريمة التالية التي جاءت لتنفي صفة الإلوهية عن عجل السامري مرة أخرى، لوجدنا أنها قد أثبتت عدم إلوهية العجل لسببين اثنين وهما: أنه لا يكلم القوم ولا يهديهم:

- ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ١٤٨﴾ [الأعراف: 148]

السؤال: هل تُنفي الإلوهية عن العجل بمجرد أنه لا يكلم القوم (أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ) وأنه لا يهديهم سبيلا (وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ)؟ فهل من المتوقع من العجل أن يكلمهم؟ وكيف يمكن للعجل أن يكلمهم أصلا؟ وهل من المتوقع أن يرجع لهم العجل قولا كما جاء في الآية الكريمة التالية؟

- ﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ٨٩﴾ [طه: 89]

والسؤال الأهم: هل الإله الحقيقي يكلّمنا أصلا؟ وهل يرجع لنا قولا؟ من يدري؟!!!

رأينا المفترى: من أجل محاولة الإجابة على هذه التساؤلات، فلابد (نحن نرى) أن نطرح أولا السؤال المحوري التالي: ما معنى التكليم؟ وكيف يحصل التكليم من الإله للبشر؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الكلام لا يمكن أن يقع إلا بشرط واحد وهو حصول الاستجابة. انتهى.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن ما يجعل الله (الإله الحقيقي) مختلفا عن جميع الخلق هو أنه قادر على كل شيء. لذا، فهو وحده من ترك الباب مفتوحا أمام عباده أن يسألوه ما يشاءون:

- ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ١٨٦﴾ [البقرة: 186]

نتيجة مفتراة مهمة جدا وخطيرة جدا: إن من أبسط أبجديات هذا القانون الإلهي هو عدم وجود الوسيط بين العبد وربه. فالله قادر على إجابة دعوة الداع إذا دعاه مباشرة. أما الآلهة من دونه فهي غير قادرة على ذلك. لذا، فالتواصل مع هذه الآلهة تحتاج إلى وسيط. انتهى.

لذا، نحن نفتري الظن بأن العجل إله كاذب لأن قوم موسى لا يستطيعون التواصل معه مباشرة، فما كان يستطيع أن يكلمهم مباشرة، ولا أن يرجع لهم قولا. وجلّ ما يستطيع القوم فعله هو التواصل مع العجل من خلال الوسيط وهو – نحن نجزم الظن- السامري، فالسامري هو – برأينا- أداة الوصل بين العجل من جهة وقوم موسى من جهة أخرى. وكذلك كان ودا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا، فهؤلاء هم – برأينا- أداة الوصل بين قوم نوح من جهة وآلهتهم من جهة أخرى. فلو أراد القوم من هذه الآلهة شيئا، ما كان ذلك ممكنا بغير طريق هؤلاء الوسطاء. بالضبط كما كان قوم موسى لا يستطيعون التواصل مع العجل بغير طريق السامري نفسه. فهؤلاء هم من يملكون مفتاح الباب السري (**password**) لهذه الآلهة المزعومة.

وكذلك كان فرعون هو أداة الوصل بين قومه من جهة وآلهته من جهة أخرى. فما كان قوم فرعون قادرين على التواصل مع آلهة فرعون بغير طريق فرعون نفسه. لكن يبرز هنا السؤال المحوري ألا وهو: لم أدعى فرعون الإلوهية لنفسه؟ ولم – بالمقابل- لم يدعي السامري الإلوهية لنفسه وتركها من نصيب عجله؟ وبالمنطق نفسه نحن نسأل: لِم لَم يكن ودا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا أنفسهم آلهة من دون الله؟ لم أثبتوا الإلوهية لغيرهم؟

- ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ٢٣﴾ [نوح: 23]

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن الجواب على هذا التساؤل يكمن في الآية الكريمة التالية:

- ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١﴾ [الملك: 1]

نتيجة مفتراة: الإله الحقيقي هو الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير. انتهى.

السؤال: ماذا تقصد؟ لم أفهم ما تريد قوله، يقول صاحبنا مستغربا الإجابة.

رأينا المفترى: نحن نظن أن الإله الحق هو القادر على كل شيء، لذا يستحيل أن تكون الآلهة من دون الله قادرة على كل شيء، لكن (انتبه) هذا لا ينفي احتمالية قدرتها على بعض الأشياء. من هنا ، نحن نرى (ربما مخطئين) جاءت فكرة الآلهة المتعددة في كل الأمم التي سبقت، كقوم نوح مثلا:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٣﴾ [هود: 23]

أو كقوم هود (عاد التي لم يخلق مثلها في البلاد):

- ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ٥٣ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٥٤﴾ [هود: 53-54]
- ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٢﴾ [الأحقاف: 22]

أو كثمود (قوم صالح):

- ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٣﴾ [الأعراف: 73]
- ﴿۞وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ ٦١ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ٦٢﴾ [هود: 61-62]

أو كقوم إبراهيم:

- ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ٩١﴾ [الصافات: 91]
- ﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٩﴾ [الأنبياء: 59]
- ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ٦٢﴾ [الأنبياء: 62]
- ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٦٨﴾ [الأنبياء: 68]

أو حتى قوم محمد أنفسهم:

- ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا لَوۡلَآ أَن صَبَرۡنَا عَلَيۡهَاۚ وَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ حِينَ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ مَنۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ٤٢﴾ [الفرقان: 42]
- ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ ٣٦﴾ [الصافات: 36]

وكانت هذه هي ردة فعل جميع الأقوام التي بعث الله فيهم رسله، فلقد كان استغرابهم الأشد هو جعل الآلهة المتعددة إلها واحدا، فما نعتوا ذلك إلا من باب الاختلاق، أي ما هو غريب عليهم، غير مألوف في آبائهم الأولين:

- ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ٥ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ٦ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ٧﴾ [ص: 5-7]

- ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ١٠١﴾ [هود: 101]

السؤال: لماذا كانت الأقوام التي بعث الله فيهم الرسل جميعا على عادة عبادة الآلهة المتعددة؟

جواب مفترى: نحن نفتري الظن أن السبب في ذلك أنهم لم يكونوا قادرين على تحديد الإله الأوحد القادر على كل شيء، ولكنهم وجدوا آلهة متعددة، يستطيع كل واحد منهم (أي من هذه الآلهة المتعددة) تحقيق مرادهم في أشياء محددة بعينها. ومن هنا (نحن نفتري الظن) جاءت فكرة تصنيف الآلهة. ففي الثقافات البائدة والوثنية القديمة، كان لكل شيء إلهه المحدد، فهناك إله الشمس وإله القمر وإله الحب وإله الحرب وإله الجمال وإله الخصب وإله الغيث، وهكذا. ولا يمكن أن يكون هذا التصنيف في الثقافات المتعددة قد جاء من قبيل المصادفة أو التقليد الأعمى فقط.

نتيجة مفتراة 1: الإله الحق هو القادر على كل شيء

نتيجة مفتراة 2: الآلهة من دون الله غير قادرة (منفصلة) على كل شيء

نتيجة مفتراة 3: كل إله من هذه الآلهة المزعومة كان قادرا على شيء محدد بذاته

السؤال: ما علاقة هذا بفحوى النقاش الخاص بالسامري وعجله الذي اتخذه إلها؟

رأينا المفترى: لو دققنا في الآيات الكريمة التالية الخاصة بعجل السامري، لوجدنا بأن من صفاته أنه لا يكلم القوم، ولا يهديهم سبيلا، ولا يرجع إليهم قولا، ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا:

- ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ١٤٨﴾ [الأعراف: 148]
- ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ٨٩﴾ [طه: 89]

السؤال: مادام أن العجل كذلك، فلم اتخذوه إلها:

- ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ٨٨﴾ [طه: 88]

لكن، لو دققنا في الوقت ذاته بما قاله موسى للسامري بعد عودته، لوجدنا أن موسى نفسه ينعت العجل بأنه إله السامري فقط:

- ﴿قَالَ فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا ۝٩٧﴾ [طه: 97]

ليكون السؤال الآن هو: لماذا قال القوم بداية بأن العجل إلههم وإله موسى بينما نعت موسى العجل بأنه إله السامري فقط؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن القوم قد خدعوا بالعجل فظنوا أنه إلههم جميعا (فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ)، لكن موسى لم يكن لتنطلي عليه حيلة السامري، فكشف على الفور زيفه عندما نسب العجل إلها للسامري فقط (وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ)، والسبب في ذلك – نحن نرى – لأن القوم لا يستطيعون بمجملهم تكليم العجل، لكن القادر على تكليمه هو السامري فقط. فالعجل هو إذا إله السامري – كما جاء على لسان موسى- لأن السامري هو وحده القادر على تكليم العجل وبالتالي تسخيره لخدمته. لذا، فالعجل ليس إلها حقيقيا وذلك لأن الإله الحق هو الذي يكلّم الجميع. انتهى.

نتيجة مفتراة 1: انطلت الفكرة على القوم فظنوا أن العجل إلههم

نتيجة مفتراة 2: لم تنطلي الفكرة على موسى، فما اثبت أن العجل إله للقوم لأنه ببساطة لا يكلمهم

نتيجة مفتراة 3: لم ينفي موسى فكرة أن العجل إله للسامري لأنه ببساطة الوحيد القادر على تكليم العجل

نتيجة مفتراة مهمة جدا: العجل ليس إلها حقيقيا لأنه لا يقدر على كل شيء، لكنه كان (نحن نتخيل) قادرا على أشياء محددة بعينها

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن التكليم مبني على مبدأ إرجاع القول، وهو ما يعني - بمفرداتنا ربما غير الدقيقة - حصول الاستجابة. فالإله الحق هو الذي يكلم عباده لأنه يستجيب لقولهم.

الدليل

دعنا ندقق في الآيات الكريمة التالية التي تشير أن الله لن يكلم مجموعة ممن خلق في يوم القيامة:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٧٤﴾ [البقرة: 174]

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٧﴾ [آل عمران: 77]

السؤال: كيف نفهم أن الله لن يكلم مجموعة من الناس في يوم القيامة وفي الوقت ذاته نجد الآيات التالية تصور حدوث الحوار الذي سيجري هناك:

- ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأۡتِينَا فَرۡدٗا ٨٠﴾ [مريم: 80]
- ﴿وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ٩٥﴾ [مريم: 95]

السؤال: لِمَ سيأتي كل الناس (مؤمنهم وكافرهم) الله فردا؟ ألن يحصل حوار بين الإله من جهة وهؤلاء الناس من جهة أخرى؟

ثم، دعنا ندقق في الآيات الكريمة التالية التي تبين أن كل نفس تأتي يوم القيامة لتجادل عن نفسها:

- ﴿۞ يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١١١﴾ [النحل: 111]

السؤال: مع من ستحصل المجادلة؟ ألن يجادلوا الله حينئذ؟

- ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ١٠٩﴾ [النساء: 109]

مادام أنه لن يجادل عن هؤلاء أحد يوم القيامة، ومادام أن كل نفس ستجادل عن نفسها، فكيف إذا سنفهم أن الله لن يكلمهم يوم القيامة؟

ولو دققنا في الآيات الكريمة التالية، لوجدنا على الفور أن هناك حوار يحصل بين هؤلاء الذين في النار مع ربهم:

- ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ٣٨﴾ [الأعراف: 38]
- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ٢٩﴾ [فصلت: 29]

السؤال مرة أخرى: كيف نفهم أن الإله لن يكلم هؤلاء في الآخرة وفي الوقت ذاته نجد أن كثيرا من الآيات تبيّن حصول الحوار بالقول بين هؤلاء وربهم؟

جواب مفترى: نحن نظن أنه سيكون هناك تواصل بين جميع الخلق والخالق في يوم الدين، لكننا نؤمن في الوقت ذاته أن الله لن يكلم بعض هؤلاء.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن هناك فرق بين التحاور بالقول والتكليم.

السؤال: وما الفرق بينهما؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن من أساسيات التكليم هو الاستجابة. لذا، نحن نفتري الظن (ربما مخطئين) بأن الله لن يكلم بعض المحاورين في الآخرة بالرغم من حصول المحاورة لهم، وذلك لأنه لن يستجيب لطلبهم بالرغم من محاورتهم. فالذين طلبوا من الله أن يضاعف عذاب الذين أضلوهم، لن تحصل الاستجابة لطلبهم، وذلك لأن الأمر محسوم من ذي قبل: لكل ضعف. فسواء طلب هؤلاء مضاعفة العذاب للذين أضلوهم أم لم يطلبوا، فذاك لن يزيد في الأمر ولن ينقصه منه شيئا:

- ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ٣٨﴾ [الأعراف: 38]
- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ٢٩﴾ [فصلت: 29]

ولتدليل على صحة ما نفتريه من عند أنفسنا عن ارتباط الاستجابة بالتكليم، دعنا نقرأ ما جاء في الآية الكريمة التالية على لسان الذين لا يعلمون:

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ١١٨﴾ [البقرة: 118]

فهم (أي الذين لا يعلمون) يطلبون أن يكلمهم الله أو أن يأتيهم بآية، ليستدلوا بذلك على وجود الإله. ليكون السؤال هو: ماذا يقصد هؤلاء بأن يكلمهم الله (لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ)؟ هل يطلبون الحوار المباشر مع الإله نفسه؟

ولو تفقدنا آيات التكليم في مواضع متعددة من كتاب الله، لوجدناها تبين لنا بأن التكليم مرتبط بحصول الاستجابة للسؤال المطروح. ولنحاول تقديم بعض الأمثلة التوضيحية. فهذه مريم مثلا قد طُلب منها الصوم للرحمن بأن لا تكلم اليوم إنسيا:

- ﴿فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ٢٦﴾ [مريم: 26]

لذا، عندما أتت قومها تحمل المسيح، كان سؤال القوم الموجه لها مباشرة على النحو التالي:

- ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ٢٧ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ٢٨﴾ [مريم: 27-28]

السؤال: هل أجابت مريم على سؤالهم؟

رأينا المفترى: نحن نفهم (ربما مخطئين) أن مريم لم تجب على تساؤلاتهم الموجهة لها، وذلك لأنها ببساطة لم تقل لهم من أين أتت بهذا الصبي الذي تحمله، وجل ما فعلت هو أنها أشارت إليه:

- ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِۖ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ٢٩﴾ [مريم: 29]

فمن الذي تكلم مع القوم؟ ومن الذي أجاب على تساؤلاتهم، فأسكتهم، عندما قال:

- ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ٣١﴾ [مريم: 30-31]

فالذي كلّم قوم مريم هو ابنها المسيح نفسه، لذا جاء قول الحق:

- ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٤٦﴾ [آل عمران: 46]

السؤال: كيف نفهم أن عيسى كان يكلم الناس في المهد وكهلا؟

رأينا المفترى: نحن نرى بأن عيسى بن مريم لم يكن إلا كلمة الله التي ألقاها إلى مريم:

- ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ١٧١﴾ [النساء: 171]

لذا كان (نحن نتخيل) قادرا أن يستجيب لطلب كل من هم حوله حينئذ. فلو طلب الناس منه شيئا محددا بعينه، لاستجاب لطلبهم على الفور، وليس أدل على ذلك من قدرته على إحياء الموتى وشفاء الأكمة والأبرص، وقدرته كذلك على أن ينبئهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم،.

نتيجة مفتراة: نحن نفتري الظن بأن عيسى كان الوحيد من بين رسل الله جميعا القادر على تكليم الناس، وذلك لأنه يستطيع تنفيذ طلبهم في الحال.

السؤال: هل نجد في كتاب الله رسولا غير المسيح عيسى بن مريم كان قادرا على تكليم الناس على الدوام؟

جواب مفترى: كلا وألف كلا. فحتى محمد لم يكن قادرا على تكليم الناس، لأنه لا يستطيع تنفيذ بعض طلباتهم في الحال. فعندما طلب القوم منه ما جاء في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝٩٠ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ۝٩١ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۝٩٢ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ۝٩٣﴾ [الإسراء: 90-93]

ما كانت ردة فعله إلا نحو: قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا.

ولو حصل أنه كلمهم في أمر ما، فاستجاب لطلبهم، فتلك إذن قدرة محددة بظرف الزمان والمكان حينئذ، لكنها بكل تأكيد ليست مطلقة كقدرة المسيح عيسى بن مريم.

السؤال: لماذا؟ أي لماذا كانت قدرة الرسل جميعا على تكليم الناس محددة بظروف الزمان والمكان بينما كانت قدرة المسيح عيسى بن مريم مطلقة؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن السبب في ذلك يعود إلى أن كلام عيسى بن مريم كان كلاما مباشرا (بصيغته الإلهية المباشرة) بينما كان كلام غيره كلاما غير مباشر (بصيغته البشرية). (للتفصيل انظر سلسلة مقالاتنا تحت عنوان: كيف تم خلق عيسى بن مريم؟)

السؤال: كيف كان عيسى قادرا على تكليم الناس في المهد وكهلا؟

رأينا المفترى: نحن نرى أن هذا السؤال يدفعنا أن نحاول فهم ماهية عيسى بن مريم، لذا سننتقل إلى الباب الثاني من النقاش وهو باب عيسى بن مريم.

باب عيسى بن مريم

نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأنه مادام أن عيسى كان قادرا على تكليم الناس، فهو كان إذا (نحن نفهم ربما مخطئين) يستطيع أن يستجيب لطلبهم على الفور، وليس أدل على ذلك مما كان عيسى قادرا على فعله كما تصور ذلك الآيات الكريمة التالية:

- ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٤٩﴾ [آل عمران: 49]

لذا فقد كان عيسى (نحن نفتري الظن) قادرا على إحداث ما يسميه العامة بالمعجزات على مرأى من الناس ومسمعهم.

السؤال: كيف كان عيسى قادرا على ذلك؟

رأينا المفترى: لو تدبرنا هذه الآية، لوجدنا أن عيسى كان قادرا على التالي:

⇐ يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرا (أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ)

⇐ يبرى الأكمه والأبرص (وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ)

⇐ يحي الموتى (وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ)

⇐ ينبئهم بما يأكلون (وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ)

⇐ ينبئهم بما يدخرون في بيوتهم (وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ)

السؤال: ما الذي كان يجعل عيسى قادرا على فعل ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن عيسى كان قادرا على فعل ذلك، لأنه كان يستطيع الكلام المباشر. فهو إذن (نحن نتخيل ربما مخطئين) يستخدم الصيغة الإلهية في مخاطبة الأشياء، ومادام قادرا على ذلك، فإن الأمور تتحقق له بكن فيكون. انتهى.

إن من أبسط أبجديات التفكير (نحن نرى) هو أن مخاطبة الأشياء بالكلام المحكم (غير المفصل بلسان القوم) ينتج عنه استجابة الأشياء لهذا الخطاب على الفور (للتفصيل انظر مقالاتنا تحت عنوان النظرية العالمية)، وذلك لأن هذا هو الكلام الذي تستجيب له هذه الأشياء. فعيسى لم يكن من الناس مثلنا، ولكنه كان بشرا رسولا. وقد تكلم في المهد، فنطق بما علمه الله مباشرة، فما كان لسانه هو لسان قوم من الأقوام، فهو ليس له قوم كبقية الرسل. لكن، كان له – بالمقابل- حواريون، وهم من أسندت لهم مهمة نقل كلامه (غير المفهوم عند الناس العاديين) إلى بني إسرائيل بلسانهم الذي يفهمونه، وهم من أرسل إليهم:

- ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٦﴾ [الصف: 6]

فكان الحواريون هم الذين يقومون بمهمة تفصيل كلام عيسى المباشر إلى الناس بألسنة هؤلاء القوم (أي بني إسرائيل)، وذلك بوحي مباشر من الله:

- ﴿وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ١١١﴾ [المائدة: 111]

نتيجة مفتراة: لما كان عيسى يتكلم بالكلام المحكم (غير المفصل بلسان القوم)، لم يكن يستطيع إلا أن ينطق بالحق، فكان هو نفسه كلمة الله:

- ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١﴾ [النساء: 171]

السؤال: كيف كان عيسى كلمة الله؟

رأينا المفترى: نحن نظن جازمين بأن عيسى بنفسه هو كلمة الله، وذلك لأن كلمة الله هي جزء من الكلام الإلهي المباشر، وبالتالي فهو كلمة مفعّلة، فما أن يكلّم، حتى يقع الحق:

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ٧٣﴾ [الأنعام: 73]

فعيسى يستمد كلامه من الذي قوله الحق، لذا يستحيل أن يتلكأ شيء عن الاستجابة للقول الحق.

الدليل

دعنا ندقق بما كان يفعله المسيح عيسى بن مريم بشيء من التفصيل، قال تعالى:

- ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٤٩﴾ [آل عمران: 49]

ولو أمعنا التفكر في هذه الآية، لوجدنا فيها شيء من الغرابة (كما نفهمها)، والغرابة تكمن في أن هناك أمورا محددة كان يحدثها عيسى بن مريم مرتبطة بالإذن الإلهي، بينما هناك أمور أخرى التي كان يحدثها غير مرتبطة بالإذن الإلهي المباشر. أما المرتبطة بالإذن الإلهي مباشرة فهي:

1. **الخلق**: أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ
2. **الإحياء**: وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ

أما تلك غير المرتبطة بالإذن الإلهي فهي:

1. **الإبراء**: وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ
2. **النبأ**: وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ

ليكون السؤال: هو: لماذا؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن عيسى كان قادرا على إحداث الخلق والإحياء، لكنه لم يكن ليفعل ذلك دون أخذ الإذن المسبق من الله لفعل ذلك، لكنه لا يحتاج لمثل هذا الإذن المسبق في حالتي الإبراء والنبأ.

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: نحن نظن أنه في حالتي الخلق والإحياء، يصبح لزاما على عيسى أن يكلّم، لذا نحن نظن أن عيسى ما كان ليكلم إلا أن يؤذن له. لذا، عليك أن تتخيل عزيزي القارئ عيسى وهو دائم الصمت، وما كلم إلا بعد أن يؤذن له بذلك، لأنه ما أن يكلم عيسى حتى يقع الحق على الفور. أما في حالتي الإبراء والنبأ، فهو لا يحتاج أن يكلم ليعلم ذلك، ولكنه يُحدِث فعلا دون كَلِم.

السؤال: وكيف ذلك؟ لم أفهم يسأل صاحبنا مستغربا.

رأينا المفترى: كيف يمكن أن تتخيل عيسى وقد كان يبرئ الأكمه والأبرص؟ هل تتخيله بحاجة أن يكلّم؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن ذلك غير ضروري بالنسبة للمسيح، فجل ما كان يفعله المسيح في حالة إبراء الأكمه والأبرص هو فقط أن يمسح بيده على ذلك المريض، فيتعافى، فهو أصلا مسيح، أليس كذلك؟

نتيجة مفتراة: عملية إبراء الأكمة والأبرص هي عملية يقوم بها المسيح دون الحاجة إلى أن يكلّم، وجل ما يفعله هو أن يضع يده الكريمة على المريض، فيتعافى على الفور.

السؤال: وكيف كان ينبئهم بما يأكلون وما يدخرون إذن؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن المسيح لم يكن يحتاج هنا أيضا أن يكلّم ليعلم ما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم. لذا، فهو يعلم ذلك بالفعل وليس بالكلم.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الإجابة على هذا التساؤل تتطلب التعرض بداية إلى طريقة تنقل المسيح عيسى بن مريم من مكان إلى آخر. ليكون السؤال هو: كيف كان يتنقل المسيح عيسى ابن مريم من مكان ما إلى مكان آخر؟ فهل كان يمشي على رجليه مثلنا مثلا؟

جواب مفترى: كلا، وألف كلا.

الدليل

دعنا نعيد قراءة الآية الكريمة التالية بشيء من التمحيص، قال تعالى:

- ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٧٥﴾ [المائدة: 75]

تساؤلات

⇐ ما معنى أن عيسى وأمه كانا يأكلان الطعام؟
⇐ ما الغريب في ذلك؟
⇐ أين يمكن أن ننظر لنرى كيف يبين لنا الله في ذلك الآيات؟
⇐ أين الآيات في أن عيسى وأمه كانا يأكلان الطعام؟
⇐ ما علاقة هذا بالإفك الذي افتراه الكثيرون؟
⇐ الخ.

افتراءات من عند أنفسنا: بناء على ما جاء في هذه الآية الكريمة، نحن نظن جازمين بما يلي:

⇐ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل (مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ)

⇐ وأمه صديقة (وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ)

⇐ كانا يأكلان الطعام (كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ)

⇐ وأنّ هذه جميعا آيات من الله بينها لنا (ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ)

⇐ وأنّ فيها تبيان واضح يدحض حجة الأفاكين (ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ)

السؤال: وكيف ذلك؟

أولا، أن المسيح لم يكن أكثر من رسول قد خلت من قبله الرسل، لذا فإن كل ما كان يفعله المسيح مما يسميه العامة بـ "المعجزات" لم تكن في حقيقتها أكثر من آيات دالّة على رسالته كرسول من رسل الله. وهذه الأمور لا تخرج المسيح عن نطاق أن يكون رسولا، ولا تدفع به إلى مرتبة الإلوهية كما ظن الأفاكون الذين افتروا على المسيح وبالتالي على الله الكذب.

ثانيا، أنّ أم المسيح (مريم ابنت عمران) لم تكن أكثر من صديقة. لذا، ففي قصتها آية من آيات الله التي يجب تدبرها وتبيانها للناس

ثالثا، أنّ المسيح وأمه فقط من كانا يأكلان الطعام، وفي هذه أيضا آية من آيات الله التي يجب تبيانها للناس.

رابعا، أنّ فهم هذه الآيات كما بينها الله تدحض بما لا يدع مجالا للشك دعوى الأفاكين

السؤال: وكيف ذلك؟

الباب الأول: المسيح رسول قد خلت من قبله الرسل

إن المسيح عيسى بن مريم رسول من الله قد خلت من قبله الرسل. لذا، من المتوقع أن يأتي هذا الرسول (كما جاء كل الرسل الذين سبقوه) بالآيات لتبيان صدق دعوته إلى الله الواحد الأحد. فكما جاء نوح بالبينات، وكما جاء إبراهيم وموسى بالبينات، جاء المسيح كذلك بالبينات. لذا، فإن كل ما فعله المسيح لا يخرج عن نطاق أن يكون آية من آيات الله. لكن في حين أن موسى مثلا جاء بالآية الكبرى:

- ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝٢٠﴾ [النازعات: 20]

كان المسيح بحد ذاته آية للناس:

- ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ۝٢١﴾ [مريم: 21]

فهل إذا كانت عصا موسى آية للناس، هل يجعلها مؤهلة أن تكون هي الإله نفسه؟ فكما لم يطلب موسى من الناس أن يجعلوا تلك العصا إلها من دون الله، ما طلب عيسى من الناس أن يجعلوه آية للناس:

- ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۝١١٦﴾ [المائدة: 116]

فالآية نفسها (سواء كانت عصا موسى أو الناقة أو حتى عيسى بن مريم نفسه) لا يمكن أن تكون بحد ذاتها إلها، فانظر أنى يؤفكون. فالذين اتخذوا عيسى إلها هم أنفسهم كالذين أشربوا في قلوبهم العجل:

- ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ۖ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [البقرة: 93]

فهؤلاء هم المتشبثون بالإله المادي كما طلبوا ذلك من موسى بعد أن أنجاهم الله من الغرق:

- ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأعراف: 138]

فهم قد اشربوا في قلوبهم فكرة الإله المادي المتجسد عندهم. لذا، لم يتردد الأفاكون أن ينسبوا لعيسى الإلوهية من باب أنهم يريدون إلها متجسدا كالعجل:

- ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأعراف: 148]
- ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾﴾ [طه: 88]

فكما اتخذ قوم موسى العجل الذي تجسد لهم إلها، وأشربوا ذلك في قلوبهم، اتخذ كثير من الناس المسيح إلها متجسدا.

السؤال: ما الذي وجدوه في عيسى حتى رفعوه إلى درجة الإلوهية؟

تخيلات أغرب من الخيال نفسه من عند أنفسنا (لا تصدقوها): نحن نفتري القول بأن القوم قد وجدوا من عيسى ما يجعلهم يتطيروا به لدرجة أن رفعوه إلى مرتبة الإله، والسبب في ذلك أن عيسى كان يختلف في أعينهم عن ما هو مألوف مما جعلهم يرفعوه إلى مصاف الإله.

السؤال: ما الذي وجدوه في عيسى مختلفا؟

جواب مفترى: مادام أن عيسى نفسه هو آية، لذا يجب أن ينظر إليه أنه بحد ذاته أمرا عجبا. فكل أفعاله وحركاته تبدو للمراقب خارجة عن المألوف. وأول هذه الأمور غير المألوفة للعين العادية هو – برأينا – ما جاء في الآية الكريمة التالية:

- ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [آل عمران: 45]

نعم، لقد كان عيسى وجيها في الدنيا والآخرة. فما معنى ذلك؟

تخيلات من عند أنفسنا: نحن نظن أن عيسى كله كان وجها، فليس لعيسى مقدمة ومؤخرة. لذا، يستحيل (نحن نتخيل) أن يرى أحد المسيح من الخلف، فمن أي جهة حاول أحد أن يقترب من المسيح، فسيجد أنه أمامه مباشرة. لذا، وجد الناس من حول المسيح العجب الذي تطير له الألباب. ولهذا، كان المسيح هو وحده من طلب الله شهادته يوم الدين بأنه لم يقل للناس أنه إلها من دون الله:

- ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ [المائدة: 116]

فحتى في يوم القيامة سيرتبك الناس في ماهية المسيح، فيظنون أنه إلها (لأنه وجيها في الدنيا والآخرة)، فكما تعجب الناس من أمر المسيح في الدنيا، سيتعجب الكثيرون من أمره في الآخرة. فالله هو نفسه كله وجه. لذا، قال الله:

- ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [البقرة: 115]

ففي يوم القيامة سيحصل هناك (نحن لازلنا نتخيل) إرباك للحضور بشأن عيسى بن مريم، فكثير من الناس سيظنون حينئذ أن المسيح عيسى بن مريم هو الإله عندما يرونه، لأنه ببساطه كما كان وجيها في الدنيا سيكون أيضا وجيها في الآخرة، وعندها سيأتي الطلب الإلهي المباشر من عيسى أن يبين ماهيته للجميع بأنه ما قال للناس يوما أنه إلها من دون الله، وما كان يوما إلها من دون الله:

- ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ [المائدة: 116]

ولا يتوقف العجب بأمر المسيح في الشكل فقط، بل سيتعداه إلى المأكل والملبس والحركة.

السؤال: وكيف ذلك؟

باب الطعام

تعرضنا في أكثر من مقالة سابقة لنا لهذه الجزئية، فافترينا الظن بأن عيسى ابن مريم لم يأكل يوما من طعام الأرض، لذا جاء طلب الحواريين منه بعد أن أوحى الله لهم أن يؤمنوا به وبرسوله على النحو التالي:

- ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [المائدة: 111-112]

وكان التبرير الذي قدموه ليسوغ مطلبهم هذا هو قولهم:

- ﴿قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾﴾ [المائدة: 113]

فالحواريون يطلبون أن يأكلوا مما كان يأكل منه رسولهم المسيح عيسى بن مريم، فهم يريدون أن يأكلوا من المائدة التي كان يأكل منها المسيح، فتطمئن قلوبهم لذلك، وليعلموا أن رسولهم قد صدقهم بأنه لا يأكل مما يأكلون منه، ويكونوا هم أنفسهم شهداء على ذلك للناس أجمعين. وبالفعل أنزل الله عليهم تلك المائدة بعد أن طلبها المسيح من ربه:

- ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [المائدة: 114-115]

السؤال: كيف كان يأكل المسيح مما كان ينزله الله عليه من طعام أهل السماء؟

رأينا المفترى: غالبا ما يتصور الناس أن الأكل يتم فقط بالطريقة الطبيعية التي عهدوها، لكن لو تدبّرنا ما حصل مع رسل الله يوم أن جاءوا ضيوفا في بيت إبراهيم، لربما أدركنا أنّ الأمر قد لا يكون على نحو ما يظن القارئ للنص القرآني للوهلة الأولى.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: عندما جاء رسل الله إبراهيم بالبشرى، كانت ردة فعل إبراهيم الأولى هو أن يقدم لهم الطعام، فجاءهم بعجل سمين:

- ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾ [الذاريات: 26-28]

وأول ما يمكن أن نستنبطه من هذا السياق القرآني هو أن ضيوف إبراهيم كانوا كثيرين في العدد، وإلا ربما ما دعت الحاجة أن يأتيهم بعجل سمين، ولو دققنا في الحادثة أكثر، لوجدنا أنه قد جاءهم بالعجل وهو حنيذ:

- ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾﴾ [هود: 69-70]

ويمكن أن نستنبط أيضا بأنه قد تطلّب الأمر من إبراهيم قسطا من الوقت حتى يجعل العجل حنيذ، فأقل ما يمكن أن نستنبطه من ذلك هو أن إبراهيم قد عمد إلى أن يجهز أو لنقل "يطبخ" (بمفرداتنا الدارجة المفهومة عندنا) العجل بطريقة ما حتى يكون صالحا للأكل، وذلك لأن إبراهيم ظن أن هؤلاء القوم القادمين إليهم من بعيد، (وهو لا يعرفهم بدليل أنه قد نكرهم) هم قوم عاديين. فكان لابد أن يقدّم لهم الطعام بالطريقة المعتادة التي ألفها الناس حينئذ. فلبث بعضا من الوقت في أهله يجهز الطعام لمجموعة كبيرة من الضيوف.

ولكن كانت المفاجأة التي جعلت إبراهيم يوجس منهم خيفة هو أنه قد رأى أيدهم لا تصل إلى الطعام (العجل السمين الحنيذ):

- ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ... ۝٧٠﴾ [هود: 70]

وهنا بالضبط أدرك إبراهيم أنهم ليسوا ضيوفا عاديين، وما هدأ الروع عنه حتى طمأنوه هم عن ماهيتهم:

- ﴿... نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ۝٧٠﴾ [هود: 70]
- ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَـٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ۝٧٤﴾ [هود: 74]

تساؤلات:

⇐ لماذا أوجس منهم إبراهيم خيفة؟
⇐ لماذا وصل الخوف بإبراهيم إلى درجة الروع؟
⇐ كيف رأى إبراهيم أن أيديهم لا تصل إلى العجل؟
⇐ لماذا جاء التطمين المباشر منهم لإبراهيم؟
⇐ ماذا حصل للعجل السمين الحنيذ الذي قدمه لهم؟
⇐ الخ.

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأن إبراهيم لم يكن ليوجس خيفة من القوم الذين نكرهم خاصة أنهم قد دخلوا عليه وألقوا السلام:

- ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝٢٥﴾ [الذاريات: 25]

إلا لأن الأمر جلل، فلا نظن أن الخيفة ربما تقع في قلب إبراهيم من مجرد دخول قوم منكرون عليه، فهؤلاء أنفسهم قد دخلوا على لوط ونكرهم لكنه لم يخف منهم:

- ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٦١ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝٦٢﴾ [الحجر: 61-62]

السؤال: ما الذي جعل إبراهيم فعلا يوجس منهم خيفة لدرجة الروع؟

- ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَـٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ۝٧٤﴾ [هود: 74]

جواب مفترى خطير جدا (لا تصدقوه): إنه الطعام.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: لما جاء ضيف إبراهيم، كانوا هم من دخلوا عليه بشكل مفاجئ (إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ)، فكان أول ما عملوه هو إلقاء السلام (فَقَالُوا سَلَامًا)، فرد إبراهيم السلام (قَالَ سَلَامٌ) لكنه أضاف العبارة التي تبين أنه لا يعرفهم (قَوْمٌ مُّنكَرُونَ):

- ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ۝٢٤ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝٢٥﴾ [الذاريات: 24-25]

فكان جل تفكير إبراهيم حينئذ (نحن نتخيل) أن يكشف هوية القوم، فكان ذلك بتقديم الطعام لهم:

- ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۝٢٦﴾ [الذاريات: 26]

وطلب منهم أن يأكلوا ما قدمه لهم:

- ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝٢٧﴾ [الذاريات: 27]

وهناك بالضبط أوجس إبراهيم منهم خيفة:

- ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ۝٢٨﴾ [الذاريات: 28]

السؤال: لماذا أوجس منهم خيفة هنا بالضبط؟

جواب مفترى: نحن نظن أن السبب الذي جعل إبراهيم يوجس منهم خيفة عندما قرب العجل السمين الحنيذ حينئذ هو أنه قد رأى أيديهم لا تصل إليه، وهذا جلي من الآية الكريمة التي تصور ذلك أحسن تصوير:

- ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ۝٧٠﴾ [هود: 70]

نتيجة مفتراة: نحن نفتري الظن بأن الذي جعل إبراهيم يوجس خيفة منهم هو أنه قد رأى أيديهم لا تصل إلى الطعام.

السؤال: كيف رأى إبراهيم أيدي هؤلاء (القوم المنكرون) لا تصل إلى الطعام (العجل السمين الحنيذ) الذي قدمه إليهم؟

رأينا المفترى: لقد درج الفكر الشعبي على الظن بأن أيدي الرسل لم تصل إلى الطعام، لذا لم يأكلوا منه، وهذا هو سبب فزع إبراهيم. ونحن نسأل: إذا كان معنى أيديهم لا تصل إليه "أنهم لم يأكلوا الطعام" كما درج الفكر السائد عليه، فما الغريب في ذلك؟ وكيف يجعل ذلك إبراهيم يوجس خيفة منهم؟ فهل إذا جاءك ضيوف ورفضوا الأكل من الطعام، فهل يسبب ذلك الخيفة منهم؟

رأينا المفترى: كلا وألف كلا. لذا دعنا (كعادتنا) نقلب الصورة رأسا على عقب، ونطلب من القارئ الكريم أن يتخيل الموقف بطريقة أخرى، نظن أنها ربما غير مسبوقة.

السؤال: وكيف ذلك؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن القوم قد أكلوا العجل كله، فما أبقوا منه شيئا. انتهى.

السؤال: وكيف ذلك؟ هل جننت؟ كيف تزعم أنهم قد أكلوا العجل كله والنص القرآني يثبت أن أيديهم لم تصل إليه؟

جواب مفترى خطير جدا: نعم. نحن نظن - ببساطة شديدة- أن القوم المنكرين قد أكلوا الطعام المقدم لهم كله فما أبقوا منه شيئا ولكن دون أن يستخدموا أيديهم. فما أن قدم إبراهيم لهم العجل السمين حنيذا حتى شكل أولئك الضيف دائرة حول الطعام، فكان الطعام في منتصف مكان الضيافة بالضبط كما يحصل عادة في حالة تقديم الطعام للضيف، ولكن لأنهم كانوا قوما (أي مجموعة كبيرة من الرجال) شكلوا دائرة حول ذلك الطعام. كما في الشكل التوضيحي التالي:



وحينها رأى إبراهيم العجب منهم، فهؤلاء قوم لا يأكلون كما يأكل الضيف من الناس العاديين، فالناس (الطبيعيون) يتناولون الطعام المقدم لهم بأيدهم، لكن هؤلاء (نحن لا زلنا نتخيل) لم يكونوا يستخدمون أيديهم للوصول إلى الطعام، فقد كان الطعام يصل إلى أفواههم لكن دون الحاجة لأن يمدوا أيديهم إليه. كان نتخيل بأن الطعام المقدم للضيف لا يؤكل كله خاصة إذا كان لحما (كالعجل الحنيذ)، لأن فيه الشحم واللحم والعظام، فأغلب الناس لا يأكلون الشحم ولكنهم يأكلون اللحم، وكل الناس لا تأكل العظام. لكن ما راءه إبراهيم من هؤلاء القوم المنكرون هو أنهم أكلوا كل شيء، وهو - برأينا- منظر يدخل الخوف في نفس كل من يراه حتى وإن كان إبراهيم نفسه. وهذا - برأينا- ما جعل إبراهيم يوجس منهم خيفة لدرجة الروع. فتناول القوم الطعام المقدم لهم كله، لكن دون الحاجة لاستخدام أيديهم كالناس العاديين، وهنا كان لزاما أن يطمئنوا إبراهيم بأنهم ليسوا ضيوفا عاديين، وأنهم قد جاء بمهمة عظيمة بأمر من ربهم:

- ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ٧٠﴾ [هود: 70]

والمهمة هي تدمير القوم المجرمين من قوم لوط، فما كان سؤال إبراهيم حينئذ إلا على النحو التالي:

- ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ٥٧﴾ [الحجر: 57]
- ﴿۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ٣١﴾ [الذاريات: 31]

فجاء ردهم على النحو التالي:

- ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ٥٨﴾ [الحجر: 58]
- ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ٣٢ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ٣٣ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ٣٤﴾ [الذاريات: 32-34]

تلخيص ما سبق

عندما جاء المرسلون إبراهيم، فكانوا ضيفا مكرمين، ما كانت ردة فعل إبراهيم الأولى إلا أن ينكرهم، فقد أدرك إبراهيم على الفور أن هؤلاء القوم ليسوا قوما عاديين، وحتى يستكشف إبراهيم ماهية القوم الذين قدموا إليهم فجأة دون إنذار مسبق، كان عليه أن يجري اختبارا لكشف هويتهم كعادته، فكان فحص الطعام. ولو عدنا إلى إبراهيم في سابق عهده، لوجدنا أن إبراهيم قد استخدم هذا الاختبار من ذي قبل مع آلهة قومه:

- ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ٩١ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ٩٢ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ٩٣﴾ [الصافات: 91-93]

فلما وجد أن آلهة القوم لا يأكلون ولا ينطقون، راغ عليهم ضربا باليمين. وعندما قدم إليه ضيفه المكرمون، فعل الفعل ذاته، فقدم لهم الطعام، ونطق بالعبارة نفسها:

- ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ٩١﴾ [الصافات: 91]

والتطابق العجيب واضح في حالة تقديم الطعام لهؤلاء الضيف:

- ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ٢٧﴾ [الذاريات: 27]

ولو أن هؤلاء الضيف رغبوا عن أكل الطعام، لما تردد إبراهيم (نحن لازلنا نتخيل) أن يروغ عليهم ضربا باليمين كما فعل مع الآلهة التي قدم لها الطعام سابقا فما أكلته. ولكن لمّا تناول هؤلاء الضيف الطعام، وأكلوه كله دون أن يستخدموا أيديهم، عندها أوجس إبراهيم منهم خيفة، لأنه علم يقينا أن هذه ليست آلهة مادامت أنها تأكل الطعام، لكنهم لا شك في مهمة عظيمة، فكان أول سؤال سأله لهم هو:

- ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ٥٧﴾ [الحجر: 57]
- ﴿۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ٣١﴾ [الذاريات: 31]

فتحدث معهم بصيغة الملاطفة (قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ) لأنه علم أنهم مرسلون في مهمة (أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ).

نتيجة مفتراة: إن ما يهمنا في هذا الطرح الذي نظن جازمين أنه ربما غير مسبوق هو الخروج بالنتيجة المفتراة التي مفادها أن الإله لا يأكل الطعام. ولو حاولنا أن نربط هذا بما كان من أمر المسيح عيسى بن مريم، لربما حقّ لنا أن نستنبط بأن المسيح وأمه لم يكونا إلهين من دون الله لأنهما ببساطة كانا يأكلان الطعام:

- ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٧٥﴾ [المائدة: 75]

فهذه إذا آية من آيات الله التي بيّنها لنا، ومفادها بأن من كان إلها من دون الله، فهو إذن ممن لا يأكلون الطعام. لذا، مادام أن المسيح وأمه كانا يأكلان الطعام، فيستحيل إذن أن يكونا آلهة من دون الله.

لكن ما يميز المسيح عن غيره في أكل الطعام هو أن طعامه لم يكن يجنى له من الأسواق، والدليل على ذلك أن جميع الرسل الآخرين كانوا يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، قال تعالى:

- ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ۝٢٠﴾ [الفرقان: 20]

نتيجة مفتراة 1: كل الرسل كانوا يأكلون الطعام
نتيجة مفتراة 2: كل الرسل كانوا يمشون في الأسواق
نتيجة مفتراة 3: طعام جميع الرسل (باستثناء المسيح) كان يجبى من الأسواق
نتيجة مفتراة مهمة خطيرة جدا: مادام طعام الرسل كان يجبى من الأسواق، لذا فهم كانوا بحاجة أن يشربوا الماء
نتيجة مفتراة 4: المسيح كان يأكل الطعام
نتيجة مفتراة 5: المسيح لم يكن يمشي في الأسواق
نتيجة مفتراة 6: طعام المسيح لم يكن يجبى من الأسواق
نتيجة مفتراة 7: طعام المسيح كان يأتيه من السماء
نتيجة مفتراة خطيرة مهمة جدا: مادام طعام المسيح كان يأتيه من السماء، فهو لا يحتاج أن يشرب الماء
نتيجة مفتراة خطيرة جدا: مادام أن طعام جميع الرسل (باستثناء المسيح) كان يجبى من الأسواق، فهو طعام من طعام أهل الأرض، لذا فهو يتطلب استخدام الخلاء (الحمام)
نتيجة مفتراة خطيرة جدا: مادام أن طعام المسيح لم يكن يجبى من الأسواق، وكان ينزل من السماء، لذا فهو لا يتطلب استخدام الخلاء (الحمام)

تخيلات غاية في الغرابة: مادام أن الناس جميعا قد خُلقوا من طين، فإن مادة الطين تتكون من التراب والماء، لذا نحن بحاجة على الدوام إلى الماء ليبقى الجسم طينا، فعدم تناول الماء يسبب لنا الجفاف، وبالتالي الموت. لكن لما كان المسيح ليس مخلوقا من طين وإنما من تراب فقط، فهو لا يحتاج إلى الماء. قال تعالى:

- ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٥٩﴾ [آل عمران: 59]

فعيسى (كمثل آدم) في حالته الأولى مخلوق من تراب (خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ)، لذا كان يأكل ولم يكن يشرب.

ولو تدبرنا ما كان من أمر آدم وزوجه في الجنة الأولى، لوجدنا أن الأمر قد جاء لهما بالأكل فقط، فما كانا بحاجة أن يشربا، قال تعالى:

- ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٥﴾ [البقرة: 35]

السؤال: لماذا برر الحواريون طلبهم من عيسى بأنهم يريدون أن تطمئن قلوبهم:

- ﴿قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ١١٣﴾ [المائدة: 113]

نتيجة مفتراة: نحن نظن أن الحواريين كانوا يريدون أن يتحققوا بأنفسهم بأن عيسى لا يأكل من طعام الأرض، وبالتالي لا يحتاج أن يشرب، وبالتالي لا يحتاج أن يستخدم الخلاء.

السؤال: كيف يمكن إذن أن نتصور المسيح عيسى بن مريم؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نتخيل المسيح (كبشر) مخلوق من تراب، لكنه في الوقت ذاته هو كلمة الله وروح منه، لذا، فهو يأكل الطعام كبشر (كمثل آدم)، لكنه لا يشرب الماء ولا يستخدم الخلاء. فكان وجيها في الدنيا والآخرة.

السؤال: كيف كان يتنقل من مكان إلى آخر؟

رأينا المفترى: نحن ننفي جملة وتفصيلا أن يكون المسيح ممن يمشون على أرجلهم. فجميع المرسلين (باستثناء عيسى) كانوا يمشون في الأسواق:

- ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي ٱلْأَسْوَاقِۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٖ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ٢٠﴾ [الفرقان: 20]

ولو دققنا في هذه الآية الكريمة، لوجدنا أنها لا تشمل جميع المرسلين بدليل قوله تعالى (وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ)، ولو كانت الآية تشمل جميع المرسلين السابقين لمحمد، لربما جاءت الآية دون أداة التبعيض مِنَ (كما يحب أهل اللغة تسميتها) على النحو التالي:

- ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ ... ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ٢٠﴾ [الفرقان: 20]

فلو جاءت على هذا النحو، للزم علينا أن نفهم أن جميع المرسلين (بمن فيهم عيسى) كانوا يمشون في الأسواق. لكن لما جاءت الآية على نحو (وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ) وجب استثناء بعضهم من أكل الطعام والمشي في الأسواق. لكن لما أثبتت آية أخرى الأكل لعيسى بن مريم:

- ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٧٥﴾ [المائدة: 75]

كان ما يميّز عيسى عن جميع الرسل الآخرين هو - برأينا- أنه لم يكن يمشي بالأسواق.

السؤال: فكيف إذن كان يتنقل من مكان إلى آخر؟

باب اللباس (وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞ)

رأينا المفترى: من أجل فهم كيفية تنقل المسيح، وجب علينا أن نطرح سؤالا آخر وهو: ماذا كان يلبس المسيح؟ فهل كان يلبس كغيره في ذاك الزمان؟

رأينا المفترى: كلا، وألف كلا.

السؤال: ماذا كان يلبس إذن؟ يسأل صاحبنا مرة أخرى متعجلا الإجابة.

رأينا المفترى: إن هذا السؤال يعيدنا على الفور إلى يوم مولد المسيح عيسى بن مريم. فأمه قد حملته في الحجاب:

- ﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ١٧ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ١٨ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ١٩﴾ [مريم: 17-19]

وما حملته حتى اتخذت من أهلها مكانا قصيا، وهناك جاءها المخاض، ووضعت المسيح:

- ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾ [مريم: 22-23]

السؤال: مادام أن مريم قد وضعت الغلام الزكي، ألم يكن من الطبيعي أن تلبسه ليستر جسمه؟ فها هي تحمله وتعود إلى قومها، فما نجد إلا أنه في المهد صبيا:

- ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾ [مريم: 29]

السؤال: كيف عرف القوم أن ما تحمله مريم في المهد هو صبيا؟ هل فعلا كانت له سوءة (عورة) دالة على جنسه؟ هل من المتوقع أن تكون مريم قد عادت به لا يحفظ جسمه غطاء؟

جواب مفترى: كلا، وألف كلا. لقد كان المسيح في المهد، لذا كان مغطى جسمه بغطاء يستره، فماذا كانت ماهية ذلك اللباس؟

تخيلات أغرب من الخيال نفسه: نحن نظن أن ما كان يعطي يجسم المسيح هو بعض ما جاء في الآية الكريمة التالية:

- ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأعراف: 26]

لو تدبرنا هذه الآية جيدا، لوجدنا بأن الله قد أنزل على بني آدم لباسين اثنين فقط هما: لباسا يواري سواتنا وريشا. لكن هناك لباس ثالث لا أظن أنه خاص ببني آدم وهو لباس التقوى الذي هو - لا شك- خير.

ليكون السؤال الأول هو: ما هو لباس التقوى؟ وكيف يكون لباس التقوى هو خير؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن لباس التقوى هو اللباس الذي كان يلبسه آدم وزوجه في الجنة ليقيه من الشيطان. انتهى.

لذا، كانت مهمة الشيطان الأساسية هو أن ينزع عن آدم وزوجه ذلك اللباس، ليكونا هدفا سهلا له:

- ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ۗ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف: 27]

ولما كان عيسى هو كلمة الله وروح منه، كان لزاما أن يكون في مأمن من الشيطان، فلا يقع في فتنته، لذا كان الذي يمنع وصول الشيطان إليه هو لباس التقوى. انتهى.

السؤال: من أين جاء لعيسى ذلك اللباس؟

جواب مفترى أغرب من الخيال: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن اللباس الذي كان يلبسه المسيح هو لباس التقوى الذي يقيه من وصول الشيطان إليه، وهو نفسه بعض اللباس الذي نزعه الشيطان عن آدم وزوجه. ففي حين أن لباس آدم (نحن لازلنا نتخيل) قد وصل إلى إبراهيم، وهو نفسه الذي انتقل إلى يوسف، فكان قميص يوسف، كان اللباس الذي وصل إلى المسيح هو لباس زوج آدم. انتهى.

الدليل

سكن آدم وزوجته جنة المأوى، فكانا يلبسان ما يقيهما من ضر الشيطان، فما كان الشيطان يستطيع إحداث الضرر فيهما، وذلك لأن هناك ما يقيهما من ضره، فكان أداة الوقاية هو اللباس الإلهي الذي ألبسه الله إياهما، وهو لباس التقوى الذي هو لا شك خير. ونحن نفتري أن لباس التقوى هو لباس مادي لكن هدفه الأول والأخير هو الوقاية (خاصة الوقاية من الشيطان). فكلمة تقوى مشتقة من التقية:

- ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [النحل: 81]

فالهدف من وجود السرابيل هو الوقاية (تَقِيكُمُ)، وهي وقاية من أمرين اثنين: الحر (تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ) والبأس (تَقِيكُم بَأْسَكُمْ). ولو دققنا في النص القرآني على مساحته أكثر، لوجدنا أن من مفردة تَقِيًّا التي ترد في الآية الكريمة التالية هي من مشتقات التقوى أيضا:

- ﴿قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾ [مريم: 18]

فمريم تعوذ بالرحمن من هذا الواقف أمامها في الحجاب إن كان تَقِيًّا. وقد افترينا القول في مقالات سابقة لنا بأن تَقِيًّا هنا ليست مرتبطة بالإيمان كما ظن الكثير من قبلنا، وإنما مرتبطة (نحن نرى) بالتقية، أي التخفي، والإيمان الحقيقي هو الذي يتحقق منه التقوى، أي عمل الخيرات دون معرفة الآخرين بذلك.

فالمتقي هو الذي ينفق سرا، والمتقي هو الذي يخاف ربه سرا كما يخافه علانية. والمتقي هو الذي يحاسب نفسه قبل أن يحاسب عليها، وهكذا.

لذا، من كان واقفا أمام مريم حينئذ (نحن نظن) قد كان تَقِيًّا، أي أنه لم يكن ليرى من قبل الآخرين، فمريم فقط من تمثل لها:

- ﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾ [مريم: 17-18]

فحتى لو تواجد أناس هناك في المكان الذي كانت فيه مريم (أي الحجاب)، لما استطاعوا رؤية رسول ربها هذا، وذلك لأنه كان تَقِيًّا ، أي لا يري إلا من قبل من يتمثل له أو لها.

السؤال: لماذا لا يمكن رؤيته؟

رأينا المفترى: لأنه كان تقيا.

السؤال: وما الذي يجعله تقيا؟

رأينا المفترى، لأنه كان يلبس لباس التقوى.

السؤال: وما علاقة هذا بلباس المسيح عيسى بن مريم؟

رأينا المفترى: عندما وضعت مريم المسيح في المكان الذي هو قصيا، كانت (نحن نتخيل) تتواجد لوحدها. فكان لزاما عليها أن تتدبر كيفية أن تغطي جسم طفلها. فما الذي فعلته مريم من أجل ذلك؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن مريم كانت تلبس لباس التقوى، وهو السبب الذي كان يجعلها دائمة المكوث في المحراب. ليكون السؤال هو: هل كان مكوثها في المحراب على الدوام؟ ألم تكن تستخدم الخلاء (الحمام)؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: كلا، وألف كلا. نحن نظن أن مريم لم تكن تستخدم الخلاء، وذلك لسببين اثنين وهما: أنها كانت تأكل من أكل السماء، ولأنها كانت تلبس لباس التقوى. فما كان الشيطان يستطيع الوصول إليها. انتهى.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: إن هذا الظن يعيدنا (نحن نرى) إلى قصة مريم من أولها.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: تبدأ قصة مريم عندما نذرت أمها لله ما في بطنها، فقالت:

- ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ٣٥﴾ [آل عمران: 35]

فكانت الاستجابة الإلهية الفورية على النحو التالي:

- ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ٣٧﴾ [آل عمران: 37]

تساؤلات

- ⇐ لماذا تقبلها الله على الفور؟
- ⇐ وكيف أنبتها نباتا حسنا؟
- ⇐ ولماذا كفلها زكريا على وجه التحديد؟
- ⇐ وما الذي وجده زكريا من أمر مريم عندما كفلها الله إياها؟
- ⇐ الخ.

السؤال: لماذا يتقبل الله من البعض ولا يتقبل من الآخرين؟

جواب مفترى: لو دققنا في الآية الكريمة التالية، لوجدنا أن الله لا يتقبل إلا من المتقين:

- ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٧ ﴾ [المائدة: 27]

السؤال: لماذا تقبل الله من امرأت عمران؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن امرأت عمران كانت من المتقين.

السؤال: كيف ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن أنه من أجل الإجابة على مثل هذا التساؤل، فلابد من عقد مقارنة بين مريم من جهة وموسى من جهة. فنحن نظن أن مريم هي صورة مطابقة لموسى في الظروف والأحوال.

السؤال: وكيف ذلك؟

افتراءات مبدئية: تقابلات

مريم	موسى
- أنثى	- ذكر
- ابنت عمران	- ابن عمران
- أخت هارون	- أخوه هارون
- لم يكن أبوها حاضرا	- لم يكن أبوه حاضرا
- تربت مكفولة	- تربى مكفولا
- كانت دائمة التواجد في المحراب	- كان يدخل يده فتخرج بيضاء من غير سوء
- الخ	- الخ

السؤال: كيف كان موسى يدخل يده في جيبه تخرج بيضاء من غير سوء؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن بأن موسى كان يدخل يده في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء وذلك لأنه كان يلبس القميص. انتهى.

السؤال: من أين جاء قميص موسى؟

جواب مفترى: عندما وجدت أم موسى أنه من الصعب عليها أن تبقي طفلها في بيتها متواريا عن أنظار فرعون وقومه، جاءتها النجدة الإلهية بالتابوت:

- ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ۝٣٨ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ۝٣٩﴾ [طه: 38-39]

فكانت النتيجة أن التقطه آل فرعون:

- ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ۝٨﴾ [القصص: 7-8]

فتربى فيهم سنين من عمره:

- ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ۝١٨﴾ [الشعراء: 18]

وهناك (في آل فرعون) حصل موسى عل إرث النبوة الذي كان متواجدا في آل فرعون حتى الساعة، فكانت العصا وكان القميص.

وفي ذلك التابوت كان هناك بقية مما ترك آل موسى وآل هارون:

- ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٢٤٧﴾ [البقرة: 247]

وفي ذلك التابوت كان القميص الذي انتهى إلى بيت عمران، وهناك بالضبط (نحن نتخيل) ألبست أم مريم ما وضعت (مريم) ذلك القميص، فكانت صديقة:

- ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٧٥﴾ [المائدة: 75]

ولو تدبرنا القرآن الكريم عن هذه المفردة (صِدِّيقَةٌ) بالذات، لوجدنها قد ارتبطت بأربعة أشخاص فقط وهم: إدريس:

- ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ۝٥٦ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾ [مريم: 56-57]

وإبراهيم:

- ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ۝٤١﴾ [مريم: 41]

ويوسف:

- ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ۝٤٦﴾ [يوسف: 46]

ومريم:

- ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ۝٧٥﴾ [المائدة: 75]

ليكون السؤال الآن هو: ما الذي يجعل هؤلاء الأربعة على وجه التحديد صديقين:

رأينا المفترى: نحن نظن أن الرابط بين هؤلاء الأربعة على وجه التحديد هو اللباس.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: لو عدنا إلى قصة إدريس، لوجدنا أنه (نحن نفتري القول) ولد آدم المقتول الذي قتله أخوه إسرائيل. فقد نشب خلاف بين الأخوين، فكان إدريس هو الصديق. ولو عدنا إلى قصة إبراهيم، لوجدنا أن قومه قد حرقوه، فأنجاه الله من النار، فكان صديقا. ولو عدنا إلى قصة يوسف، لوجدنا أن قصة القميص هي المحرك الأساسي للقصة من أولها إلى آخرها، فكان صديقا، ولو عدنا إلى قصة مريم، لوجدناها صديقة.

السؤال: كيف يمكن تفسير ذلك؟

رأينا المفترى: ما كانت مريم صديقة، إلا لأن الله قد اصطفاها وطهرها واصطفاها على نساء العالمين:

- ﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٢﴾ [آل عمران: 42]

فكانت آلية طهارتها (من المحيض) تتمثل بذلك القميص الذي يسترها.

وكذلك حصلت الطهارة لإدريس بذلك القميص، فما باء بالإثم بذلك القميص، فرفعه الله مكانا عليا:

- ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ [مريم: 56-57]

وكذلك طهر الله إبراهيم من الشيطان. فقد كان إبراهيم في قومه سقيما:

- ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الصافات: 89-90]

فحصلت له الطهارة بلباس التقوى (ذلك القميص).

وكذلك أبعد الله رجس الشيطان عن يوسف ببرهان ربه (ذلك القميص).

السؤال: كيف وصل هذا القميص (لباس التقوى) إلى مريم؟

جواب مفترى: لما كانت مريم من آل عمران، فقد كانت هي الوريثة الشرعية لتلك البقية التي كانت في ذلك التابوت:

- ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾ [البقرة: 247]

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن ذلك التابوت وما كان فيه من البقية من آل موسى وآل هارون قد انتهى في بيت عمران. فكان القميص فيه.

السؤال: من أين جاء ذلك القميص؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن ذلك مما ترك آل موسى وآل هارون.

السؤال: من أين حصل عليه آل موسى وآل هارون؟

جواب مفترى: نحن نظن أن ذلك مما كان موجودا في بيت فرعون من إرث النبوة التي تركها يوسف في أرض مصر.

السؤال: كيف وصل إرث النبوة إلى آل فرعون؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن هذا السؤال يدعونا على الفور إلى فتح ملف فرعون كله من جديد، لنحاول النبش فيه، علّنا نجد في ذلك شيء من آثارة من علم، ربما توضح لنا (بحول الله وتوفيقه) ما جرى على أرض الواقع في تلك الأمم التي خلت من قبلنا. فالله وحده ندعوه أن يأذن لنا بشيء من علمه في

ذلك، وأن يعلمنا ما لم نكن نعلم وأن يزدنا علما، إنه هو السميع البصير. وأعوذ به وحده أن يكون أمري كأمر فرعون، إنه هو السميع العليم، آمين.

أما بعد،

باب فرعون

لعل السؤال المبدئي الأول الذي وجب طرحه الآن هو كيف وصل فرعون إلى سدة الحكم على أرض مصر؟

رأينا المفترى: لقد تعرضنا لهذه الجزئية في مقالات سابقة لنا في قصة موسى، وافترينا الظن حينئذ بأن النص القرآني (كما نفهمه بالطبع) يصور لنا شخصيتين اثنتين تحت مسمى فرعون مصر، فهناك فرعون الذي تربى موسى في كنفه (انظر مقالتنا تحت عنوان قصة موسى: فرعون الطفولة)، وهذا الفرعون هو في الأساس عدو لله وعدو لموسى بصريح اللفظ القرآني:

- ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ۝٣٨ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ۝٣٩﴾ [طه: 38-39]

فهذا الفرعون على وجه التحديد هو عدو الله وعدو موسى، وهو نفسه الذي وافق على طلب امرأته بأن لا يقتلوا موسى، وذلك لأنها طمعت في أن يكون في ذلك منفعة لها ولفرعون أو أن يتخذاها ولدا:

- ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾ [القصص: 9]

والنتيجة المهمة التي نطلب من القارئ الكريم التركيز عليها هنا هي أن هذا الفرعون كان غير قادر على الإنجاب، وذلك لأنه وافق على طلب امرأته بالإبقاء على حياة موسى، ولو كان للمرأة وبعلها فرعون ذرية لما دعت الحاجة إلى اتخاذ ذاك الطفل مجهول النسب ولدا حينئذ.

لكن - بالمقابل- كان هناك فرعون آخر وصل إلى الحكم بعد موت الفرعون الأكبر، وهو (نحن نظن) الذي جاءه موسى رسولا من رب العالمين (انظر مقالتنا تحت عنوان قصة موسى: فرعون الرسالة)، فطلب الله منهما أن يقولا قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى:

- ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ۝٤٢ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۝٤٤﴾ [طه: 42-44]

فهذا الفرعون هو الذي جاءه موسى بالرسالة.

السؤال: كيف وصل كلا من هذين الفرعونين إلى سدة الحكم على أرض مصر؟

جواب مفترى: بداية، يجب أن يقتنع القارئ الكريم بأن الفرعون الثاني لم يكن وريثا شرعيا للفرعون الأول، وذلك لأن الفرعون الأول (نحن نرى) لم يكن له أصلا ذرية من صلبه. ليبقى السؤال نفسه قائما: كيف وصل كل منهما إلى سدة الحكم؟

الباب الأول: الفرعون الأول

تخيلات مبدئية غير مدعومة بالدليل: نحن نطلب من القارئ الكريم أن لا يأخذ كلامنا كله على محمل الجد، فنحن سنحاول تقديم سيناريو محتمل من بنات أفكارنا (ربما الخاطئة) عن ما حصل على أرض الواقع حينئذ. لذا، نحن نطلب من القارئ إن أراد المضي قدما في القراءة أن يبحث عن هفوات في الطرح أكثر من أخذ الكلام على غاربه. والله وحده نسأل أن يؤتينا جميعنا رشده، ونعوذ به أن يكون أمرنا كأمر فرعون، وما أمر فرعون برشيد.

أما بعد،

لو عدنا إلى قصة مصر في القرآن الكريم، لوجدنا بأنها تبدأ مع رحلة يوسف الذي طرحه إخوته أرضا، فانتهى به المطاف في أرض مصر:

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِى مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢١﴾ [يوسف: 21]

وهناك بدأت خيوط قصة يوسف تتشابك، وانتهت بأن أصبح يوسف عزيزها:

- ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٧٨﴾ [يوسف: 78]

(للتفصيل انظر سلسلة مقالاتنا تحت عنوان: قصة يوسف).

لكن ما يهمنا طرحه هنا هو أن الذي كان يحكم مصر حينئذ هو الملك بدليل قوله تعالى:

- ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِى بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِىۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ٥٤﴾ [يوسف: 54]

وهناك حصل التمكين ليوسف في الأرض:

- ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ٥٥ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦﴾ [يوسف: 55-56]

وما أن مُكّن ليوسف في أرض مصر حتى طلب يوسف من إخوته الذين قدموا أرض مصر من البدو أن يأتوه بأهلهم أجمعين:

- ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩٣﴾ [يوسف: 93]

فدخل بنو إسرائيل (على رأسهم يعقوب النبي) أرض مصر آمنين:

- ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ٩٩﴾ [يوسف: 99]

وهناك في أرض مصر، أصبح بنو إسرائيل ملوكا:

- ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٠﴾ [المائدة: 20]

فأصبحت المكانة العليا في أرض مصر لبني إسرائيل منذ تلك اللحظة.

لكن ما أن هلك يوسف حتى ظن كثير منهم أن خبر الرسالة قد انقطع:

- ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ٣٤﴾ [غافر: 34]

وما هي إلا فترة منقطعة (نحن نتخيل) حتى نجد بني إسرائيل وقد لحق بهم الأذى في أرض مصر، فأصبحوا معبّدين فيها كما جاء على لسان موسى عندما وجّه الخطاب لفرعون:

- ﴿وَتِلۡكَ نِعۡمَةٞ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنۡ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٢٢﴾ [الشعراء: 22]

فحصل الاستعباد لبني إسرائيل في أرض مصر حتى جاءهم موسى وأخرجهم منها:

- ﴿نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٣ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٥﴾ [القصص: 3-5]

وما نجا بنو إسرائيل من الاستعباد في أرض مصر إلا بالمنة الإلهية، وكان ذلك بأن بعث فيهم موسى ليخرجهم منها:

- ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ١٢٨ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٢٩﴾ [الأعراف: 128-129]

السؤال: لماذا حصل الأذى لبني إسرائيل في أرض مصر على يد الفراعنة بعد أن كانوا قد دخلوا مصر آمنين في زمن يوسف؟

جواب مفترى من عند أنفسنا مهم جدا: نحن نفتري الظن بأن الأذى قد لحق ببني إسرائيل في أرض مصر يوم أن حصل انقلاب سياسي على نظام الحكم الملكي الذي كان سائدا في زمن يوسف، فتحولت مصر كلها من النظام الملكي (كما كان في عهد يوسف) إلى النظام الفرعوني (الذي ساد في عصر موسى).

تخيلات مفتراة: كانت مصر زمن يوسف واقعة تحت الحكم الملكي، فقد جاء الخطاب القرآني الذي يصور تلك الفترة أحسن تصوير ليبرز أن الذي كان يحكم البلاد هو الملك:

- ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾ [يوسف: 54]

لكن أصبحت مصر تحت حكم الفرعوني (وليس الملكي) عندما جاء موسى:

- ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾﴾ [القصص: 3-5]

وبهذا التحول السياسي من النظام الملكي إلى النظام الفرعوني تغيّرت حال بني إسرائيل من العزة والرفعة في العهد الملكي إلى الذلة والاستعباد في العصر الفرعوني. ليكون السؤال هو: لماذا؟

رأينا المفترى: كان بنو إسرائيل في عهد يوسف من الداعمين للنظام الملكي، وكانوا ينعمون بالأمن في ظل ذاك الحكم، فعاث بنو إسرائيل في أرض مصر، واستمرت الحال على هذه الشاكلة فترة طويلة من الزمن. لكن ما أن بدأ القوم يختلفون من بعد هلاك يوسف حتى وجد المصريون الأصليون الفرصة سانحة للانقضاض على الحكم الملكي المدعوم من قبل بني إسرائيل، فاستطاعوا الإطاحة به، والانتقال بالبلاد من العصر الملكي إلى العصر الفرعوني، وكانت مهمة المنقلبين (الفراعنة) الانتقام من النظام الملكي البائد وكل أعوانه وأزلامه. فكان بنو إسرائيل هم الضحية الأكبر الأولى لهذا الانقلاب السياسي في حكم مصر وذلك لأنهم كانوا من ركائز الحكم الملكي السابق.

السؤال: من الذي قام بهذا الانقلاب السياسي على الحكم الملكي فتحولت مصر من النظام الملكي إلى النظام الفرعوني؟ ومتى حصل ذلك؟

تخيلات أغرب من الخيال نفسه (لا تصدقوها): نحن نفتري الظن (المدعوم بالخيال فقط) بأن الذي قاد الانقلاب على النظام الملكي كان رجلا سياسيا من الطراز الأول، فهو الذي استطاع تجميع القوى المعارضة للنظام الملكي ولسيطرة بني إسرائيل على مفاصل الدولة في مصر حينئذ، فشكّل التجمع المعارض، وقويت شوكته تدريجيا على حساب الضعف الذي كان ينتاب الحكم الملكي بسبب الاختلاف الذي وقع فيه بنو إسرائيل

بعد هلاك يوسف، فبدلا من الالتفاف حول نظام الحكم الملكي وترك الخلافات الجانبية، انشغلت طائفة كبيرة من بني إسرائيل في خلافاتهم العقائدية:

- ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾ [غافر: 34]

فكان ذلك على حساب قوتهم السياسية، فكلما ازداد بنو إسرائيل فرقة في أرض مصر، ازداد الحكم الملكي ضعفا، وبدأت شوكت المعارضة بقيادة قائد انقلاب الفراعنة قوة وصلابة، وما أن حانت ساعة الصفر حتى انقضت المعارضة على نظام الحكم الملكي بقيادة هذا القائد العام للانقلاب. وبالفعل نجح الانقلاب، فتحول الحكم من النظام الملكي إلى النظام الفرعوني. فكان قائد الانقلاب هو صاحب الحق الشرعي في حكم البلاد.

السؤال: ما الذي حصل بعد ذلك؟ هل فعلا استطاع هذا القائد العام للانقلاب من الفراعنة الوصول إلى سدة الحكم؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: ما أن وصل الفراعنة إلى سدة الحكم بقيادة هذا الرجل حتى استولوا على مقتنيات القصر الملكي، وكان من بينها ميراث النبوة، وهي - برأينا ربما الخاطئ- ثلاثة: العصا والقميص والكتاب. فانتهت كلها في يد قائد الانقلاب، ذلك الرجل السياسي الذي قاد الحركة الانقلابية من أولها ضد النظام الملكي المدعوم من بني إسرائيل في أرض مصر.

السؤال: ما الذي حصل بعد ذلك؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: ما أن آلت الأمور إلى النظام الجديد (الفراعنة) حتى كانت القضية الأولى التي تشغله هو مصير بني إسرائيل في أرض مصر، أي كان السؤال المطروح حينئذ (نحن نتخيل) هو: ما ترانا فاعلين ببني إسرائيل وهم ركائز الحكم الملكي السابق؟

السؤال: ماذا كانت الخيارات الموضوعة على طاولة النقاش بين قادة الانقلاب حينئذ؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: انقسم قادة الانقلاب إلى فريقين اثنين، فريق يتزعمه قائد الانقلاب العام (الرجل السياسي) ويدعو إلى إخراج بني إسرائيل من أرض مصر، وفريق ثان بقيادة قائد الجند ويدعو إلى تعبيد بني إسرائيل، فيقتلون أبناءهم ويستحيون نسائهم.

السؤال: كيف حُسِم الخلاف بينهما؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا لا تصدقوها: انتهى الخلاف بالغلبة للفريق الثاني الذي يتزعمه قائد الجند (الرجل العسكري)، فقد استطاع هذا الرجل (بما لديه من قوة عسكرية) من الانقلاب على قائد الانقلاب

السياسي الذي قاد الانقلاب بداية ضد الحكم الملكي، فكانت النتيجة أن أزاحه عن الحكم وتولى هذا الرجل العسكري وجماعته زمام الحكم في البلاد.

السؤال: ما الذي فعله قائد الجند حينئذ؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: لم يكن هناك خيار لتولي زمام السلطة إلا بالتخلص من قائد الانقلاب السياسي، فعمد إلى قتله. واستطاع قائد الجند التحكم بمفاصل الدولة كلها. فعمد إلى تقتيل أبناء بني إسرائيل واستحياء نسائهم، فكان هو بشخصه من ذبّح أبناء بني إسرائيل واستحيى نسائهم:

- ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص: 4]

ولو دققنا في الكلام الذي قاله موسى للفرعون الثاني الذي جاءه بالرسالة، لوجدنا أن هذا الرجل لم يكن يقتل أبناء بني إسرائيل ويستحيي نساءهم ولكنه كان فقط يعبدهم:

- ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾﴾ [الشعراء: 22]

نتيجة مفتراة 1: الفرعون الأول الذي استولى على الحكم أثر الانقلاب على النظام الملكي كان يقتل أبناء بني إسرائيل ويستحيي نساءهم.

نتيجة مفتراة 2: الفرعون الثاني الذي آلت إليه الأمور بعد موت الفرعون الأول كان يعبد بني إسرائيل

ولو دققنا في السياقات القرآنية الأخرى، لوجدنا بأن فرعون الثاني الذي جاءه موسى بالرسالة لم يكن يقتّل أبناء بني إسرائيل. فالنجاة كانت من آل فرعون وليس من فرعون نفسه كما جاء في الآيات التالية:-

- ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [البقرة: 49]
- ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾ [الأعراف: 141]
- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾﴾ [إبراهيم: 6]

السؤال: لماذا لم تأت الآيات على نحو (ونجيناكم من فرعون) أو على نحو (وأنجيناكم من فرعون وآله)؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن بأن الفرعون الذي حصلت نجاة بني إسرائيل في عهده لم يكن يقتل أبناء بني إسرائيل ولم يكن يستحي نسائهم، وكان جل ما فعله هو أنه عبدهم كما جاء على لسان موسى موجها الخطاب له:

- ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾﴾ [الشعراء: 22]

ونحن نظن بأن مفردة فرعون تدل على المفرد (الفرعون الواحد) كما تدل على الجمع (أكثر من فرعون واحد) بدليل مفردة وَمَلَئِهِمْ التي ترد في الآية التالية:

- ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [يونس: 83]

نتيجة مفتراة: لقد عاصر بنو إسرائيل في أرض مصر أكثر من فرعون، وكان لهم مَلَئِهِمْ، وكان هؤلاء الملأ هم الذين استمروا في سياسية تقتيل أبناء بني إسرائيل واستحياء نسائهم. أما الفرعون الأخير الذي حصلت نجاة بني إسرائيل في عهده، فلم يكن ينتهج تلك السياسة تجاه بني إسرائيل في عهده، وذلك لأنه – كما سنحاول تبيانه لاحقا- لم يكن ينقم على بني إسرائيل، ولكن كانت نقمته كلها منصبة على قومه أنفسهم. انتهى.

إن ما يهمنا طرحه حتى الساعة هو ما حل ببيت قائد الانقلاب، الرجل السياسي الذي تخلص منه قائد الجند. فما الذي حصل لذاك الرجل؟ نحن نسأل.

تخيلات مفتراة: كان هذا الرجل صاحب حنكة سياسية، فكان جلّ ما أراده هو التخلص من النظام الملكي السائد حينئذ أولا، وحيازة مقتنيات القصر الملكي الثمينة بما كان فيها من أسباب قوة بني إسرائيل في أرض مصر ثانيا، وهي مقتنيات بيت النبوة. وبالفعل نجح الرجل في تقويض الحكم الملكي السابق، وحصل بالتالي على تلك المقتنيات وادخرها لنفسه. لكن لمّا لم يمهله قائد الجند، واستطاع التخلص منه على الفور بتآمر ثلة من الملأ معه، لم يتمكن ذلك الرجل (قائد الانقلاب السياسي) من الاستفادة من مقتنيات إرث بيت النبوة التي حاز عليها في القصر الملكي.

السؤال: أين ذهبت تلك المقتنيات؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: لما كان ذاك الرجل همّه الأول هو التخلص من النظام الملكي المسيطر على أرض مصر، لم يكن عنده الوقت الكافي والجهد اللازم لتكوين أسرة سليمة عادية، فما كان يهمه كثيرا (نحن لازلنا نتخيل) أن يتزوج أو أن ينجب الذرية بالطريقة الطبيعية المعهودة. لكن لم يكن ذلك الهم السياسي ليمنعه من عمل علاقة غير شرعيه مع النساء، فكان (نحن لازلنا نتخيل) متخذا أخدان. فكان له عشيقة جميلة يأوي إليها في وقت راحته من العمل.

السؤال: ما فائدة هذا الخيال الجامح غير المنضبط بقواعد النص؟ يسأل صاحبنا مستغربا.

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن بأن هذا الرجل قد أنجب طفلا غير شرعي من علاقته بعشيقته الجميلة، فكان له ولد من فراش الزنا.

السؤال: من هو ذلك الولد غير الشرعي الذي أنجبه قائد الانقلاب السياسي من عشيقته الجميلة؟

تخيلات غريبة جدا: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن هذا الطفل غير الشرعي لقائد الانقلاب السياسي هو نفسه (نحن نظن) الذي اعتلى عرش مصر بعد موت الفرعون الأول (قائد الانقلاب العسكري) الذي سلب الملك من والد هذا الطفل، فأصبح الفرعون الثاني الذي جاءه موسى بالرسالة. فنحن نظن (ربما مخطئين) أن الآيات الكريمة التالية هي التي تصور حقيقة هذا الفرعون الزنيم:

- ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ۝١١ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٖ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٥ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ ۝١٦﴾ [القلم: 10-16]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن (ربما مخطئين) بأن الفرعون الثاني الذي اعتلى عرش مصر هو في حقيقته زنيم (أي جاء من ماء الزنا)

السؤال: ما الذي فعله قائد الانقلاب العام (والد الطفل الزنيم) عندما انقلب عليه قائد الجند وسلب منه السلطة؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: عندما وجد قائد الانقلاب السياسي (القائد العام للثورة على الملوك) بأن السلطة قد سُلبت من يده على يد قائد الجند فجأة، كان عليه أن ينأى بميراث النبوة التي وقعت يده عليها من أن تطولها يد قائد الجند، فما الذي سيفعله؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: أسر ذلك الرجل المقتنيات عند من يثق به من المقربين إليه الذين لا يمكن أن ينتبه إليهم أحد حتى الفرعون الجديد نفسه، فكانت عشيقته بداية هي الملاذ الوحيد. فكان طفله في بيتها، وعهد عندها ببعض تلك المقتنيات العظيمة، وكان الهدف من ذلك أن تصل تلك المقتنيات إلى يد ولده منها الذي جاء من ماء الزنا عندما يشتد عوده ويصبح قادرا على الاستفادة منها.

تلخيص ما سبق: كان لقائد الانقلاب السياسي الأول (كما نفتري الظن من عند أنفسنا) عشيقة، فأنجب منها طفلا. وكان الطفل لازال صغيرا عندما حصل انقلاب قائد الجند عليه. لذا كان الرجل يعلم أن الطفل الصغير لا يستطيع مواجهة هذا الفرعون، الرجل العسكري الذي أطاح به. ولما حصل انقلاب قائد الجند عليه فجأة، عمد على الفور إلى تهريب مقتنيات إرث القصر الملكي السابق (وهي مقتنيات بيت النبوة) إلى عشيقته، وطلب منها الفرار بتلك المقتنيات مع الطفل. فكان جل اهتمام العشيقة هو المحافظة على ابنها

غير الشرعي من بطش الفرعون الجديد، ومن ثم المحافظة على مقتنيات بيت النبوة لهذا الولد حتى يشتد ساعده، فيستفيد منها. فما الذي فعلته تلك الحسناء الجميلة؟

تخيلات مفتراة: كانت تلك المرأة الجميلة على يقين بأن الفرعون الجديد ربما يصل إليها لو علم بأمر علاقتها بالقائد العام للانقلاب السابق، ويذيقها العذاب للحصول على تلك المقتنيات في لحظة ما، لذا كانت تعلم أن مصيرها قد يكون الموت لا محالة لو علم الفرعون الجديد بأمرها، فكان لزاما عليها أن لا تُظهر علاقتها بهذا الطفل، فكان لابد من إظهاره للعلن بطريقة ذكية تبعد عنه خطر الموت. فأين ستضع هذا الطفل حتى لا تصله يد الفرعون الجديد قائد العسكر الذي انقلب على عشيقها؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: كان لزاما على تلك المرأة أن تضع ولدها الوحيد وإرث النبوة التي حصل عليه زوجها من القصر الملكي السابق في مكان آمن لا تطاله يد الفرعون الأكبر. لذا، عمدت إلى أن تضع ذلك كله في عهدة رجل يصون الأمانة ويحافظ عليها. فما الذي فعلته؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: كانت تلك المرأة تعلم أن من بين جميع آل فرعون هناك رجل واحد صالح، وهذا (نحن لازلنا نتخيل) ما أخبرها به عشيقها (قائد الانقلاب السابق). فكان ذلك الرجل الصلح كن آل فرعون هو (نحن نتخيل) الذي دبر الانقلاب من وراء حجاب مع عشيقها سابقا، وهو من سيكتم إيمانه لاحقا عن قومه، وهو الرجل الذي أظهر إيمانه يوم أن جاءهم موسى بالرسالة، وهو الذي ألقى في قومه خطبته الشهيرة كما جاءت في صورة غافر:

- ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ [غافر: 28-35]

السؤال: من هو هذا الرجل الصالح؟ وما قصته في قومه؟

جواب مفترى خطير جدا: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن ذاك الرجل هو نبي الله ذو الكفل، وهو والد نبي الله هارون، وهو كافل موسى. وهو من تربى الطفل الزنيم (الذي سيصبح لاحقا الفرعون الثاني) عنده.

السؤال: ما الذي فعله ذاك الرجل؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: عندما حصل الانقلاب على الحكم الملكي، كان قائد الانقلاب العام رجل سياسي بارع، وكان يحاول التخطيط للانقلاب ببراعة، لذلك كان عليه أن يستعين بخبرات أهل العلم، فما وجد في آل فرعون غير هذا الرجل صاحب العلم، فكان هذا الرجل (الذي أصبح لاحقا مؤمن يكتم إيمانه) هو مخطط الانقلاب من وراء الستار، فهو الذي وضع خطة الانقلاب بتفاصيلها، وهو الذي استطاع الوقوف في وجه علماء بني إسرائيل ولكن من وراء حجاب. فكان يسعى جاهدا أن لا ينكشف أمره ولا يعرف به أحد إلا القائد العام للانقلاب على الحكم الملكي. فدبّر معه خطة الانقلاب على الحكم الملكي الذي كان سائدا حينئذ، وكان هذا الرجل مدفوعا بسقوط علماء بني إسرائيل في مصيدة الخلاف الطائفي. فقد أصبح علماء بني إسرائيل مدفوعين بتأويل الكتاب بغيا بينهم:

- ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة: 213]
- ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾ [آل عمران: 19]
- ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾ [الشورى: 14]
- ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ ۖ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الجاثية: 16-17]

فما أن وجد هذا الرجل الصالح من آل فرعون أن بني إسرائيل قد وقعوا في الاختلاف بغيا بينهم (وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ ۖ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ)، حتى كان مخططا ذكيا للخلاص منهم، ومن تحريفهم للكتاب وتدميرهم للبينات. لكن الذي كان ينفذ تلك الخطة للتخلص من بني إسرائيل وكل الفوضى التي أحدثوها في أرض مصر حينئذ على أرض الواقع هو قائد الانقلاب العام الذي أطيح به لاحقا على يد قائد الجند، فقد كان هذا الرجل الصالح (صاحب العلم) حريصا (نحن نظن) على أن لا يعلم بأمره أحدا إلا قائد الانقلاب نفسه، فقد آثر صاحب العلم هذا أن يبقى في الظل، فلا تكشف هويته. فما كان هذا الرجل طامعا في سلطة ولا معاديا لبني إسرائيل، ولكنه كان كارها باغضا لعلماء بني إسرائيل الذين بغوا بعضهم على بعض، فأضاعوا الكتاب والبينات التي آتاهم الله إياها.

لكن ما أن انقلب رجل العسكر على القائد السياسي للانقلاب الأول، لم يجد قائد الانقلاب العام مكانا آمنا لأهله (وخاصة ولده الصغير ومقتنيات القصر الملكي الثمينة) أفضل من هذا الرجل ليستودع ذلك كله

عنده. فأخبر عشيقته بأمره، وطلب منها أن تلجأ إليه، فهو من سيدبر آلية حماية ولده ومقتنيات إرث النبوة من يد الفرعون الأكبر الذي انتزع منه عرش البلاد. وبالفعل، وصلت المرأة إلى هذا الرجل، واستودعت طفلها وإرث بيت النبوة التي حصل عليها عشيقها عنده، فانتهى معظم إرث النبوة في بيت هذا الرجل الذي آثر أن يعيش على الدوام في الظل بين كتبه وأقلامه، وتمثلت خطته على نحو أن يكفل هذا الطفل. فكان منذ تلك اللحظة هو ذو الكفل. وما أن عكف هذا الرجل على ذلك الإرث الديني المسلوب من بني إسرائيل حتى بدأ بدراسته، والتعرف على أسراره، وبالتالي الاستفادة منه بشكل شخصي. وبالفعل حصل الرجل على علم عظيم، فانتهى به (نحن لازلنا نتخيل) أن يكون رجلا مؤمنا من آل فرعون، لكنه لم يكن ليستطيع أن يبوح بذلك الإيمان في آل فرعون بعد أن أصبحت السلطة في يدهم وعلى رأسهم الفرعون الجديد قائد العسكر. فآثر أن يبقى يكتم إيمانه حتى يحين الموعد المناسب للكشف عنه.

السؤال: ما الذي حصل بعد ذلك؟

تخيلات أغرب من الخيال نفسه: لمّا عكف ذلك الرجل على دراسة إرث النبوة، وجد بأن موعد الخلاص لكل المؤمنين سيتحقق - لا محالة - على يد شخص من ذرية بيت عمران (رجل صالح من بني إسرائيل). فالخلاص للمؤمنين من بني إسرائيل وظهور الإيمان للجميع وإبطال الكفر لن يتم إلا على يد ذرية من هذا الرجل الصالح (عمران).

السؤال: ماذا فعل الرجل حينئذ؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: عندما علم هذا الرجل بأن الخلاص سيتحقق على يد ذرية من عمران، بحث (نحن لازلنا نتخيل) ذلك الرجل عن بيت ذاك الرجل الصالح من بني إسرائيل (عمران)، فوجد بيته، لكنه في الوقت ذاته وجد أن عمران نفسه قد مات، وقد ترك خلفه امرأته وعندها بنت واحدة وفي حضنها طفل رضيع. فعلم يقينا أن خلاص المؤمنين من بطش الكافرين وعلى رأسهم فرعون سيكون على يد هذا الطفل الرضيع الذي هو من ذرية عمران. ولما كان هذا الرجل يعلم أن فرعون يقتّل أبناء بني إسرائيل ويستحيي نساءهم، ما كان منه إلا أن يدبر الأمر للنجاة بهذا الطفل (وهذه العائلة الكريمة كلها) من بطش فرعون، فما الذي سيفعله؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: اختار الرجل أن ينفذ خطة غريبة عجيبة لا تثير الشكوك حول هذا البيت من قبل آل فرعون، فتمثلت خطته في أن يتزوج هو بنفسه من امرأة عمران. فيظن القوم من آل فرعون أن ذلك ليس أكثر من استحياء لنساء بني إسرائيل. فما بدا الأمر لهم أكثر من أن هذا الرجل من آل فرعون قد حاز على حصته من نساء بني إسرائيل، فظنوا أنه (مثل قومه من آل فرعون) يستحيي نساء بني إسرائيل. ولكن في حقيقة الأمر كان هذا الرجل يحاول جهده أن يحمي هذه العائلة على وجه التحديد من عذاب فرعون وملئه. وبالفعل نجحت خطة الرجل، فانتقلت امرأة عمران للعيش في بيت ذلك الرجل كزوجة له في الحقيقة ولكن كمتاع لهذا الرجل في أعين الملأ من قومه.

الدليل

لو دققنا في الآية الكريمة التالية، لربما وجدنا فيها ما قد تطير له الألباب، قال تعالى:

- ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾ [القصص: 7]

السؤال: وأين الغريب في ذلك؟ يسأل صاحبنا متعجبا من كلامنا.

رأينا المفترى: لو تدبرنا هذه الآية جيدا، لوجدنا فيها على الأقل أمرين محيرين لنا.

أولا، أن القرار عند أم موسى كان مبنيا على التخيير، فكان بإمكان أم موسى أن لا تلقي بطفلها في اليم، وكان بإمكانها أن تلقيه في اليم. وليس أدل على ذلك أن الوحي الإلهي جاء لأم موسى بأن تلقي بطفلها في اليم في حالة أنها خافت عليه (فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ)، فحتى لو لم تلق أم موسى بطفلها في اليم، فالله سيحميه من بطش فرعون. فنجاة موسى (الطفل) من بطش فرعون لن تكون فقط بإلقائه في اليم، فحتى لو لم تلق أمه به في اليم، فعين الله ترعى الطفل (وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي)، فكيف سيتم ذلك على أرض الواقع؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن بأن موسى سينجو من بطش فرعون حتى لو اختارت أمه أن لا تلقيه في اليم، وذلك لأنه أصلا يتربى في بيت ذلك الرجل الذي يكتم إيمانه، والذي هو أصلا من آل فرعون. لكن لما تملّك قلب أم موسى الخوف على طفلها، عمدت إلى الخيار الثاني وهو أن تلقي بطفلها في اليم حتى يظهر بين الناس على أنه مجهول الهوية والنسب. فنحن نتخيل أن أم موسى (بعاطفة الأم) قد خشيت بأن لا تنجح خطة الرجل، فآثرت الطريقة الأسلم وهي أن تلقي به في اليم. وما أن التقطه آل فرعون حتى كان خيارهم الأول والأخير أن يضعوا هذا الطفل الغريب مجهول الهوية والنسب عند كافل مثل هؤلاء الأطفال. فكما كفل هذا الرجل الطفل الأول الزنيم الذي جاءته به عشيقة قائد الانقلاب العام، تكفل أيضا بهذا الطفل المجهول الهوية والنسب الجديد (موسى) عند آل الفرعون. فأصبح الرجل معروف في قومه بأنه صاحب الكفالة للأطفال مجهولي الهوية والنسب، فكان يعرف بينهم بذي الكفل.

ثانيا، أما الأمر الآخر العجيب في هذه الآية هو الوعد الإلهي بأن الله سيرد هذا الطفل إلى أمه:

- ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾ [القصص: 7]

السؤال: كيف سيرد الله هذا الطفل إلى أمه وهي امرأة عمران من بني إسرائيل، وفي الوقت ذاته نعلم أن موسى قد تربى في آل فرعون في صغره؟

- ﴿قَالَ أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ ۝١٨﴾ [الشعراء: 18]

السؤال القوي هو: هل كانت أم موسى تعيش حينئذ في بني إسرائيل (العدو اللدود لفرعون) أم أنها كنت تعيش في آل فرعون؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نفتري القول بأن موسى قد تربى منذ أن كان وليدا في آل فرعون، ولبث فيهم من عمره سنين. لذا، نحن نتجرأ على الظن بأن أم موسى كانت يوم أن ألقت ولدها في اليم كانت تعيش في آل فرعون. ليكون السؤال: كيف يمكن أن نفهم ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نتخيل بأنه ما أن التقط آل فرعون موسى (الطفل) من اليم حتى وصل خبره إلى امرأة فرعون نفسها، فكان قرارها على نحو أن لا يقتل آل فرعون هذا الطفل، وطلبت من بعلها (الفرعون الأكبر) أن يتخذاه ولدا:

- ﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝٩﴾ [القصص: 9]

وبالفعل استطاعت المرأة أن تكف بطش بعلها (الفرعون الأكبر) عن هذا الطفل الغريب. ولما كانت الخطة الإلهية قد قضت بتحريم المراضع على هذا الطفل:

- ﴿۞وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ۝١٢﴾ [القصص: 12]

أصبح لزاما أن يبحثوا لهذا الطفل عن من يكفله. وقد كان ذلك بمشورة من أخت موسى، فهي من دلتهم على أهل البيت الذين سيكفلونه لهم (هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ)، وهي نفسها من دلتهم على الرجل الذي سيكفله لهم:

- ﴿إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ ۝٤٠﴾ [طه: 40]

نتيجة مفتراة: كانت أخت موسى هي من دلتهم على أهل البيت الذين سيكفلونه لهم (هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ)

نتيجة مفتراة: كانت أخت موسى هي من دلتهم على الرجل الذي سيكفله (هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ)

السؤال: كيف استطاعت أخت موسى الوصول إليهم وإبداء المشورة والرأي؟

رأينا المفترى: لو لم تكن أخت موسى متواجدة حينئذ في آل فرعون، لما استطاعت (نحن لازلنا نتخيل) من الوصول إلى البيت الفرعوني لتقصّ خبر أخيها موسى (الطفل).

نتيجة مفتراة: على أي حال، كانت النتيجة أن يُرد موسى إلى أمه وفي الوقت ذاته يتربى وليدا في آل فرعون ويلبث فيهم سنين من عمره. والسبب في ذلك يعود - برأينا- إلى أن أم موسى نفسها كانت تعيش في بيت من بيوت آل فرعون. انتهى.

السؤال: ما الذي حصل في بيت كافل موسى (ذي الكفل) عندما كان موسى وهارون يتربيان معا في بيته؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: في تلك الأثناء عاش هذا الرجل الصالح مع زوجته الجديدة (أم موسى)، فأنجب منها طفلا، فسماه هارون، فكان هارون هو الأخ غير الشقيق لموسى، فكان أخاه من أمه فقط، قال تعالى على لسان هارون:

- ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ٩٤﴾ [طه: 94]
- ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنۢ بَعْدِيٓ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥٠﴾ [الأعراف: 150]

فأصبح في بيت هذا الرجل (ذي الكفل) ثلاثة من الأطفال، اثنين تحت كفالته وهم فرعون الصغير وموسى الطفل، وواحد هو ابنه من صلبه وهو هارون.

السؤال: ماذا فعل ذلك العبد الصالح في تربية هؤلاء الأولاد في بيته معا؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: لما كان هذا الرجل (نحن نفتري الظن) باحثا صادقا عن العلم الحقيقي، ما كان له إلا أن يضع الأمور في نصابها الحقيقي. فالرجل مؤتمن على بضاعة عنده لهؤلاء الأولاد. وهو لا شك يتمثل قول الحق:

- ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٢٠﴾ [البقرة: 220]

فالرجل أصبح الآن يخالط اليتامى (وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ)، لكنه يترك لله وحده العلم بالمصلح من المفسد منهم (وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ). لذا، كان عليه أن يعطي كل واحد من هؤلاء اليتامى المتواجدين في بيته حقه. فكيف قسّم الإرث بينهم؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: كان هذا الرجل يعرف تماما أن حق إرث النبوة وهي العصا والقميص هي من نصيب من كان من بني إسرائيل، لكن الكتاب (كعلم) هي من نصيب الجميع. ومادام أن العصا من نصيب موسى، كان عليه أن يحتفظ بهما لموسى حتى يشتد ساعده. لكن الكتاب كان من نصيب الفرعون الصغير. فأين احتفظ بالعصا والقميص؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: عمد ذلك الرجل الصالح إلى ادخار العصا والقميص عند أخته في بيت فرعون نفسه. فأخته هي (نحن نرى) المرأة الصالحة زوجة الفرعون الأكبر قائد الجند الذي انقلب على قائد الانقلاب السابق. فاحتفظت أخته بتلك المقتنيات، فكانت في مأمن من أن يصل لها أي شخص. لكن الكتاب بقي عنده في يد الطفل الصغير (فرعون القادم). ومنذ تلك اللحظة بدأ الطفل الزنيم دراسة علم الكتاب.

الدليل

عندما عاد موسى بالرسالة إلى الفرعون الثاني الذي تربى معه في بيت هذا الرجل الصالح، كان السؤال الأول الذي وجهه فرعون لموسى هو:

- ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩﴾ [طه: 49]

فرد موسى على النحو التالي:

- ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه: 50]

عندها رد فرعون بالسؤال الثاني التالي:

- ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝٥١﴾ [طه: 51]

فكان رد موسى على النحو التالي:

- ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ۝٥٢﴾ [طه: 52]

السؤال: أين ذلك الكتاب الذي فيه علم القرون الأولى؟

جواب مفترى: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن ذلك الكتاب ليس موجودا فقط عند الله، لأنه لو كان كذلك لجاء النص على النحو التالي:

قال علمها في كتاب عند ربي

فلو جاء النص على هذا النحو، للزم علينا الظن بأن الكتاب فعلا موجود عند الله فقط، لكن لما جاء النص على النحو التالي:

- ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝٥٢﴾ [طه: 52]

لزم علينا الظن بأن علمها عند ربي أولا، لكن الكتاب موجود في مكان ما. فأين هو ذلك المكان؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن موسى كان يعلم يقينا بأن الكتاب موجود في يد فرعون. وأن فرعون قد تحصل على علم القرون الأولى من ذلك الكتاب. لذا كان هذا الفرعون الثاني الذي تربى وليدا في بيت الرجل الصالح قد تحصل له العلم بكل الآيات التي كانت في القرون الأولى. ومن هنا نحن نظن جاء النص الإلهي التالي:

- ﴿وَلَقَدۡ أَرَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ۝٥٦﴾ [طه: 56]

ولو دققنا في النص القرآني أكثر، لما وجدنا أن آيات الله كلها قد جاءت إلا لقوم فرعون، كما في الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَلَقَدۡ جَآءَ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ ٱلنُّذُرُ ۝٤١ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذۡنَٰهُمۡ أَخۡذَ عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٍ ۝٤٢﴾ [القمر: 41-42]

نتيجة مفتراة مهمة جدا جدا: لم تأت آيات الله كلها إلا لآل فرعون. انتهى.

السؤال: لماذا؟ لماذا لم تأت آيات الله كلها إلا لآل فرعون فقط؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن آيات الله كلها لم تأت قوم فرعون ولكنها جاءت فقط آل فرعون، وهم الفئة الضيقة الذين يحيطون بفرعون نفسه. ففرعون لم يطلع كل قومه على آيات الله ولكنه أطلع فقط آله عليها، وذلك حتى يبقى آل فرعون فقط هم المتحكمين برقاب العباد جميعا.

السؤال: ما هي ماهية ذلك الكتاب؟

رأينا المفترى: لو دققنا في الآية الكريمة التالية التي نظن أنها خاصة بفرعون، لوجدنا أن فرعون قد رأى آيات الله كلها رؤية:

- ﴿وَلَقَدۡ أَرَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ۝٥٦﴾ [طه: 56]

السؤال: ما معنى أن فرعون قد رأى آيات الله كلها رؤية؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن السبب في ذلك يعود إلى أن الكتاب الذي وقع بيد فرعون هذا كان كتابا مصورا. وهو ما يشبه ما نجده في قصص الخيال العلمي الذي نجد فيه كتابا إذا ما فتح على صفحة منها، ظهرت صور هي أقرب إلى الخيال منها إلى الواقع. وسنفرد بحول الله وتوفيق منه مقالات خاصة للحديث عن هذا الكتاب بشكل خاص متى ما أذن الله لنا بشيء من علمه في ذلك. فالله وحده أسأل أن يعلمني ما لم أكن أعلم وأعوذ به أن يكون أمري كأمر فرعون. إنه هو السميع البصير – آمين)

أما السؤال الأكثر إلحاحا هنا هو: مادام أن آيات الله كلها قد أتت فرعون، فرءاها بأم عينه، فلماذا لم يؤمن الرجل؟ ومادام أن فرعون قد تربى كطفل صغير في بيت ذلك الرجل الصالح، فلم لم يؤمن؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن الإيمان يخضع للمشيئة الإلهية:

- ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِي ٱلْوُجُوهَۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف: 29]

فالإيمان قرار شخصي لا دخل للآخرين به، فهذا إبراهيم وقد تربى في كنف رجل يعبد الشيطان:

- ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾ [مريم: 44]

فأصبح إبراهيم مؤمنا برغم تلك البيئة الكافرة التي تربى فيها، لأنه أتى الله بقلب سليم:

- ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ [الصافات: 83-84]

بينما تربى فرعون في كنف رجل مؤمن، لكنه اختار أن لا يؤمن هو بنفسه:

- ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾ [القلم: 10-15]

السؤال: لماذا؟

جواب مفترى من عند أنفسنا خطير جدا جدا: نحن نظن بأن فرعون قد آثر عدم الإيمان لأنه كان ناقما أشد النقم على قومه (آل فرعون) وذلك لأنهم هم من انقلبوا على والده صاحب الحق الشرعي في عرش مصر. لذا، نحن نتجرأ على البوح بظن من عند أنفسنا بأن فرعون (الذي كان طفلا زنيما) ما كان في يوم غاضبا على أو ناقما من بني إسرائيل. انتهى.

السؤال: ما الذي تقوله يا رجل. اتق الله. هل تريدنا أن نصدق بأن فرعون (الطفل الزنيم) الذي جاءه موسى بالرسالة لم يكن ناقما على بني إسرائيل؟ ما هذا الهراء؟ ألا ترى أن هذا يناقض صريح اللفظ القرآني؟

رأينا المفترى: مرة أخرى، نحن ندعو القارئ الكريم إلى التفريق بين فرعون الأول (وهو قائد الجند الذي انقلب على قائد الانقلاب على العهد الملكي) الذي تربى موسى في آله من جهة وفرعون الثاني الذي جاءه موسى بالرسالة (وهو الذي تربى مع موسى في بيت الرجل الصالح الذي كفلهما معا) من جهة أخرى.

السؤال: وما فائدة هذا التفريق هنا؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الفرعون الأول هو عدو الله منذ اللحظة الأولى كما هو عدو موسى (وكذلك بني إسرائيل):

- ﴿أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ٣٩﴾ [طه: 39]

وهذا الفرعون الأول هو الذي كان يذبح بنفسه أبناء بني إسرائيل:

- ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٤﴾ [القصص: 4]

وكذلك كان سلوك آله من بعده، فقد كانوا يذبحون أبناء بني إسرائيل ويستحيون نساءهم:

- ﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ٤٩﴾ [البقرة: 49]
- ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ٦﴾ [إبراهيم: 6]

السؤال: كيف حصل ذلك؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: افترينا الظن سابقا بأنه ما أن نجح الانقلاب على الحكم الملكي، وانتقال الحكم إلى آل فرعون، حتى حصل الخلاف بين المنقلبين أنفسهم، فأصبح هناك رأيان، فكان الرأي الأول الذي تبناه قائد الانقلاب السياسي هو إخراج بني إسرائيل من أرض مصر، وكفى. كان الرأي الآخر الذي تبناه قائد الجند هو تقتيل أبناء بني إسرائيل واستحياء نسائهم، وبالفعل كانت الغلبة للفريق الثاني، وذلك بقيام قائد العسكر بالانقلاب على قائد الانقلاب السياسي، والاستيلاء على السلطة. وهنا بدأت المرحلة الأشد والأقسى في تاريخ بني إسرائيل. فبدأ فرعون الجديد (عدو الله هذا) بتذبيح أبناء بني إسرائيل بنفسه، فهو من بدأ مهرجان الذبح والتنكيل بأبناء بني إسرائيل في مصر، قال تعالى:

- ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٤﴾ [القصص: 4]

وبعدها أخذ كل آل فرعون ينكّلون ببني إسرائيل، فأخذوا يقتلون أبناءهم ويستحيون نساءهم. وهنا نجد لزاما التوقف لفترة من الوقت من أجل التفريق بين الذبح من جهة والتقتيل من جهة أخرى.

السؤال: ما الفرق بين تذبيح أبناء بني إسرائيل وتقتيلهم؟

رأينا المفترى: نحن نفهم (ربما مخطئين) بأن التقتيل لا يحمل في ثناياه إنهاء الحياة دائما، بدليل أن موسى قد طلب بنفسه من قومه أن يقتلوا أنفسهم:

- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾ [البقرة: 54]

السؤال: هل فعلا طلب موسى من قومه أن ينهوا حياتهم عندما طلب منهم أن يقتلوا أنفسهم؟

رأينا المفترى: لو تدبرنا الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾﴾ [النساء: 89]

لربما لزم علينا طرح السؤال التالي على الفور: كيف يمكن أن نقتل الذين كفروا بمجرد أن نجدهم (فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ)، ونجد كذلك أن الله ينهى الرسول أن يكون له أسرى كما جاء في الآية التالية؟

- ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنفال: 67]

وفي الوقت ذاته، نجد الله يطلب منا إطعام الأسرى:

- ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الإنسان: 8]

كما نجد، في الوقت ذاته، أن معاملة الأسرى يجب أن تكون واحدة من اثنتين، إما المن وإما الفداء:

- ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾﴾ [محمد: 4]

السؤال: كيف يمكن أن نفهم ذلك؟

رأينا المفترى: نحن ظن أن القتل يحمل في ثناياها معنى "المنع"، فالمؤمنون مطالبون بمقاتلة المشركين حتى يصدوهم عن دخول المسجد الحرام:

- ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة: 29]
- ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [البقرة: 190]

- ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣٦﴾ [التوبة: 36]
- ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩١﴾ [البقرة: 191]

السؤال: كيف يطلب الله منا أن نقتلهم حيث ثقفناهم (وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ) وفي الوقت ذاته يطلب منا أن نخرجهم من حيث أخرجونا (وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ)؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن القتل لا يحمل في ثناياه معنى إنهاء الحياة على الدوام، لأنه لو كان كذلك لما استطعنا أن نخرج من قتلناهم حيث ثقفناهم أصلا.

السؤال: ما معنى القتل إذن؟ وكيف يختلف القتل عن الذبح؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن القتل معناه "منع الشخص" عن شيء ما. فإذا ما وجدت طفلك الصغير يمد يده إلى شيء خطر قد يؤذيه، فإنك تعمد إلى قتله، (فنحن نقول بالأردنية الدارجة كتلت الولد لأنه مد يده إلى النار) .وإذا كان طفلك يريد منك أن تشتري له لعبة جميلة، ورفضت أنت ذلك، فأنت بذلك قد قتلته. وإذا أرادت زوجتك أن تذهب إلى السوق معك، وأنت رفضت ذلك، فقد قتلتها (في ذلك على وجه التحديد)، وعندما تجد أن شخصا يريد أن يأكل من طعام معين، فمنع عنه لسبب ما، فهو بذلك قد قتل نفسه. لذا، لمّا طلب موسى من بني إسرائيل أن يقتلوا أنفسهم، فهو إذا قد طلب منهم (نحن نفتري القول) أن يمنعوا أنفسهم من الأكل إلا طعاما واحدا (المن والسلوى)، فقتلوا بذلك أنفسهم فترة من الوقت ماداموا يأكلون من طعام واحد فقط. وما أن ضاقت عليهم الحال، وما عادوا قادرين على التحمل، حتى طلبوا البقل والقثاء والفوم والعدس والبصل:

- ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٦١﴾ [البقرة: 61]

السؤال: كيف إذا طُلب الله منا أن نقتل المشركين كافة؟

رأينا: نحن نظن أن قتل المشركين تعني منعهم، قال تعالى:

- ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠﴾ [البقرة: 190]

ولو تدبرنا هذه الآية الكريمة، لوجدنا أنه لا يجب على المؤمنين أن يبدءوا غيرهم بالقتال، بل وجب عليهم أن يصدوا من بدأهم القتال فقط. فالهدف من المقاتلة هو المنع، أي منع المشركين من الاعتداء على المؤمنين، فإذا ما توقفوا عن إيذاء المؤمنين، فلا يكون هناك داع لمقاتلتهم، لأن ذلك يقع إذا في باب الاعتداء. وهذه الأمور مجتمعة تظهر جلية - برأينا- حتى في قتال المشركين عند المسجد الحرام:

- ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾﴾ [البقرة: 191]

وقد كان النبي مطالبا بقتال المشركين وقتلهم (أي منعهم)، لكن لنتذكر بأن "قتلهم" لا يمنع أن يقع بعض المشركين في الأسر، لكن الله أمر النبي أن لا يكون له أسرى، فعليه أن يشد وثاقهم في الأسر حتى تضع الحرب أوزارها. لكن ما أن تضع الحرب أوزارها حتى يكون لزاما على النبي التصرف بهؤلاء الأسرى بواحدة من طريقتين: إما منا وإما فداء:

- ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾﴾ [محمد: 4]

نتيجة مفتراة 1: ما كان للرسول أن يكون له أسرى على الدوام لأن ذلك يعد من باب الإثخان في الأرض

نتيجة مفتراة 2: في حالة الحرب يجب أن يشد الوثاق على الأسرى، فلا يترك لهم مجال للهرب

نتيجة مفتراة 3: خلال مدة الأسر، يجب الإحسان للأسرى بإطعامهم الطعام (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا)

نتيجة مفتراة 4: ما أن تضع الحرب أوزارها حتى يصبح لزاما التصرف بهؤلاء الأسرى إما بالمنّ أو بالفداء

السؤال: ما علاقة هذا كله بتذبيح وتقتيل أبناء بني إسرائيل من قبل فرعون نفسه وآله من بعده؟

جواب مفترى من عند أنفسنا (1): كان آل فرعون يقتلون أبناء بني إسرائيل

- ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾ [الأعراف: 141]

جواب مفترى من عند أنفسنا (2): كان فرعون وقومه يذبحون أبناء بني إسرائيل

- ﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ٤٩﴾ [البقرة: 49]
- ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ٦﴾ [إبراهيم: 6]
- ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٤﴾ [القصص: 4]

السؤال: ما الفرق بين تقتيل أبناء بني إسرائيل من جهة وتذبيح أبناء بني إسرائيل من جهة أخرى؟

رأينا المفترى: لو دققنا في الآيات الخاصة بتقتيل أبناء بني إسرائيل، لوجدنا على الفور أن آل فرعون هم من كانوا يقتلون أبناء بني إسرائيل، وأنهم كانوا أيضا يذبحون أبناء بني إسرائيل، لكن فرعون نفسه كان فقط يذبح أبناء بني إسرائيل، ولا نجد آية تدلنا على أنه كان يقتلهم.

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن التقتيل يعني المنع، فآل فرعون (وليس فرعون نفسه) هم الذين تكفلوا بأن يصدوا أبناء بني إسرائيل، فيحدّوا من تصرفاتهم (فكانوا بذلك يقتلونهم فلا يجد أبناء بني إسرائيل حرية التصرف كما يشاءون في أرض مصر كما كانوا في سابق عهدهم في العصر الملكي. لذا، نحن نتجرأ على القول بأن آل فرعون هم الذين قتلوا أبناء بني إسرائيل (أي منعوهم من الحركة أو التصرف بحرية).

لكن إذا ما وجد آل فرعون أن أحدا من أبناء بني إسرائيل قد تجرأ على العصيان والوقوف في وجه آل فرعون، ورفض إطاعة الأوامر من آل فرعون، فإن مصيره سيكون الذبح (إنهاء الحياة) وليس فقط القتل (الحد من حرية التصرف).

ومن متطلبات هذا التفكير (ربما الخاطئ) هو الظن بأن فرعون وآله لم يعمدوا إلى ذبح كل أبناء بني إسرائيل (إنهاء حياتهم)، لأن ذلك يعني بالضرورة الإبادة الكاملة لهم في أرض مصر. لأنه لو كان هذا قد حصل فعلا على أرض الواقع، لحق لنا إذن أن نسأل: من أين جاء بنو إسرائيل الذي عاد موسى مطالبا فرعون بأن يرسلهم معه؟

- ﴿فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦ أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٧﴾ [الشعراء: 16-17]

فحتى عندما دخل موسى المدينة على حين غفلة من أهلها، وجد فيها على الفور رجلين يقتتلان، كان أحدهما من شيعته والآخر من عدوه:

- ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [القصص: 15]

السؤال: كيف نستطيع تبرير وجود بني إسرائيل في أرض مصر بالرغم أن فرعون وآله كانوا يقتلون ويذبحون أبناء بني إسرائيل في أرض مصر؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الخروج من هذا المأزق يتمثل بالتفريق بين تقتيل بني إسرائيل في أرض مصر على يد آل فرعون وتذبيح أبناء بني إسرائيل على يد فرعون نفسه وآله. ونحن نتخيل أن التقتيل يعني كبت الحريات ومنعهم من القيام بأي نشاط إلا بإذن آل فرعون، وهذا هو – برأينا ربما الخاطئ- التقتيل (أي منع الشخص عن القيام بأي عمل يريده وعمل كل شيء يريده قاتله). فأنت إن منعت طفلك من اللعب مع أقرانه في الحي، فأنت قد قتلته من هذا الباب، وإن أنت منعت نفسك (لشح في نفسك) عن شراء طعام ترغبه، فأنت قد قتلت نفسك من هذا الجانب. وهكذا. لكن الذبح يعني إنهاء الحياة لا محالة، كما حصل مع إبراهيم لو أنه نفّذ ما راءه في منامه:

- ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات: 102]

إذن، لو حصل أن أحدا من أبناء بني إسرائيل قد عمد إلى الوقوف في وجه آل فرعون ورفض عملية تقتيلهم له، فإن مصيره سيكون الذبح (إنهاء الحياة) لا محالة.

السؤال: ما علاقة هذا كله بقصة الفرعون الطفل الذي تربى في بيت الرجل الصالح مع موسى وهارون؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن هذا الطفل ما كان ناقما على بني إسرائيل في يوم من الأيام، وما عمد إلى تقتيل أو تذبيح أبناء بني إسرائيل، فالذي كان يذبح أبناء بني إسرائيل هو الفرعون الأول (قائد الجند) الذي استولى على السلطة بعد الانقلاب على الحكم الملكي:

- ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص: 4]

وقد كان هذا الفرعون الأكبر منذ اللحظة الأولى عدوا لله وعدو لبني إسرائيل بمن فيهم موسى:

- ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾﴾ [طه: 39]

وهذا الفرعون هو الذي لم يكن ينجب الأطفال بدليل أن امرأته قد طلبت الإبقاء على حياة موسى، فلا يقتلوه، وذلك ليكون قرة عين لها ولبعلها، فينفعهم أو يتخذوه ولدا:

- ﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٩﴾ [القصص: 9]

أما فرعون الثاني الذي اعتلى عرش مصر بعد موت الفرعون الأول (نحن نرى) لم يقتل أبناء بني إسرائيل، وجل ما فعله هو أنه عبدهم كما جاء على لسان موسى:

- ﴿وَتِلۡكَ نِعۡمَةٞ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنۡ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٢٢﴾ [الشعراء: 22]

فتصبح الصورة في ذهننا على النحو التالي:

تذبيح أبناء بني إسرائيل: إنهاء حياتهم

تقتيل أبناء بني إسرائيل: حد حرياتهم ومنعهم عن التصرف بأي شيء إلا بموافقة آل فرعون

تعبيد أبناء بني إسرائيل: تخفيف القيد عن الحريات وتسخيرهم لخدمة آل فرعون

فما أن اعتلى الفرعون الجديد (ذاك الذي كان طفلا زنيما) عرش مصر حتى وجد قومه منه العجب بأنه قد عمد إلى تخفيف قيود الحرية عن قوم موسى (وهم الطائفة التي كان الفرعون القديم يذبح أبناءها)، فكان خطابهم له على النحو التالي:

- ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ ...١٢٧﴾ [الأعراف: 127]

فكان رده المباشر على النحو التالي:

- ﴿... قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ١٢٧﴾ [الأعراف: 127]

فما أن اعتلى عرش مصر حتى اتخذ سياسة جديدة تتمثل بأن يذر موسى وقومه، فلا يذبحهم ولا يقتلهم ولكن يستعبدهم فقط. الأمر الذي لم يكن ليرضي الملأ من قوم فرعون، فحاولوا الاستفسار عن سر هذه السياسة الجديدة (وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ)، لكن لما كان هذا الفرعون الجديد غاية في الذكاء، لم يصرح لهم بأنه يتخلى عن سياسة تقتيل أبناء بني إسرائيل السابقة كليا، فأكد لهم أنه لازال ينتهج هذه السياسة (تقتيل أبناء بني إسرائيل). لكنه لا شك أقنعهم بأن هذا ليس وقته، فهو مشغول الآن بما هو أهم من ذلك، وسيفرغ لبني إسرائيل لاحقا، ويستمر في سياسية تقتيل بني إسرائيل متى ما حان الوقت المناسب لذلك. فهم برأيه لا يشكلون خطرا داهما يجب معالجته في الحال ماداموا أنه وقومه فوقهم قاهرون (وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ)، لكن يمكن تأجيل التقتيل إلى حين، حتى الانتهاء من ما هو أهم من ذلك بكثير (وهو ما سنتناوله لاحقا بإذن الله).

لكن في حقيقة الأمر، كان هذا الفرعون الجديد (نحن نتخيل) غير راغب إطلاقا في سياسة تقتيل بني إسرائيل وإن كان لازال في العلن يتبنى تلك السياسة التي كان ينتهجها سلفه (الفرعون الأول).

السؤال: لماذا لم يظهر هذا الفرعون الجديد لقومه رغبته بعدم تقتيل أبناء بني إسرائيل كما كان في عهد سلفه (الفرعون الأول)؟

رأينا المفترى: لما كان الرجل يعرف أن رغبة آله لازالت شديدة في استمرار تقتيل بني إسرائيل، لم يكن ليثير غضبهم في تغيير هذه السياسة علانية دون سابق إنذار. فهو لا يريد أن يظهر خصومة مع أحد منهم مادام أنه قد تولى الحكم قريبا، فهو يريد أن يوطن أركان حكمه ويحكم قبضته على البلاد وعلى آله وقومه أولا.

لذا كان في الحقيقة مصرا على المضي قدما في سياسته التي يتبناها في السر دون إثارة المشاكل في العلن. فالرجل – بكلمات بسيطة- كان يبطن في سره ما لا يظهره للملأ من قومه في العلن.

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن السبب في ذلك يعود إلى أن هذا الفرعون الجديد لم يكن يعادي بني إسرائيل. فنقمة هذا الرجل لم تكن منصبة على بني إسرائيل، لكنه لم يكن ليظهر هذا للعلن حتى لا يثير حفيظة آله في الحال.

السؤال: مع من كانت إذا مشكلة هذا الفرعون الجديد؟ وما هي الخطة التي كان يحاول أن ينفذها الرجل على أرض الواقع دون إثارة حفيظة من حوله من آله؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن مشكلة فرعون الجديد هذا كانت أولا وأخيرا مع قومه. فالرجل ناقم على قومه أشد النقم، فهو يحاول أن يثأر منهم بأشد أنواع الانتقام التي يمكن أن تخطر على بال بشر.

السؤال: لماذا؟ ما الذي تقول يا رجل؟

رأينا المفترى: نعم، نحن نفتري الظن بأن نقمة فرعون الحقيقية كانت منصبة على قومه جميعا.

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: لما كان هذا الفرعون الجديد هو الولد غير الشرعي لقائد الانقلاب العام الذي انقلب عليه قائد العسكر لاحقا لنجاح الانقلاب على الحكم الملكي، كان يعلم يقينا بأن والده هو صاحب الحق الشرعي في الحكم، ولكن قائد العسكر هو الذي انقلب على والده وسلب منه الحكم. كما كان يعلم بأن الفرعون العسكري الذي سلب الحكم من والده ربما نكل بأمه أشد التنكيل، فقد رأى بأم عينه (نحن نتخيل) بأن قومه قد تخلوا عن والده (صاحب الحق الشرعي في الحكم)، وانحازوا إلى جانب القوة التي كان يملكها قائد الجند الذي وصل لسدة الحكم، فطوعوا رقابهم لهذا الفرعون العسكري، وهنا وجد هذا الطفل بأن قومه فعلا قوما فاسقين:

- ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾ [النمل: 12]
- ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [القصص: 32]
- ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزخرف: 54]

ليكون السؤال هو: ما معنى أنهم كانوا قوما فاسقين؟ ولم جاء الوصف القرآني لقوم فرعون على أنهم فعلا قوما فاسقين؟

جواب مفترى: نحن نظن أن الفاسقين هم الذين ينقضون العهد من بعد ميثاقه، قال تعالى

- ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [البقرة: 26-27]
- ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأعراف: 101-102]

وليس أدل على ذلك من أن قوم موسى أنفسهم قد أصبحوا قوما فاسقين يوم أن نقضوا ميثاق ربهم كما تصوره الآيات الكريمة التالية أحسن تصوير:

- ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [المائدة: 24-25]
- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ [الصف: 5]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: من عاهد عهدا مع الله أو مع الناس، ثم نكث بعهده هذا فهو إذن من الفاسقين. وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- في السياق القرآني التالي:

- ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا

وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [التوبة: 75-80]

فهؤلاء قد عاهدوا الله، ولكن لما آتاهم الله ما طلبوا، نكثوا بعهدهم، فأصبحوا من القوم الفاسقين الذين لا يهديهم الله. والآيات التالية تبين جميعا أن هذه الفئة من الناس لن تحصل على الهداية من الله إطلاقا:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [المائدة: 106-108]
- ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: 24]
- ﴿قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [التوبة: 53]
- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ يَسۡتَغۡفِرۡ لَكُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوۡاْ رُءُوسَهُمۡ وَرَأَيۡتَهُمۡ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾﴾ [المنافقون: 5-6]

السؤال: ما الذي يجعل الشخص من الفاسقين؟

جواب مفترى: نحن نظن أن محرك الفسق الأول هو الاستكبار. انتهى.

الدليل

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن أن الفسق قد بدأ أصلا مع الشيطان:

- ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف: 50]

فما فعله الشيطان (نحن نفتري القول) هو فسق. ولكن ما الذي جعل الشيطان يفسق عن أمر ربه؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن فسق الشيطان كان الكبر، قال تعالى:

- ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الأعراف: 12-13]
- ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾ [ص: 76]

ولو دققنا في الآية الكريمة التالية، لوجدنا بأن الفسق من أفعال المترفين:

- ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء: 16]

نتيجة مفتراة: نحن نفتري الظن بأن مترفي القوم هم على وجه التحديد من يقومون بفعل الفسق.

السؤال: ما معنى الفسق؟ وكيف يمكن للشخص أن يصبح فاسقا؟ ومتى يمكن أن نطلق على شخص ما بأنه فاسق؟

رأينا المفترى: لو تدبرنا معنى الفسق في الآية التي تتحدث عن الشيطان:

- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف: 50]

لوجدنا بأن الشيطان كان مأمورا أن ينصاع لأمر آدم، لكنه فسق، وذلك - برأينا طبعا- لأنه رفض السجود آدم، وكان ذلك بسبب كبر في فيه، فكان بذلك قد فسق عن أمر ربه.

نتيجة مفتراة: الفسق هو إذن (نحن نفتري الظن) رفض الانصياع للأمر الشرعي وبالتالي رفض أمر الولي الشرعي. فمن كان صاحب الولاية الشرعية (كآدم)، وجبت له الطاعة. ومن يرفض الانصياع لصاحب الولاية الشرعية، فهو بذلك قد فسق.

السؤال: ما علاقة هذا بقوم فرعون؟ ولم كان فرعون الجديد هذا ناقما على قومه؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن فرعون كان ناقما على قومه لأنه كان يعلم أنهم قوما فاسقين، وذلك لأنهم لم ينحازوا إلى جانب صاحب الحق الشرعي في الحكم، وهو والده (قائد الانقلاب على الحكم الملكي)، ولكنهم انحازوا إلى جانب صاحب القوة (قائد العسكر) الذي لم يكن له حق شرعي في عرش مصر، فكانوا بذلك قوما فاسقين. فهم قوم لا يرضون بالحق ولا يدافعون عن الشرعية، ولا ينحازون إلى صاحب الحق في الولاية، بل ينحازوا لمن بيده القوة والسلطة، لطمع في أنفسهم. فهم بمجملهم قوما عالين:

- ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمًا عَالِينَ ٤٦﴾ [المؤمنون: 46]

لذا، كان الكبر هو المسيطر على نفوسهم كما كان إبليس متكبرا، فكانت النتيجة الطبيعية أن يخرج منها وهو من الصاغرين:

- ﴿قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ١٣﴾ [الأعراف: 13]

نتيجة مهمة جدا: فسق الشيطان عن أمر ربه لأن فيه كبر، فأخرج منها، فكان من الصاغرين.

ولو تتبعنا حال آل فرعون، لوجدنا الصورة نفسها. فقد كانوا مستكبرين (إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ)، وكانوا قوما عالين (وَكَانُواْ قَوۡمًا عَالِينَ)، وبذلك استحقوا أن يخرجوا منها، ليرثها قوم آخرين:

- ﴿فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ٥٧ وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ٥٨ كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٥٩﴾ [الشعراء: 57-59]

فكما أخرج الله إبليس من جنته بسبب كبره، أخرج الله آل فرعون من مصر بسبب كبرهم، وكما كان إبليس من الصاغرين، انقلب فرعون ومن معه فكانوا صاغرين:

- ﴿فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ١١٩﴾ [الأعراف: 119]

السؤال: كيف تحقق ذلك على أرض الواقع؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: كان فرعون يحضر للانتقام من قومه الفاسقين شر الانتقام، فكيف سينفذ خطته بالطريقة المثلى؟

افتراء خطير جدا جدا: كان فرعون يعرف تماما هذه السنن الكونية، فكان يعرف بأن القوم الفاسقين، لابد أن يقع عليهم العذاب، كما كان يعرف أنهم سيُخرجوا من الجنات والعيون والمقام الكريم إذا ما عَلوْا وتكبروا، ففسقوا. لذا عمد الرجل أن يقدم لهم كل ما من شأنه أن يزيد من كبرهم وعلوهم، ويزيد في فسقهم:

- ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ١٦﴾ [الإسراء: 16]

لذا كان فرعون (نحن لازلنا نتخيل) يخطط أن يوقعهم في شر أعمالهم: أن يتكبروا فيعْلوا، فيفسقوا، فينقلبوا صاغرين، وبالتالي يُخرجوا – لا محالة- من الجنات والعيون والزروع والمقام الكريم.

السؤال: كيف نفّذ فرعون ذلك على أرض الواقع؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: ما أن مات الفرعون الأول، حتى أصبحت المدينة كلها في غفلة:

- ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [القصص: 15]

ونحن نظن أن المدينة كانت كلها على غفلة، وذلك لأن الفرعون العسكري (كما افترينا القول في مقالات سابقة) قد مات ولم يكن له وريث شرعي ليرقى عرش مصر حينئذ بصورة سلسة، لذا آل الحكم إلى الملأ، وحينها جاء رجل من أقصى المدينة ليحذر موسى مما يأتمر به الملأ:

- ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [القصص: 20]

فكان الأمر برمته بيد الملأ، فهم في هذه اللحظة (في غياب الفرعون الذي مات للتو) من كانوا أصحاب القرار حينئذ. وفي هذه اللحظة خرج موسى خائفا يترقب، وذلك لأن همّ الملأ الأول كان حينئذ التخلص من موسى، لأنه عاد إلى المدينة في هذه الظروف السياسية غير المستقرة، وبالتالي كان موسى هو الشخص الوحيد المؤهل لقيادة بني إسرائيل في هذه الظروف الصعبة، وبالتالي احتمالية الانقلاب عليهم، وحصول حرب أهلية طائفية ربما تأكل الأخضر واليابس. فكان لابد من تأجيل كل شيء (حتى خلافاتهم الداخلية إن وجدت حينئذ)، والتآمر على موسى بقتله، وهذا ما ورد على لسان الناصح لموسى الذي جاءه يسعى من أقصى المدينة:

- ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [القصص: 20]

فقد اتخذ الملأ قرارهم بأن الأولوية عندهم حينئذ هي قتل موسى (قائد بني إسرائيل)، فكانت نصيحة الرجل الذي جاء من أقصى المدينة لموسى هو الخروج من المدينة في الحال. وبالفعل أصبح موسى في المدينة خائفا يترقب، فخرج منها في الصباح الباكر متجها نحو مدين:

- ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ [القصص: 21-22]

وما أن خرج موسى من المدينة حتى التفت الملأ من جديد إلى الأمر الآخر على أجندتهم وهو اختيار الفرعون الجديد الذي سيعلو عرش مصر، وذلك لأن الفرعون السابق لم يكن له ولد ليكون هو الوريث الشرعي للعرش. فكيف انتهى بهم الأمر؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأن الملأ كانوا منقسمين (كالعادة) على أنفسهم، فالكل يطمع بالوصول إلى كرسي الحكم (وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ)، وليس عندهم مشكلة في أن يكونوا قوما فاسقين، أي بمعنى أن لا يأتمروا جميعا بأمر صاحب الحق الشرعي. فالجميع منافس قوي على السلطة. لكن لمّا كان هناك

توازن في القوى بين الأطراف الطامعة، لم يستطع طرف منهم أن يتغلب على الأطراف الأخرى المنافسة له. فكيف سيتم اختيار الفرعون الجديد في ظلّ هذا التنافس المحتدم بينهم على السلطة؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: كانت الخطة التي اتفق عليها الجميع هو أن لا يصار إلى اختيار الفرعون الجديد من أطراف النزاع جميعا، وأن يتم اختيار الفرعون من غيرهم، ولكن حتى يحافظ الجميع على مصالحه، كانت خطتهم الشيطانية تقضي بأن يصار إلى تنصيب فرعون جديد يكون فيهم ضعيفا، لا تسانده قوة تستطيع أن تفسد عليهم مكاسبهم التي تحصلوا عليها في زمن الفرعون السابق. فكان لابد من اختيار شخص من آل فرعون لا تدعمه قوى نافذة، وهنا بالضبط وقع اختيارهم على هذا الصبي الزنيم الذي تربى في بيت الرجل الذي يكتم إيمانه من آل فرعون. فهذا الصبي – هم يظنون- ضعيف لا تسانده أي قوة.

السؤال: كيف استطاع هذا الصبي الزنيم أن يجعل من نفسه خيارا مفروضا للوصول إلى العرش؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن الإجابة على هذا السؤال تكمن في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٥﴾ [القلم: 7-15]

لو تدبرنا هذه الآيات الكريمة، لربما حق لنا أن نطرح التساؤلات التالية:

- ⇐ من هو هذا الحلاف المهين؟
- ⇐ من هو الذي كان مطلوب منه أن لا يطع هذا الحلاف المهين؟
- ⇐ ما معنى أن يكون هماز مشاء بنميم؟
- ⇐ كيف كان معتد أثيم؟
- ⇐ لماذا كان ذا مال وبنين؟ فمن أين جاء بهذا المال؟
- ⇐ كيف كانت تتلى عليه آيات الله؟
- ⇐ لماذا قال عنها أساطير الأولين؟
- ⇐ الخ.

افتراء خطير جدا جدا: نحن نظن بأن الخطاب في هذه الآية كان موجها مباشرة لمحمد، فجاءه التحذير الشديد بأن لا يطع كل حلاف مهين، خاصة من كان هماز مشاء بنميم، ومن كان مناع للخير معتد أثيم.

السؤال: من هو الشخص الذي انطبقت عليه هذه الصفات على وجه التحديد؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: إنه فرعون الزنيم. انتهى.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: بداية، لابد من التنبيه إلى عدم الاقتباس من هذا الكلام خارج سياقه، ونطلب من القارئ الكريم أن لا يتعجل بالقفز إلى نتائج من عند نفسه، ثم يتهمنا بناء على فهمه هو بما لم نقل نحن. فمن أراد أن يتقدم بعد هذه السطور خطوة واحدة فعليه أن يقسم بالله أن لا يبوح بهذا الكلام لأحد. فهو كلام جد خطير، ومن أراد الوقوف على تفاصيله فعليه أن يقرأه من أوله وحتى آخره من هنا فقط. وذلك لأننا سنحاول في عجالة أن نعيد قراءة سيرة النبي الكريم بين أهله في مكة قبل البعثة. فنحن لا نتفق تماما مع كل ما جاء في كتب السيرة، لأنها تحوي - برأينا طبعا- من المتناقضات ما قد يصعب على المستمع البسيط من مثلي فهمها كما يجب. لذا سنعيد النظر في هذه السيرة الكريمة، طارحين بداية بعض التساؤلات التي قد تكون للوهلة الأولى غريبة، وربما لا ترضي أصحاب العقائد الذين درجوا على الدفاع عن ما وصلهم من عند آبائهم الأولين دون تمحيص ولا تدقيق. لذا، سنفتح ملفا خاص لإعادة قراءة السطور العريضة لتاريخ سيرة الرسول الكريم في أهله في مكة قبل بعثته. فالله نسأل أن لا نفتري الكذب ونعوذ به وحده أن نقول ما ليس لنا بحق، إنه وحده هو السميع العليم.

أما بعد،

باب إبراهيم ومحمد مقابل باب فرعون

دعنا نفتح هذه الأبواب الثلاثة بالافتراء الخطير جدا التالي: نحن نظن بأن الحياة الاجتماعية التي عاشها إبراهيم ومحمد تقابل وتتشابك في خطوطها العريضة مع الحياة الاجتماعية التي نشأ فيها فرعون. وأول هذه التشابهات والتقاطعات تتمثل في طفولة كل واحد منهم (جملة ذهبية للمتصيدين في الظلام). فنحن نعتقد أن أول هذه التقاطعات تتمثل في أنهم قد نشئوا جميعا كأيتام. فإبراهيم قد نشأ يتيما في عائلة كان أبوه هو سيد قومه، ولكنه كان على عادة عبادة الشيطان:

- ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ۝٤٤﴾ [مريم: 44]

فثار هذا الفتى على والده وعلى قومه أجمعين. فكاد لأصنامهم:

- ﴿۞ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۝٥١ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝٥٢ قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۝٥٣ قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٥٤ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ۝٥٥ قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٥٦ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ۝٥٧﴾ [الأنبياء: 51-57]

السؤال: من هو أبو إبراهيم هذا؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن أب إبراهيم هذا هو جده وليس والده المباشر. فإبراهيم قد تربى يتيما في كنف جده. وكان لهذا الجد أولادا كثيرين، لكن كان من بينهم ولد واحد مات في حياته ولم يترك وراءه إلا ولدا واحدا وهو إبراهيم، فكان إبراهيم هو ابن الولد المتوفي لهذا الجد. بالضبط كما نشأ محمد يتيما في أهله، فكان في كنف جده. وهذا ما نفهمه من الآية الكريمة التالية:

- ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ۝٤٦﴾ [مريم: 46]

فلو دققنا في هذه الآية الكريمة لوجدنا فيها شيئا من الغرابة تتمثل بوجود مفردة (أَنتَ) في الآية الكريمة. فلِم لَم تأت الآية بدون هذه الكلمة على النحو التالي:

- ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ ... عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ۝٤٦﴾ [مريم: 46]

ألم يكن ذلك يفي بالغرض؟ فلم جاءت هذه المفردة هنا؟

تخيلات مفتراة: لما كان إبراهيم هو الحفيد لهذا الأب، ولما كان أبوه (أي جده) يعطيه من الرعاية ما لم يكن يحظى بها غيره، ولما وجد الجد في هذا الحفيد من الرشد ورجاحة العقل ما يكفي لأن يعول عليه أن يحل مكانه في القادم من الأيام، نزل قرار إبراهيم بالانفصال عن دين أبيه كالصاعقة على رأس الأب. فالأب كان يتوقع مثل هذا القرار من جميع أبنائه باستثناء إبراهيم، فجاء استغرابه على نحو أنه أنت بالذات يا إبراهيم من تتخذ مثل هذا القرار:

- ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ۝٤٦﴾ [مريم: 46]

فنحن نفتري الظن بأن الحياة الاجتماعية التي عاشها إبراهيم في طفولته في قومه تتقاطع كثيرا مع الحياة الاجتماعية التي عاشها محمد في فترة طفولته في قومه. فكلاهما عاش يتما في كنف جده (أبيه).

وكان من نتاج هذه الطفولة القاسية أن تولدت في أنفسهما ثورة عارمة على الإرث الأبوي الذي كان سائدا حينئذ. وهنا يبرز السؤال التالي: لماذا؟

⇐ لماذا ثار إبراهيم على قومه؟
⇐ لماذا ثار محمد على قومه؟

أما بالنسبة لإبراهيم، فقد كان طفلا سليم القلب، فهو أصلا من جاء الله بقلب سليم:

- ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ۝٨٣ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٤﴾ [الصافات: 83-84]

فقد كان إبراهيم كطفل - في كنف جده- مراقبا واعيا لما يفعل جده (كبير الكهنة) في القوم من حوله. فأبوه هذا كان يجعل القوم يعبدون آلهة من دون الله، وهي الأصنام التي كانوا لها عابدين، لكن الرجل نفسه كان يعبد الشيطان:

- ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ۝٤٤﴾ [مريم: 44]

فاكتشف إبراهيم (الطفل الصغير) الشر الذي كان يفعله أبوه هذا. ففي حين أنه يطلب من القوم عبادة الآلهة المتعددة، كان هو نفسه لا يعبد هذه الأصنام لأنه يعلم يقينا أنها لا تنفع ولا تضر، لكنه كان يتعامل مع

الشيطان. فالشيطان هو من كان ينفذ لهذا الرجل مآربه. ولما كشف الصبي إبراهيم خطته، ثارت ثائرته، فنهر إبراهيم على الاستمرار في ذلك، وتوعده بالرجم:

- ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾ [مريم: 46]

فالرجل إذن يعمل صفقة مهادنة مع إبراهيم تتمثل في أن يكف إبراهيم عن التعرض لآلهته، وإذا لم يفعل فسيقع عليه العذاب بالرجم. عندها أدرك إبراهيم حجم عناد أبيه هذا وإصراره على المضي قدما في تنفيذ تهديده له بالرجم حفاظا على مكتسباته التي حصل عليها من تجارته بالدين بين قومه، فكان قرار إبراهيم على النحو التالي:

- ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾ [مريم: 47-48]

السؤال: أين اعتزل إبراهيم قومه؟

رأينا المفترى: كان إبراهيم باحثا صادقا عن الحقيقة، موجها جهده كله للتعرف على ربه الحقيقي. فاعتزل قومه حتى تحصل له ما أراد كما جاء في الآية الكريمة التالية:

- وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (78) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79)
- ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: 75-79]

تساؤلات

⇐ كيف رأى إبراهيم ملكوت السموات والأرض؟
⇐ وما هو أصلا ملكوت السموات والأرض؟
⇐ وكيف أصبح بذلك من الموقنين؟
⇐ لماذا اعتقد إبراهيم أن الكوكب هو ربه؟
⇐ لماذا اعتقد أن القمر هو ربه؟

- لماذا اعتقد أن الشمس هي ربه؟
- لماذا اقتصر البحث على هؤلاء الثلاثة فقط (الكوكب والقمر والشمس)؟
- لماذا جاء اعتقاده بهم على هذا الترتيب؟
- ما علاقة هذا بقصة يوسف الذي رأى الشمس والقمر والكواكب تسجد له؟
- كيف عرف أن الشمس هي أكبر مما سبقها؟
- ما معنى أن هذه الأجرام قد أفلت؟
- لم ظن إبراهيم أنها ليست ربه مادام أنها قد أفلت؟
- لماذا وجه وجهه للذي فطر السموات والأرض؟
- كيف عرف أن الذي فطر السموات والأرض لا يأفل؟
- الخ

نحن نظن بداية أن إبراهيم قد توصل إلى أن يرى ملكوت السموات والأرض. ولو دققنا في هذه المفردة، لوجدنا (كما ذكرنا في مقالات سابقة لنا) أن ملكوت السموات والأرض هي بيد الله نفسه، قال تعالى:

- ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [المؤمنون: 88]

لذا، ربما يحق لنا أن نستنبط أن إبراهيم قد رأى ما بيد الله نفسه، لذا كان قادرا على تمييز هذه الأشياء على حقيقتها. ولعل هذا العلم لا يقتصر على إبراهيم نفسه، لأن الله طلب منا جميعا أن ننظر في ملكوت السموات والأرض:

- ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [الأعراف: 185]

فالنظر في ملكوت السموات والأرض إذن - من حيث المبدأ- متاح للجميع. وقد توصل لها إبراهيم بنفسه. فأصبح قادرا على أن يرى ما خلق الله من شيء.

(فالله وحده نسأل أن يرينا ملكوت السموات والأرض كما أراه إبراهيم، ولنكون من الموقنين، إنه هو السميع البصير- آمين)

وقد لفت انتباه إبراهيم من بين جميع ما خلق الله في ملكوت السموات والأرض ثلاثة على وجه التحديد وهي الكوكب والشمس والقمر. ليكون السؤال الآن: لماذا هذه الثلاثة على وجه التحديد؟ ولم كانت ثلاثة فقط؟ لِم لم يكتفي إبراهيم باثنتين منها؟ ولم لم يزد على ذلك فتكون أربعة أو خمسة مثلا؟

رأينا المفترى الخطير جدا: نحن نفتري الظن أن فكرة الإله تحمل في ثناياها فكرة التثليث، فالمعتقدين في الديانات الوثنية كانوا يتصورون الإله بهذا المنظور الثلاثي، وهكذا انتقلت الفكرة إلى أهل الديانة المسيحية،

فهم يتحدثون عن الإله ككينونة ثلاثية (الآب والابن وروح القدس). ولو دققنا في الديانة الإسلامية لوجدنا أن أول ما نفتتح به كلام الله هو قولنا:

- ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾ [الفاتحة: 1]

فنحن إذن نتحدث عن الله الرحمن والرحيم. ليكون السؤال هو: لم لا نقول بسم الله وكفى؟ لم نقول بسم الله الرحمن الرحيم؟ فهل نؤمن نحن المسلمين أن الله ثلاثة؟

جواب مفترى: كلا وألف كلا. فالله واحد أحد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد.

- ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: 1-4]

وقد نهانا الله أن نقول أن الله ثلاثة:

- ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝١٧١﴾ [النساء: 171]

ونهانا أن نتخذ إلهين اثنين:

- ﴿۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ۝٥١﴾ [النحل: 51]

وأمرنا أن نشهد أنه إله واحد:

- ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝١٩﴾ [الأنعام: 19]
- ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٥٢﴾ [إبراهيم: 52]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: لما كانت فكرة التثليث فكرة مقبولة في الفكر الديني القديم، كان على إبراهيم أن يتفكر في ثلاثة خيارات فقط لتكون هي ربه، ومادام أن إبراهيم قد رأى ملكوت السموات والأرض، لذا كانت هذه الخيارات الثلاثة وهي الشمس والقمر المؤهلة أن تكون رب من دون خلق الله جميعا. فما نظر إبراهيم في غيرها. ولو دققنا أكثر في الآيات الكريمة نفسها، لوجدنا أن اثنتين منها تبزغ وهي الشمس والقمر، لكن جميعها تأفل:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٧٩﴾ [الأنعام: 79-75]

السؤال: ما الذي جعل إبراهيم يتخلى عنها جميعا كرب له؟

جواب مفترى: لأنها جميعا قد أفلت. انتهى.

السؤال: وما معنى أنها قد أفلت؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الأفول لا يعني الغياب (كما صور لنا ذلك الفكر الشعبي الدارج) وذلك لأن مفردة الغياب حاضرة بقوة في النص القرآن، قال تعالى:

- ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ٧﴾ [الأعراف: 7]
- ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ ٢٠﴾ [النمل: 19-20]
- ﴿وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ١٦﴾ [الانفطار: 16]

ليكون السؤال الحتمي هو ما الفرق بين الغياب والأفول؟ أو ما الفرق بين من كان من الغائبين أو من كان من الآفلين؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الغياب يعني التخفي عن النظر لفترة محددة من الزمن. فالهدهد كان من الغائبين لكن ما هي إلا فترة وجيزة حتى ظهر للعيان وما عاد من الغائبين بعد ذلك. ولو دققنا أكثر لوجدنا أن الغياب لا يكون بطريقة يمكن التنبؤ بها. فالشخص قد يغيب فجأة وقد يظهر فجأة. فالغياب إذن غير منتظم. لكن الكوكب والشمس والقمر يستحيل أن يكونوا من الغائبين، وذلك لأن موعد ظهورهم وغيابهم يمكن التنبؤ به. ولو دققنا أكثر لوجدنا بأن الكوكب والشمس والقمر تظهر جميعا وتغيب جميعا في أوقات ثابتة محددة. فالشمس تظهر في النهار وتغيب في الليل، أما القمر فيظهر في الليل ويغيب في النهار، وكذلك الكوكب.

نتيجة مفتراة: الأفول هو الظهور والغياب المتكرر في أوقات محددة لا تتغير، وهي تتم بطريقة منتظمة يمكن التنبؤ بها بسهولة ويسر.

السؤال: لماذا رفض إبراهيم أن تكون هذه ربه مادام أنها تأفل (أي تغيب وتظهر بشكل متكرر ومنظم)؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن أبسط أنواع التفكير هو الظن بأن الإله الحق يستحيل أن يغيب فترة ويظهر فترة أخرى بشكل منتظم ومكرر، لذا يستحيل أن يكون الإله هو إله في الليل ثم ما يلبث أن يغيب في النهار أو العكس.

السؤال: لكن كيف عرف إبراهيم أن الإله الحق لا يأفل؟ هل استطاع إبراهيم أن يراقب الإله نفسه؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن الذي جعل إبراهيم يتخلى عن هذه الكينونات هو أنه قد رءاها بأم عينه.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: لما كان إبراهيم قد رأى ملكوت السموات والأرض، لذا وصل إلى القناعة بأن الإله الحق يستحيل أن يكون كينونة يمكن رؤيتها، فمن كان إله حق يجب أن لا تدركه الأبصار:

- ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ١٠٢ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٠٣ قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ١٠٤ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ١٠٥﴾ [الأنعام: 102-105]

فخالق كل شيء يستحيل أن يكون مثله شيء، ولعل من أبسط ما يميز الإله عن الأشياء هو أن لكل شيء ملكوت:

- ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٨٣﴾ [يس: 83]

فلو كان الله شيئا (كباقي الأشياء) لكان له ملكوت، ولأصبح محطا للأبصار، ولأمكن إدراكه بالبصر، لكن الله هو فاطر كل شيء:

- ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ٤٦﴾ [الزمر: 46]

ونحن نظن أن فاطر الشيء لا يمكن أن يكون جزء منه، لأن الفطر هو الانفصال التام (للتفصيل انظر مقالاتنا السابقة). فمادام أن الله قد فطر السموات والأرض، لذا فهو قد فصل تلك الكينونات عنه. فالله كينونة ليس كمثله شيء. فمادام أن الله هو فاطر السموات والأرض، لذا يستحيل أن يكون جزء منهن، ويستحيل أن يكون له ملكوت، وبالتالي يستحيل أن تدركه الأبصار.

نتيجة مفتراة مهمة جدا جدا: نحن نظن أنه من الاستحالة بمكان أن يكون أي شيء في السموات والأرض هو الإله الحق. انتهى.

ولو دققنا بما قاله إبراهيم، لوجدنا أنه يجلب هذه الفكرة في نهاية كلامه في بحثه عن الإله الحق:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٧٩﴾ [الأنعام: 75-79]

فإبراهيم قد وجّه وجهه للذي فطر السموات والأرض (إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ)، وبالتالي تخلى إبراهيم عن كل ما في السموات والأرض أن يكون هو ربه الحق كالكوكب أو القمر أو الشمس. ولكن ربه الحق هو الذي فطرهن كما جاء قول إبراهيم مرة أخرى في معرض حديثه مع قومه عن ربه وربهم أجمعين:

- ﴿۞وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ٥١ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ٥٢ قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ٥٣ قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٥٤ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ٥٥ قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٥٦﴾ [الأنبياء: 51-56]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نفتري القول بأن الإله الحق هو فاطر السموات والأرض، وهو الذي لا تدركه الأبصار، وهو الذي يَملك ولا يُملك، لذا يستحيل أن يكون له ملكوت، ولكن مادام أن لكل شيء ملكوت، فذلك الملكوت بيده:

- ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٨٣﴾ [يس: 83]

نتيجة مفتراة: لما رأى إبراهيم ملكوت السموات والأرض، أيقن الرجل بأن السموات والأرض لهن ملكوت، لذا يمكن رؤية كل ما في السموات والأرض، لكنه أيقن في الوقت ذاته أن ملكوت السموات والأرض بيد من فطرهن وهو الإله الذي وجه وجهه إليه حنيفا:

- ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٧٩﴾ [الأنعام: 79]

نتيجة مفتراة: الإله الحق هو الذي لا يُرى، لذا يستحيل أن يتخذ إبراهيم شيئا يمكن إدراكه بالبصر كإله.

ويُبنى على هذا الظن معرفة إبراهيم الحقيقة بما في السموات والأرض، وكان أول ما ذكره إبراهيم عن هذه الأشياء الثلاثة التي ظن أنها ربه في البداية هي حقيقة مثيرة للتدبر تتمثل في أن بعضها أكبر من البعض الآخر. فقد أدرك إبراهيم أن الشمس هي الأكبر:

- ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ ... ﴾ [الأنعام: 78]

السؤال: كيف عرف إبراهيم أن الشمس أكبر؟ وما معنى أن تكون الشمس أكبر؟

رأينا المفترى: غالبا ما ظن القارئ لهذه الآية بأن مفردة أكبر لها علاقة بالحجم، فهو يظن بأن الشمس أكبر من حيث الحجم من القمر وربما من الكوكب. وهذا ما نرفضه جملة وتفصيلا. فنحن نظن (ربما مخطئين) بأن مفردة أكبر لا ترتبط فقط بالحجم، ولكن لها علاقة بالزمن. فصحيح أن مفردة أكبر تقابل مفردة أصغر في النص القرآني:

- ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [يونس: 61]
- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٣﴾﴾ [سبأ: 3]

لكن المفردة نفسها لها علاقة أيضا بعامل الزمن. فهاهم إخوة يوسف ينعتون والدهم بأنه شيخ كبير:

- ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [يوسف: 78]

السؤال: هل يقصد الأولاد أن أباهم شيخ كبير في حجمه؟

وها هن بنات شعيب يصفن والدهن بأنه أيضا شيخ كبير:

- ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ﴿٢٣﴾﴾ [القصص: 23]

فهل كان القصد أن أباهن كان كبيرا في حجمه؟

جواب مفترى: كلا وألف كلا. نحن نظن أن "الكبر" هنا له علاقة مباشرة بعامل الزمن. فالكبر قد يصيب الإنسان عندما يتقدم به الزمن:

- ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾ [البقرة: 266]

نتيجة مفتراة: نحن نظن بأن إبراهيم قد رأى الشمس أكبر لأنها ليست فقط أكبر حجما من القمر ولكن لأنها أقدم زمنيا أيضا.

السؤال: متى حصل إبراهيم على هذا العلم؟ ومن أين حصل عليه؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن الآيات التالية ربما تسعفنا (إن نحن فهمناها جيدا) في تسليط الضوء على هذه الجزئية من البحث، قال تعالى:

- ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأنبياء: 55-56]

فالآيات الكريمة تصور جانبا من الحوار الذي جرى بين إبراهيم من جهة وقومه من جهة أخرى. ولو دققنا في السياق لوجدنا القوم يسألون إبراهيم عما جاءهم به:

- قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (55)
- ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنبياء: 55]

وهنا نتوقف لطرح التساؤل المعهود عن مفردات الآية خاصة قول القوم لإبراهيم (أَجِئْتَنَا)، ليكون السؤال هو: لماذا قال القوم لإبراهيم أَجِئْتَنَا ؟

ألم يكن إبراهيم فيهم؟ لم قالوا إذن أَجِئْتَنَا ؟

رأينا المفترى: لو تفقدنا مفردة المجيء في النص القرآني، لوجدنا على الفور أنها تحمل في ثناياها معنى الانتقال من مكان إلى مكان آخر، قال تعالى:

- ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾﴾ [الأعراف: 111-113]

- ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٩٠﴾ [التوبة: 90]
- ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ۝٧٨﴾ [هود: 78]
- ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ۝١٦﴾ [يوسف: 16]
- ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ۝١٩﴾ [يوسف: 19]
- ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٨﴾ [يوسف: 58]
- ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٠٠﴾ [يوسف: 100]
- ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٢٠﴾ [القصص: 20]
- ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢٠﴾ [يس: 20]
- ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢ وَجِا۟ىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٢٣﴾ [الفجر: 22-23]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن المجيء يحمل في ثناياه الانتقال المكاني.

السؤال" لماذا قال القوم لإبراهيم (أَجِئْتَنَا)؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن إبراهيم قد غاب عن القوم فترة من الزمن، فهو قد اعتزلهم من ذي قبل، وما أن رجع إليهم حتى طالبهم بترك عبادة الأصنام. ولما كان القوم لا يعرفون المكان الذي كان إبراهيم متواجدا فيه خلال فترة غيابه عنهم، توجهوا إليه بالخطاب التالي:

- ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ۝٥٥﴾ [الأنبياء: 55]

فما كان رد إبراهيم على تساؤلهم هذا إلا أن قال:

- ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٥٦﴾ [الأنبياء: 56]

فإبراهيم الآن يعلم أن الله هو فاطر السموات والأرض، وهو على ذلك من الشاهدين. فكيف يشهد إبراهيم على أن الله هو الذي فطر السموات والأرض؟

رأينا المفترى: دعنا نربط هذا السياق القرآني مع السياق القرآني التالي على وجه التحديد:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ۝٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ۝٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ۝٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٧٩﴾ [الأنعام: 75-79]

ولو دققنا في ذلك أكثر، لربما حق لنا أن نستنبط بأن محاورة إبراهيم لقومه قد جاءت بعد أن رأى إبراهيم ملكوت السموات والأرض، وبعد أن تخلى عن اتخاذ الكوكب والقمر والشمس كرب له، وبعد أن وجّه وجهه للذي فطر السموات والأرض حنيفا.

السؤال: أين تحصل ذلك العلم لإبراهيم؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن هذا العلم قد تحصل لإبراهيم في مكان ما خلال فترة غيابه عن قومه.

السؤال: أين غاب إبراهيم عن قومه فترة من الزمن؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نظن أن هذا تساؤل كبير جدا، ربما يصعب (نحن نظن) الإجابة عليه إلا أن نفهم تشابه العلاقة بين قصة إبراهيم وقصة محمد من جهة مع قصة فرعون من جهة أخرى.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن العلم قد جاء إبراهيم ومحمد (وكذلك بفرعون) بطرق متشابهة جدا مع الإدراك المسبق بأن محمدا وإبراهيم قد قادهم الحصول ذلك العلم إلى الإيمان، بينما قاد الحصول على العلم فرعون على الكفر والنكران. لذا، دعنا نحاول الوقوف على التشابهات في تلك القصص الثلاثة منذ فترة الطفولة الأولى لكل منهم. ولنبدأ بقصة محمد قبل أن تتحصل له الرسالة، أي المرحلة التحضيرية للحصول على الرسالة.

أما بعد،

نحن نفهم أن السورة الكريمة التالية كلها تصور لنا ما حصل مع محمد حينئذ:

- ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١﴾ [الضحى: 1-11]

كما نتجرأ على الظن بأن ذلك يتقاطع بشكل كبير مع ما حصل مع إبراهيم وما حصل مع فرعون من ذي قبل. ولكن يجب التأكيد أولا أن هذا سيناريو مفترى من خيالنا، قابلا لأن يكون خاطئا،، لكن الهدف الرئيس من طرحه هو فقط محاولة النظر إلى الأمور من زوايا جديدة ربما تفتح لاحقا آفاقا في التدبر لنا بإذن الله وللآخرين إن شاء الله. وفي حالة أنه لم يفتح آفاقا جديدة للتدبر، فلا نتردد بأن نضرب به عرض الحائط، محاولين البحث عن ضالتنا بطريقة أخرى، سائلين الله وحده أن يؤتينا رشدنا، ونعوذ به وحده أن نكون ممن يفترون عليه الكذب أو ممن يقولون عليه ما ليس لهم بحق – آمين.

بداية، نحن نتجرأ على الظن بأن هذه السورة موجهة بشكل مباشر لشخص النبي الكريم، وهي (نحن نظن جازمين) من أوائل ما نزل عليه من القرآن العظيم. لذا، فهي تقدم لنا (إن نحن أحسنّا فهمها) تفصيلا كاملا لحياة النبي الكريم في تلك المرحلة من حياته، الأمر الذي يجعلنا نتوقف عندها فترة من الزمن لنطرح جملة من التساؤلات التي إن استطعنا الإجابة عليها (بحول الله وتوفيقه) ستتضح أمام أعيننا ملامح تلك السيرة العطرة بشيء من التفصيل ربما غير المسبوق، وستفضي لا محالة (إن صحت تصوراتنا طبعا) إلى أفهام جديدة ربما تسعفنا في تحليل سياقات قرآنية أخرى ذات صلة وثيقة بالموضوع، وأخص بالذكر هنا ما حصل مع إبراهيم في مرحلة بداية بعثته وما حصل مع فرعون في مرحلة ما قبل وصوله إلى سدة الحكم على أرض مصر.

التساؤلات

⇐ ما معنى والضحى والليل إذا سجى؟
⇐ وما علاقة هذا ببقية الآيات في السورة نفسها؟
⇐ وكيف نفهم كل آية من آيات هذه السورة القرآنية العظيمة؟
⇐ وكيف يمكن من خلالها أن نخرج بتصور أكثر دقة وتفصيلا لحياة النبي الكريم في مرحلة ما قبل البعثة؟
⇐ كيف يمكن أن نربط ذلك كله بقصة إبراهيم في قومه؟
⇐ كيف يمكن أن نربط ذلك كله بقصة فرعون في قومه؟
⇐ الخ

لو حاولنا أن نتدبر مفردة الضحى كما ترد في النص القرآني، لوجب علينا بداية استعراض جميع الآيات التي ترد فيها هذه المفردة ومشتقاتها على مساحة النص القرآني، ومن ثم محاولة فهم معنى هذه المفردة كما تبينها هذه السياقات القرآنية مجتمعة. وعند البحث عن المفردة نفسها، وجدناها قد وردت في السياقات التالية:

- ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٩٨ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ۝٩٩﴾ [الأعراف: 98-99]
- ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ۝٥٩ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ۝٦٠ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ۝٦١ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ ۝٦٢﴾ [طه: 59-62]

ووجدنا مشتقاتها قد وردت في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ۝١١٩﴾ [طه: 119]
- ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ۚ بَنَاهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ۝٢٨ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ۝٢٩﴾ [النازعات: 27-29]
- ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ۝٤٦﴾ [النازعات: 46]
- ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝٢ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٤﴾ [الشمس: 1-4]

السؤال: ما معنى الضحى كما تبينه هذه الآيات الكريمة مجتمعة؟

رأينا المفترى: بناء على فهمنا لما جاء في هذه الآيات الكريمة، فإننا نفتري الظن بأن الضحى هو وقت محدد بذاته، فهو الوقت الذي يمكن أن يقع فيه العذاب الإلهي على قوم من الأقوام (أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا)، وهو الوقت الذي يمكن أن يحدث فيه اللعب (أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ). ولو دققنا أكثر، لوجدنا بأن وقت الضحى هو الوقت الذي يقع فيه المكر الإلهي:

- ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٩٨ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ۝٩٩﴾ [الأعراف: 98-99]

وربما من هذا الباب (نحن نظن) جاء اختيار موسى موعد اللقاء فيه مع فرعون وسحرته:

- ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ۝٥٩ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ۝٦٠ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ۝٦١ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ ۝٦٢﴾ [طه: 59-62]

فاختيار موسى بنفسه لهذا الوقت بالذات (ليكون هو الموعد بينهم) لم يكن غير مخطط له أو أنه قد جاء من قبيل المصادفة. فموسى (نحن نؤمن) يعلم السنة الإلهية بوقوع العذاب على الظالمين، وهو يعلم - لا شك عندنا- أن وقت وقوع العذاب على الظالمين هو نفسه وقت نجاة المؤمنين. ففي ذلك الوقت بالذات يقع الحق ويبطل الباطل ولو كره الكافرون، وليس أدل على ذلك من الموعد الذي حدده رسل ربك عندما جاءوا عبد الله (لوط) لإيقاع العذاب في قومه:

- ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ٨١﴾ [هود: 81]

إن مراد القول هنا (نحن نتجرأ على الظن) بأن الضحى مرتبط بالشمس (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا)، وهذا الوقت هو وقت بزوغ الشمس، وفي ذلك الوقت بالذات تبدأ قطرات الندى بالتساقط بعد عملية التكثيف الذي يحصل لبخار الماء في وقت الصباح الباكر مع بداية وصول أشعة الشمس الدافئة للتفصيل انظر مقالاتنا السابقة حول ما جاء في الآيات الكريمة التالية الخاصة بسكن آدم وزوجه الأول في الجنة:

- ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ١١٩﴾ [طه: 118-119]

حيث افترينا القول آنذاك بأن مفردة تَضْحَى تعني خروج السائل من الجسم بالتبول بعد تجمعه.

إن ما يهمنا طرحه في هذا السياق هو ارتباط الآية الأولى في سورة الضحى بالآيات التالية في السورة ذاتها:

- ﴿وَٱلضُّحَىٰ ١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ١١﴾ [الضحى: 1-11]

فالنهار هو الذي يجلي الشمس (أي يظهرها جلية للعيان) والليل هو الذي يغشي الشمس (فيغطيها عن أعين الناظرين):

- ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ٤﴾ [الشمس: 1-4]

فالليل والنهار (نحن نتصور) كما الستارة أو البرداية بالدرجة الأردنية (أو curtains بالمفردات الإنجليزية) التي تضعها على شباك الغرفة وتحركها بالخيط بشكل تدريجي ومنتظم. فعندما يسحب الخيط الأسود يبدأ الليل يسدل سواده على الأرض وذلك بحجب أشعة الشمس شيئا فشيئا حتى يغطي الشمس كاملة، فيحل الظلام. وعندما يسحب الخيط الأبيض يودي ذلك إلى انكشاف البرداية السوداء عن الشمس شيئا فشيئا، فيكون ذلك تجلية للشمس، وظهور النهار المبصر. ويكون ذلك هو الإيلاج، أي يلاج الليل بالنهار وإيلاج النهار بالليل:

- ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٦﴾ [الحديد: 6]

والضحى (وهو برأينا) الوقت السابق لتجلية الشمس تماما وقت النهار حيث يكون النهار مبصرا:

- ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ٦٧﴾ [يونس: 67]

فهو الوقت الذي تبدأ فيه ستارة الليل الولوج (الدخول التدريجي) في ستارة النهار، فيبدأ النهار بالظهور شيئا فشيئا.

ومن هذا الباب (نحن نرى) سميت الأضحية بهذا السبب، وذلك لأنها تنحر في ذلك الوقت على وجه التحديد:

- ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ٣﴾ [الكوثر: 1-3]

السؤال: ما علاقة هذين الوقتين (الضحى من جهة والليل إذا سجى من جهة أخرى) مع ما جاء بعدها مباشرة؟

- ﴿وَٱلضُّحَىٰ ١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ١١﴾ [الضحى: 1-11]

لو دققنا في الآية الثالثة، لوجدنا البيان الإلهي بأن رب محمد ما ودع نبيه وما قلى. ليكون السؤال الآن هو: ما علاقة هذا بذاك؟ أي ما علاقة البيان الإلهي بأنه ما ودعه ولا قلى بالضحى والليل إذا سجى؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن هذين الوقتين هما الوقتان اللذان يفتر فيهما الوحي. فما بين فترة الضحى (مع ذهاب الليل وقدوم النهار المبصر) إلى الوقت الذي يسجي الليل (أي يبدأ الليل يغشى النهار) تنقطع علاقة الرسول بالوحي. لكن البيان الإلهي جاء لمحمد بأنه بالرغم من انقطاع الوحي في هذين الوقتين (كما نتصور نحن ربما مخطئين) إلا أن ربه ما ودعه وما قلى. وذلك لأن الله بين لنبيه الكريم أنه دائم المراقبة له:

- ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ٤٨ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ٤٩﴾ [الطور: 48-49]

إن ما يهمنا طرحه هنا هو أن الاتصال المباشر للنبي بالوحي كان في الليل، لكن خلال النهار عندما يبدأ الضحى وحتى بداية الليل عندما يسجي تكون هناك مراقبة دائمة للنبي حتى بانقطاع الوحي عنه.

ومن هنا (نحن نظن) جاء البيان الإلهي للنبي بأن لا ينظر إلى فترة انقطاع الوحي عنه فيما بين هذين الوقتين بأنه توديع له (فهو معه بشكل دائم) كما أن ذلك لا يقع في باب القلى.

السؤال: ما معنى عبارة (مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ)؟

السؤال 2: ما معنى عبارة (وَمَا قَلَىٰ)؟

أما عبارة مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ فهي برأينا تخص الفراق بين طرفين. فعندما يريد أحد الطرفين المتواجدين في مكان ما ترك هذا المكان والانتقال إلى مكان آخر (كما في حالة السفر)، يحصل وداع بينهما. فالمفردة بحد ذاتها تحمل في ثناياها معنى حصول اللقاء مسبقا. فيستحيل (نحن نظن) أن يحصل الوداع إذا لم يكن الطرفان متواجدان معا قبل الوداع.

فعند لقاء موسى ربه في الواد المقدس طوى، كان هناك موعد بين الطرفين:

- ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ۝٥١﴾ [البقرة: 51]

ولما حصل اللقاء استمر لفترة محددة من الزمن، ثم كان لابد من نهاية لهذا اللقاء، فلابد أن نهاية اللقاء تكمن على وداع؛ فعندما يُضرَب موعد للقاء يكون ذلك على نحو (واعد) وعند نهاية اللقاء يكون ذلك وداع. ولو حاولنا النظر إلى ذلك من خلال الرسم القرآني (وهو ما لا أحبذ الدخول في تفصيلاته كثيرا قبل نضوجه ليرقى إلى مستوى العلم القابل للتطبيق العملي)، لربما تجرأنا أن نشط بالخيال لنفتري القول من عند أنفسنا بأن رسم حرف العين (ع) يحمل في ثناياه معنى الرؤية (المقابلة وجها لوجه) وأن حرف الدال (د) يحمل في ثناياه تحول الروية (الفراق وتولي الوجه إلى جهة معاكسة تماما). لذا فإن مفردة "وعد" تفهم على نحو رؤية بعد غيبة، بينما مفردة "ودع" تحمل في ثناياها معنى الغياب بعد اللقاء.

نتيجة مفتراة: كان البيان الإلهي للنبي يحمل في ثناياه أن غياب الوحي عنه في فترة انقطاعه خلال النهار يقع في باب الوداع. فرب محمد لم يودعه في ذلك الوقت.

أما عبارة ما قلى، فنحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأنها صيغة الفعل الماضي المسند إلى ضمير الغائب "هو" (كما يحب النحويون تسميته) للفعل قلّ الذي يرد في الآيات التالية:

- ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ۝٧﴾ [النساء: 7]

فالقلة هي إذن عكس الكثرة:

- ﴿وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ۝٤١﴾ [البقرة: 41]

فالفعل الماضي قلّ إذا جاء منسوبا لشخص، فإنه يصبح على نحو قلى. وإذا جاء على صيغة الفعل المضارع، فإنه يصبح على نحو ما جاء في الآية الكريمة (يقلل)

- ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنفال: 44]

السؤال: كيف إذن نفهم الآية الكريمة:

- ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الضحى: 3]

رأينا المفترى: نحن نظن أن هذا تبيان للنبي بأن انقطاع الوحي عنه في فترة النهار لا يقع في باب الوداع التام (كما أسلفنا) ولا يقع أيضا في باب التقليل من الاتصال معه.

نتيجة مفتراة خطيرة جدا جدا: إن هذا الظن (ربما غير الدقيق) يحمل في ثناياه الافتراء الخطير التالي: كان النبي في حالة اتصال مباشر بالوحي في الليل، وكان الوحي ينقطع عنه بالنهار ولكنه يبقى مراقبا مراقبة دائمة:

- ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾ [الطور: 48-49]

السؤال: أين كان يحصل الاتصال المباشر لمحمد بالوحي؟

رأينا المفترى: لما كان محمد يتيما، كان من المفترض أن يكون هناك من يتولى رعايته، فمن الذي تولى رعاية هذا اليتيم حتى اشتد ساعده وأصبح قادرا على إعالة نفسه؟

رأينا المفترى: لو رجعنا إلى سيرة محمد قبل بعثته كما وردتنا من عند أهل الدراية على لسان أهل الرواية، لربما وجدنا فيها من الغرابة ما قد يثير الشكوك حول تلك الروايات التي تعرضت لسيرته منذ ولادته وحتى بعثته. لذا سنحاول جاهدين أن ننسج خيوط القصة من جديد، ظانين أن هناك الجديد الذي يمكن أن نقدمه، لكن لا نستثني في الوقت ذاته احتمالية أن نقع في بعض الأخطاء. لذا، نحن نطلب من القارئ الكريم أن ينظر إلى رأينا هذا بعين الناقد للأفكار وليس بعين المقلد الذي ربما يرضى بكل ما يقرأ.

وحتى نستطيع نسج خيوط القصة من جديد، فإننا سنبدأ بطرح كل التساؤلات الممكنة، سواء تلك التي ربما نجد لها بعض الإجابات في كتب السيرة أو تلك التي لا نجد لها إجابات. فالغاية هي تشكيل صورة أوضح للأحداث في ذهن القارئ لتلك السيرة الكريمة، وبالتالي الخروج من بعض المتناقضات التي ربما تربك الباحث عن الحقيقة بغض النظر عن خلفيته ودوافعه.

تساؤلات

⇐ من هو محمد؟

⇐ من والده؟

- ⇐ من والدته؟
- ⇐ كيف تزوج والده بوالدته؟
- ⇐ من هو أب محمد؟
- ⇐ من هي أمه؟
- ⇐ لماذا كانت له مرضعة؟
- ⇐ لماذا كانت له مربية؟
- ⇐ من الذي كفله بعد موت والده ووالدته؟
- ⇐ هل تكفل به أحد من أهله (بني عبد المطلب)؟
- ⇐ هل تكفل به أحد من عشيرته الأقربين (بني هاشم)؟
- ⇐ لماذا رعى الغنم في غير عشيرته؟
- ⇐ لماذا تزوج بخديجة على وجه التحديد؟ (رعاية الأيتام والتقرب من ورقة بن نوفل)؟
- ⇐ لماذا كان يلجأ إلى الغار حتى بعد زواجه؟
- ⇐ الخ

ربما لا نجد الكثير من التفاصيل في كتب السيرة عن قصة زواج والد النبي (عبد الله بن عبد المطلب) بوالدة النبي (آمنة بنت وهب) على وجه التحديد. فجل ما نجده عن هذا الزواج هو اسم الزوج (عبد الله) واسم الزوجة (آمنة). لكن قلما نعرف عن تلك المرأة التي تزوجها ذلك الرجل، وبكلمات أكثر دقة، نحن نظن أنه قلما نجد إجابات مرضية للتساؤلات التالية: متى تزوجها عبد الله؟ لماذا تزوجها؟ من هي من حيث النسب؟ لماذا كانت من خارج مكة؟ لِم لم يتزوج من بنات مكة؟ كيف حصل الزواج مادام أنها ليست من أهل مكة؟ كيف تعرف عليها زوجها؟ من هي عائلتها الضيقة (كاسم أبيها وأمها وإخوانها وأخواتها)؟ كم لبثت مع زوجها في مكة؟ لماذا لم تمكث في مكة بقية حياتها؟ لِم لم تتزوج من رجال مكة (وخاصة من بيت عبد المطلب أو بني هاشم) بعد موت زوجها؟ لم عادت إلى أهلها بني النجار (كما تقول مع الروايات) بعد موت زوجها؟ لِم لم تأخذ طفلها معها؟ لم تركت امرأة أخرى ترضع لها طفلها؟ لم عادت إلى مكة بعد فترة من الزمن؟ لماذا كان للنبي مربية مادامت أمه على قيد الحياة؟ ما الذي حصل في طريق عودتها إلى مكة بعد غياب عنها؟

وعند البحث في قضية إرضاع الطفل محمد، نجد في كتب التراث العجب العجاب، مما يدفعنا إلى إثارة تساؤلات لا تقل إثارة عن سابقتها مثل: لِم كان لمحمد مرضعة غير أمه؟ لِم لم ترضعه أمه بنفسها؟ فلم تقبل امرأة (أي امرأة) توفي عنها زوجها أن تترك طفلها الوحيد فترة طويلة من الزمن في يد امرأة أخرى لترضعه لها؟ ألم يكن الأولى أن ترضع هي بنفسها طفلها الوحيد؟ ألم تكن مدفوعة بعاطفة الأمومة؟

ولو تعرضنا لفكرة إرضاع النبي من قبل من تسمى بحليمة السعدية كما جاء في كتب التراث، لأثرنا حول القضية عدة تساؤلات، نذكر منها: لِم كان محمد من نصيب هذه المرأة بالذات؟ كيف نفهم أن المرأة قد أشفقت على هذا الطفل فآثرت أن تعود به بدل أن تعود خالية اليدين؟ ولم أصلا كان الناس يرسلون أولادهم مع المرضعات؟ وهل فعلا كان كل الأطفال في مكة يرسل بهم إلى البادية مع المرضعات؟ ماذا كانت إذن تفعل

نساء مكة حينئذ؟ وهل فعلا كانت تنشأ علاقة أمومة حقيقية في أرض مكة مادام أن النساء كن يبعثن بكل أطفالهن مع المرضعات؟!

وإذا دققنا أكثر في حادثة الرضاعة، فإننا نثير بعض التساؤلات الغريبة من مثل: إذا كان محمد مولود لبني عبد المطلب، فلم نجد أن كتب السيرة تخبرنا بأنه لم يجد من يدفع لمرضعته أجر الرضاعة؟ فلم أشفقت المرأة عليه وآثرت أن تأخذه حتى دون أجر كغيرها؟ هل عجز عبد المطلب (كسيد من سادات مكة) أن يدفع لمرضعة حفيده (خاصة أن والده قد مات قريبا)؟ إذا كان عبد المطلب عجز عن ذلك، فلم لم يدفع له أعمامه العشرة (كأبي طالب والعباس وحمزة وأبي لهب وغيرهم) كما جاء في كتب التراث؟ هل عجزت هذه العائلة التي تصورها لنا كتب التراث على أنها من أرقى عائلات مكة حسبا ونسبا أن يدفعوا لمرضعة ابنهم الطفل الصغير الذي فقد والده للتو؟ الخ.

ما رأيكم أن نترك القصص المنسوجة في كتب التراث، ونحاول إعادة نسج خيوط القصة بطريقة جيدة، ربما تكون (برأينا) أكثر وجاهة وإن كنا لا نستثني احتمالية الخطأ في التصور.

أما بعد

نحن نظن أن زواج والد النبي (عبد الله بن عبد المطلب) بوالدة الرسول (آمنة بنت وهب) فيها من الغرابة ما يستدعي الانتباه، ليكون السؤال الأول هو: من هي والدة النبي آمنة بنت وهب هذه؟

رأينا المفترى، لعل أرجح الأقوال التي وصلتنا تتمثل في أن آمنة بنت وهب هي من بني النجار من يثرب. ولو دققنا في اسمها، لوجدنا بأن الاسم ليس من الأسماء المألوفة عند العرب. فالاسم "آمنة" هو – نحن نرى- من الأسماء ذات الطابع الديني المسيحي واليهودي، وأن الاسم "وهب" هو من الأسماء التي كانت شائعة عن اليهود. وليس أدل على ذلك من بعض أسماء أحبار اليهود كـ وهب بن منبه مثلا. ولعل قصة زواج عبد الله بهذه المرأة يدل على أن الرجل كان منفتحا على ثقافات الآخرين، فرحلاته بين أرض الشام وأرض الحجاز، ومروره في يثرب كان لها طابعا ثقافيا، اكتسب من خلالها الرجل علما بثقافات وديانات الشعوب الأخرى. فنحن نتخيل أن الرجل لم يكن يخرج في هذه القوافل التجارية لغايات اقتصادية بحتة فقط وإنما أيضا لغايات علمية معرفية. فكان الرجل مخالطا لهذه الشعوب، محاولا التعرف على ثقافاتها ودياناتها. فكان محبا لها، وليس أدل عن حبه لها من أنه آثر الزواج منهم، مبتعدا بعض الشيء عن الأعراف السائدة في مكة آنذاك. فالمجتمع المكي كان مجتمعا عشائريا يرفع من قيمة العشيرة ويعلي من فكرة الأنساب.

تخيلات غريبة: لما رجع الرجل في إحدى حملاته خارج الجزيرة مصطحبا زوجة له من أهل تلك الديار التي حط ترحاله بها، وجد أهله أن هذا التصرف ربما لا يتماشي كثيرا مع تقاليد الآباء والأجداد. فقد نظروا إليه نظرة الخارج عن التقاليد والأعراف السائدة في مكة. فما لاقى زواجه ذاك (نحن نتخيل) كثيرا من الترحاب من أهل مكة وخاصة من أهله وعشيرته المقربين. وما أن أنجبت هذه المرأة طفلها الأول حتى كان الوالد خارج البلاد وقد وافاه الأجل هناك.

السؤال: ما الذي كان يجب أن يحصل في مثل هذه الظروف؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: لو دققنا في القصة في سياقها التاريخي والاجتماعي حينئذ، لوجدنا أن الحل الأمثل في مثل تلك الظروف هي أن يصار إلى أن تتزوج تلك المرأة بواحد من أهل الرجل أو عشيرته المقربين، لتبقى في أهل زوجها خاصة أنها قد أنجبت طفلا يعود في نسبه إلى هذه العشيرة. فلم لم تتزوج المرأة بواحد من أهل مكة وخاصة من أبناء عبد المطلب أو بني هاشم؟ نحن نسأل.

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن المرأة قد رفضت الزواج بأحد من أبناء عبد المطلب أو بني هاشم أو حتى من أهل مكة وذلك لسبب عقائدي. فلقد كان من المفترض (نحن نتخيل) أن ترضى المرأة بالزواج بواحد من أهل مكة لتبقى قريبة من طفلها، فلم لم يحصل ذلك؟

تخيلات مفتراة: لما كانت المرأة (نحن نتخيل) على عقيدة غير عقيدة أهل مكة (وهي العقيدة الوثنية)، لم تكن لترضى بأن تتزوج بمن كان وثنيا حتى لو كان ذلك على حساب أن تترك ولدها وتعود إلى أهلها في يثرب. لكن عودتها هذه لم تكن ممكنة بصحبة ولدها، وذلك لأن أهل الطفل لم يكونوا ليقبلوا إرسال ولدهم معها خاصة أنهم يعرفون أن الولد سينشأ في بيئة عقائدية تختلف عن عقائدهم في مكة. لذا كانت المفاوضات معها على أساس أن تعود إلى أهلها بنفسها (مادامت غير راغبة في الزواج بأحد من رجالات مكة) وتترك الولد في أهله في مكة. وبالفعل فعلت، فرجعت المرأة إلى أهلها، وكان لابد من أن ينتقل الولد إلى من ترضعه في أهله.

السؤال: هل كان كل طفل في مكة يرسل مع مرضعة في البادية؟ هل فعلا كان الهدف أن يتعلم الطفل البلاغة والفصاحة؟

رأينا المفترى، كلا وألف كلا. لم يكن كل أطفال مكة يرسلون إلى البادية للرضاعة. ولم يكن الهدف هو أن يتعلم الطفل الفصاحة والبلاغة لعدة أسباب، نذكر منها:

أولا، هل من الضروري أن تبعث كل والدة بولدها إلى البادية ليرضع من غيرها؟ هل فعلا لم تكن نساء مكة يرضعن أطفالهن أطلاقا؟ ماذا لو آثرت أم من نساء مكة أن لا تبعث بولدها؟ هل كانت تُجبر على أن تبعث بولدها مع المرضعات؟ وهل كانت الولادة في مكة تحدث في فصل محدد من السنة وهو الفصل الذي تأتي فيه المرضعات؟ وماذا لو حصلت ولادة لطفل (وهذا لا محالة أكيد) بعد رحيل المرضعات بيوم أو يومين أو أسبوع أو أسبوعين أو شهر أو شهرين؟ أليست الولادة في مكة (كما في غيرها) على طول أيام السنة؟

ثانيا، لم يكن الهدف من إرسال الأطفال للرضاعة في البادية من أجل تعلم الفصاحة والبلاعة، وذلك لأن الأطفال الذين أرسلوا إلى البادية يعودون من هناك بعد سنة أو سنتين أو ثلاث على أقصى تقدير، وهذا العمر لا يتيح للأطفال أصلا تعلم الفصاحة والبلاغة بعد، فسن انطلاق اللسان بالكلام يحصل بعد هذه الفترة. فالطفل ذو السنتين أو الثلاثة لم ينطلق لسانه بعد بالبلاغة والفصاحة. فتعلم اللغة يبدأ بعد أن يعود الطفل من البادية في مشوار الرضاعة. ولو كان ما ذكره أهل الدراية عن تعلم الفصاحة في البادية صحيحا، لكان الأولى أن يرسل الطفل إلى البادية بعد أن ينهي فترة الرضاعة ويبدأ لسانه ينطلق بالكلام؟ ولو كان ما قاله أهل الرواية

صحيحا، لربما حق لنا أن نسأل: لِم لم ينزل القرآن في أهل البادية وهم أهل الفصاحة؟ فكيف ينزل القرآن في أهل مكة وهم من كانوا يرسلون أطفالهم (كما تقول الرواية) عند أهل الفصاحة في البادية؟ فمن أحق بالتحدي البلاغي المزعوم أهل مكة (المتعلمون) أم أهل البادية (المعلمون)؟ من يدري؟!!!

السؤال: كيف يمكن أن نتصور قصة إرسال الأطفال إلى البادية للرضاعة؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن إرضاع الطفل في مكة لا يختلف عن إرضاعه في أي مكان آخر على وجه الأرض، وأن إرضاع الطفل في ذلك الزمان لا يختلف كثيرا عن إرضاعه في كل وقت وحين. فالأم هي الأولى بأن ترضع طفلها، ولا يمكن أن تقبل الأم بأن ترضع لها أخرى إلا لسبب مانع حقيقي. فمتى يمكن أن تسند رضاعة الطفل إلى غير أمه؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن إسناد الرضاعة لغير الوالدة الحقيقية لا يتم إلا لأسباب مانعة مثل:

- ⇐ وفاة الأم بعد الولادة
- ⇐ غياب الأم عن المكان بالسفر
- ⇐ مرض يصيب الأم فلا تقوى بسببه على إرضاع طفلها.
- ⇐ الخ

السؤال: لماذا كانت المرضعات يقدمن إلى مكة في فصول محددة؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن المرضعات كن يقدمن إلى مكة في فصول محددة للتكفل بإرضاع الأطفال اللذين لم تقدر والداتهم على إرضاعهم لسبب من الأسباب المانعة كالتي ذكرناها آنفا.

السؤال: لماذا تم إرسال محمد للرضاعة؟

رأينا المفترى: لأن أمه لم تكن موجودة في مكة حينئذ. انتهى.

السؤال: لم لا تصدق الرواية الموجودة في كتب التراث والتي مفادها أن والدة محمد لم تكن قادرة على إرضاع طفلها بسبب نقص اللبن في ثدييها؟

رأينا المفترى: لو عدنا إلى الرواية نفسها في كتب التراث، لوجدنا تصور لنا أن البركة قد دبت في ثديي مرضعته بمجرد أن أخذت الصبي معها، لا بل أن البركة قد دبت حتى في أنعام ودواب القوم، وأن البركة قد نزلت في أرضهم بمجرد قدوم الطفل إليهم. ليكون السؤال: هل الذي دب البركة في هذه المرأة (المرضعة) كان عاجزا أن يدب مثل تلك البركة في ثدي والدته الحقيقية؟ فلم يدب البركة فيمن تكفل الصبي ولا يدب البركة في ثديي أمه نفسها؟ من يدري؟!!!

السؤال: لم تخبرنا كتب التراث أن محمد كان آخر الأطفال الذين وجدوا له مرضعة؟ ولم تخبرنا كتب التراث أن تلك المرأة قد أشفقت عليه بالرغم أنها لم تجد من يدفع لها؟ أليس هو حفيد عبد المطلب (سيد

مكة وزعيمها)؟ ألم ينحر عبد المطلب عشرات الإبل (كما تقول كتب التراث) لمولد والد النبي عبد الله؟ ما بال الرجل الآن لا يجد ما يدفعه لقاء إرضاع حفيده؟ وإذا عجز عبد المطلب عن الدفع، لِم لم ينبري من أبنائه الكثيرين من يسد عن والده؟ أليس له تسعة من الأبناء (غير عبد الله) كأبي طالب وأبي لهب والعباس وحمزة وغيرهم؟ ألا يستطيع هؤلاء فرادى أو مجتمعين أن يدفعوا لقاء إرضاع ابن أخيهم؟ فأين صلات القرابة التي كانت تحرص عليها عائلات مكة العريقة كعائلة عبد المطلب على وجه الخصوص وبني هاشم عامة؟

السؤال: ما الذي حصل على أرض الواقع إذن؟ نحن نتجرأ على طرح السؤال المحير هذا.

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن بني عبد المطلب خاصة وآل هاشم عامة لم يكونوا مسرورين بقدوم الطفل محمد من هذه المرأة الغريبة عليهم وعلى ثقافتهم وعلى عقيدتهم. لذا، نحن نتجرأ على الظن بأن محمدا في طفولته لم يلق الاهتمام الكافي إلا ربما من قبل جده عبد المطلب. فعبد المطلب كان يعامل ولده عبد الله معاملة خاصة ربما تختلف عن معاملته لبقية أبنائه الآخرين، الأمر الذي سبب للأخوة الضيق والحرج مع والدهم. فأبناء عبد المطلب لم يكونوا أكثر حكمة ولا ورعا من أبناء يعقوب الذين كادوا لأخيهم. لذا، عندما مات عبد الله خارج مكة، لم يكن هذا ليدفعهم أن يهتموا بزوجته وبولده الاهتمام اللازم. فما تقدم أحد منهم لأن يتزوج من الأرملة، وما تقدم أحد منهم لأن يضع محمدا بين أبنائه في عائلته الضيقة. لذا، كان الحل الأمثل لعبد المطلب أن يبحث عن مرضعة لهذا اليتيم في خارج حدود مكة. وبالفعل، أرسل الطفل اليتيم مع هذه المرضعة، فكان ذلك من باب درء المشاكل التي يمكن أن تنشب في بني عبد المطلب بوجود هذا الطفل اليتيم فيهم. فأبوه قد مات وأمه قد رحلت من الديار، فكان محمد يتما.

السؤال: من الذي آوى محمدا اليتيم في مكة في غياب والده ووالدته؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن بأن أحد من أهل محمد لم يتكفل بهذه المهمة إطلاقا، فعبد المطلب لا يستطيع (كشيخ كبير) أن يقوم بالمهمة غير أن يجد له مربية كما وجد له مرضعة من ذي قبل، فكان لمحمد مربية وحاضنة هي أم أيمن بركة (كما تقول كتب التراث). ولو تكفل أحد من أبناء عبد المطلب بتلك المهمة في بيته أو أحد من آل هاشم، لما دعت الحاجة (نحن نرى) أن يكون له مربية في غير بيوتهم.

السؤال مرة أخرى: من الذي آوى محمدا اليتيم في طفولته؟

جواب مفترى: نحن نعتقد جازمين أن الذي تكفل بتلك المهمة هو الله. انتهى.

الدليل:

دعنا نعود إلى النص القرآني نفسه، لنبحث فيه عن إجابة لهذا السؤال. قال تعالى:

- ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ [الضحى: 1-11]

لو دققنا في هذه السورة الكريمة، لخلصنا إلى النتيجة التي لا يمكن المجادلة فيها وهي أن الله هو من وجد محمدا يتيما (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ) فآواه (فَآوَىٰ). لذا، دعك عزيزي القارئ الكريم – إن شئت- من الروايات التراثية، وتعال بنا لنفهم كيف آوى الله محمدا عندما وجده يتيما.

أما بعد،

إن من أبجديات فهم النص القرآني هو التعرض لمعاني مفرداته، وأول مفردة وجب علينا تدبرها هنا هي مفردة (فَآوَىٰ)، ليكون السؤال الحتمي الأول: ما معنى هذه المفردة؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: لقد تعرضنا لهذه المفردة في مقالات سابقة لنا خاصة عن الحديث عن قصة ابن نوح الذي قال لوالده:

- ﴿قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ۝٤٣﴾ [هود: 43]

وعند الحديث عن قصة أصحاب الكهف عندما أوى الفتية إلى الكهف:

- ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠﴾ [الكهف: 10]

وكذلك عند الحديث عن مريم ابنت عمران وابنها المسيح عيسى بن مريم:

- ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ۝٥٠﴾ [المؤمنون: 50]

وقد خلصنا إلى القول حينئذ أن الإيواء يتم إلى مكان مرتفع كالجبل (في حالة ابن نوح) أو الكهف (كما في حالة الفتية) أو إلى ربوة (كما في حالة مريم وابنها).

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأنه عندما وجد الله محمدا يتيما، كان التدبير الإلهي هو أن يأوي نبيه إلى مكان مرتفع، فبدأت هناك قصة محمد مع غار حراء.

السؤال: أين يقع غار حراء؟

جواب مفترى: لو بحثت في أي محرك بحث عن هذا المكان، لوجدت الكثير عنه، لكن ما يهمنا من الأمر هو أن هذا الغار يقع في مكان مرتفع من جبل يقع إلى الشرق من مكة ويبعد عنها ما يقرب أربعة إلى خمسة كيلومترات. أي أن المكان ليس بعيدا عن قلب المدينة التي ولد فيها النبي الكريم، فأصبح هو ذلك المكان الذي كان يأوي إليه محمد قبل بعثته.

السؤال: لماذا كان محمد يأوي إلى ذلك الغار ويغيب فيه عن مكة فترات طويلة من الزمن؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن السبب في ذلك يعود إلى أن محمدا كان يتيما، فما وجد بيتا في مكة يؤويه، فكان هو ملاذه ومكان معيشته.

السؤال: متى حصل ذلك؟

رأينا المفترى: لما عادت حليمة بالطفل محمد من رحلة رضاعته، ولمّا توفيت والدته آمنة في طريق عودتها إلى مكة، ولما تُوفي جده عبد المطلب، لم يجد محمد بيتا من بيوت مكة ليسكن فيه، فكان ذلك الغار هو ملاذه ومسكنه.

السؤال: من الذي دلّه على ذلك المكان؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن جازمين أن ذلك كان تدبيرا إلهيا لمحمد، فهو الذي آواه إلى ذلك المكان.

كيف تتخيل حياة محمد في ذلك الغار؟ ولم كانت الحكمة الإلهي على ذلك النحو؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الإجابة على هذا التساؤل يكمن في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٣٣ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٣٤﴾ [آل عمران: 33-34]
- ﴿وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلٗا ۝٢ ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ۝٣﴾ [الإسراء: 2-3]

السؤال: ما علاقة هذه الآيات بموضوع النقاش عن محمد؟

رأينا المفترى: لعلّ السؤال الذي ربما حيّر الكثيرين هو: كيف وصلت النبوة أولا والرسالة بعد ذلك إلى محمد؟

لو دققنا في الآيات السابقة، لربما حق لنا أن نستنبط بأن النبوة هي ذرية بعضها من بعض. فهل كان محمد من ذرية النبوة السابقة؟

رأينا المفترى: نحن لا نستبعد إطلاقا أن يكون محمد نفسه من ذرية النبوة السابقة، وهنا يبرز السؤال الحتمي وهو: كيف يمكن أن نفهم بأن النبوة ذرية بعضها من بعض ليكون محمد من ذرية تلك النبوة؟

جواب مفترى: نحن نظن بأن النبوة قد وصلت محمد عن طريق والدته، وأن العلم الذي تحصل لمحمد كان جله من عند أمه. انتهى.

الدليل

لو تدبرنا الآية الكريمة التالية، لوجدنا أن الرسول كان رسولا أميا:

- ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ١٥٧﴾ [الأعراف: 157]
- ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ١٥٨﴾ [الأعراف: 158]

وأنه قد بعث في الأميين:

- ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ٢﴾ [الجمعة: 2]

السؤال: من هم الأميون أصلا؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الأميين هم الذين كانوا من أم القرى وما حولها:

- ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ٩٢﴾ [الأنعام: 92]
- ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ٧﴾ [الشورى: 7]

السؤال: هل فقط كان الأميون هم قريش (أهل مكة)؟

رأينا المفترى: لو تدبرنا الآية الكريمة التالية، لوجدنا بأن الأميين لا ينحصرون في أهل مكة فقط، ولكنها تشمل أيضا جزء من أهل الكتاب. فالآيات الكريمة التالية تبين لنا ما كان يفعله أهل الكتاب من تحريف لما ينزل من ربنا:

- ﴿۞ أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٧٥ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٧٦ أَوَلَا يَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ ٧٧ وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ٧٨﴾ [البقرة: 75-78]

فالآيات الكريمة تبين بأن الأميين ليسوا محددين بأهل مكة، ولكن جزء من أهل الكتاب هم أميون. ليكون السؤال الآن من هم الأميون الذين بعث الله محمدا فيهم؟

جواب مفترى: لو دققنا في الآية الكريمة التالية:

- ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩﴾ [البقرة: 129]

لوجدنا على الفور أن محمدا منهم، لكنه في الوقت ذاته من أنفسهم:

- ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ١٦٤﴾ [آل عمران: 164]

والآن نصل إلى السؤال المتضارب ظاهريا التالي: كيف يكون محمد منهم وهو في الوقت ذاته من أنفسهم؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: لو دققنا في الآية الكريمة التالية، لوجدنا بأن هناك فرق بين الشخص ونفسه. فالشخص هو الكينونة الذكرية، بينما النفس هي الكينونة الأنثوية، قال تعالى:

- ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢١﴾ [الروم: 21]

فمحمد (كشخص) – كأي شخص آخر- مكون من كينونتين: ذكرية (هو Y) وأنثوية (X)، فمحمد الكينونة الذكرية (Y) ينتمي إلى الأميين قريش، فأبوه عبد الله من قريش، لكن نفسه (X) من الأميين من أهل الكتاب. فكان محمد رسولا منهم (أميين مكة):

- ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩﴾ [البقرة: 129]

وهو في الوقت ذاته من أنفسهم (أميين أهل الكتاب):

- ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ١٦٤﴾ [آل عمران: 164]

لذا، جاء ذكر محمد على لسان عيسى بن مريم:

- ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٦﴾ [الصف: 6]

تخيلات مفتراة: كان العلم متوافرا عند المؤمنين من أهل الكتاب بأن هذا الرسول الذي يجدونه مكتوبا عندهم هو من أنفسهم، فكانوا يتوقعون أن يكون منهم، لكن فاتهم أن هذا الرسول ليس منهم:

- ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩﴾ [البقرة: 129]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: علينا أن نفرق بين أن يكون الرسول من قوم وفي الوقت ذاته هو من نفس المؤمنين. ليكون السؤال هو هل كان أهل مكة من المؤمنين حتى جاء التبيان الإلهي أن محمد قد بعث أصلا في المؤمنين:

- ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ١٦٤﴾ [آل عمران: 164]

فهل كان أهل مكة أصلا من المؤمنين؟ وهل بعث محمد في مكة أصلا في المؤمنين؟ وهل كانت بعثة محمد محصورة في أهل مكة؟ وهل كانت محصورة في المؤمنين من أهل الكتاب؟

جواب مفترى: كانت بعثة محمد للناس كافة، للمؤمنين من أهل الكتاب وكذلك لغير المؤمنين كأهل مكة.

السؤال: كيف يمكن التوفيق بين ذلك؟

رأينا المفترى: لم يكن محمد (ككينونة بشرية) من أهل مكة، أي لم يكن والدته ووالده من أهل مكة، وبالوقت ذاته لم يكن محمد ككينونة بشرية من الأميين من أهل الكتاب، فوالدته ووالده ليسوا من الأميين من أهل الكتاب. فكان محمد لنقل "مزيجا" من هؤلاء وهؤلاء. فكانت كينونته الذكرية من الأميين من أهل مكة وكانت نفسه من الأميين من أهل الكتاب. فهو حلقة الوصل بين الطرفين. فجزء منه ينتمي إلى الأميين من أهل

مكة، وهذه هي الجزئية الذكرية (٧)، وهذا هو انتماؤه الأبوي (عبد الله بن عبد المطلب)، لكن جزءه الآخر (أي نفسه) من المؤمنين الأميين من أهل الكتاب. وهذا هو انتماؤه الأمي (آمنة بنت وهب)

السؤال: ما الحكمة الإلهيه من أن يكون محمد منتميا إلى الأميين من الطرفين (الأميين من أهل مكة والأميين من المؤمنين من أهل الكتاب)؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن هذا تدبير إلهي لتورية الأنظار عن هذا الطفل (مشروع النبي القادم).

السؤال: وكيف يكون ذلك؟ هل يمكن أن توضح أكثر؟ يسأل صاحبنا متعجلا الإجابة كعادته.

رأينا المفترى: لما ظن أهل الكتاب بأن الرسول القادم المكتوب عندهم في التوراة والإنجيل هو من أنفسهم:

- ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: 157]

ظنوا (مخطئين) بأن هذا الرسول سيكون منهم. فكانوا ينتظروه في واحد أبنائهم. ولا شك أن في هؤلاء كان قتلة الأنبياء، ولو حصل أن ظهر النبي فيهم، لما كان مصيره أفضل من مصير غيره ممن سبقوه من أنبياء الله ورسله (كعيسى بن مريم مثلا):

- ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [آل عمران: 112]
- ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾﴾ [النساء: 157]

فانطلى عليهم المكر الإلهي:

- ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: 30]

فكان ذلك حفظا إلهيا لمحمد كما حفظ موسى في بيت عدوه:

- ﴿أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ٣٩﴾ [طه: 39]

أما أهل مكة (الوثنين)، لم يكن ليخطر ببالهم أن نبيا سيخرج فيهم. فذرية النبوة في بني إسرائيل. لذا، لم يلقوا بالا لهذا الطفل اليتيم، فتوارى عن أنظارهم بتدبير إلهي بأن جعل قلوبهم لا تهوى إليه، فما آووه في بيوتهم، فكان الله هو من آواه، فكان مكان سكنه هو ذلك الغار:

- ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ٦﴾ [الضحى: 6]

فحتى أكثر المقربين له (بنو عبد المطلب خاصة وبنو هاشم عامة) لم يكونوا هم من دبروا لهذا الطفل اليتيم المأوى في بيوتهم. وليس أدل على ذلك من قصة رعيه لأغنام غيرهم (كما تقول الرواية). فلو كان بنو هاشم يعترفوا بنسب محمد لهم اعترافهم بنسب أي ولد يولد فيهم لما تركوه (وهم سادة مكة كما تقول الرواية) ليرضوا بأن واحدا من أبنائهم يرعى الغنم أجيرا عند غيرهم. ليكون السؤال: لماذا رضي سادات مكة من آل هاشم أن يتركوا ولدهم يرعى الغنم أجيرا عند غيرهم؟ ولماذا رضي بنو عبد المطلب أن يدعوا ولدهم الذي يبلغ مقتبل الشباب أن يتزوج من أرملة ناهز عمرها الأربعين عاما (كما تقول الرواية)؟

رأينا المفترى: لو كان اعتراف بني عبد المطلب بمحمد اعتراف النسب المعروف حينئذ في أهل مكة، لما رضوا بذلك. فلم لم يدعوا أحدا من أبنائهم الآخرين (كأبناء أبي طالب أو أبناء أبي لهب والعباس وغيرهم) يشتغل كأجرين عند غيرهم؟ ولم لم نسمع أن أحدا من أبناء هؤلاء القوم قد تزوج بأرملة كبيرة بالسن كما حصل مع محمد؟

رأينا المفترى: لما كان بنو عبد المطلب خاصة وبنو هاشم عامة لا ينظرون إلى محمد نظرة الأهل المقربين، لم يكن ذلك ليشغل بالهم كثيرا. فهم يظنون أن هذا الطفل ليس صافي النسب، وأن نسبه في بعضه يعود إلى الأميين من أهل الكتاب، لم تكن نظرتهم إليه في طفولته نظرة العربي الذي يعتز بنسبه. فهو بالنسبة لهم ابن تلك المرأة الغريبة فيهم. فحتى لو كان في بعضه منهم إلا أن فيه – بالنسبة لهم- ما يشوش على هذا النسب العربي الذي كان بالنسبة لهم مصدر عزة وفخار.

نتيجة مفتراة: أهل قريش لم يعيروا محمدا اهتمام كافيا لأن نسبه بالنسبة لهم ليس صاف كغيره من أبنائهم. ففيه شيء من النسب الغريب الذي هو – بالنسبة لهم – شائبة تقدح في علو النسب الرفيع من أهل مكة.

نتيجة مفتراة: الأميين من أهل الكتاب كانوا ينتظرون أن يكون هذا الرسول المتوقع قدومه منهم، لكنهم أغفلوا أنه ليس منهم لكنه من أنفسهم.

نتيجة مفتراة: كان ذلك مكرا إلهيا أضاع المعلومة على الطرفين، فكان محمد منذ اللحظة الأولى هو بأعين من يرعاه ويتولاه:

- ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾﴾ [الطور: 48]

لنعد الآن إلى السورة الكريمة التي تبين لنا ما كانت عليه حياة محمد حينئذ:

- ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ﴿٥﴾ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ﴿١١﴾﴾ [الضحى: 1-11]

السؤال: ما الذي كان يفعله محمد (وحيدا) في ذلك الغار الذي اعتزل فيه قومه من أهل مكة؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: لما وجد محمد الطفل نفسه في ذلك الغار وحيدا، ولما وجد أن أهله لم يؤوه في بيوتهم، كان جل تفكير محمد منصبا على الضلال. انتهى.

السؤال: ما الذي تقوله يا رجل؟ هل فعلا كان فكر محمد منصبا على الضلال؟ وما معنى افتراؤك هذا؟ ألا ترى أنك قد تجوزت جميع الخطوط؟

رأينا المفترى: نعم. نحن نظن أن جل فكر محمد في ذلك المأوى بعيدا عن الناس من قومه كان منصبا على الضلال. لكن عليك عزيزي القارئ الكريم أن تسأل أولا عن معنى الضلال الذي جاء في الآية الكريمة التي ترد في هذه السورة الكريمة:

- ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾﴾ [الضحى: 6-7]

أليس الله هو من بين لنا أنه قد وجد محمدا ضالا، فكان هو من هداه؟ ألا يحق لنا إذن أن نطرح السؤال التالي إذا: كيف كان محمد ضال قبل أن يجده ربه؟ ومتى أصلا وجد الله محمدا؟ هل كان محمد متخفي عن الأنظار؟ هل كان غائبا عن الله حتى يجده؟ ألا يحق لنا أن نسأل أيضا: كيف يمكن أن نفهم أن الله هو من وجد محمدا؟

نتيجة مفتراة: نحن نظن أنه يمكننا - بناء على ما جاء في هذه الآية الكريمة- طرح سؤالين اثنين وهما:

ما معنى وجدك في هذه الآية؟

ما معنى ضالا؟

باب وجدك

لو تدبرنا كتاب الله جيدا، لخلصنا إلى النتيجة التي تصورها الآية الكريمة التالية بأن الله لا يعزب عنه مثقال ذرة:

- ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [يونس: 61]

وذلك لأن الله على كل شيء شهيد:

- ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ۚ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾﴾ [المجادلة: 6]

وهو على كل شيء رقيب:

- ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾ [الأحزاب: 52]

وهو بكل شيء وكيل

- ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾﴾ [الزمر: 62]

وهو بكل شيء عليم:

- ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ [الحجرات: 16]

ليكون السؤال الآن هو: كيف نفهم أن الله هو الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة وفي الوقت ذاته نجد التبيان الإلهي بأن الله هو من وجد نبيه ضالا؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن هذا ممكنا عندما نبحث في معنى مفردة "وجدك" التي ترد في الآية الكريمة ذاتها:

- ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾﴾ [الضحى: 6-7]

بداية، دعنا نستعرض جميع الآيات الكريمة التي ترد فيها مفردة وجدك ومشتقاتها على مساحة النص القرآني، لنجدها قد وردت في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: 37]

- ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ٦٤﴾ [النساء: 64]
- ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾ [النساء: 82]
- ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا ٨٩﴾ [النساء: 89]
- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٠٤﴾ [المائدة: 104]
- ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٢٨﴾ [الأعراف: 28]
- ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾ [الأعراف: 44]
- ﴿وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم مِّنۡ عَهۡدٖۖ وَإِن وَجَدۡنَآ أَكۡثَرَهُمۡ لَفَٰسِقِينَ ١٠٢﴾ [الأعراف: 102]
- ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥﴾ [التوبة: 5]
- ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ٧٨﴾ [يونس: 78]
- ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ٦٥﴾ [يوسف: 65]
- ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٧٥﴾ [يوسف: 75]
- ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ٧٩﴾ [يوسف: 79]
- ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ٤٩﴾ [الكهف: 49]
- ﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا ٦٥﴾ [الكهف: 65]
- ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ٧٧﴾ [الكهف: 77]
- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمٗاۖ قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا ٨٦﴾ [الكهف: 86]

- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا ٩٠﴾ [الكهف: 90]
- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ٩٣﴾ [الكهف: 93]
- ﴿قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ٥٣﴾ [الأنبياء: 53]
- ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۢ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٣٩﴾ [النور: 39]
- ﴿قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ٧٤﴾ [الشعراء: 74]
- ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ٢٣﴾ [النمل: 23]
- ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ٢٤﴾ [النمل: 24]
- ﴿وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ١٥﴾ [القصص: 15]
- ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ٢٣﴾ [القصص: 23]
- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ٢١﴾ [لقمان: 21]
- ﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ٤٤﴾ [ص: 44]
- ﴿بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ٢٢﴾ [الزخرف: 22]
- ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣﴾ [الزخرف: 23]
- ﴿۞قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٢٤﴾ [الزخرف: 24]
- ﴿فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٣٦﴾ [الذاريات: 36]
- ﴿أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم مِّن وُجۡدِكُمۡ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖۖ وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ فَسَتُرۡضِعُ لَهُۥٓ أُخۡرَىٰ ٦﴾ [الطلاق: 6]
- ﴿وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا ٨﴾ [الجن: 8]
- ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ٧﴾ [الضحى: 7]
- ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ٨﴾ [الضحى: 8]

بناء على فهمنا (ربما الخاطئ) لهذه الآيات الكريمة، فإننا نعتقد بأنه في حالة أن تجد شخصا أو شيئا، فهذا لا يعني – بالضرورة- أنه لا علم لك به مسبقا. بل على العكس، فعلمك به قد يكون هو سبب أنك قد وجدته. فالمؤمن قد يجد الله نفسه:

- ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٣٩﴾ [النور: 39]

ومن لمس المساء في لحظة ما وجدها (على سابق خبرته بها) أنها الآن قد ملئت حرسا شديدا وشهبا. فهو قد عهد السماء من قبل على غير تلك الشاكلة، ولكنه وجدها في لحظة ما قد تغيرت عما كانت عليه وأصبحت وقد ملئت حرسا شديدا وشهبا.

لذا، لو دققنا بالآية الكريمة محور النقاش، لتبين لنا أن الله قد وجد محمدا في لحظة محددة وهو في حالة ضلال، وفي هذه اللحظة بالذات – نحن نفتري القول- جاءت الهداية الإلهية المباشرة لمحمد.

وهنا لابد من الانتقال إلى الباب الثاني وهو البحث في مفردة الضلالة حتى لا يفهمها كل كما يريد

باب الضلالة

لو تدبرنا مفردة ضال ومشتقاتها على مساحة النص القرآني، لوجدنا على الفور بأن الضلالة تحمل في ثناياها البحث عن الطريق المستقيم. فلولا هداية الله لنا، كنا جميعا من الضالين:

- ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ١٩٨﴾ [البقرة: 198]

وهذا إبراهيم يجد نفسه من الضالين بغير هداية الله له:

- ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ٧٧﴾ [الأنعام: 77]

وهذا إبراهيم نفسه يقول بأن القانط من رحمة الله هم الضالون:

- ﴿إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗا قَالَ إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ ٥٢ قَالُواْ لَا تَوۡجَلۡ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ٥٣ قَالَ أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ٥٤ قَالُواْ بَشَّرۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ ٥٥ قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ٥٦﴾ [الحجر: 52-56]

وهذا فرعون ينعت موسى بالكفر لحظة أن فعل فعلته التي فعل، فيصحح له موسى المعلومة بأنه لحظة أن فعل فعلته تلك كان من الضالين:

- ﴿وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩ قَالَ فَعَلۡتُهَآ إِذٗا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ٢٠﴾ [الشعراء: 19-20]

نتيجة مفتراة: نحن نجزم الظن بأن الضال هو الشخص الجاد في البحث عن الهداية، ومتى أصبح الشخص فعلا مقرا بأنه من الضالين وأنه بغير هداية الله المباشرة سيبقى على تلك الشاكلة، عندها ستأتي الهداية الإلهية لا محالة.

(دعاء: اللهم رب يا من تعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، أقر واعترف بأني من الضالين، وبغير هدايتك المباشرة لي لأكتن من الخاسرين. فالله وحدك أدعوك أن تهدني صراطك المستقيم، إنك أنت السميع العليم - آمين)

السؤال: ما علاقة هذا بقصة محمد في الغار؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: عندما لم يجد محمد (نحن نتخيل) مكانا له في بيت من بيوت مكة ليؤويه كيتيم، بحث عن ذلك المكان ليستقر به، وليكون هو مأواه، فكان الله هو من أواه إلى ذلك المكان:

- ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ٦﴾ [الضحى: 6]

فانتقل محمد إلى ذلك المكان (أي الغار) الموجود في ذلك الجبل بالقرب من مكة، فبات فيه ليالي وأياما.

ولو تدبرنا مفردة اليتيم في النص القرآني، لوجدنا أنها تصور الشخص الذي مات من يعيله من أهله (كالوالد والوالدة والأب والأم)، فاليتيم هو الذي لم يبلغ النكاح بعد:

- ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ٦﴾ [النساء: 6]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: كان الإيواء الإلهي لمحمد قد حصل عندما لازال محمد يتيما (أي لم يبلغ مرحلة النكاح).

السؤال: كيف يمكن أن نتخيل حياة محمد (وهو لازال يتيما لم يبلغ النكاح) في ذلك الغار؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نتخيل بأنه ما أن وجد محمد نفسه وحيدا في ذلك الغار حتى بدأ مرحلة التفكير الحقيقية بالوجود. فما كان محمد منذ تلك اللحظة يهمه أمر نفسه، فلم يكن ليحنق على أهله وقومه الذين رفضوا أن يجدوا له المأوى في بيوتهم، ولم تتولد عنده ردة فعل على ما فعلوه به من الهجر وعدم الاهتمام، ولكنه كان منشغلا بأمر الخلق، فبدأ مرحلة التفكر بالسؤال الأكبر وهو: من خالق هذا الكون؟

السؤال: كيف توصل محمد إلى خالق الكون الحقيقي؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن محمدا كان يملك من الأدوات ما يمكنه من التفكر بالطريقة السليمة حتى يصل إلى الغاية المنشودة. ليكون السؤال: ما هي الأدوات التي كانت بين يدي محمد حينئذ حتى يبدأ التفكير بطريقة صحيحة تؤدي به إلى الغاية التي ينشدها وهو الهداية إلى الصراط المستقيم؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن هذا السؤال يعيدنا إلى مرحلة طفولة محمد في مكة منذ أن ولدته أمه. ونحن نتجرأ على تقديم الافتراءات غير المدعومة بالدليل نذكر منها:

- ⇐ كان والد محمد (عبد الله) يرتحل في البلاد باحثا عن العلم، فأصاب شيئا منه في رحلاته تلك
- ⇐ كانت والدة محمد من قوم مؤمنين يمتلكون علما عظيما
- ⇐ كان جد محمد (عبد المطلب) على دراية بذلك
- ⇐ الخ

ما أن توفي والد محمد عبد الله في واحدة من رحلاته بعد زواجه بوالدة محمد حتى انتقلت الوصاية على محمد لجده، وكان ذلك على حساب عودة والدة محمد إلى أهلها. لكن ما هي إلا فترة محددو حتى عادت والدة محمد من ديار أهلها إلى مكة حتى وافتها المنية في الطريق، فكان محمد في أحضان مربيته أم أيمن بركه، وفي كفالة جدة، ليكون السؤال المطروح الآن هو: لماذا عادت والدة محمد إلى مكة بعد فترة من الغياب في ديار أهلها؟ ولماذا أصلا ذهبت إلى ديار أهلها تاركة طفلها بيد غيرها؟ كيف طاوعها قلبها على ذلك؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: لما كانت والدة محمد قد نشأت في بيت من بيوت المؤمنين أصحاب العلم، كان عندها من العلم العظيم ما لا يدري عنه الآخرون. فما أن حملت بمحمد، وما أن وضعته حتى تنبهت بأن طفلها هذا طفلا غير عادي، وأن فيه من الإشارات والعلامات ما يدعو إلى الحيرة ويحثها على التأكد من هذه الإشارات. لذا رحلت على الفور إلى أهلها لتخبرهم بأمر طفلها.

السؤال: لماذا لم تصطحب طفلها معها في تلك الرحلة إلى أهلها؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن والدة محمد لم تكن لتجرؤ أن تصطحب طفلها معها في رحلتها إلى أهلها لأنها تعرف مقدار الخطر الذي سيحدق به لو علم به علماء بني إسرائيل هناك. لذا ارتحلت المرأة راجعة إلى أهلا لتصف لهم ما رأت من الإشارات الدالة على نبوة هذا الطفل. وهي لا شك راجعة إلى أناس محددين تستطيع أن تستأمنهم على هذا السر العظيم. وبالفعل (نحن لا زلنا نتخيل) انطلقت المرأة إلى من تثق بهم في

أهلها، وخاصة الأحبار والرهبان (الذكور والإناث) المؤمنين من قومها. فأخبرتهم بأمر الطفل، ولما تأكد لها (على لسان أهل العلم من قومها) أنه هو فعلا النبي المنتظر من أنفسهم، كانت الجائزة الكبرى هو أنهم قد أعطوها ما يكفي من العلم ليشتعل به هذا الصبي في مرحلة ما قبل البعثة.

تخيلات مفتراة: نعم، لقد عادت والدة النبي من عند قومها تحمل كنزا عظيما من العلم سيحتاجه ابنها في هذه المرحلة التحضيرية للرسالة. فانتهى الأمر بعد موتها على مقربة من مكة إلى مربيته أم أيمن بركة التي أوصلت الكنز العلمي العظيم الذي جاءت به والدة محمد من عند قومها إلى جده عبد المطلب. فكان على هذا الرجل أن يكتم سر هذا الصبي، فما أفشى الخبر بين أولاده حتى لا يكون محمد تحت نظرهم المباشر، فلربما حصل له كيد منهم كما فعل إخوة يوسف بأخيهم. فالرجل يعلم مقدار الخطر الذي سيحدق بهذا الصبي لو انتشر خبر ذلك في مكة. فسكت عبد المطلب. ولكن قبل موته شعر أن هذا العلم يجب أن يكون حكرا على محمد نفسه، فأعطاه إياه، وطلب منه أن ينأى بنفسه مع هذا العلم عن أعين الناظرين.

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: أخذ محمد هذا الكنز العلمي العظيم وتوجه إلى الغار الموجود في جبل قريب من مكة، وهناك اعتزل محمد قومه (كما فعل إبراهيم من قبل) عاكفا على دراسة هذا العلم بنفسه. ويمكن تخيل ذلك عند مقارنة هذا بما فعل الحواريون عندما اعتزلوا قومهم. فما أن كان قرارهم على نحو اعتزال قومهم حتى كانت وجهتهم إلى الكهف مباشرة:

تخيلات مفتراة: عندما وجد محمد نفسه وحيدا في ذلك الغار ومعه لفافات من الورق تحوي كنزا علميا عظيما حتى كان جل تفكيره منصبا على الاطلاع على تفاصيل العلم المخطوط فيها. وهناك تعلم محمد القراءة، فكان أول ما جاءه من الوحي:

- ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١﴾ [العلق: 1]

فلو كان محمد (كما قالت معظم الروايات) لا يقرأ، لما جاءه الأمر الإلهي (نحن نفتري الظن) على هذا النحو. فالله يعلم أن نبيه يقرأ أو لا يقرأ، ولو كان فعلا لا يقرأ، لأصبح ذلك من قبيل المخالفة. فما الداعي أن يقول الله لنبيه اقرأ، وهو (إن صحت الروايات) لا يقرأ؟

رأينا المفترى: كلا، وألف كلا. لقد كان محمد (نحن نفتري القول) يعرف القراءة. وما كان رب محمد سيأمره منذ اللحظة الأولى بأن يقرأ لو كان فعلا لا يعلم القراءة. ولو عدنا إلى الروايات، لوجدنا أن النبي كان يطلب من كتبة الوحي (كما تقول الرواية) أن يطلعوه على ما كتبوا، وكان يدقق فيما نقلوه عنه. فلو كان لا يعلم القراءة (كما تقول الروايات)، فما الداعي أن يطلب منهم محمد ذلك (كما تقول روايات أخرى)؟ من يدري؟!!!

السؤال: كيف تعلم محمد القراءة قبل مرحلة الوحي في الغار كما تزعم؟ يسأل صاحبنا مستغربا.

رأينا المفترى: لما وجد محمد نفسه متفرغا ليل نهار في الغار لهذا العلم الذي جاءت به والدته من عند قومها، بقي طوال الوقت عاكفا عليه، مقلبا صفحاته، متأملا بما جاء فيه، فتحصل له علما عظيما من ذلك. لكن كان عليه أن يتأكد من مصدره ومن صحة المعلومات الواردة فيه، فكيف سيتحقق له ذلك؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن الإجابة على هذا السؤال تكمن في تدبر قصة زواج محمد (قبل البعثة) من خديجة على وجه التحديد. لنطرح حول ذاك الزواج تساؤلات عديدة، نذكر منها:

- ⇐ من هي خديجة؟
- ⇐ كم كان عمرها عندما تزوجها محمد؟
- ⇐ لماذا يتزوج شاب في مقتبل مرحلة الشباب من سيدة أكبر منه سنا؟
- ⇐ لماذا وافقت خديجة على الزواج من هذا اليتيم؟
- ⇐ لماذا وافق أهلها خاصة والدها على هذا الزواج؟
- ⇐ كيف تم الزواج على أرض الواقع؟
- ⇐ لماذا بقي محمد ملازما الغار حتى بعد زواجه منها؟
- ⇐ الخ

رأينا المفترى: لو عدنا إلى روايات زواج محمد بخديجة لوجدنا فيه العجب. فلنبدأ بما جاء في الطبري مثلا:

تاريخ الطبري باب زواج خديجة.

* عن نفيسة بنت منبه قالت كانت خديجة. امرأة حازمة جلدة شريفة فأرسلتني دسيسا إلى محمد بعد أن رجع في عيرها(قافلة)من الشام فقلت يا محمد ما يمنعك أن تتزوج؟ فقال ما بيدي ما أتزوج به فقلت فان كفيت ذلك ودعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة ألا تجيب؟ قال فمن هي؟ قلت خديجة قال وكيف لي ذلك؟ فقلت عليّ فأنا افعل فذهبت فأخبرتها فأرسلت إليه ائت الساعة كذا وكذا وأرسلت إلى عمها عمرو بن أسد ليزوجها فتزوجها محمد وهو ابن خمس وعشرين سنة أو أقل وهى بنت أربعين سنة أو أكثر نعم الزوج الابن أو الزوجة الأم.

وفي رواية أخرى أنها سقت أبيها خمرا فلما أفاق قال له لقد زوجتني لمحمد فغضب وأخذ السلاح وأخذ بنو هاشم السلاح ..

إن ما يهمنا في تقديم هذه الرواية هنا هو النظر في مقدار التضارب في النقل، فالجزء الأول يبين أن عم خديجة هو من زوجها بمحمد وفي الجزء الثاني المسكوت عنه نجد أن أباها كان حاضرا، لكنه كان في غيبوبة من السكر الذي سقته له خديجة نفسها. من يدري؟!!

لا أحبذ أن أنبش في تفاصيل هذه الروايات أكثر، لكن دعنا نعود إلى سؤالنا المحوري هنا الخاص بسبب زواج محمد بخديجة على وجه التحديد.

رأينا المفترى: لعل واحدة من الروايات التي قد تكون ثابتة هو أن محمدا قد اشتغل بتجارة لخديجة إلى الشام قبل زواجه منها. وهنا نطرح التساؤل التالي: ما الذي دفع بمحمد أصلا أن يشتعل بتجارة لخديجة حينئذ؟

تخيلات مفتراة: نحن نظن أن السبب الذي دفع بمحمد أن يشتغل تجارة لتلك المرأة هو رغبة محمد الجامحة أن يذهب بنفسه إلى منابع العلم الحقيقي خارج مكة. فمحمد كان باحثا عن آثارة من علم هنا وهناك، والسبب في ذلك هو (نحن نرى) أن يتأكد بنفسه من صحة ما عنده من علم مسبق، ثم ليبني عليه ما تبقى من ذلك العلم المتناثر هنا وهناك. وبالفعل التقى محمد في تجارته خارج مكة بكثير من أهل العلم، ويمكن للقارئ الكريم أن يعود إلى الروايات في ذلك الكثيرة وربما المتناقضة في بعض تفاصيلها، ولو جد في البحث لربما استطاع أن يستخلص خط سير رحلته من مكة إلى الشام والعودة من هناك.

السؤال: ما الذي دفع محمد للزواج من خديجة بعد رحلاته هناك؟

تخيلات مفتراة: ما أن وجد محمد جزء من ضالته عند أولئك الأحبار والرهبان خارج الجزيرة حتى علم أن في مكة رجل صاحب علم عظيم كان لابد لمحمد أن يتقرب منه بطريقة غير مباشرة حتى لا ينكشف أمره في مكة قبل أن يحين الموعد الحقيقي لذلك، وكان ذلك العالم المنعزل في صومعته هو ورقة بن نوفل، وهو ابن عم خديجة في أصح روايات أهل العلم. وكان هذا الرجل (الطاعن في السن حينئذ) هو المقرب لخديجة على وجه التحديد. لذا، نحن نتجرأ على الظن بأن السبب الحقيقي الذي دفع بمحمد أن يتزوج من خديجة على وجه التحديد هو أن يتقرب من ورقة بن نوفل بطريقة غير مباشرة لا تلفت الأنظار إليه. وبالفعل حصل الزواج، واستطاع محمد من خلال خديجة أن يصل إلى العلم الموجود عند ورقة. فكان محمد (نحن لازلنا نتخيل) يطرح أسئلة محددة ويطلب من خديجة أن تجيئه بإجابات لها من عند ورقة بن نوفل، ولم يكن الهدف من ذلك أن يأخذ محمد علما من عند ورقة بقدر ما كان أن يتحقق من الإجابات المتواجدة عنده حينئذ. فكان ورقة أحد المراجع العلمية التي رجع إليها محمد في فترة ما قبل البعثة.

السؤال: كيف كان اتصال محمد بورقة؟

رأينا المفترى: نحن نتخيل بأن الخطاب كان بين محمد من جهة وورقة من جهة أخرى كان علاقة سؤال وجواب كما يفعل المعلم والمتعلم، ومن هذا الباب (نحن نتجرأ على الظن) جاء قول الناس من حول محمد بعد بعثته:

- ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ١٠٣﴾ [النحل: 103]

وهنا يبرز التساؤل التالي: من كان في مكة حول النبي لسانه أعجمي؟

رأينا المفترى: لو دققنا في الروايات عن هذه الشخصية التاريخية في زمن محمد، لوجدنا بأن هذا قد لا ينطبق إلا على هذه الشخصية (ورقة بن نوفل)، ومما يلفت الانتباه في الروايات عن هذا الرجل أنه كان يتحدث بلسان أعجمي، فقد جاء عند أبن كثير ما يلي:

وكان، أي ورقة، إمرأ قد تنصّر في الجاهلية، وكان يكتب العبراني، فيكتب من الانجيل ما شاء الله أن يكتب.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن زواج محمد بخديجة لم يكن مدفوعا برغبة جنسية أو بشهوة مالية اقتصادية أو حتى بهدف جهوي عشائري، ولكنه كان مدفوعا بطابع البحث عن المعلومة التي يستفيد منها محمد في رحلة ضلالته (أي بحثه عن الهداية إلى ربه).

ولم يكن بحث محمد عن العلم مقتصرا على هذه الطريق فقط، بل سلك محمد (نحن نفتري الظن) كل السبل الممكنة للوصول إلى المعلومة، حتى جاءه الأمر الإلهي في بداية الدعوة إلى أن يهجر الرجز، قال تعالى:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥﴾ [المدثر: 1-5]

ليكون السؤال الحتمي الآن هو: ما هو الرجز الذي طلب الله من رسوله أن يهجره في الحال؟

رأينا المفترى: لو لم يكن محمد متصلا بالرجز قبل البعثة، لما طلب الله منه أن يهجره مع بداية التكليف بأعباء الدعوة. انتهى.

نتيجة مفتراة: كان محمد على تواصل بالرجز قبل بعثته، لذا طلب الله منه أن يهجر هذا الرجز بمجرد تلقيه الأمر الإلهي بالنهوض بأعباء الدعوة. وكان من المتطلبات المسبقة لهذا الهجران هو تطهير ثيابه. ليبرز هذا السؤال التالي: لم طلب من محمد تطهير ثيابه، وما الداعي أن يطهر محمد ثيابه؟ وكيف سيطهرها؟ ولم لم يطلب منه أن يطهر بدنه بدلا من تطهير ثيابه؟

فالطهارة قد تحدث للبدن كما في حالة تطهير المرأة من المحيض:

- ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ۝٢٢٢﴾ [البقرة: 222]

أو حالة الطهارة من الجنابة:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦﴾ [المائدة: 6]

والطهارة قد تحصل للقلوب:

- ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٤١﴾ [المائدة: 41]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ٥٣﴾ [الأحزاب: 53]

الطهارة تحمل في ثناياه عدم إقامة العلاقات غير الشرعية:

- ﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ ذَٰلِكُمۡ أَزۡكَىٰ لَكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢٣٢﴾ [البقرة: 232]

فالأزواج المطهرة هي التي بنيت فيها علاقات شرعية:

- ﴿۞ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ١٥﴾ [آل عمران: 15]

ومن هذا الباب (نحن نرى) جاء قول نبيه لوط لقومه:

- ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ٧٨﴾ [هود: 78]

والله هو الذي طهر مريم:

- ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [آل عمران: 42]

فما أقامت علاقة غير شرعية مع البشر

والتطهير يكون من الكافرين:

- ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [آل عمران: 55]

والطاهرة تكون بالماء، والهدف من ذلك هو أن يذهب عنا رجز الشيطان:

- ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾ [الأنفال: 11]

والصدقة تطهر المال:

- ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [التوبة: 103]

وطلب الله من نبيه إبراهيم وولده إسماعيل أن يطهرا بيته:

- ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [الحج: 26]
- ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ [البقرة: 125]

والطاهرة تحصل للصحف:

- ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾﴾ [عبس: 13-14]
- ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾﴾ [البينة: 2]

السؤال: ما الذي يجعل الشيء (أي شيء) سواء كان ثيابا أو جسدا أو بيتا أو زوجة أو صحفا مطهرا؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نظن أن الطهارة تكون من رجز الشيطان، قال تعالى:

- ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾ [الأنفال: 11]

عودة إلى السؤال المحوري: مم طلب الله نبيه أن يطهر ثيابه؟

جواب مفترى: نحن نظن أن الله قد طلب من نبيه أن يطهر ثيابه من رجز الشيطان.

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى الخطير جدا جدا (لا تصدقوه): نحن نظن أن ثياب النبي فيما قبل بعثه قد نالها شيء من رجز الشيطان.

السؤال: من أين جاء هذا الرجز لثياب النبي حتى طلب الله منه أن يطهرها؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأن محمد قد وصل إلى مرحلة من العلم ما قبل البعثة ما يمكنه استحضار الشيطان. لكن يجب التنبيه هنا على الفور أن ذلك لم يكن من أجل أن يأخذ محمد من الشيطان، ولكن محمد وصل إلى علم يستطيع من خلاله أن يجعل الشيطان تابعا له لو أراد ذلك، لينفذ له ما أراد بالضبط كما فعل فرعون:

- ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ۝١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ۝١٧٦﴾ [الأعراف: 175-176]

وهنا تكمن المفارقة الأولى بين محمد من جهة وفرعون من جهة أخرى، فكلاهما حصلا على علم عظيم يجعل الشيطان تبع لهما وليس متبوعا. وهذا العلم هو آيات الله. لكن كانت المفارقة أنه في حين أن فرعون آثر أن ينسلخ من آيات الله، فأتبعه الشيطان، كان قرار محمد على عكس ذلك تماما: عدم الانسلاخ من آيات الله وطرد الشيطان. فكان محمد هاجرا للرجز:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥﴾ [المدثر: 1-5]

فالرُجز هو الذي يحدث الرِجز. فما أن طهر ثيابه محمد من رجز الشيطان وهجره إلى غير رجعة حتى كان على صراط الله المستقيم.

ولو دققنا في ذلك لوجدنا بأن الصورة نفسها قد تكررت عن إبراهيم، فها هو إبراهيم نفسه ينهى والده عن عبادة الشيطان:

- ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ۝٤٤ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ۝٤٥﴾ [مريم: 44-45]

فمن تبع الشيطان، فلابد أن يمسه عذاب من الشيطان، فقد كان باستطاعة إبراهيم أن يتبع الشيطان لأن أباه كان يفعل ذلك، لكن قراره كان على نحو أن يهجر الشيطان حتى لا يمسه عذاب من الشيطان. فقد كان إبراهيم هاجرا لأبيه وقومه وما يعبدون جميعا من دون الله:

- ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ٤٨ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ٤٩ وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا ٥٠﴾ [مريم: 48-50]

عودة على بدء:

لو حاولنا عقد مقارنة بين هذا الشخصيات الثلاثة (محمد وإبراهيم وفرعون) على وجه التحديد، لوجدنا بأنهم جميعا كان عندهم من العلم ما يجعل الشيطان تابعا لهم، وفي الوقت ذاته كان عندهم من الآيات ما يجعلهم يتغلبون على الشيطان، فيهجرون رُجزه، فلا يمسه رِجز منه.

كان قرار إبراهيم ومحمد هو هجران الرجز، لكن كان قرار فرعون هو أن ينسلخ من آيات الله من أجل أن يتبعه الشيطان، وبالفعل أصبح الشيطان (هامان) تابعا لفرعون ينفذ له مآربه، وليس أدل على ذلك من طلب فرعون من هامان:

- ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣٨ وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ٣٩﴾ [القصص: 38-39]
- ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ ٣٧﴾ [غافر: 36-37]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: لقد كان التكبر والاستعلاء في الأرض هو الدافع عند فرعون لأن ينسلخ من آيات الله حتى يتبعه الشيطان، فينفذ له مآربه، ليعلو في الأرض:

- ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٤﴾ [القصص: 4]

السؤال: لماذا كان قرار فرعون على هذا النحو: التكبر والاستعلاء في الأرض؟

جواب مفترى: لما عاش فرعون حياة الطفولة وأصابه الأذى من قومه، كان ناقما عليهم أشد الانتقام، فكان قراره أن يضلهم فلا يهديهم:

- ﴿وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ۝٧٩﴾ [طه: 79]

فكيف سينفذ خطته الشيطانية هذه؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن نقمة فرعون على قومه كانت شديدة لدرجة أنه كان يفكر أن يوقع بهم اشد الأذى لأنه يعرف تماما بأنهم قوم فاسقون. فما هو العذاب الأشد الذي يشفي ما في صدر فرعون من غل على قومه؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن بأنه ما كان هناك انتقاما يشفي ما صدر فرعون من غل على قومه إلا أن يوردهم النار. وبالفعل نجح الرجل في ذلك:

- ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ۝٩٨﴾ [هود: 98]

السؤال: كيف استطاع فرعون أن ينجح في ذلك؟

رأينا المفترى الخطير جدا: لم تكن خطة فرعون هذه لتنجح إلا بطريقة واحدة: أن يجعل لهم أرض مصر جنات تجري من تحته أنهارها:

- ﴿وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۝٥١﴾ [الزخرف: 51]

فأصبحت أرض مصر كلها جنات وعيون:

- ﴿فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ۝٥٧ وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ۝٥٨﴾ [الشعراء: 57-58]
- ﴿كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ۝٢٥ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ۝٢٦ وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ۝٢٧﴾ [الدخان: 25-27]

وأصبح هو ربهم الأعلى:

- ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٢٤﴾ [النازعات: 24]

وهو إلههم الأوحد:

- ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣٨﴾ [القصص: 38]

وبالفعل نجحت خطة فرعون، فما ترك فرعون قومه إلا لحظة أن وضعهم في بين طودين البحر، مدركا أن نجاتهم في الدنيا الآن مستحيلة، ومصيرهم في الآخرة معلوم:

- ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ۝١٧ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝١٨﴾ [البقرة: 17-18]

في تلك اللحظة ذهب الله بنورهم، فتركهم فرعون، فما كانوا قادرين أن يرجعوا.

تفصيل قصة فرعون في قومه

كان الحديث سابقا منصبا على هدف واحد وهو محاولة إثبات افتراء من عند أنفسنا مفاده بأن الظروف الاجتماعية التي عاش بها محمد قبل بعثته تشبه في كثير من تفاصيلها الحياة الاجتماعية التي نشأ بها فرعون:

- ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٥﴾ [القلم: 10-15]

لكن كان بالرغم أن فرعون نشأ (نحن نفتري القول) يتيما، إلا أنه أصبح هماز مشاء بنميم، مناع للخير معتد أثيم، عتل بعد ذلك زنيم.

السؤال: كيف يمكن أن نفهم ذلك؟

رأينا المفترى: لما كان هذا الصبي (الزنيم) قد تربى على علم الكتاب في بيت الرجل الذي يكتم إيمانه من آل فرعون (ذو الكفل)، كان صاحب عقل راجح، وكوّن لنفسه شخصية مميزة، فكان من أولى أولياته هو أن يعرف تماما كيف يتصرف مع هؤلاء الفاسقين (قومه). فما الذي فعله هذا الصبي في قومه حتى انتهى به الأمر أن يعتلي عرش مصر؟

رأينا المفترى: لا شك عندنا أن هذا الصبي بدأ منذ الصغر يرسم خطة رسمها في رأسه للانتقام منهم أشد الانتقام. فماذا كانت تفاصيل خطته؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: كان هذا الطفل يعلم تماما أن فرعون الأكبر المعتلي عرش مصر هو رجل لا ينجب، فليس له ذرية من صلبه سيكون وريثا شرعيا للعرش. لذا، كان هذا الصبي يعلم بأن آل فرعون (وخاصة الملأ منهم) سيكونوا هم الأوصياء على عرش فرعون بعد موته. فكانت خطته تقضي بأن يتعامل مع هؤلاء الملأ بذكاء ودهاء شديدين. لذا، كان من أولى أولوياته أن لا يظهر نفسه للفرعون الأكبر، لكنه أنشأ علاقات خفية مع الملأ.

السؤال: لماذا لم يحاول أن يظهر شخصيته للفرعون الأكبر؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن هذا الصبي الزنيم لم يحاول أن يظهر شخصيته للفرعون الأكبر حتى لا يجلب لنفسه الانتباه وبالتالي الخطر، فهو لا يريد أن يجلب عداوة الملأ له، وذلك لو أن هذا الصبي أظهر نفسه

بما عنده من علم عظيم للفرعون الأكبر، لربما أصبح ذا حضوه عنده وأصبح بالتالي من المقربين، ولو فعل ذلك، لأثار حفيظة الملأ كلهم ضده. فكانت خطة الصبي الزنيم تقضي بأن يكسب ود الملأ من آل فرعون.

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأن هذا الصبي كان غاية في الدهاء لأنه لم يكن ليتعجل الأمور ليجلبها لصالحه في الحال. فهو يعلم تماما متى سيستفيد الاستفادة القصوى من الأحداث.

السؤال: كيف تصرف هذا الصبي مع الملأ؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن هذا الصبي كان ذا علم عظيم، لذا استفاد من هذا العلم استفادة قصوى حتى ينثر الخلاف بين الملأ.

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: كانت غاية هذا الصبي تقضي بأن يدب الخلاف بين الملأ حتى يختلفوا عندما تحين الفرصة لاختيار الفرعون القادم بعد موت الفرعون الأكبر الذي لم يكن له ذرية من صلبه. فهو يعلم تماما بأن الملأ سيكونوا هم المخولين باختيار الفرعون القادم، فكان هذا الصبي يحرص أن يكون الخلاف بين الملأ كبيرا جدا حتى لا يقع الاختيار على أحد منهم. فهو يحاول أن يكون الخلاف بينهم شديدا لدرجة أن لا يقبل أي طرف من الملأ أن يكون الفرعون القادم من الطرف الآخر.

السؤال: كيف نفذ هذا الصبي غايته هذه؟ أو بكلمات أخرى، كيف استطاع أن ينثر بين الملأ الخلاف الشديد؟

جواب مفترى: نحن نظن أن الآيات الكريمة التالية (كما نفهمها طبعا) تبين لنا ما فعله هذا الصبي الزنيم في الملأ من آل فرعون:

- ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلِّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾ [القلم: 10-15]

افتراءات من عند أنفسنا: بناء على فهمنا لهذه الآيات، فإننا نظن أن هذا الصبي خلال حياته كان

⇐ حلافا مهين
⇐ هماز مشاء بنميم
⇐ مناعا للخير
⇐ معتد أثيم
⇐ عتلا
⇐ زنيم
⇐ ذا مال

⇐ ذا بنين
⇐ كانت تتلى عليه آيات الله
⇐ كانت ردة فعله على تلاوة هذه الآيات أن قال عنها أساطير الأولين

السؤال: كيف يمكن أن نفهم ذلك؟

لما كان هذا الرجل ذا مال، وذا علم (بسبب الآيات التي كانت تتلى عليه التي بالنسبة له هي أساطير الأولين)، سخر ذلك لخدمته من أجل يفرق بين الملأ بالنميمة. فأصبح يمشي بالنميمة بينهم. وكان مناع للخير، وكان معتد أثيم.

السؤال: كيف ذلك؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: تخيل الآن حال هؤلاء الملأ من حول فرعون، فالجميع يحاول أن يكسب ود الفرعون الأكبر أكثر من غيره، لذا كان عليه أن يبين للفرعون الأكبر ما لا يستطيع غيره على ذلك، فلا شك أن الفرعون سيجعل له من بين الملأ جميعا من هو من المقربين، وليس أدل على ذلك من قول الفرعون للسحرة:

- ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ١١٣ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ١١٤﴾ [الأعراف: 113-114]
- ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ٤١ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ٤٢﴾ [الشعراء: 41-42]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: كان عند الفرعون من هو من المقربين. لذا، علينا أن نتخيل بأن أن ليس كل الملأ من آل فرعون يحضون بنفس المكانة عند فرعون، فمنهم من هو أكثر قربا من فرعون من الآخرين. لذا، كان الملأ من آل فرعون (نحن نتخيل) يتنافسون فيما بينهم لكسب ود الفرعون من أجل أن يكون من المقربين. ولا شك أن قرب أحدهم من فرعون لم يكن ليرضي تماما الأطراف الأخرى المنافسة له على هذه الحظوة الفرعونية.

تخيلات مفتراة: كان هذا الصبي الزنيم هو مشعل المنافسة بينهم في حضرة الفرعون الأكبر حتى لو أدى الأمر إلى أن تكون منافسة غير شريفة.

السؤال: كيف استطاع هذا الصبي أن يشعل نار المنافسة الشيطانية بين الملأ؟

رأينا المفترى: نحن نظن أنه استطاع ذلك بأمرين اثنين: المال والعلم.

تخيلات مفتراة: كان هذا الصبي ذا مال عظيم، فهو من قال:

- ﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ ۝٥ يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا ۝٦﴾ [البلد: 5-6]

نتيجة مفتراة: لقد كان هذا الصبي ذا مال عظيم، لذا استخدم هذا المال من أجل كسب ود الملأ، فهو من أمدهم بمال عظيم، فأصبح هو – بمفرداتنا الدارجة- الممول المالي لهم. ولا شك أن المال يجلب ود الآخرين. فالذي ينفق المال بسخاء شديد هو ممن يكسبون الآخرين بسهولة. فالمال يمكن تشبيهه بلاقط الذباب. فالذباب تهجم بلا وعي للحلوى المكشوفة حتى لو كانت غير نظيفة، وقد لا يكون واعيا بأن هذه الحلوى المكشوفة قد وضعت له عن قصد لتكون مصيدة لهم. ونحن نتخيل بأن هذا الصبي الزنيم كان ذا مال عظيم، فكشفه له، فتسابقوا دون وعي على هذا المال، فكانت تلك هي المصيدة التي اصطادهم هذا الصبي به. فقد كانوا يتسابقون لكسب ود هذا الصبي من أجل الظفر بشيء من المال من عند هذا الصبي.

تخيلات مفتراة: لم يكن فرعون ليفعل ذلك بشكل عشوائي غير منظم. لذا، كان يقوم بذلك بخطة غاية في الإحكام. فلا شك أن الملأ كانوا يريدون أن يكسبوا المال من عند هذا الصبي لكنهم في الوقت ذاته لا يريدون أن ينكشف أمرهم. فهم يريدون المال لكن لا يريدون أن يفتضح أمرهم، لذا كانوا شديدين الحرص أن لا يعلم بهم الآخرون. فكانوا يطلبون المال من هذا الصبي في الخفية، وكان هذا بالضبط ما يريده هذا الصبي: أن لا يعرف بعضهم بأمر بعض. فجميعهم يأخذون المال منه لكنهم لا يعرفون بأمر بعضهم البعض.

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: كانت غاية هذا الصبي أن يصل كل منهم إلى القناعة التامة بأنه لا يعطي من هذا المال الذي عنده إلا هو. فيقع في قرارة قلبه بأن هذا الصبي هو صاحبه، ولا صاحب له غيره. فهذا الصبي الزنيم كان يغرس في نفس من يعطيه من المال أن هذا الأمر يجب أن يبقى طي الكتمان، وبخلاف ذلك سينقطع عنه الإمداد المالي. فعلى من يأخذ من هذا المال أن يفهم بأن هذا المال سيبقى غير منقطع عنه مادام أن الأمر ظل سرا. لذا، كان على من يأخذ هذا المال أن يبذل قصارى جهده أن لا يفضح مصدره.

رأينا المفترى من عند أنفسنا: كان هذا الصبي يطمح أن تكون علاقته بمن يأخذ هذا المال في نظر هذا الشخص فريدة، وأنه هو الوحيد المستفيد من هذا الصبي. لذا، كان يظن أن هذا الصبي فعلا يحبه ولا يحب غيره، فهو الوحيد المميز عنده.

ولما كان هذا الصبي يفعل ذلك مع كل الملأ، كان كل واحد منهم يظن أنه صاحب الحظوة الكبرى عند هذا الصبي، وهو الوحيد المستفيد منه، لذا، لم يكن ليخطر بباله أن يفضح أمره حتى لا ينافسه أحد على هذه المكانة عند هذا الصبي.

السؤال: ماذا كانوا يفعلون بهذا المال الذي يأخذونه سرا من عند هذا الصبي؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن هذا الصبي لم يكن ليعطي هذا المال للملأ دون شروط. فهو من كان يملي على من يعطيه كيف يستفيد من هذا المال.

السؤال: ما هي الشروط التي وضعها هذا الصبي لم أراد أن يأخذه سرا منه من الملأ من آل فرعون؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نتخيل بأن هذا الصبي كان يملي على من يأخذ المال من عنده سرا من آل فرعون أن يصل جل هذا المال إلى يد الفرعون الأكبر سرا.

تخيلات مفتراة: كان هذا الصبي الزنيم صاحب المال العظيم ينقل جزء من المال الذي عنده إلى الفرعون الأكبر عن طريق هؤلاء الملأ. والهدف من ذلك – برأينا- أن يشدد من ملك هذا الفرعون على البلاد وعلى الملأ حتى يكون جاهزا له عند موت هذا الفرعون. فهو إذن يجهز بملك مصر حتى يصله في نهاية المطاف على طبق من ذهب.

فدهاء هذا الصبي هو أنه لم يكن ينفق هذا المال عبثا. فهو ليس مبذرا، ولكنه كان مناع للخير معتد أثيم:

- ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ۝١١ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٖ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٥﴾ [القلم: 10-15]

لقد كانت خطة هذا الصبي الزنيم فيها خيرا ظاهرا للجميع (خاصة للملأ من آل فرعون ولفرعون ذاته)، لكن في حقيقتها هي خطة شيطانية، لأنها منصبة على هدف الضلال، أي أن يضلهم، وبالفعل استطاع هذا الفرعون أن يضل قومه جميعا:

- ﴿وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ۝٧٩﴾ [طه: 79]

ولم تتوقف خطة فرعون على المال، ولكنها كانت أيضا تستند على العلم الذي عنده من أساطير الأولين.

وهنا نتوقف للحظة لنحاول تبيان معنى الأساطير وخاصة أساطير الأولين. فنحن نفتري الظن بأن الأساطير لا تحمل في ثناياها الخرافة. فأساطير الأولين هو ما سطره الأولون من العلم.

- ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١﴾ [القلم: 1]

لذا، لما كانت تتلى على فرعون آيات الله، كان يردها إلى أن هذه ليست من عند الإله وإنما هي مما سطره الأولون.

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: لأن فرعون كان عنده الكتاب الذي سطر فيه الأولون كل آيات الله. فظن فرعون أن ما يتلى عليه من آيات الله موجودة أصلا في الكتاب الذي سطره الأولون، لذا لا داع – بالنسبة له- أن تنسب هذه الآيات إلى الإله الحق، لأنها أصلا موجودة في ذلك الكتاب الذي عنده.

وهذا بالضبط ما حصل في الحوار الأول بينه وبين موسى. فهذا فرعون يسأل موسى وهارون عن ربها، موجها السؤال إلى موسى:

- ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩﴾ [طه: 49]

فكان جواب موسى على النحو التالي:

- ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه: 50]

فرد فرعون بالسؤال الثاني على النحو التالي:

- ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝٥١﴾ [طه: 51]

فكان جواب موسى على النحو التالي:

- ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ۝٥٢﴾ [طه: 52]

ونحن نفهم من رد موسى الأخير بأن هذا الكتاب ليس عند الله وإنما عند فرعون نفسه، بدليل أنه لو كان هذا الكتاب موجودا عند الله، لكان رد موسى على النحو التالي:

⇐ **قال علمها في كتاب عند ربي**

وحينئذ يصبح لزاما علينا أن نفهم أن هذا الكتاب عند رب موسى، لكن لما جاء رد موسى على فرعون على النحو التالي:

- ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ۝٥٢﴾ [طه: 52]

وجب علينا أن نفهم أن علم القرون الأولى لا شك عند الله، لكنها أيضا موجودة في كتاب، وهذا الكتاب هو الذي وقع في يد فرعون، فكان مسطر فيه علم القرون الأولى. لذا عندما كانت تتلى آيات الله على فرعون، لم يكن ليصدق أنها من عند الله لأنها أصلا موجودة في ذلك الكتاب الذي عنده، وهو أصلا من تسطير القرون الأولى.

ولو دققنا أكثر في النص القرآني الخاص بفرعون، لوجدنا الآية التالية:

- ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ۝٥٦﴾ [طه: 56]

السؤال: كيف رأى فرعون آيات الله كلها؟

جواب مفترى أغرب من الخيال نفسه: نحن نفتري الظن أن آيات الله كلها قد سطرت في ذلك الكتاب، والذي سطر هذا الكتاب هم القرون الأولى، وأن عملية التسطير كانت تصويرية. فهو كتاب يصور آيات الله كلها تصويرا. لذا، كلما فتح فرعون صفحة من ذلك الكتاب، وجد نفسه أمام آية من آيات الله. انتهى.

وسنفرد لهذا المبحث مقالات منفصلة متى أذن الله لنا بشيء من علمه فيها. فالله وحده ندعوه أن يعلمني ما لم أكن أعلم وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا وأن يزدني علما. وأعوذ به وحده أن يكون أمري كأمر فرعون، إنه هو السميع المجيب – آمين.

إن ما يهمنا طرحه هو التساؤل التالي: كيف استخدم فرعون هذا العلم في ضلالة قومه؟

رأينا المفترى: لما وجد فرعون أنه يملك علم ذلك الكتاب، كان يستطيع أن يستفيد منها الاستفادة القصوى. لكن فرعون اخذ هذا العلم إلى الجهة الأخرى تماما: أن يستفيد منه لمصلحته الشخصية ولتنفيذ مآربه في قومه (آل فرعون).

السؤال: فما الذي فعله فرعون؟

رأينا المفترى: لم يكن من جاء هذا الصبي الزنيم من آل فرعون ليأخذ منه المال، وليكون له حظوة عنده ليكتشف بأن هذا الصبي صاحب مال فقط، وإنما صاحب علم عظيم. لكن ما كان هذا الصبي ليطلعهم على كل ما عنده من العلم، ولكنه يطلعهم على بعضه، وذلك ليثبت في نفوسهم مقدار ما يملك هذا الشخص من أسباب القوة التي تجعلهم يتمسكون به، ويظنون أنه يؤثرهم به عن غيرهم.

تخيلات مفتراة: لما كان الفرعون الأكبر يواجه مشكلة ما، ويطلب من الملأ من حوله أن يدلوا برأيهم لحل تلك المشكلة، كان الجميع يتبارون فيما بينهم لتقديم الرأي والمشورة الصائبة للفرعون الأكبر. لكن أين سيجدون ضالتهم. فهم أصلا قوم فاسقون. فما كانوا (نحن لازلنا نتخيل) من طلاب العلم الحقيقي. لذا، كان لابد لهم من أن يلجئوا إلى من عنده العلم الحقيقي الذي ينشدوه. فما وجدوا ضالتهم (نحن نفتري القول) إلا عند هذا الصبي الزنيم.

السؤال: كيف كان فرعون يفعل ذلك؟

رأينا: لما كان الملأ يلجئون إلى هذا الصبي فرادا ينشدون من عنده كان هذا الصبي يعطيهم ما يريدونه من العلم بشرط واحد (نحن نتخيل) وهو أن لا يبوح بهذا العلم على الملأ، وإنما أن يوصلوه سرا إلى الفرعون الأكبر. فكانت المعلومة تصل من عند هذا الصبي الزنيم إلى الفرعون الأكبر سرا عن طريق الملأ. ليكون السؤال: لماذا؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن خطة هذا الزنيم كانت تنبني على مبدأ السرية، فلا يعلم بعضهم بأمر بعضهم الآخر، وفي الوقت ذاته تصل الرسالة نفسها إلى الفرعون الأكبر منهم جميعا. فيكون هذا الصبي قد اصطاد عصفورين بحجر واحد:

أولا، يظن كل واحد من الملأ أنه هو من حل المشكلة لفرعون الأكبر، فيظن أنه قد حصل على الحفاوة والتقريب منه على غيره

ثانيا، تتولد لدى الفرعون الأكبر بأن هؤلاء الملأ منافقين فاسدين، لأنهم جميعا جاء بالخبر ذاته. فيستحيل أن يكون كل منهم قد عرف بذلك من تلقاء نفسه. فهو يعلم أنهم جميعا يلجئون إلى مصدر آخر للحصول على العلم، لكن بالرغم من ذلك، كل واحد منه ينسب ذلك العلم لنفسه. وبذلك تزداد الهوة بين الفرعون الأكبر وملئه سرا. فهم يظنون أنهم من المقربين، وفي حقيقة الأمر هو يكرههم جميعا، لكنه يجاريهم حتى يتحصل له ما يريد.

السؤال: ماذا لو تجرأ أحدهم أن يفشي خبر هذا الصبي الزنيم للفرعون الأكبر؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أنه ما كان أحد ليتجرأ على ذلك لسببين اثنين على الأقل:

- ⇐ أنه لا يستطيع أن يثبت ذلك، فالأمر كله حصل في الخفاء، فلا دليل عنده على ما يقول
- ⇐ أنه لو فعل ذلك، لقطع هذا الصبي عنه الإمدادات المالية والعلمية فورا. وبالتالي، لما أصبح منه فائدة في ملأ فرعون الأكبر، وربما أصبح ذلك سببا كافيا أن يخرج من دائرة الملأ على الفور.

تخيلات مفتراة: كان الملأ من قوم فرعون يعلمون تماما أن فالفرعون الأكبر ليس له ذرية من صلبه ليصل من بعده إلى العرش. لذا، كان كل منهم طامعا في أن يكون هو من يخلف الفرعون الأكبر على العرش بعد موت هذا الفرعون. فكان يهمه جدا أن يبقى من الملأ المقربين، لذا عليه أن لا يخسر كل شيء قبل موت الفرعون. وكان من أسباب بقاء قوته في الملأ هو اتصاله المتكرر مع هذا الصبي الزنيم صاحب المال والعلم. فهو بنظره من يمده بأسباب القوة على غيره. لكنه لم يكن يعلم أن هذا الصبي يستخدمه (وغيره من الملأ) بنفس الطريقة لتنفيذ مآربه. ففي حين كان كل واحد منهم يظن أنه من المقربين لهذا الصبي الزنيم وهو من المقربين عند الفرعون الأكبر، لم يكن ليخطر ببالهم جميعا أنهم ليس أكثر من "أراجوز" في يد الصبي الزنيم وفي يد الفرعون الأكبر في الوقت ذاته.

السؤال: ما الذي حصل عندما مات الفرعون الأكبر؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: لما مات الفرعون الأكبر، لم يكن له ولد من صلبه ليعتلي عرش مصر، لذا نشب الخلاف الأول بين الملأ، وكان خلافا على عرش مصر كلها. فكل واحد منهم يطمع أن يكون هو الفرعون الجديد. لكن لما كان توازن القوى بينهم شديدا، طال الخلاف بينهم حتى أصبحت المدينة كلها في غفلة.

رأينا المفترى: لما أصبحت المدينة في غفلة بموت الفرعون الأكبر بسبب الخلاف على العرش بين الملأ، استغل بنو إسرائيل الفرصة، فجاءت انتفاضتهم الأولى ضد الحكم الفرعوني، وهنا يبين لنا القرآن (كما نفهمه) ذلك المشهد في الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [القصص: 15]

لو تفقدنا هذه الآية الكريمة، لربما حق لنا أن نطرح التساؤلات التالية:

⇐ لماذا دخل موسى المدينة في هذه اللحظة؟
⇐ أين كان موسى موجودا من ذي قبل؟
⇐ كيف يتجرأ رجل من بني إسرائيل أن يقتتل مع رجل من آل فرعون؟
⇐ ولم استغاث هذا الرجل موسى على وجه التحديد؟
⇐ الخ.

لو عدنا إلى الآية الكريمة السابقة ي سياقها الأوسع، لوجدنا بأن الأمر لم يحدث على سبيل الصدفة، بدليل أن الخلاف كان مستمرا حتى في اليوم التالي، فالرجل من بني إسرائيل (شيعة موسى) الذي اقتتل مع رجل آخر من بني إسرائيل لم يتم إلقاء القبض عليه حتى اقتتل مع آخر في اليوم التالي:

- ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ [القصص: 18]

السؤال: ألهذا الحد كان الحكم الفرعوني ضعيفا لدرجة أن يقتل رجل من بني إسرائيل (وهم المستضعفون في الأرض) رجلا من آل فرعون (وهم العالون) ولا يتم إلقاء القبض عليه حتى يتجرأ في اليوم التالي ليبطش بآخر منهم؟

ولو تدبرنا النص القرآني أكثر، لوجدنا أن الرجل الذي جاء من أقصى المدينة ليحذر موسى، جاء ليحذره من تآمر الملأ به وليس من بطش فرعون نفسه:

- ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [القصص: 20]

السؤال: لماذا لم يحذره هذا الرجل من بطش فرعون؟

جواب مفترى: لأن الفرعون الأكبر قد كان ميتا في هذه اللحظة وأن الأمر كله بيد الملأ؟

سؤال مفترى: كيف عرف الرجل بأمر موسى ولماذا جاء ليحذره؟

جواب مفترى: لا شك أن هذا الرجل كان على علم عظيم.

سؤال مفترى: لماذا جاء يسعى (مسرعا)؟ وكيف عرف موسى في الحال؟

جواب مفترى: لأنه كان أصلا يعرف موسى.

سؤال مفترى: هل جاء هذا الرجل من تلقاء نفسه؟

جواب: نحن نشك بأن هذا الرجل قد جاء بناء على قرار فردي، فلا شك أنه كان يخشى بطش آل فرعون لو أنه افتضح أمره.

السؤال: كيف استطاع أن يصل لموسى ولا يعلم به آل فرعون؟

جواب: نحن نفتري الظن بأن هناك من بعثه، ويستطيع أن يدرأ عنه بطش آل فرعون.

السؤال: من الذي بعثه؟ ومن الذي يستطيع أن يدرأ عنه بطش آل فرعون؟

جواب أغرب من الخيال نفسه: إنه الصبي الزنيم (فرعون القادم)

السؤال: لماذا؟

رأينا: نحن نظن أن هناك سببين اثنين لهذا التصرف:

أولا، كان هذا الصبي الزنيم يريد أن يحسم أمر عرش مصر. أي أن لا ينشغل الملأ بغير قضية العرش. فكان عليه أن يخرج موسى من دائرة الصراع في الوقت الراهن.

ثانيا، لأنه يريد أن تكون المواجهة مع موسى وبني إسرائيل في عهده.

تخيلات من عند أنفسنا: عند موت الفرعون الأكبر، نشب الخلاف في الملأ من آل فرعون حول قضية انتقال السلطة، ولما كان الفرعون الأكبر ليس له ذرية من صلبه ليرث العرش من بعده، كان انتقال السلطة إلى شخص جديد ليعتلي عرش مصر حينئذ ليس بالأمر الهين. فقد كان كل واحد من الملأ يظن بنفسه الكفاءة اللازمة والأحقية المشروعة للوصول إلى كرسي الحكم بعد موت الفرعون الأكبر، فاستمر الصراع بينهم فترة من الزمن، فأصبحت المدينة كلها في غفلة بغياب الحاكم الأكبر، وفي هذه الأثناء ظن بنو إسرائيل أن الفرصة قد حانت لهم الآن للخروج من الاستعباد، فبدأت ثورتهم الأولى ضد الحكم الفرعوني، فبدأت المناوشات بين هم من شيعة موسى مع أعدائهم، وفي هذه الأثناء عاد موسى ليدخل المدينة من جديد بعد أن غاب عنها فترة من الزمن في الأرض المقدسة حيث تلقى حكما وعلما:

- ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [القصص: 15]

وفي هذه الأثناء، وجد موسى أن شيعته قد ثاروا على عدوهم، فما كان من موسى إلى أن يغيث الذي من شيعته على الذي من عدوه، وبالفعل وكز الرجل فقضى عليه، واستمر الصراع إلى اليوم التالي، حيث عاد ذلك الرجل ليستصرخه في اليوم التالي:

- ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ [القصص: 18]

فكان موسى حينئذ خائفا يترقب، ولو أن الرجل الذي من عدوه قد ذكره بأنه لن يكون من المصلحين إن هو قتله، لربما قتل موسى الرجل في اليوم التالي:

- ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [القصص: 19]

وفي هذه الأثناء، كانت قبضة آل فرعون على مفاصل الدولة غير قوية بدليل أنه لم يتم إلقاء القبض على الثوار من بني إسرائيل وعلى رأسهم موسى، وما هو إلا وقت قصير جدا حتى جاءه رجل من أقصى المدينة يسعى ليحذره من تآمر الملأ به:

- ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [القصص: 20]

ليكون السؤال الآن هو: لماذا جاء هذا الرجل من أقصى المدينة يسعى ليحذر موسى من تآمر الملأ به؟

رأينا المفترى: كان هذا غير مكشوف الهوية إلا لموسى، فهو قد جاء من أقصى المدينة متوجها إلى موسى، فما عرف بأمره أحد حتى حذر موسى من تآمر الملأ به. فكيف إذن استطاع أن يأتي من أقصى المدينة ويصل إلى موسى ويحذره دون انكشاف أمره؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن ذلك الصبي الزنيم هو الذي غطى على هذا الرجل حتى يصل إلى موسى فيحذره من تآمر الملأ به، والسبب في ذلك – برأينا- هو أن لا يفتح في الوقت الراهن جبهة من بني إسرائيل قبل أن يحسم أمر كرسي العرش.

السؤال: لماذا؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: لو ظفر الملأ من بني إسرائيل بموسى في ذلك الوقت، لربما انتهى الصراع مع بني إسرائيل في الحال، ولربما فشلت خطة هذا الصبي الزنيم المستقبلية كلها.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا: لما كان هذا الطفل الزنيم يخطط لأن يوقع قومه في أشد العذاب (عذاب جهنم)، كان عليه أن يبقى على حياة بني إسرائيل، وهم العدو اللدود لآل فرعون. فهو يعلم تماما بأن كرههم للإيمان بالله سيكون بمقدار كرههم لبني إسرائيل، فكلما كرهوا بني إسرائيل أكثر (وهم المؤمنون بالله)، كلما تعنتوا في قبول الإيمان بالله.

فهو يريد أن يوغر صدورهم على بني إسرائيل (المؤمنين) حتى لا يفكروا إطلاقا في أن يؤمنوا هم بأنفسهم. فالإبقاء على الصراع مع بني إسرائيل ضرورة قصوى بالنسبة له حتى لا يفكر أحد من قومه بإتباع ملة عدوهم اللدود. وهذا يعيدنا على الفور إلى الخطة التي كان قد رسمها هذا الصبي الزنيم في رأسه للإيقاع بقومه الفاسقين.

السؤال: ماذا كانت الخطة في رأس فرعون؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: عندما فكر هذا الشاب (كفرعون جديد) بما يجب عليه فعله في قومه الفاسقين للانتقام مما فعلوه بأبيه وأمه وبه شخصيا، لم يجد أن هناك في الحياة الدنيا أي فعل يمكن أن يشفي الغل الذي في صدره عليهم. فماذا كان قراره عندئذ؟

رأينا المفترى: لعلي أكاد أجزم الظن بأن هذا الشاب (الفرعون الجديد) قد اتخذ القرار التالي: أن يورد قومه جميعا النار.

السؤال: فكيف سينجح في ذلك؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: كان من الاستحالة بمكان أن تنجح خطته التي رسمها في رأسه بما لديه من مال وعلم دون الوصول إلى كرسي الحكم ويصبح هو الفرعون الأكبر. لذا، كان من أولى أولياته حتى الساعة أن يحسم أمر كرسي الحكم، فيصل هو بذاته إلى هذا الكرسي ليصبح هو الآمر الناهي في قومه.

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: ما أن تأكد بأن موسى قد خرج من أرض مصر متجها إلى أرض مدين حتى عاد الملأ لينشغلوا بأمر حسم الخلاف على كرسي الحكم، وفي هذه الأثناء، وجد الملأ أنهم لن يتفقوا على واحد من بينهم ليعتلي عرش مصر، فكان قرارهم على نحو أن يطرح اسم شخص من خارج الملأ ليعتلي عرش مصر، وبالفعل طرحت الأسماء المؤهلة لهذا الكرسي، فكان قراراهم النهائي قد وقع على هذا الصبي الزنيم، فجميعهم قد أنشأ – في ظنه- علاقة مميزة من ذي قبل من هذا الصبي دون علم الآخرين به، فكان ظنه أنه سيكون هو صاحب النفوذ الأوحد في عهد هذا الفرعون الجديد. وبالفعل (نحن لازلنا نتخيل) اعتلى هذا الصبي الزنيم عرش مصر. فما الذي فعله بعد ذلك؟

رأينا المفترى: كان الرجل يظهر لهم جميعا ما لا يبطن، لذا كان عليه أن ينفذ ما في رأسه بكل ذكاء ودهاء. لذا كان القرار الأول له بعد وصوله إلى سدة الحكم أن لا يظهر تغيير في السياسة السابقة. لذا، عندما وجه له الملأ خطابهم التالي بخصوص موسى وقومه:

- ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ... ﴿١٢٧﴾ [الأعراف: 127]

كان رده على النحو التالي:

- ﴿... قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ [الأعراف: 127]

فالرجل يؤكد لهم أنه لم يتخلى عن السياسة السابقة باتجاه موسى وآله، لكن الرجل يحاول (نحن نفتري الظن) أن يقول لهم بأن هذا ليس من أولياته الآن، فأمر موسى وآله (كأنه يقول لهم) هو أمر سهلا ميسرا. لكن عندنا الآن ما هو أكثر أهمية، وهو ما يجب أن نوليه جل اهتمامنا، وهو توطيد أركان الحكم، والارتفاع بآل فرعون فوق العالمين.

السؤال: ما الذي فعله هذا الفرعون إذن؟ ولماذا؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأن هذا فرعون الزنيم قد أخذ على عاتقه تنفيذ خطة شيطانية للتغرير بقومه، فماذا كانت خطته؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن فرعون كان يحاول أن يقنع قومه بأنه يهتم بهم، ويريد لهم الخير من دون العالمين أجمعين. لذا، عمد إلى الاستفادة القصوى من علم الكتاب الذي كان يملكه، فجعل لهم أرض مصر كلها جنات تجري من تحتها الأنهار، فطورها حتى أصبحت كلها جنات وعيون ومقام كريم. وبنا معه العروش التي دمرها الله لهم لاحقا:

- ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ [الأعراف: 137]

وأجرى الأنهار كلها من تحت عرشه:

- ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ [الزخرف: 51]

فما عاد في أرض مصر من قوم فرعون (بعد كل ما فعله فرعون هذا لهم) من يشك قيد أنمله في أنه يريد له الخير، حتى وصل بهم الأمر أن اتخذوه ربا وإلها:

- ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ [النازعات: 24]
- ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ... ﴿٣٨﴾ [القصص: 38]

وتعاون من الشيطان هامان، فبنا له صرحا ليبلغ أسباب السموات:

- ﴿... فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ٣٨﴾ [القصص: 38]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: لقد أقنع هذا الفرعون قومه بأن له آلهة خاصة به، ومن خلالها يستطيع أن يجعل لهم أرض مصر جنات تجري من تحتها الأنهار. لكن في الوقت ذاته فقد نجح في إقناعهم بأن هذه آلهة له فقط. لكن هو نفسه إله لهم.

فكيف استطاع فرعون أن يقنعهم أنه إلههم؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأن فرعون استطاع أن يقنع قومه بأنه فعلا إلههم، وذلك لأن له آلهة كثير، كما جاء على لسانهم عندما خاطبوه بشأن مصير موسى وبني إسرائيل كلهم في أرض مصر:

- ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ... ١٢٧﴾ [الأعراف: 127]

فالملأ يعرفون إذن أن لفرعون آلهة، لكنهم في الوقت ذلك لا يعتبرون تلك الآلهة هي آلهتهم أيضا، بل هي آلهة خاصة بفرعون فقط. ليكون السؤال المحوري هنا الآن هو: لِمَ لم يتخذ القوم تلك الآلهة آلهة لهم أيضا؟ لم اقتصروها على فرعون فقط؟

السؤال: كيف يكون لفرعون آلهة كثيرة وفي الوقت نفسه يدّعي أنه هو إلههم فقط؟

السؤال: لماذا ادعى فرعون (دون الناس جميعا) أنه إلها؟ لِم لم يتجرأ على هذا الإدعاء غيره؟ لِم لم يدعي السامري نفسه بأنه هو إله وترك ذلك الفضل للعجل الذي أخرجه بنفسه للقوم؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن هذه التساؤلات تعيدنا على الفور إلى الآية الكريمة التالية التي تبين ماهية الإله الحقيقي:

- ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ١٤٨﴾ [الأعراف: 148]

وهذه الآية تبين لنا أن من مواصفات الإله الحق هو أنه يكلّم عباده ويهديهم السبيل. انتهى.

السؤال: ما علاقة هذا فرعون؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن فرعون كان قادرا على أن يكلّم القوم كما كان قادرا أن يهديهم السبيل لو أنه أراد ذلك. انتهى.

السؤال: كيف ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن التكليم ينطوي تحته معنى استجابة الطلب. فالإله الحقيقي يستجيب لطلبات عباده كما جاء على لسان إبراهيم:

- ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ۝٨٠ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحۡيِينِ ۝٨١ وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوۡمَ ٱلدِّينِ ۝٨٢﴾ [الشعراء: 78-82]

فمن غير المنطقي أن يقتنع قوم فرعون بإلوهية الرجل لو أنه لم يكن قادرا على تلبية طلباتهم مثل الإطعام والسقي، والشفاء من المرض، والحياة من بعد الموت، وبالتالي مغفرة الخطايا لهم من بعد الموت.

ولو تأملنا الآيات الكريمة التالية، لوجدنا على الفور أن فرعون هو من أضل قومه وما هداهم:

- ﴿وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ۝٧٩﴾ [طه: 79]

لذا نحن نتجرأ على الظن بأن فرعون كان يستطيع (لو أنه أراد ذلك) أن يهدي قومه جميعا.

السؤال: لماذا لم يكن فرعون يريد هداية قومه كما نزعم؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن فرعون كان بإمكانه أن يهدي قومه جميعا لو أراد ذلك، لكنه اختار أن لا يهديهم وذلك ليشفي صدره من الغل الذي تراكم فيه ضدهم منذ طفولته وحتى وصوله إلى عرش مصر. فالرجل يعلم تماما أنهم جميعا قوما فاسقين، وأنهم فعلا لا يريدون الهداية. وهو يعلم يقينا بأنهم هم من ألحقوا به وبوالده وأمه من قبل الأذى. وأنهم هم من سلبوه حقه في الملك أساسا. لذا، أراد أن ينتقم منهم شر انتقام، فكان قراره أن يوردهم النار، وبالفعل فعل:

- ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ۝٩٧ يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ۝٩٨﴾ [هود: 97-98]

السؤال مرة أخرى: كيف استطاع فرعون ذلك؟

رأينا المفترى: لأنه كان إلها من دون الله. انتهى.

السؤال: وكيف استطاع أن يكون إلها من دون الله؟

رأينا المفترى: لأنه كان له آلهة كثيرة:

- ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ ... ١٢٧﴾ [الأعراف: 127]

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: لما كان لفرعون آلهة، كان هو الوحيد القادر على تكليم هذه الآلهة وبالتالي الاستجابة لطلباته. فاستغل فرعون القوى الكامنة بهذه الآلهة، ووضعها في يده، وسلطها كالسيف على رقاب الجميع. فأصبحت الصورة على النحو التالي:

ففرعون هو (نحن لازلنا نفتري القول من عند أنفسنا) حلقة الوصل بين هذه الآلهة من جهة وقومه من جهة أخرى. فما كان يفعله فرعون كان مصدره تلك الآلهة، ولكن القوم كانوا بحاجة ماسة لفرعون لكي يبقى حلقة وصل بينهم من جهة وآلهته من جهة أخرى. فبغير فرعون (نحن نكاد نجزم القول) يستحيل تكليم هذه الآلهة وبالتالي الاستفادة القصوى من الطاقات الكامنة بها. وخسارة فرعون هي خسارة لجميع المكتسبات التي يمكن الحصول عليها من هذه الآلهة.

السؤال: لماذا لم تتح لهم الفرصة لتكليم هذه الآلهة مباشرة؟ ولِم لم يدعهم فرعون يكلموا آلهته مباشرة؟

رأينا المفترى: لما كان العلم الذي يمتلكه فرعون هو أساس سلطته وبقائه فوق رؤوسهم، ما كان فرعون ليسمح أن يقع في يدهم ذاك العلم النفيس الذي بيده. فبدونه ستنتهي سلطته، ويفقد السيطرة المطلقة عليهم. وهو ما لم يكن فرعون ليغامر به.

السؤال: لماذا لم يفعل السامري مثل ذلك؟

رأينا المفترى: لقد أخرج السامري للقوم العجل، فكان إلها واحدا، لذا كانت قدرته محدودة بهذا الإله. لذا لم يعمد أن يتخذ من نفسه إلها، لأنه ببساطة لا يستطيع أن يحقق لهم كل ما يريدون. ولو كان السامري يستطيع تكليم الآلهة جميعا، لربما (نحن نتخيل) انتهج سياسة فرعون القديمة. لذا عندما رجع موسى كان يتوجس الحذر من السامري، فخاطبه بلطف شديد:

- ﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ٩٥﴾ [طه: 95]

لكن لما علم موسى أن السامري لم يقبض إلا قبضة واحدة من أثر الرسول، تغيرت لهجة خطابه للرجل واتخذت منحى الشدة، لا بل بالتهديد والوعيد:

- ﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ٩٥ قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي ٩٦ قَالَ فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا ٩٧﴾ [طه: 95-97]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: لما كان للسامري إلها واحدا، ظلت قدرته محددة، فما ستطاع أن يرفع من قدر نفسه أكثر مما يجب، لكن لما كان لفرعون – بالمقابل- أكثر من إله، رفع من قدر نفسه إلى أعلى مرتبة ممكنة، فكان ربهم الأعلى:

- ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٢٤﴾ [النازعات: 24]

وكان إلههم الأوحد على حسب زعمه:

- ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣٨﴾ [القصص: 38]

السؤال: هل من الضروري أن يكون لفرعون أكثر من إله حتى يستطيع أن يدعي لنفسه الإلوهية؟

جواب مفترى: نعم

السؤال: لم ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن السبب في ذلك يعود إلى أن القادر على كل شيء هو الله الواحد الأحد:

- ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝١٨٩﴾ [آل عمران: 189]

رأينا المفترى: مادام أن الله على كل شيء قدير، فهو الوحيد القادر على تسخير كل القوى الكونية بيده. لكن يمكن للآلهة التي هي من دون الله أن تسخر بعض هذه القوى الكونية، لكن يستحيل أن تسخرها جميعا.

السؤال: ما هي القوى الكونية التي تقع جميعا تحت سيطرة الإله القادر على كل شيء، وربما تقع بعضها تحت سيطرة الآلهة الذين هم من دون الله؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا (لا تصدقوه): نحن نظن أن القوى الكونية هي خمسة على وجه التحديد، وهي: الماء والتراب والهواء والنار والنفخ (الروح). انتهى.

فالإله القادر على تسخير هذه القوى الخمسة جميعا هو الله القادر على كل شيء، أما الآلهة التي هي من دون الله، فربما تستطيع تسخير بعض هذه القوى الكونية، لكن يستحيل (نحن نؤكد) أن تستطيع تسخيرها جميعا.

فمن كان إلها من دون الله، فيجب أن يكون قادرا على تسخير واحدة من هذه القوى على الأقل. وهذا بالضبط ما كانت تفعله آلهة قوم نوح:

- ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ٢٣﴾ [نوح: 23]

وهذه القوى الخمسة مجتمعة هي التي جعلت قوم نوح على وجه التحديد هم الأظلم والأطغى:

- ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ٥٢﴾ [النجم: 52]

فقد كان كل واحد من هؤلاء الديارين (وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا) قادرا (نحن لازلنا تخيل قادرا على تكليم واحدة من هذه الآلهة.

السؤال: كم من هذه القوى الكونية كان فرعون قادرا على تسخيرها لمصلحته؟ أو بكلمات أخرى، كم كانت عدد آلهة فرعون نفسه؟ نحن نسأل.

رأينا المفترى الخطير جدا جدا: مبدئيا، أنا أجزم القول بأن فرعون لم يكن قادرا على تسخير جميع القوى الكونية، وإلا لأصبح حقا إلها قادرا على كل شيء، ولكن لما كان إلها من دون الله، فإن الظن أميل عندي أن فرعون قد استطاع أن يسخر ثلاثة أو أربعة منها على أكبر تقدير. وما يمكننا الجزم به هو أن فرعون لم يكن قادرا على تسخير الماء على وجه التحديد لأن نهايته كانت بالماء:

- ﴿۞وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩٠﴾ [يونس: 90]

فلو كان فرعون (نحن نفتري القول) قادرا على التحكم بالماء، لما كانت نهايته فيه. انتهى.

السؤال: لماذا؟

رأينا: لو عدنا لقصة الكون قبل الخلق، لوجدنا بأن الماء أزلي:

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٧﴾ [هود: 7]

ليكون السؤال المحوري الآن هو: هل الماء مخلوق؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن الماء ليس مخلوقا بدليل أن عرش الله كان عليه قبل أن يخلق السموات والأرض:

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٧﴾ [هود: 7]

هذا ما سنحاول تبيانه بحول الله في المرة القادمة.

فالله وحده نسأل أن يأذن لنا بعلم من لدنه لا ينبغي لغيرنا، وأعوذ به وحده أن أكون ممن يفترون عليه الكذب أو ممن يقولون عليه ما ليس لهم بحق. وأعوذ به أن يكون أمري كأمر فرعون، إنه هو السميع العليم - آمين.

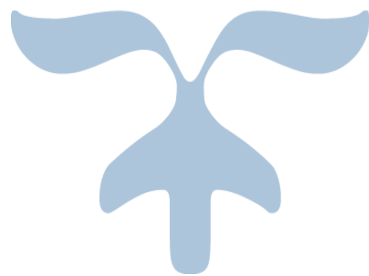
المذكرون: رشيد سليم الجراح

بقلم: د. رشيد الجراح
2018-3-10



فقه الزكاة

الجزء الثامن



فقه الزكاة: الجزء الثامن

سألني بعضهم: ما الذي يجعلك تظن أن افتراءاتك هي الأقرب للصواب؟ أليس هناك احتمال أن تكون مخطئا في افتراءاتك؟

رأينا المفترى: قد أكون مخطئا، فهذا أمر طبيعي، وذلك لأننا لا نستطيع أن ننسلخ تماما من إنسانيتنا، فاحتمالية الصواب في كل ما نقول ونفتري هي احتمالية معدومة، لكن هذا لا ثنينا عن محاولة تقديم الرأي الذي نظن أنه الأقرب إلى الصواب ما استطعنا إلى ذلك سبيلا، ظانين بالله ظنا حسنا أن يؤتينا رشدنا، وأن يهدينا لأقرب من هذا رشدا، وأن يعلمنا ما لم نكن نعلم، وأن يزدنا علما إنه، هو القريب المجيب.

لكن ما يدفعنا أن نكون أكثر قناعة برأينا مما نجد عند غيرنا هما سببان اثنان على الأقل:

1. أنّ هذا رأينا، لذا يجب أن نكون مقتنعين به بداية حتى نستطيع أن نقنع بها غيرنا بعد ذلك. فالذي يقول بفيه ما ليس في قلبه هو لا شك من المنافقين:

- ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ١٦٧﴾ [آل عمران: 167]

وهم لا شك من الذين لم يؤمنوا بقلوبهم:

- ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٤١﴾ [المائدة: 41]

وهم لا شك من الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم:

- ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ٣٢﴾ [التوبة: 32]
- ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ٨﴾ [الصف: 8]

فالله وحده ندعوه أن لا نكون من هؤلاء، إنه هو وحده من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

2. أنّ رأينا يستند إلى الدليل الذي ربما يصعب المجادلة فيه إلاّ عن علم، فمن يستطيع أن يقدم دليلا أكثر وجاهة من الدليل الذي نقدمه، فنحن له مدينون، لا بل ومستعدون (بعد شكره) أن نأخذ برأيه، وأن ونضرب برأينا عرض الحائط. فالحق أحق أن يتبع.

السؤال: كيف أستطيع أن أميز الرأي الأكثر وجاهة من غيره؟ يسأل صاحبنا المعهود.

رأينا المفترى: لعلي أكاد أجزم الظن بأن الرأي الصائب يجب أن يتسم بصفتين اثنتين على الأقل:

1- أن لا يعارض هذا الرأي أي معلومة وردت في كتاب الله، فالرأي الصائب هو الذي يُستمدّ من كتاب الله، فيؤدي إلى فتح آفاق جديدة في الفهم، تُبني على ما سبق، وتجعل المضي قدما إلى الأمام أيسر وأسهل. أما الرأي غير الصائب فهو الذي يكون عرضة أن تنقضه أي آية من كتاب الله بصريح اللفظ أو بمضمونه.

2- أن يكون هذا الرأي بسيطا يخلو من التعقيد في الشكل والمضمون، فيكون مقنعا للناس على اختلاف مستوياتهم الفكرية وتعدد مراجعهم المعرفية. فمن غير المنطقي (نحن نظن) أن يكون الرأي على درجة كبيرة من التعقيد، لأنه يكون حينئذ دولة بين أهل العلم فقط. فالله الذي جعل الناس كلهم مكلفين، قد وجّه لهم خطابا - لا محالة- يناسب مستوياتهم جميعا. لذا، نحن نرى بأن كل رأي (مهما كان مصدره) لا يتسم بالبساطة واليسر في العرض وفي الفهم، وبالتالي القبول عند الناس كافة ليس أكثر من سفسطائية كلامية لا تمت إلى كتاب الله بصلة. فكتاب الله يخاطب العقل البشري الجمعي بما يلائمه ويتقبله. لذا، إذا كان هناك رأي ما مستنبط من كتاب الله وتريد أن تتأكد من درجة مصداقيته، فما عليك إلا أن تعرضه على أكثر الناس بساطة في التفكير، وإذا ما وجدت أن هذا "العقل البسيط" يتقبله كما يتقبله عقل أكثر أهل الأرض رسوخا في العلم، فأعلم أنك قد قاربت الحقيقة. ولنأخذ مثالا توضيحيا على ذلك.

المثال

لو عدنا إلى قصة يوسف التي يعرفها الجميع مثلا، لوجدنا أن هناك سؤالا يجب أن يطرح بناء على ما جاء في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾
[يوسف: 45-50]

السؤال: ما الذي جعل الملك يقتنع على الفور أن تأويل يوسف هذا هو التأويل الصحيح للرؤيا؟ لِم لم يشك الملك في هذا التأويل؟ لِم لم ينتظر حتى يتبين له ذلك بعد فترة من الزمن؟ كيف طلب أن يؤتوه بيوسف (فيستخلصه لنفسه) مباشرة بعد سماعه تأويل الرؤيا؟ ماذا لو تبين لاحقا أن هذا التأويل غير صحيح؟ وبكلمات أكثر دقة، نحن نسأل: لِم كان الملك واثقا تماما أنّ تأويل يوسف لرؤياه هو فعلا التأويل الحقيقي ولا شيء غيره؟

رأينا المفترى: بداية، نحن نطلب من الجميع أن ينظروا في أمهات كتب التفسير إن وجدوا فيها جوابا على مثل هذا التساؤل الذي نظنه قد راود كثير ممن قرءوا هذه الآيات الكريمة في كتاب الله، وليرجعوا البصر كرة أخرى في كل الأدب المتوافر حول القصة وتحليلاتها على مدار قرونا من الزمن، ثم ينظروا بعد ذلك فيما سنفتريه نحن بعد قليل من رأي حول هذه الجزئية من القصة. وبعد ذلك، يكون لهم الحكم في الفصل بين الآراء جميعا.

إنّ ما يهمنا قوله هنا هو أن الرأي الذي سنفتري بعد قليل من عند أنفسنا يجب أن يكون مقبولا عند الناس على اختلاف مستوياتهم العلمية، فهو يجب أن يكون مقبولا عند العامة من الناس كما يجب أن يكون مقبولا عند أهل العلم على حد سواء، وذلك لأنه يجب أن يكون متسما بالبساطة واليسر حتى يكون مفهوما عند الجميع. ويجب التنبيه في الوقت ذاته أن كلامنا هذا يجب أن لا يفهم منه أن افتراءنا هو مطلق الحقيقة والثبات، بل نحن مستعدون للتخلي عنه في حالة استطاع أحد أن يأتينا بما هو أصوب منه. لكن إن لم يستطع أحد تقديم ما هو أفضل مما عندنا، فإننا سنبقى ملتزمين واثقين بصحة ما نقول وندعي.

السؤال مرة أخرى: كيف أيقن الملك بأن تأويل يوسف هذا هو التأويل الحقيقي للرؤيا بمجرد أن سمعه من فم من جاء به من عند يوسف الذي لازال حتى الساعة في السجن؟ ولم طلب الملك أن يؤتوه بيوسف على الفور ليستخلصه لنفسه بالرغم أن الرؤيا تنبئ بم سيحصل في قادم الأيام؟

جواب مفترى: لو دققنا في ما قاله الملك بخصوص الرؤيا، لوجدنا الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٞ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ٤٣﴾ [يوسف: 43]

ولو حاولنا مقارنة رؤيا الملك هذه برؤيا يوسف نفسه في طفولته، لوجدنا يوسف يقص رؤياه على أبيه على النحو التالي:

- ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبٗا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ٤﴾ [يوسف: 4]

والمدقق في هذين السياقين معا، يجد على الفور أن هناك فرقا واضحا جليا لا لبس فيه يتمثل في وجود مفردة (أَرَىٰ) في رؤيا الملك مقابل مفردة (رَأَيْتُ) في رؤيا يوسف. ليكون السؤال على الفور هو: لماذا قال الملك (إِنِّيٓ أَرَىٰ) بينما قال يوسف (إِنِّي رَأَيْتُ)؟

جواب مفترى: نحن نظن أن يوسف قد قص على أبيه رؤياه التي رءاها مرة واحدة. فما أن رأى يوسف تلك الرؤيا حتى عمد (كغلام صغير) إلى إخبار أبيه بها، فكانت تلك رؤيا قد حصلت ليوسف مرة واحدة فقط بدليل قوله (إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ).

نتيجة مفتراة: نحن نفتري القول من عند أنفسنا بأن يوسف قد رأى تلك الرؤيا مرة واحدة، فقصها على الفور على أبيه. انتهى.

أما الملك، فقد رأى تلك الرؤيا أكثر من مرة، بدليل أن الفعل جاء على صيغة الفعل المضارع (كما يصفه أهل اللغة)، وهو ما يدل (نحن نظن) على تكرار الحدث أكثر من مرة (إِنِّيٓ أَرَىٰ)، فلو كان الملك قد رأى تلك الرؤيا مرة واحده، لقال (إِنِّي رَأَيْتُ)، لكن لمّا كانت الرؤيا قد تكررت عند الملك أكثر من مرة، جاء قوله على نحو (إِنِّيٓ أَرَىٰ). هل هذا مقبول عندكم يا سادة؟

وهذه الصيغة ذاتها (إِنِّيٓ أَرَىٰ) قد وردت في كتاب الله مرة أخرى مع إبراهيم الذي كان يرى في المنام أنه يذبح ابنه:

- ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٠٢﴾ [الصافات: 102]

فيستحيل أن يقدم إبراهيم (نحن نظن) على ذبح ابنه لمجرد أنه قد رأى ذلك لمرة واحدة فقط، لكن الآية الكريمة ترشدنا أن تلك الرؤيا قد أقلقت منام إبراهيم أكثر من مرة، فما عاد من الممكن أن ينسبها لعامل المصادفة. فالرؤيا قد تكررت مع إبراهيم أكثر من مرة بدليل قوله (إِنِّيٓ أَرَىٰ). هل هذا مقبول عندكم يا سادة؟

نتيجة مفتراة: كان الملك قد رأى تلك الرؤيا ذاته في منامه أكثر من مرة. فما قصها على الملأ من حوله إلا لأنها أصبحت تثقل كاهله وتقض مضجعه.

السؤال: ماذا يفيد مثل هذا الطرح في حل إشكالية تصديق الملك بتأويل يوسف لرؤياه على الفور؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: لمّا كانت الرؤيا قد تكررت مع الملك أكثر من مرة، بدليل قوله (وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى)، طلب من الملأ أن يفتوه في تأويل رؤياه. ولا شك عندنا أن الكثيرين حاولوا تقديم الرأي والمشورة، لكنهم لم يفلحوا في أن يأتوه بالتأويل الصحيح حتى استيأسوا من ذلك، فجاء قولهم في نهاية المطاف على النحو التالي:

- ﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴾ [يوسف: 44]

السؤال: كيف تأكد للملك ولهم جميعا بأن محاولاتهم قد باءت كلها بالفشل؟ وكيف طاوعتهم أنفسهم أن ينعتوا رؤيا الملك بأنها (قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ) ويعلنوا بالتالي عجزهم عن تأويل تلك الأحلام (وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ)؟

وبالمقابل، كيف تأكد للملك بأن تأويل يوسف هو حق لا لبس فيه، فطلب بأن يأتوه به على الفور؟

جواب مفترى بسيط جدا جدا: نحن نظن أنه لمّا كان الملأ يأتوا الملك بأي محاولة لتأويل رؤياه، كان يتأكد للملك بأن تأويلهم غير صحيح، وذلك لأن الرؤيا بقيت تلازمه في المنام، فما انفكت عنه، فظل يرى الرؤيا نفسها في منامه بعد محاولة الملأ تعبيرها له. لكن – بالمقابل- عندما جاءه الرسول الذي أرسلوه بتأويل يوسف، نام الملك ليلته الطويلة تلك، فما عادت الرؤيا تقلق منامه، أي توقفت الرؤيا التي كانت تقض مضجعه في كل ليلة سابقة على الفور، فتأكد له بأن هذا التأويل هو التأويل الصحيح، فطلب أن يأتوه بيوسف على الفور. هل هذا مقبول عندكم يا سادة؟

ولو حاولنا مقارنة هذا برؤيا إبراهيم التي كانت تتكرر في منامه، لوجدنا بأن الرؤيا ما انقطعت عن إبراهيم حتى أقدم فعلا على ذبح ابنه، قال تعالى:

- ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴾ [الصافات: 103]

هناك بالضبط، جاءه الخطاب الرباني على النحو التالي:

- ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ١٠٦﴾ [الصافات: 104-106]

فما عادت الرؤيا تقلق إبراهيم في منامه من جديد، لأنها أصبحت مصدّقة على أرض الواقع. هل هذا مقبول عندكم يا سادة؟

تخيلات مفتراة: نحن نتخيل أن ما حدث مع الملك كان على النحو التالي: في ليلة ما، جاءت تلك الرؤيا الملك، فكانت مرعبة (أي كابوسا) لأنها عبارة عن سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف، وسبع سنبلات خضر وآخر يابسات. فكان ينهض الملك من فراشه (نحن نتخيل) فزعا مرعوبا، خائفا متوترا من هول ما رأى في تلك الليلة في منامه، أي ما يشبه ما نسميه نحن بلغتنا الدارجة كابوسا في المنام. وأخذت تلك الرؤيا تتكرر مع الملك يوميا حتى أقلقت منامه، وعكرت عليه صفو حياته، فما عاد يستطيع أن يكتمها في نفسه. ونحن نكاد نجزم الظن بأنه لو حصلت تلك الرؤيا مع الملك مرة واحدة فقط، لما أخبر بها من حوله حفاظا (على الأقل) على خصوصية حياته؛ فمن غير المنطقي أن يخرج الملك إلى الملأ ليخبرهم بما يحصل معه في منامه، لأن ذلك

سيشكل تهديدا لهيبة الملك عندهم، لكن لما أصبحت الرؤيا تقلقه في كل ليلة، لم يستطع الملك السكوت على ذلك لسببين اثنين على الأقل:

1. أنها أصبحت مرهقة له من الناحية الجسدية والنفسية، فأصبح التعب (من قلة النوم المريح) باديا على محياه وعلى تصرفاته في النهار وخاصة على مرأى من الملأ من حوله
2. لما أصبحت الرؤيا متكررة في كل ليلة بنفس النسق والتفاصيل، ما عاد الملك يشك قيد أنملة بأن الخطب جلل، وأن هذه الرؤيا لها علاقة بمملكته كلها، وأن خطرا داهما يتهدد البلاد والعباد، فما عادت قضيته الشخصية، ولكنها قضية عامة يجب التنبه لها قبل فوات الأوان، لذا كان عليه أن يبوح بها للملأ، ليبحثوا له عن حل لهذه المعضلة. هل هذا مقبول عندكم يا سادة؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: لما أصبح ظن الملك أن هذه الرؤيا ليست قضيته الشخصية، لم يتوانى الملك عن طلب تأويل لها من الملأ. ولا شك عندنا أن الملأ لم يتوانوا لحظة واحدة في البحث عن تأويل لهذه الرؤيا. ونحن نظن بأنه لو كان الملك يعلم أن ليس بينهم معبرين للرؤيا لما قال لهم:

- ﴿... يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ۝٤٣﴾ [يوسف: 43]

فالملك إذن يعلم يقينا أن فيهم معبرين للرؤيا، لذا طلب تعبيرهم لها. لكن باءت كل جهودهم (نحن نفتري الظن) بالفشل، وذلك لأنه كلما جاءه أحدهم بتعبير جديد لها، كانت الرؤيا تتكرر في نفس الليلة مع الملك، فيتيقن الملك أن هذا التأويل المقترح حينئذ غير صحيح، ولما فشل الجميع في تعبير تلك الرؤيا، أعلنوا فشلهم صراحة للملك نفسه، فنعتوا الرؤيا بأضغاث الأحلام (قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ) وأعلنوا استسلامهم بأنهم غير عالمين بتأويل الأحلام كلها (وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ). هل هذا مقبول عندكم يا سادة؟

نتيجة مفتراة: لكي يحافظ الملأ على هيبتهم، أنزلوا رؤيا الملك من مقام الرؤيا الحقيقية كما جاء على لسان الملك نفسه (يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ) إلى مقام أضغاث الأحلام كما جاء على لسانهم (قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ)، وظنوا أن هذا ليس من مجال تخصصهم لأنهم عالمين بتأويل الرؤيا لكنهم غير عالمين بتأويل أضغاث الأحلام. فهم إذن يلقون باللائمة على الملك لكي يحفظوا ماء وجههم أمامه ويحافظوا على هيبتهم في أنهم لازالوا يملكون علم التعبير للرؤيا (أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ)، لكن المشكلة في ظنهم أن ما يراه الملك في منامه لا يقع في نطاق الرؤيا الحقيقية التي يمكن أن تعبر، ولكنها تقع في باب أضغاث الأحلام التي ليست من اختصاصهم. هل هذا مقبول عندكم يا سادة؟

السؤال: ما الذي حصل عندما جاء الرسول (الذي أرسلوه) بتأويل تلك الرؤيا من عند نزيل السجن يوسف؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: ما أن جاء الرسول بتأويل الرؤيا من عند يوسف بالإضافة إلى الحل الأمثل لها على النحو التالي:

- ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ۝٤٧ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ۝٤٨ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ۝٤٩﴾ [يوسف: 47-49]

حتى نام الملك في ليلته تلك نوما عميقا، وما عادت تلك الرؤيا تقلق نومه، فكانت تلك ليلته الأولى الهادئة بعد ليال كثيرة من التعب والإرهاق والفزع المرعب في الليل. عندها تأكد للملك (نحن نظن) أن هذا التأويل هو التأويل الحقيقي لتلك الرؤيا المرعبة، وأن هذا الحل الذي قدّمه نزيل السجن يوسف هو الحل الأمثل، وأن في هذا الحل المقترح من قبل صاحب التأويل الصحيح (أي يوسف) إنقاذا للبلاد والعباد من الخطر الداهم. فما كانت ردة فعله في الصباح الباكر من الليلة الأولى التي تلت تأويل يوسف للرؤيا إلا على النحو التالي:

- ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ۝٥٠﴾ [يوسف: 50]

السؤال: هل يصعب على الناس كافة (عالمهم ومتعلمهم) أن يفهموا هذا الرأي المفترى من عند أنفسنا ويستوعبوه؟ من يدري؟!!!

تلخيص ما سبق: نحن نظن أن أي افتراء يقدمه من عنده آثارة من علم يجب أن يكون مفهوما للجميع، خاليا من أسلوب التعمية (شكلا بالمفردات الجزلة ومضمونا بالأفكار الغريبة) الذي ينتهجه كثير من أهل العلم، وذلك لأن الدين (نحن نرى) يخص الجميع، العالم والمتعلم، لذا يجب أن توضع كل السيناريوهات المحتملة المقدمة من عند أهل العلم جميعا على طاولة البحث من أجل مناقشتها وتبيان الغث من السمين منها، كما يجب أن يترك الباب مفتوحا على مصراعيه للجميع لطرح التساؤلات المربكة التي يمكن أن تتولد عن أي سيناريو مطروح حول القضية قيد البحث. والهدف هو محاولة البحث عن الإجابة الشافية لكل التساؤلات المطروحة، وبخلاف ذلك تبقى الأمور ضبابية، يتولد جراءها عدم ارتياح عن الناس الذي يهمهم الأمر.

وهذا الأسلوب البحثي لا تتوقف فائدته عند تبيان العقائد السليمة للناس، بل أيضا توضح كثيرا من معتقدات الآخرين التي ربما ينظر إليها المخالف بعين الريبة والشك. وحتى لا يبقى كلامنا هذا في سياقه النظري، دعنا نحاول تقديم المثال العلمي الذي ربما تثبت صحته ووجاهته للقارئ الكريم بالدليل العملي.

مثال: باب الجلود

لو تفقدنا السياقات القرآنية التي وردت فيها مفردة الجلود ومشتقاتها (مثل الفعل اجلدوا واجلدوهما، الخ)، سنجد على الفور الآيات الكريمة التالية:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ٥٦﴾ [النساء: 56]
- ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ٨٠﴾ [النحل: 80]
- ﴿يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ٢٠﴾ [الحج: 20]
- ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ٢٣﴾ [الزمر: 23]
- ﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ١٩ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٠ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖۚ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢١ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ٢٢﴾ [فصلت: 19-22]
- ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢﴾ [النور: 2]
- ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤﴾ [النور: 4]

ولو دققنا في هذه الآيات الكريمة، لربما حق لنا أن نطرح التساؤل المبدئي التالي: ما هي الجلود؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الجلد خاص بالإنس (مؤمنهم وكافرهم، ذكرهم وأنثاهم) :

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ٥٦﴾ [النساء: 56]
- ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ٢٣﴾ [الزمر: 23]
- ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢﴾ [النور: 2]

كما تخص الأنعام أيضا:

- ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ٨٠﴾ [النحل: 80]

نتيجة مفتراة 1: الإنس (مؤمنهم وكافرهم) لهم جلود

نتيجة مفتراة 2: الأنعام لها جلود

السؤال: ما هي الجلود التي للإنس (مؤمنهم وكافرهم) وللأنعام كلها؟

رأينا المفترى: نحن نظن أنه يجب التفريق بداية بين جلود الأنعام من جهة وأصوافها وأوبارها وأشعارها من جهة أخرى. فالأصواف والأوبار والأشعار هي (نحن نفتري الظن من عند أنفسنا) ما ينبت على تلك الجلود. لذا، يمكن أن نزيل هذه الأصواف والأوبار والأشعار عن الأنعام وهي لازالت حية، وذلك لا يؤثر عليها. ولا يشكل تهديدا لحياتها. لكن هل نستطيع إزالة جلود الأنعام وهي لازالت حية؟

جواب مفترى: كلا وألف كلا، فجلود الأنعام لا يمكن إزالتها إلا بعد ذبحها. وكما يقول المثل "ما ضر الشاة سلخها بعد ذبحها". فالشاة تذبح أولا ثم يتم سلخها، إي يُزال جلدها عن لحمها. وهذا ما نفهمه (ربما مخطئين) من قوله تعالى:

- ﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٣٦﴾ [الحج: 36]

فما أن تكون بهيمة الأنعام جاهزة للذبح حتى تصبح من البُدن، وهنا لا توجب جنوبها (أي تصبح جاهزة للأكل كوجبة) إلا بعد أن يسلخ جلدها عن لحمها.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: الجلد هو الطبقة الخارجية الذي يغطي اللحم. ليكون السؤال الآن هو: لماذا يتم تبديل الجلود من أجل أن يذوق صاحبه العذاب؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الجلد هو المنطقة الحساسة في الجسم الذي يشكل موطن الاستشعار. فإذا ما أصاب الشخص حرقا لجلده، فإنه يشعر بذلك الحرق بسبب الجلد. لكن إذا ما ذهب الجلد وتغلغل الحرق إلى ما تحت الجلد، فإن الشخص لن يعود يشعر بإحساس العذاب. فالجلد إذن هو موطن الإحساس، وهو مركز الاستشعار بالعذاب. لذا، كان لزاما تغيير الجلود في حالة العذاب ليستمر الشخص يحس بما يقع عليه من عذاب الحريق.

ولو دققنا في الآية الكريمة التالية، لوجدنا الربط واضحا بين الجلود من جهة والقلوب من جهة أخرى:

- ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ٢٣﴾ [الزمر: 23]

وهذا يدعونا إلى افتراء الظن من عند أنفسنا بأن الجلود مربوطة بشكل مباشر مع القلوب. وهاتان الكينونتان هما اللتان يمكن أن يلينا. فما أن يسمع الشخص أحسن الحديث الذي نزّله الله حتى تكون الجلود هي محطة الاستشعار الأولى، فيحصل فيها القشعريرة. ليكون السؤال الحتمي الآن: كيف ذلك؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نظن أن الفرق الأول بين الإنسان المؤمن من جهة والإنسان غير المؤمن من جهة أخرى هو الجلد. فجلد الإنسان المؤمن يستشعر أحسن الحديث الذي أنزله الله، لكن جلد الإنسان غير المؤمن لا يستشعر ذلك. ليكون السؤال الحتمي الآن هو: لماذا؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن السبب في ذلك يعود إلى أن كل ما يعمله الإنسان في حياته يسجل مباشرة على جلده. فجلد المؤمن لم يتلوث بالمعاصي بينما جلد غير المؤمن ملوث بكل المعاصي التي ارتكبها في حياته.

الدليل

من أجل جلب الدليل على ذلك، دعنا نستعرض بعض الآيات الكريمة الخاصة بالجلود. قال تعالى:

- ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٤﴾ [النور: 24]

فهذه الآية الكريمة تبين لنا بأن الشهادة على الشخص تأتي من الألسنة والأيدي والأرجل. أليس كذلك؟

ولو دققنا في الآية الكريمة التالية، لوجدنا أن الجلود أيضا تشهد عليهم كما تشهد عليهم أسماعهم وأبصارهم:

- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٠﴾ [فصلت: 20]

لكن لو تابعنا البحث عن الجلود، لوجدنا بأن للجلود على وجه التحديد خصوصية لا تكون للألسنة والأيدي والأرجل ولا للأسماع والأبصار. قال تعالى:

- ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖۚ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢١﴾ [فصلت: 21]

السؤال: ما هي هذه الخاصية؟

رأينا المفترى: نحن نفتري القول بأنه في حين أن الشهادة تكون للألسنة والأيدي والأرجل والأسماع والأبصار والجلود، فإن النطق لا يكون إلا للجلود. فالجلود هي التي تنطق من بين أعضاء الجسم جميعا (وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ).

السؤال: كيف يمكن للجلود أن تنطق؟ ولم الجلود هي التي تنطق فقط؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الإجابة على هذا السؤال تتطلب معرفة ماهية النطق. فكيف يكون النطق؟ وكيف يختلف النطق عن القول أو عن الكلام؟

جواب مفترى: لقد تعرضنا لهذه الجزئية في مقالات سابقة لنا، فمن أراد التفصيل في ذلك، فعليه الرجوع إلى تلك المقالات. لكن ما يهمنا قوله هنا هو أن النطق يحمل في ثناياه معنى إخراج الحقيقة كما هي دون زيادة أو نقصان. لذا، يستحيل أن يربط النطق بتحريف الكلام أو بالكذب. فمن ينطق لا يكذب.

السؤال: وكيف يتحصل النطق؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن النطق يتم بطرق متعددة، فللطير منطق:

- ﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ ١٦﴾ [النمل: 16]

ومحمد لا ينطق عن الهوى:

- ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣﴾ [النجم: 3]

والكتاب ينطق:

- ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٞ يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٦٢﴾ [المؤمنون: 62]
- ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٩﴾ [الجاثية: 29]

السؤال المهم: كيف يمكن أن نتصور الكتاب وهو ينطق؟ ما هي آلية نطق الكتاب؟ نحن نتساءل.

رأينا المفترى: نحن نظن أن آلية نطق الكتاب تكون على نحو أن يَخرج للعيان ما هو مكتوب في ذلك الكتاب. وهذا – برأينا – لا يتطلب أن يكون للكتاب لسان وفم. فكيف يمكن أن نتخيل ذلك؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نتخيل الأمر على نحو أن يستطيع الشخص قراءة ما في ذلك الكتاب بطريقة ميسرة وسهلة لا تدعو إلى حصول الشك بأي حال من الأحوال.

السؤال: وكيف ذلك؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: لتبسيط الصورة إلى الأذهان، دعنا نتخيل فقط ما يحصل في المحلات التجارية الحديثة، فعندما تحضر البضاعة من المتجر الكبير، تذهب مباشرة إلى صندوق المحاسب لتدفع ثمن تلك البضاعة، وكل ما يقوم به المحاسب هو أن يسلط الماسح الضوئي على الباركود الملصق على البضاعة، وما أن يتم تسليط الماسح الضوئي على البارد الكود حتى تنزل على شاشة الكمبيوتر أمام المحاسب كل التفاصيل عن تلك البضاعة كاسمها ونوعها وتاريخ صنعها وتاريخ انتهاء صلاحيتها ومصنعها والبلد المنتج لها، وأي معلومات إضافية مسجلة على هذا البضاعة. فتكون جميع المعلومات المسجلة في الباركود الخاص بالبضاعة قد تم استعراضها على شاشة الكمبيوتر الخاصة بالمحاسب، وبهذا يكون هذا "المكتوب" - برأينا- قد نطق بجميع التفاصيل الخاصة بالبضاعة.

السؤال المحوري: كيف يمكن تطبيق ذلك في حالة نطق الجلود كما جاء في الآية الكريمة؟

- ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [فصلت: 21]

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأنه مادامت أنّ كل أعمال الشخص التي قام بها في حياتها مسجلة على جلده، فإن كل ما هو مطلوب أن يدخل هذا الشخص من بوابة الماسح الضوئي الإلهية، وما أن يدخل من تلك البوابة حتى ينزل على الشاشة (شاشة العرض) مباشرة كل ما عمله في حياته بكل تفاصيلها، قال تعالى:

- ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾﴾ [الحاقة: 18-26]

فذلك هو يوم الحساب، وفيه يتم العرض، وهناك يُؤتى كل كتابه إما بيمينه أو بشماله. وهنا لا تتوقف قراءة الكتاب على الشخص نفسه، بل يستطيع الجميع قراءة هذا الكتاب (فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيهْ). فيستطيع الشخص حينئذ أن يقرأ كتابه بنفسه.

- ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء: 13-14]

فعملية إخراج كتاب الشخص تتم بعد عملية العرض مباشرة، فلا تخفى منا خافية (يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ)، ويتم ذلك (نحن نفتري الظن) بمسح جلده بالماسح الضوئي الإلهي الذي يستنطق تلك الجلود، فما تستطيع أن تتخلف تلك الجلود عن أن تنطق عليهم بالحق (قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ).

السؤال: ما علاقة هذا الكلام المفترى من عند أنفسنا بتبيان حقائق الشرائع الأخرى؟

رأينا المفترى: لو راقبنا ما يجري في بعض الثقافات عند أصحاب الشرائع المخالفة، سنجد في بعضها تقليدا دينيا يتمثل في حرق جثة الميت بالنار، ومن ثم نثر الرماد الناتج عن عملية الحرق تلك في البحر أو تخزينها في أوعية خاصة يتناقلها الأبناء عن الآباء. انظر الاقتباس التالي:

ويقوم المتخصصون في إعداد مراسم الجنازات . لدى هؤلاء . بوضع الترتيبات اللازمة لإحراق جثة الميت. وقد تتم مراسم الجنازة قبل أو بعد إجراء الإحراق. وتتم عملية الإحراق هذه في مبنى يطلق عليه المحرقة ، حيث توضع الجثة في نعش أو أي حاوية أخرى، ويتم إحراقها في فرن خاص، وتستمر هذه العملية فترة تتراوح بين ساعة وأربع ساعات. وبعد ذلك، يتم سحق ما بقي من العظام حتى يصبح رمادًا، ويوضع الرماد في جرة (إناء لحفظ رماد الموتى) ويسلم لأقارب المتوفى. وقد يحتفظ الأقرباء بالرماد، ويدفنونه في مقبرة أو يضعونه في مدفن. ويطلب بعض الأشخاص أن يذر رماد الجثث في مكان محدد، مثل إحدى البحيرات التي يحبونها.

(المصدر)

السؤال: ما هي حقيقة هذه الممارسات العقائدية عند أهل تلك الشرائع؟ وكيف أصبحت عقائد يؤمن بها كثير من أهل الأرض؟

رأينا المفترى: لما كانت هذه الشرائع ذات أصول سماوية، كانت فكرة استنطاق الجلود يوم الحساب معروفة عندهم. لذا، عمدوا إلى اتخاذ طقوس دينية تتعامل مع هذه العقائد الدينية (أي استنطاق الجلود عند العرض بعد البعث)، فكان رجال الدين (نحن لازلنا نفتري الظن من عند أنفسنا) هم أصحاب القول الفصل بين الناس في ذلك. فما الذي فعله الكهنوت الديني في تلك العقائد؟

رأينا المفترى: نحن نظن (ربما مخطئين) بأن الكهنوت الديني قد انقسم على نفسه في كيفية التعامل مع هذه العقائد. فجميعهم يعلم أن جلود الناس ستنطق عليهم يوم القيامة، وستخرج - لا محالة- جميع تفاصيل الأعمال التي قام بها الشخص في حياته الدنيا. لذا، كانت مشورة رجال الدين (نحن نرى) على النحو التالي:

كان الرأي الغالب قد تزعمه (نحن لازلنا نتخيل) رجال الدين المحرّفين للعقائد، الذين يريدون للناس الضلالة، وإتباع شرائعهم البشرية بدلا من التشريع الإلهي، فخرجوا للناس برأي غريب مريب، ظاهره فيه الخير للناس وباطنه فيه الشر كله. فكان ظاهر القول (نحن نتخيل) يتمثل على نحو أنه لابد من عملية تطهير لهذه الجلود (كنوع من أنواع التوبة) قبل أن يتم حسابها يوم القيامة. فالشخص المؤمن بهذه العقائد يظن أن في حرق جلده عند موته دليل على رغبته بالتوبة من الذنوب التي ارتكبها في حياته الدنيا، فيظن أنه راجع إلى ربه مطهرا نادما تائبا من كل ذنب سُجِّل على جلده. فكما تعمد بعض الشرائع السماوية (كالمسيحية مثلا) إلى التطهر بالماء، فإن أصحاب الشرائع التي تؤمن بحرق جثة الميت قد آمنوا بقدرة النار على تطهير تلك الجلود مما لحق بها من درن المعاصي التي ارتكبها الشخص في حياته. فكما يؤمن أهل الديانة المسيحية المتمثلة بفكر توحد الآب مع الابن في الجسد البشري (incarnation) بالتطهير بالماء (purification)، فيما يسمى بعقيدة

التعميد أو baptism or christening (بالمفردات الأجنبية) المتمثلة بغمس كامل الجسم بالماء. انظر الاقتباس التالي:

The usual form of baptism among the earliest Christians was for the candidate to be immersed, either totally (submerged completely under the water) or partially (standing or kneeling in water while water was poured on him or her).

فقد آمن أهل الشريعة الهندوسية مثلا بالتطهير بالنار (Cremation). ولا أخال أنّ عقيدة أهل الإسلام التي تتمثل في غسل جثة الميت بعد وفاته ببعيدة عن مثل هذا التفكير. فما الحكمة من وراء انتشار التطبيق المتمثل بغسل جثة المتوفى بالماء عند موته الذي يكاد يكون شاملا عاما في أهل الإسلام؟ من يدري؟!!!

لكن كان الهدف الحقيقي للكهنوت الديني الشيطاني المروج لفكرة حرق جثة الميت (نحن نزعم الظن) يتمثل في أنّ حرق جثة الميت يؤدي إلى إخفاء آثار الجريمة. فعندما يقدم المجرم على ارتكاب جريمته ، فإن المتمرس منهم في فعل الجريمة يعمد مباشرة إلى إشعال الحريق في المكان كله، ولا يكون ذلك إلا من أجل غاية واحدة لا أكثر: إخفاء أي دليل ممكن أن يؤدي إلى اكتشاف أمره.

نعم، لقد كان هدف الكهنوت الديني الشيطاني من أصحاب تلك الشرائع هو تحدي الإرادة الإلهية بتدمير الدليل المادي الملموس الذي يثبت الجرائم التي ارتكبها الشخص في حياته، ويكأن لسان حالهم يقول بالمفردات العامية " إللي بتمسكه حاسبه".

إن من أبسط أبجديات التفكير على هذا النحو هو استنباط الفهم بأن الفرق بين المؤمن والكافر يتمثل من الناحية العملية في اختلاف الجلود والقلوب:

- ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر: 22-23]

فالقلوب تنقسم إلى قسمين: قلوب قاسية وقلوب لينة. والذي يليّن تلك القلوب هو ذكر الله، وما يلين من القلوب إلا تلك التي تطمئن بذكر الله:

- ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: 28]

ولكن تلك التي لا تطمئن بذكر الله هي القلوب القاسية، وهي التي لا تلين بذكر الله.

السؤال: كيف يحصل ذلك؟

رأينا المفترى: ما أن يسمع الشخص أحسن الحديث الذي أنزل إلينا من ربنا حتى تكون ردة فعله على واحدة من طريقتين:

1. أن يقشعر جلده إن كان من الذين يخشون ربهم
2. أن لا يقشعر جلده إن كان من الذين لا يخشون بربهم

فالجلود هي محطة الإحساس الأولى النافذة إلى القلب، فالقلب يستجيب لما يصله من الجلد. فالجلد الذي يقشعر لأحسن الحديث الذي أنزل إلينا من ربنا هو الذي يسمح بنفاذ ذلك إلى القلب. وبالتالي يستجيب القلب لهذه القشعريرة، فيطمئن لذكر الله. أما الجلد الذي لم يقشعر لأحسن الحديث الذي أنزل إلينا من ربنا، لا يسمح بنفاذ ذلك إلى القلب، وبالتالي يعجز القلب أن يستجيب لذلك، فلا يطمئن لذلك الذكر.

السؤال: لماذا؟ أي لماذا تقشعر بعض الجلود (وهي جلود الذين يخشون ربهم) بينما لا تقشعر جلود أخرى (وهي جلود الذين لا يخشون ربهم)؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن السبب يعود إلى الخشية. فالخشية كما قلنا في مقالات سابقة لنا تحمل في ثناياها معنى المراقبة الدائمة. فمن كان من الذين يخشون ربهم، فهو الذي يكون دائم المراقبة لربه في كل ما يقول ويفعل. ومن يكون مراقبا لربه بكل فعل وقول، فهو إذن من الذين يخشون ربهم. وهم الذين يحرصون على عدم اقتراف الذنوب (إلا اللمم طبعا). لذا، فهؤلاء هم الذين لازالت جلودهم غير ملطخة بالذنوب، فتبقى محطات الاستشعار فعالة في جلده. لكن بالمقابل، فإن الذي لا يخشى ربه (أي لا يكون مراقبا لربه في كل أفعاله وأقواله)، فهم الذين أصبحت جلودهم ملطخة بالذنوب جميعا، وبالتالي فإن محطات الاستشعار في الجلد قد أصابها العطب، فما عادت قادرة على إيصال التأثير إلى القلب لكي تطمئن.

ولو راقبنا ما يحصل لجلد الإنسان في مراحل حياته العمرية، لوجدنا أن جلد الطفل يتميز بالنعومة، ثم ما يلبث أن يبدأ بالتحول التدريجي من أقصى درجات النعومة إلى الخشونة ثم إلى أقصى درجات الخشونة عند وصوله إلى أرذل العمر. وهذا التحول التدريجي في الجلد سببه – نحن نرى- اكتساب الذنوب وتسجيلها على الجلد.

ولو دققنا في الفرق بين جلد المرأة من جهة وجلد الرجل من جهة أخرى، لوجدنا بأن جلد المرأة أكثر نعومة من جلد الرجل، وسبب ذلك - نحن نرى- يعود إلى كمية الذنوب والطهارة منها التي تحصل للاثنين. فالمرأة دائمة التطهر من الأذى الذي يصبها بالدورة الشهرية، بينما لا يستطيع الرجل على مثل تلك الظاهرة التلقائية، فينعكس ذلك على جلد كل واحد منهما. فجلد المرأة يبقى أكثر نظافة من الذنوب، وبالتالي أكثر استعدادا لإيصال المعلومة إلى القلب. فيستجيب قلب المرأة للأحداث أكثر من استجابة قلوب بعض الرجال.

السؤال: كيف يمكن التفريق بين المرأة من جهة والرجل من جهة أخرى؟

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن الآية الكريمة التالية تبين لنا فرقا جوهريا بين الكينونتين، قال تعالى:

- ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزۡوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنۡهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمۡۚ وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ أَبۡنَآءَكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ ٤﴾ [الأحزاب: 4]

دقق عزيزي القارئ – إن شئت- في بداية هذه الآية الكريمة في قوله تعالى (مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦۚ)، ليكون التساؤل الذي لا مفر منه هو: ما معنى مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦۚ ؟

رأينا المفترى: نحن نظن أنه من الاستحالة أن يكون لرجل من قلبين في جوفه، لذا نحن نتجرأ على الافتراءات التالية التي هي لا شك من عند أنفسنا:

⇐ أن للرجل في جوفه قلبا واحدا
⇐ أن للمرأة قلبين في جوفها
⇐ أن للطفل قلبين في جوفه
⇐ يستحيل أن يكون لأي منهما أكثر من قلبين في جوفهما
⇐ الخ

الدليل

نحن نظن بأنه لو جاءت الآية الكريمة على النحو التالي:

- مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ... قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦۚ

أي لو جاءت الآية بدون حرف التحديد (مِّن)، وجاء النص على نحو (ما جعل الله لرجل قلبين في جوفه)، لربما صح لنا أن نستنبط احتمالية أن يكون للرجل في جوفه قلبا واحدا أو أن يكون له أكثر من قلبين، فالنفي يكون لوجود القلبين فقط، لكن لا ينفي احتمالية الأقل من ذلك (القلب الواحد) أو احتمالية الأكثر من ذلك (ثلاثة أو أربعه أو خمسة قلوب). لكن لما جاءت الآية على نحو:

- مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦۚ

فإن الحد الأقصى لعدد القلوب في الجوف هو اثنان لا أكثر، وكان التبيان هو أن الرجل لا يكون له من قلبين في جوفه، لذا يبقى الاحتمال الوحيد القائم هو وجود أقل من ذلك، أي قلبا واحدا.

السؤال: ماذا عن المرأة؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن للمرأة وللطفل الذي لم يبلغ مرحلة الرجولة (وهي بلوغ الحلم) قلبين اثنين.

السؤال: كيف يكون ذلك؟

تفنيد بعض الفكر السائد

خرج بعض المتدبرين بالظن بأن للمرأة قلبين في جوفها بسب قابلية المرأة للحمل، فعندما تحمل المرأة فهي تحمل في بطنها جنينا، له قلب، فيصبح في جوفها قلبين.

أما نحن فنظن ببطلان مثل هذا التدبر للأسباب التالية:

أولا، ماذا عن المرأة التي لا تحمل، هل ينتفي أن يكون في جوفها قلبان اثنان؟

ثانيا، ماذا عن الذين لم يبلغوا الحلم من النساء والأطفال الذكور، هل يوجد في جوفهما قلب واحد أم قلبان اثنان؟

ثالثا، ماذا لو تمكن العلم من إيجاد الحمل في بطن الرجل، كما حصل على أرض الواقع بالتجربة العلمية، هل يجعل ذلك الآية الكريمة في مهب الريح؟

رابعا ماذا لو كانت المرأة تحمل في بطنها أكثر من جنين واحد

خامسا ، دعنا ندقق في الآية الكريمة التالية:

- ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ٤﴾ [التحريم: 4]

لاحظ عزيزي القارئ – إن شئت- بأن الخطاب موجه لاثنتين من نساء النبي بدليل قوله تعالى (إِن تَتُوبَآ) وقوله تعالى (وَإِن تَظَٰهَرَا)، لكن لو دققنا في الحديث عن القلب في هذه الآية الكريمة، لوجدنا قوله تعالى (فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ)، ليكون التساؤل التالي: كم عدد القلوب لهاتين المرأتين؟ هل كنّ في حالة حمل عندما جاء الخطاب عنهما في تلك اللحظة؟ لِم لم يكن الخطاب على نحو (فقد صغا قلباكما)؟

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: بالرغم أن الخطاب موجه لاثنتين من نساء النبي، إلا أن النص القرآني قد أثبت أن لهما قلوب وليس قلبين اثنين فقط. انتهى.

السؤال: لماذا جاء النص على هذا النحو؟

جواب مفترى من عند نفسي: نحن نظن بأن لهؤلاء المرأتين أكثر من قلبين، لذا فلهما قلوب (فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ)، وذلك لأن لكل واحدة من النساء قلبين اثنين، ومادام أنهن اثنتين من النساء، فإن مجموع قلوبهما هو أربعة قلوب، مصداقا لقوله تعالى:

- ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾

ففي حين أن الرجلين الاثنين يكون لهما قلبين اثنين، إلا أن النساء الاثنتين يكون لهما أربعة قلوب، لكل واحدة منهما اثنين من القلوب:

- ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [التحريم: 4]

الدليل

لو تفقدنا مفردة القلب في النص القرآني، لوجدنا أن القلب هو مكان صنع القرار لأنه هو العضو الذي يفقه ويعقل في الجسم:

- ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: 179]
- ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: 46]

والقلوب هي موجودة في الصدور:

- ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: 46]

وهي الأقرب إلى الحناجر في حالتي الخوف والذعر الشديدين:

- ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾﴾ [الأحزاب: 10]

لما كان للرجل قلب واحد، فهو (نحن نرى) يملك أداة تفكر واحدة، أما المرأة فإن لها قلبين اثنين، لذا فهي تملك أداتين للتفكير، وبالتالي فإن أهم ما يميز شخصية المرأة هو التردد وعدم القدرة على اتخاذ القرار الحاسم.

فالتردد الذي نلمسه عند المرأة حتى في الأمور البسيطة سببه (نحن نظن) هو تضارب الرأي في جوفها بسبب وجود القلبين عندها. لذا تبقى في حالة حيرة، لا تستطيع في أغلب الأحيان أن تحسم الأمر إلى أي الرأيين هي أقرب. لذا، فهي تفضل أن تكون في حضن رجل قادر على اتخاذ القرار نيابة عنها.

أما الرجل، فإن أمره أقل تعقيدا مادام أن أداة التفكير هي واحدة (أي قلب واحد)، فلا يقع فريسة هذا التضارب الداخلي في الرأي. وربما لا أبالغ أن أقول أن مثل هذا التصور يحتاج إلى مؤلفات كبير جدا تعني

بالتطبيقات الفعلية على أرض الواقع، التي يجب أن تحاول ردم الهوة في التقارب بين الجنسين، عن طريق إفهام كل طرف بطبيعة الطرف الآخر. فالرجل الذي يقف في السوق إلى جانب زوجته يصاب بالملل والإحباط من تخبط المرأة في عدم قدرتها على اتخاذ القرار السريع بالبضاعة التي تحب أن تشتريها. والمرأة – بالمقابل – تصاب بالذهول والدهشة وربما بالإحباط من عدم قدرة زوجها على فهم طبيعتها. فلا شك أنها تنتظر منه أن يشير إليها بالرأي ليحسم لها الحيرة الواقعة في نفسها. وقلما تجده يتصرف بلباقة (مثلي) في مثل هذه المواقف. فأنا استطيع أن أتفهم خيبة كل امرأة لم يحالفها الحظ أن يكون لها زوجا من مثلي!!!

على أي حال، سأترك هذا الأمر لعلماء الاجتماع وعلماء السلوك للتأليف فيه من أجل تثقيف الجنسين (الذكر والأنثى) حتى تزال الهوة الواسعة بينهما في الفهم.

السؤال: لماذا كان للمرأة قلبين؟ ولماذا جعل الله للرجل قلبا واحدا؟

رأينا المفترة الخطير جدا جدا (فلا تصدقوه): عندما يتكون الجنين في بطن أمه، يكون له قلبين اثنين (ذكرا كان أم أنثى)، وهما الكينونتان المتواجدتان في أعلى مضخة الدم، أو ما يسمى بالمفردات العلمية الأذينين. ويبقى الأمر على تلك الشاكلة حتى بلوغ الأطفال مرحلة الحلم. وما أن يبلغ الذكر من الأطفال مرحلة الحلم، وتبدأ عنده غريزة الشهوة لحب النساء، حتى ينتصب عضوه الذكري، ويكون قادرا على القذف. وما أن يكون قادرا على القذف حتى يتم طمس واحدا من القلبين، فيتعطل عن العمل (اتخاذ القرار)، ليبقى واحد من القلبين قادرا على العمل.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: إن عملية القذف عند الذكور كفيلة (نحن نرى) بتعطيل أحد قلبيه، ليعمل بدلا من ذلك عضوه الذكري. فما دام عضوه الذكري قد انتصب بحب الشهوة من النساء، فإن قدرته على التفكير تصبح أحادية فقط.

أما المرأة، فإن هذا الأمر لا يحصل البتة. فيبقى كلا قلبيها في شغل، فتستطيع أن تركز على أكثر من شيء واحد في الوقت ذاته.

السؤال: لم حصل ذلك؟ ومتى حصل ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن ذلك قد حصل عند المعصية الأولى. فعندما نزل آدم عند نصيحة الشيطان، فهو قد وافق على تشغيل عضوه الذكري مقابل أن يعطل أحد قلبيه. فما دام عضو الذكر قد انتصب بشهوة النساء، فهو قد أصبح أقرب إلى الدابة منه إلى الجنس البشري.

فلقد كانت نصيحة الشيطان لآدم عبارة عن مساومة له لواحد من خيارين: إما أن لا يطيع الشيطان ويبقى قلبه الثاني مشتغلا (كما فعلت زوج آدم) أو أن يعطل أحد قلبيه بتشغيل عضوه الذكري. وبالفعل اختار

آدم الخيار الثاني، فعطل أحد قلبيه، وتدفق الدم إلى عروق عضوه الذكري، فانتصب بالشهوة، فأصبح غير قادر على التفكير مادام عضوه الذكري منتصبا.

الدليل

لو رجعنا إلى قصة الخلق الأولى، لوجدنا أن الشيطان قد بدا بالوسوسة لكل من آدم وزوجه معا:

- ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ [الأعراف: 20-21]

لكن ذلك لم يجد نفعا مع زوج آدم، لأنها رفضت النزول عند رغبة الشيطان، بينما كانت رغبة آدم جامحة في تقبل وسوسة الشيطان. لذا، نجد أن الشيطان قد استفرد بالوسوسة لآدم لوحده، قال تعالى:

- ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طه: 120-122]

السؤال: لماذا تقبل آدم وسوسة الشيطان؟ وماذا كانت نتيجة تقبل آدم لوسوسة الشيطان؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن زوج آدم لم تستطع اتخاذ القرار بخصوص وسوسة الشيطان، فظلت في حالة حيرة، وذلك لأن لها (نحن نفتري الظن) قلبين في جوفها، أحدهما يرغب في تقبل نصيحة الشيطان والآخر يرفض تماما نصيحة الشيطان، فبقيت في حالة وسطى لا تستطيع أن تحسم أمرها إلى أي الرأيين هي أقرب. فما اتخذت قرارا بمعصية ربها، وما غوت، وما كانت بحاجة أن تتوب إلى ربها كما فعل زوجها آدم.

لكن آدم بالمقابل، آثر أن يغلق أحد قلبيه، فأغلق القلب الذي يرفض نصيحة الشيطان، وبقي القلب الذي يتقبل نصيحة الشيطان. عندها حسم أمره، فاتخذ قراره بالوقوع عند رأي الشيطان، فأكل من الشجرة.

السؤال: لماذا أغلق القلب الذي رفض المعصية وآثر أن يبقى قلبه الآخر مفتوحا للشيطان؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن السبب في ذلك يعود إلى العصا التي كانت بيده. انتهى.

السؤال: وكيف ذلك؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: كان آدم هو الخليفة، ولعل من أهم سمات من كان خليفة أن يكون بيده تلك العصا (انظر المقالات السابقة عن العصا). وكان من أهم أغراض وجود العصا بيد آدم أن يهش بها على غنمه. فمادامت تلك العصا بيده، لذا كان عضوه الذكري راقدا، لا يصيبه الانتصاب. لكن ما أن يضع تلك

العصا من يده حتى يشعر بانتصاب عضوه الذكري. فكانت مكيدة الشيطان (نحن نرى) مبنية على مبدأ أن يعطل تلك العصا التي بيد آدم والتي كان بها يذيقهم العذاب المهين (كما كان يفعل سليمان مع الجن). لذا، وقع آدم في هذا الاختبار الشديد: إما أن يبقى العصا بيده متكأً عليها، فيهش بها على غنمه، فلا ينتصب عضوه الذكري كما كان يفعل موسى بالعصا:

- ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ۝١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ۝١٨﴾ [طه: 17-18]

ويبقى بالتالي قلبه الثاني مفتوحا، فيبقى في حالة عدم قدرة على اتخاذ القرار (كحال زوجه). وبالتالي لا يقع في المعصية. أو أن يسقط العصا من يده، فينتصب عضوه الذكري، فيضخ الدم إلى ذلك العضو وينقطع عن القلب الثاني، فيكون بذلك بقلب واحد. وبالفعل أسقط آدم العصا التي كانت بيده، فانتصب عضوه الذكري، وأغلق قلبه الثاني، فأصبح فريسة لوسوسة الشيطان، فأقدم على الأكل من الشجرة، وجر زوجه معه، فكان من نتائج ذلك الأكل من الشجرة أن ينزع عن كليهما اللباس:

- ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ۗ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٧﴾ [الأعراف: 27]

فكانت خسارة آدم اثنتين: وهما اللباس والعصا (التي استبدلها بعصاه الأخرى – العضو الذكري)، فأغلق بذلك قلبه الثاني.

بينما كانت خسارة زوج آدم قد تمثلت فقط في نزع اللباس، لكنها لم تخسر قلبها الثاني، لأنها لم تكن بحاجة أن تهش بها، لأنها أصلا لا تملك غنما تهش بالعصا عليه.

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: لمّا خلق الله آدم، جعله هو الخليفة فقط ، فطلب من الملائكة السجود لآدم، فكان على الملائكة أن يقعوا له ساجدين، فكان لزاما عليهم أن يأتمروا بأمره، وكانت العصا هي أداة سطوته عليهم، فما كانوا يستطيعون أن يخرجوا عن أمره؛ لأنه لو حاول أحد منهم أن لا يأتمر بأمره، لأذاقه آدم بتلك العصا التي بيده من عذاب السعير، بالضبط كما كانت حالتهم تحت حكم سليمان الذي كان يملك تلك العصا على شكل منسأة:

- ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ۝١٤﴾ [سبأ: 14]

وما أن سجد الملائكة لآدم حتى خُلق لآدم من نفسه زوجا له من نفسه، فكانت زوج آدم لا تحتاج إلى عصا بيدها مادام أنه لا يوجد في ظهرها غنما لتهش بالعصا عليه. فكانت في حالة سكون جنسي، لا يتطلب منها أن تصارعه، لكن كان ظهر آدم - بالمقابل- مليئا بالغنم (الذرية) التي تنازعه في شهوة جنسية تفور أحيانا وتهدأ أحيانا أخرى، ولم يكن بالإمكان إسكات تلك الغنم عن الثوران إلا بالعصا التي بيده، فكان لزاما على آدم

أن لا يترك العصا تفلت من يده؛ لأنه بمجرد أن تفلت تلك العصا من يده حتى تبدأ غنمه تنازعه للخروج بالشهوة من عضوه الذكري، فيؤدي ذلك إلى انتصاب عضوه الذكري، وما كان يهدأ ثوران غنمه وانتصاب قضيبه إلا أن يمسك العصا بيده مرة أخرى.

السؤال: من أين جاءت غنم آدم؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن هذا يعيدنا على الفور إلى قصة الخلق الأولى التي حصلت (نحن نتخيل) على النحو التالي:

⇐ خلق الله آدم

- ﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ٧١﴾ [ص: 71]

⇐ خلق الله الخلق جميعا جملة واحدة

- ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ١١﴾ [الأعراف: 11]

⇐ نفخ الله الروح في آدم وطلب من الملائكة أن يقعوا له ساجدين:

- ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٧٢﴾ [ص: 72]

⇐ علم الله آدم الأسماء جميعا:

- ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣١﴾ [البقرة: 31]

⇐ أودع الله الذرية كلها في ظهر آدم:

- ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ١٧٢﴾ [الأعراف: 172]

⇐ وقع الملائكة ساجدين إلا إبليس أبى واستكبر:

- ﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ٣٠ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٣١﴾ [الحجر: 30-31]

⇐ خلق الله لآدم من نفسه زوجا له:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [النساء: 1]

- ﴿۞ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٨٩﴾ [الأعراف: 189]
- ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ٦﴾ [الزمر: 6]

⇐ طلب الله من آدم أن يسكن هو وزوجه الجنة وأن يأكلا منها رغدا حيث شاءا:

- ﴿وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٥﴾ [البقرة: 35]
- ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩﴾ [الأعراف: 19]

⇐ حذر الله آدم وزوجه من عداوة الشيطان لهما ليخرجهما مما هم فيه:

- ﴿فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ١١٧﴾ [طه: 117]

⇐ الخ

لما كان آدم خليفة، فهو من تسلم تلك العصا، فكان في حالة تهدئة، فما ثارت غنمه، لكن بدأ يجرب فاعلية تلك العصا، فأخذ يطرحها على الأرض تارة ويمسكها بيده تارة أخرى، وما أن يطرحها على الأرض من يده حتى تبدأ ثورته الجنسية بانتصاب عضوه الذكري. وعندما كان يمسك العصا بيده من جديد ليتكأ عليها، كانت تهدأ ثورته الجنسية، وهذا بالضبط ما كان يفعله موسى بالعصا:

- ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ١٨﴾ [طه: 18]

ففي تلك الحالة التي ألقى آدم عصاه من يده، وثارت عليه غنمه، انتهز الشيطان الفرصة فوسوس لآدم لوحده:

- ﴿فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ١٢٠ فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ١٢١ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ١٢٢﴾ [طه: 120-122]

وهنا وجد آدم نفسه أمام خيارين لا ثالث لها، إما أن يرفض نصيحة الشيطان، ويبقى ممسكا بعصاه يهش به على غنمه، أو أن يلقي العصا من يده وينزل عن رغبته الجنسية التي تجسدت بانتصاب عضوه الذكري بالشهوة. فما كان من آدم إلاّ أن نزل عند نصيحة الشيطان لأن هذا سيحقق له الملك الذي لا يبلى.

السؤال: كيف ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا أن إرادة الله كانت لآدم بالخلافة، فلا يكون هناك حالة من الأنساب بين آدم وذريته التي في ظهره، وكان يستطيع آدم أن يحقق ذريته على أرض الواقع بطريقة النفخ في فرج زوجه، فيتكون الجنين في بطن زوج آدم في ليلة واحدة، ويحدث الولادة في الليلة التالية كما كان من أمر مريم ابنت عمران التي حملت ووضعت المسيح. ولو حصل الأمر على هذا النحو، لكانت النتائج على النحو التالي:

⇐ يبقى آدم خليفة
⇐ تبقى زوج آدم متطهرة، فلا يصبها الأذى بالدورة الشهرية
⇐ عندما تحصل الولادة، لا يتمخض عن ذلك علاقة نسب بين الولد والوالد أو بين الولد والوالدة
⇐ لا يحصل الشقاء
⇐ تبقى الحياة جنة، فلا يتحصل التغوط والتبول ولا تتحصل العلاقة الجنسية المعروفة الآن
⇐ الخ

لكن لمّا اختار آدم المُلك، كانت النتائج على النحو التالي:

⇐ لم يعد آدم خليفة
⇐ أصبحت زوج آدم غير مطهرة، فأصابتها الدورة الشهرية، فكانت بحاجة أن تتطهر على الدوام
⇐ أصبح الحمل مدته تسعة أشهر، فتمخض عن ذلك علاقة نسب بين الوالد والولد والوالدة والولد.
⇐ أصبحت الحياة تتسم بالشقاء
⇐ ما عادت الحياة جنة، فحصل التغوط والتبول والمس بالعلاقة الجنسية المعروفة
⇐ الخ

إن خسارة آدم للعصا، كانت نتائجها المباشرة خسارته للخلافة، فما عاد قادرا على أن يخضع الجن (بمن فيهم الملائكة) لسلطته المباشرة. وكانت خسارته للباس أن أصبح هدفا سهلا للشيطان بعد أن كان في وقاية من خطر الشيطان.

أما زوج آدم، فلم تكن أصلا خليفة لتخسر هذه الخلافة، لكنها خسرت اللباس، فأصبحت كذلك عرضة لخطر الشيطان مادام أنها قد خسرت اللباس. وكانت المنّة الإلهية على النساء أن زود المرأة بآلية طبيعية للتخلص من أذى الشيطان بالدورة الشهرية. فكانت الدورة عبارة عن تطهير دوري للمرأة من كل أذى من الشيطان يصيبها:

- ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ۝٢٢٢﴾ [البقرة: 222]

عودة على بدء: باب الجلود

نحن نفتري الظن بأن هذا التطهير للمرأة بالمحيض يجعل جلدها دائم الإحساس بذكر الله على غير الرجل الذي لا يستطيع أن يطهر جسمه (وخاصة جلده) من أذى الشيطان، فيصبح جلده أقل إحساسا لذكر الله.

- ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ٢٣﴾ [الزمر: 23]

السؤال: ما هي آلية إحساس القلوب لما يصيب الجلود؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الجلود مربوطة بشكل مباشر مع القلوب، فكل ما يصيب الجلود من تأثير خارجي ينعكس مباشرة على القلب، فيشعر به القلب. لكن إذا أصبحت الجلود أقل تأثرا بالمحيط الخارجي، فإنه يتعذر أن يشعر بذلك القلب. فإذا ما اقشعرت الجلود، لآنت القلوب. ولكن إذا لم تقشعر الجلود، فإن القلوب تبقى قاسية. ليكون السؤال الآن هو: لماذا سيكون العذاب على نحو أن تصلى بالنار الجلود؟

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ٥٦﴾ [النساء: 56]

رأينا المفترى: نحن نظن أن العذاب على نحو أن تصلى بها جلودهم، ليذوقوا العذاب. وإذا ما صليت جلودهم، فإن ذلك سيؤدي إلى أن تتأثر قلوبهم بما حصل للجلود، فالنار التي تصلي الجلود يكون تأثيرها مباشرا على تليين قلوبهم. وبالتالي تكون عملية صلي الجلود هي تطهير لجلودهم وقلوبهم مما لحق بها من أذى الشيطان بسبب الوقوع في المعاصي والذنوب.

تلخيص ما سبق: نحن نظن أن عقائد الآخرين التي بنيت على فكرة إحراق جثة الميت قد جاءت من فكرة تطهير تلك الجلود مما لحق بها من أذى الشيطان ليصل ذلك الجلد مطهرا إلى خالقه، فلا يصب عليه العذاب حينئذ.

وقد يدفعنا هذا النقاش إلى افتراء الظن بأن مثل هذه الأفهام لا تبين فقط المعتقدات التي يتداولها أهل العقائد الأخرى، بل تتعدى إلى الطابع العلمي التجريبي كالذي يدرّس في الجامعات في قاعات الدرس في كل التخصصات. ولنأخذ مثالا من عالم الطب

باب الرضاعة

في هذا السياق سنتناول القضايا المطروحة تباعا، لنقدم تصورات مفتراة من عند أنفسنا لها، متقبلين في الوقت ذاته مناقشتها، ونقدها بأسلوب علمي أكاديمي يخلو من الشوفانية الفردية والجماعية. وأول هذه القضايا التي سنتعرض لها الآن هي قضية تحريم الزواج من الأمهات المرضعات وأخوات الرضاعة.

السؤال المحوري: ما سر تحريم الزواج من الأمهات المرضعات وأخوات الرضاعة؟

- ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [النساء: 23]

لو حاولنا تدبر هذه الآية الكريمة، لوجدنا بأنها تبيّن لنا بأن التحريم يقع على الأمهات المرضعات والأخوات من الرضاعة (وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ)، فما الحكمة من ذلك؟ نحن نسأل.

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن بأن السبب في ذلك يعود إلى قصة الدورة الشهرية. انتهى.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: لو حاولنا فهم آلية الدورة الشهرية، لوجدنا على الفور بأن الدورة الشهرية تنقطع بمجرد حصول الحمل. فيتدفق دم المحيض ليشكل المشيمة للجنين، وعندها يبدأ الطفل في بطن المرأة الحامل يتغذى من تلك المشيمة، فينتقل ذلك الأذى للطفل مادام أن المحيض هو بحد ذاته أذى:

- ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة: 222]

فيخرج الطفل من بطن أمه لا يعلم شيئا بسبب ما أصابه في بطن أمه من دم المحيض الذي انحبس في جسمها طيلة فترة الحمل:

- ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل: 78]

فتبدأ مرحلة الرضاعة. وهنا تبدأ الفارقة: ما أن ينزل الطفل من بطن أمه حتى يبدأ بعملية الرضاعة، ولا شك أن جسم المرأة لازال لم يتطهر من الأذى كله، فيبقى الاحتمال قائما أن يستمر انتقال الأذى من بطن الأم المرضعة إلى جنينها الذي ترضعه حينئذ. ويكون الخطر أكبر عند بعض النساء التي تنقطع الدورة عندها في مرحلة الرضاعة. فالنساء على نوعين:

⇐ نساء تنقطع الدورة عندهن طوال فترة الرضاعة

⇐ نساء تستمر الدورة في حالتها الطبيعية، فتبقى تحيض خلال الرضاعة

افتراء خطير جدا لا تصدقوه: في حالة النساء اللواتي تنقطع الدورة خلال مرحلة الرضاعة، فلا يخرج دم المحيض منها، يكون الخطر شديدا، وذلك لأن الأذى يبقى حبيس جسم المرأة المرضعة، فيستمر تدفق الأذى بشدة من بطن الأم المرضعة إلى طفلها.

التطبيق على أرض الواقع: هناك حالات مرضية تصيب الأطفال بسبب الرضاعة. فعندما يولد الطفل يكون في حالة صحية جيدة، لكن ما أن تبدأ عملية الرضاعة حتى يصيب الطفل نوع من أنواع الإعاقة الجسدية كالشلل مثلا، وقلما يتم اكتشاف ذلك إلا متأخرا، فينسب الأطباء الإعاقة التي أصابت الطفل إلى عملية الرضاعة (أي لبن الأم). ليكون السؤال: كيف يمكن اكتشاف المشكلة قبل وقوعها؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن بأنه وجب على الأطباء أن يسألوا الأم عن مسألة الدورة الشهرية فيما إذا كانت تستمر بشكل طبيعي في خلال فترة الرضاعة أم تنقطع الدورة الشهرية تماما طوال فترة الرضاعة. وإذا ما تبين لهم بأن الدورة الشهرية عند الأم تنقطع تماما في حالة الرضاعة، عندها يجب توخي الحذر الشديد لأن الطفل يكون أكثر عرضة إلى تلقي الأذى من بطن الأم مادام أن دم المحيض لا يخرج من جسمها طلية فترة الرضاعة، وهذا الأذى هو – برأينا- ما قد يسبب الأذى للطفل، فيتجلى ذلك بإصابة الطفل بإعاقة جسدية.

ولو راقبنا تصرفات الأطفال بعد فترة الولادة مباشرة، لوجدنا بأن كثيرا من الأطفال يرفضون بشكل قوي قبول الرضاعة من ثدي الأم الوالدة، ولعلي أكاد أجزم الظن بأن فطرة هذا الطفل قد جعلته يميّز بأن هذا اللبن من ثدي الأم لا يناسبه، لكن المشكلة (نحن نرى ربما مخطئين) تتفاقم عندما تلجأ الأمهات الوالدات إلى إجبار طفلها على ذلك اللبن بعملية التجويع بناء على النصيحة الطبية.

الفهم البديل

نحن نكاد نجزم الظن بأن على الأم المرضعة أن لا تجبر طفلها المولود حديثا أن يرضع من ثديها إذا ما كان هو ذاته غير راغب في ذلك، كما يجب على الأم المرضعة أن تكون حذرة إذا ما كانت الدورة الشهرية عندها تنقطع تماما خلال مرحلة الرضاعة كاملة. والسبب في ذلك يعود إلى أن الأذى المتكون في جسمها بسبب انحباس المحيض ينتقل من جسم المرأة إلى الطفل مباشرة من خلال الرضاعة. فمنطقنا المفترى مفاده أن استمرارية الدورة بانتظام يعني استمرارية تطهر جسم المرأة من أذى المحيض. فالمرأة التي تستمر الدورة بحالتها الطبيعة خلال فترة الرضاعة أقل عرضة إلى نقل الأذى إلى جسم الطفل بعد الولادة.

عودة على بدء

نحن نفتري الظن بأن واحدة من أهم أسباب تحريم الرضاعة هو الأذى الذي يمكن أن يتحصل جراء الرضاعة. فعندما يرضع الطفل من امرأة ما، فإن الأذى يتحصل عنده بسبب الرضاعة كما يمكن أن يتحصل

له خلال فترة وجوده كجنين في بطن أمه عندما كان يصيبه الأذى بسبب انقطاع الدورة الشهرية عند الأم الحامل، وبالتالي تغذية الطفل من ذلك الأذى من خلال المشيمة المتكونة من دم المحيض خلال فترة الحمل.

فالتحريم بالولادة سببه قرابة الدم (دم المحيض)، وكذلك هو (نحن نظن) التحريم في حالة الرضاعة، فالنتيجة واحدة: انتقال الأذى من الأم إلى الطفل سواء داخل بطن الأم الحامل خلال فترة الحمل أو خارج بطن الأم خلال مرحلة الرضاعة.

فأول أذى يصيب الطفل يكون في بطن المرأة، ويستمر هذا الأذى (بشكل اقل) بالرضاعة. ولو دققنا في حالة الطفل بعد الولادة، لوجدنا أن الطفل لا يتقبل بعد الولادة مباشرة إلا طعاما واحدا وهو لبن الأم. وفي تلك المرحلة لا تكون نفس الطفل قد تشكلت بعد، فنفسه لا تشتهي بعد:

- ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾﴾ [فصلت: 31]
- ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾﴾ [الزخرف: 71]

فالأنفس هي التي تشتهي الطعام، ومادام أن الطفل لا يتقبل إلا طعاما واحدا، فإن نفسه لم تتكون بعد، وما أن تبدأ نفس الإنسان تشتهي حتى تبدأ بالتكون، ويكون الطعام هو المهذب للنفس، لذا على الأهل أن يكونوا على قدر من الوعي لكي لا يصيب نفس الطفل الأذى من جراء ذلك الطعام.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: لو دققنا في كينونة الإنسان (أي إنسان)، لوجدنا أنها تتألف من أجزاء ثلاثة: الجسم والنفس والروح. لذا فهو يحتاج إلى ثلاثة عناصر أساسية لاستمرارية عمله بشكل طبيعي. والعناصر الثلاثة هي: الماء والطعام والهواء.

فالماء هو العنصر الذي يحتاجه الجسم وذلك لأن الجسم مخلوق أصلا من تراب. وهذا التراب احتاج إلى الماء حتى أصبح طينا بعد ذلك:

- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾ [الإسراء: 61]
- ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف: 12]

فحتى يستمر ذاك التراب طينا، فلابد من استمرار استخدام الماء لتلينه، فانقطاع الماء عن جسم الإنسان يؤدي بذلك الجسم أن يصيبه الجفاف، وإذا ما استمر على هذه الحالة فترة أطول من اللازم، فإن ذلك سيؤدي إلى هلاك ذلك الجسم.

أما الهواء فهو العنصر المشغل للروح، فروح الإنسان لا تستطيع أن تتحمل انقطاع الهواء لفترة دقائق معدودة، فذلك سيسبب الاختناق للروح، وبالتالي تعطيل الجهاز كله.

أما الطعام فهو غذاء النفس، فالنفس هي التي تشتهي الطعام، وكل نفس تشتهي من الطعام ما يروق لها. فما تشتهيه نفسي من الطعام قد لا يكون مرغوبا لنفسك، وهكذا:

- ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾﴾ [فصلت: 31]
- ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾﴾ [الزخرف: 71]

رأينا المفترى: نحن نظن بأن شهوة الطعام تتكون في المعدة، فالمعدة هي التي تشتهي الطعام، فما أن يبدأ الطفل بشهوة الطعام حتى تبدأ نفسه تتكون، فهو الذي يشكلها. فالطفل يبدأ بالأكل من كل شيء أمامه كما الدابة، لكن هنا يبدأ دور الأهل في توجيه الطفل إلى ما يؤكل وما لا يؤكل، فلو ترك الطفل يأكل من كل شيء دون توجيه، فإن هذا سيستمر معه حتى في الكبر. ولو حصل هذا، لكانت نفس الشخص كما هي نفس الدابة. وهنا يكمن الخطر على الطفل، لأنه يصبح عرضة لأن تكون نفسه غير مهذبة.

لكن عندما يتدخل الأهل في خيارات الطفل بالأكل، فإن ذلك يعتبر التدريب الأول للطفل في تهذيب نفسه، عندها يبدأ الطفل بمراقبة نفسه، وبالتالي يصبح أكثر قدرة على تمييز الغث من السمين. وما هي إلا فترة وجيزة حتى تبدأ نفس هذا الطفل تعاف بعض الأشياء وتتقبل بعضها الآخر. وهذا بالضبط ما هو مطلوب: أن لا تكون نفس الطفل عرضة لتقبل كل شيء على أساس أنه مقبول لا لبس فيه. ولو حصل العكس، لأصبحت نفس الطفل أقرب إلى نفس الدابة. ولو استمر على هذا الحالة فترة من الزمن لأصبح غير قادر أن يسيطر على نفسه في القادم من الأيام. فبدل أن يكون هو المسيطر على نفسه، تصبح نفسه هي المسيطرة عليه، الموجهة له، ولأصبح بالتالي ضحية لما تسول له نفسه.

فكما أصبح الطفل قادرا على ضبط نفسه فيما يخص الطعام، يسيطر عليها، كلما أصبح أكثر قدرة على السيطرة على نفسه فيما سوى ذلك عندما يكبر.

والتدريب على هذا (نحن نرى) مفيد جدا منذ نعومة أظفار الطفل. فعلى الأهل أن يضعوا بعض الطعام أمام الطفل، لكن عليهم أن يدربوه على الصبر على ذلك. فقد تضع قطعة الحلوى أمام الطفل، وأنت تعلم مقدار رغبته في ذلك، لكن عليك أن تشجعه (لا بل وتحفزه بالجوائز العينية والمادية) أن يصبر على أن لا يأكل قطعة الحلوى التي يسيل لعابه عليها. وكلما كان الطفل أكثر انضباطا في السيطرة على ما تشتهيه نفسه من الأكل، كلما أصبح أكثر قدرة على السيطرة على شهوات نفسه في قادم الأيام.

وقد لا يكون مفيدا (وربما قد يسبب الضرر) أن تقدم للطفل كل ما تطلبه نفسه في الحال، لأن ذلك ربما سيكون مدعاة بأن لا يضبط نفسه، وعندها تنقلب الصورة من أن يكون هو متحكما بنفسه إلى أن تكون نفسه هي المتحكمة به.

فالمعدة هي المحرك الأول في تكوين نفس الشخص، وكلما كان الشخص أكثر قدرة على ضبط طعامه، كان أقدر على السيطرة على نفسه، وبالتالي يستطيع تهذيبها كما يشاء، وبالمقابل كلما كان أقل قدرة على ضبط طعامه، كلما كان أقل قدرة على السيطرة على نفسه، وبالتالي يصبح أقل قدرة على تهذيبها، فتكون هي المسيطرة عليه. لذا، عندما يكبر، تبدأ نفسه تتحكم فيه، فينزل عند رغباتها، وعندها يحدث ما لا يحمد عقباه.

باب: وإذا المؤدوة سئلت بأي ذنب قتلت

ولو حاولنا تدبر معنى هذه الآية الكريمة:

- ﴿وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ٨ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ٩﴾ [التكوير: 8-9]

لربما حق لنا أن نطرح تساؤلات عديدة قلما نجد عليها إجابات مرضية في بطون الكتب المتوافرة بين أيدينا. فلو حاولت أن تسأل أهل الدراية (أو حتى أهل الرواية) عن تفسيرات لهذه الآية الكريمة، لربما توصلت إلى ما مفاده أن هناك شبه إجماع بينهم أن الآية تتحدث عن عادة جاهلية كانت سائدة إبان قدوم الإسلام إلى مكة، تتمثل في وأد البنات في مرحلة الطفولة خوفا من العار. وإليك عزيزي القارئ بعض ما جاء في بطون أمهات كتب التفسير كتفسير الطبري عن هذه الآية الكريمة:

وقوله : (وإذا الموءودة سئلت) ؟ اختلفت القراء في قراءة ذلك , فقرأه أبو الضحى مسلم بن صبيح : " وإذا الموءودة سألت بأي ذنب قتلت " ؟ بمعنى : سألت الموءودة الوائدين : بأي ذنب قتلوها . ذكر الرواية بذلك : 28262 – حدثني أبو السائب , قال : ثنا أبو معاوية , عن الأعمش , عن مسلم , في قوله } : وإذا الموءودة سئلت { ؟ قال : طلبت بدمائها . حدثنا سوار بن عبد الله العنبري , قال : ثنا يحيى بن سعيد , عن الأعمش , قال : قال أبو الضحى " : وإذا الموءودة سألت " ؟ قال : سألت قتلتها . ولو قرأ قارئ ممن قرأ " سألت بأي ذنب قتلت " كان له وجه , وكان يكون معنى ذلك معنى من قرأ } بأي ذنب قتلت{ غير أنه إذا كان حكاية جاز فيه الوجهان , كما يقال : قال عبد الله بأي ذنب ضرب ; كما قال عنترة : الشاتمي عرضي ولم أشتمهما والناذرين إذا لقيتهما دمي وذلك أنهما كانا يقولان : إذا لقينا عنترة لنقتلنه . فحكى عنترة قولهما في شعره ; وكذلك قول الآخر : رجلان من ضبة أخبرانا إنا رأينا رجلا عريانا بمعنى : أخبرانا أنهما , ولكنه جرى الكلام على مذهب الحكاية . وقرأ ذلك بعض عامة قراء الأمصار } : وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت { بمعنى : سئلت الموءودة بأي ذنب قتلت , ومعنى قتلت : قتلت , غير أن ذلك رد إلى الخبر على وجه الحكاية على نحو القول الماضي قبل , وقد يتوجه معنى ذلك إلى أن يكون : وإذا الموءودة سئلت قتلتها ووائدوها , بأي ذنب قتلوها ؟ ثم رد ذلك إلى ما لم يسم فاعله , فقيل : بأي ذنب قتلت . وأولى القراءتين في ذلك عندنا بالصواب : قراءة من قرأ ذلك } سئلت { بضم السين } بأي ذنب قتلت { على وجه الخبر , لإجماع الحجة من القراء عليه . والموءودة : المدفونة حية , وكذلك كانت العرب تفعل ببناتها ; ومنه قول الفرزدق بن غالب : ومنا الذي أحيا الوئيد وغائب وعمرو , ومنا حاملون ودافع يقال : وأده فهو يئده وأدا , ووأدة . وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل . ذكر من قال ذلك : 28263 – حدثنا بشر , قال : ثنا يزيد , قال : ثنا سعيد , عن قتادة } وإذا الموءودة سئلت : { هي في بعض القراءات : " سألت بأي ذنب قتلت ؟ " لا

بذنب , كان أهل الجاهلية يقتل أحدهم ابنته , ويغذو كلبه , فعاب الله ذلك عليهم – 28264 . حدثنا ابن عبد الأعلى , قال : ثنا ابن ثور , عن معمر , عن قتادة , قال : جاء قيس بن عاصم التميمي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إني وأدت ثماني بنات في الجاهلية , قال : " فأعتق عن كل واحدة بدنة – 28265 . "حدثنا ابن حميد , قال : ثنا مهران , عن سفيان , عن أبيه , عن أبي يعلى , عن الربيع بن خيثم } وإذا الموءودة سئلت { قال : كانت العرب من أفعل الناس لذلك - * . حدثنا أبو كريب , قال : ثنا وكيع , عن سفيان , عن أبيه , عن أبي يعلى , عن ربيع بن خيثم بمثله . 28266 – حدثني يونس , قال : أخبرنا ابن وهب , قال : قال ابن زيد , في قوله } : وإذا الموءودة سئلت { قال : البنات التي كانت طوائف العرب يقتلونهن , وقرأ : (بأي ذنب قتلت)

أو ما جاء في القرطبي:

لموءودة المقتولة ; وهي الجارية تدفن وهي حية , سميت بذلك لما يطرح عليها من التراب , فيؤودها أي يثقلها حتى تموت ; ومنه قول تعالى : " ولا يئوده حفظهما " [البقرة : 255] أي لا يثقله ; وقال متمم بن نويرة : وموءودة مقبورة في مفازة بآمتها موسودة لم تمهدوكانوا يدفنون بناتهم أحياء لخصلتين : إحداهما كانوا يقولون إن الملائكة بنات الله , فألحقوا البنات به . الثانية إما مخافة الحاجة والإملاق , وإما خوفا من السبي والاسترقاق . وقد مضى في سورة " النحل " هذا المعنى , عند قوله تعالى : " أم يدسه في التراب " [النحل : 59] مستوفى . وقد كان ذوو الشرف منهم يمتنعون من هذا , ويمنعون منه , حتى افتخر به الفرزدق , فقال : ومنا الذي منع الوائدات فأحيا الوئيد فلم يوأد يعني جده صعصعة كان يشتريهن من آبائهن . فجاء الإسلام وقد أحيا سبعين موءودة . وقال ابن عباس : كانت المرأة في الجاهلية إذا حملت حفرت حفرة , وتمخضت على رأسها , فإن ولدت جارية رمت بها في الحفرة , وردت التراب عليها , وإن ولدت غلاما حبسته , ومنه قوال الراجز : سميتها إذ ولدت تموت والقبر صهر ضامن زميت الزميت الوقور , والزميت مثال الفسيق أوقر من الزميت , وفلان أزمت الناس أي أوقرهم , وما أشد تزمته ; عن الفراء . وقال قتادة : كانت الجاهلية يقتل أحدهم ابنته , ويغذو كلبه , فعاتبهم الله على ذلك , وتوعدهم بقوله : " وإذا الموءودة سئلت " قال عمر في قوله تعالى : " وإذا الموءودة سئلت " قال : جاء قيس بن عاصم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ! إني وأدت ثماني بنات كن لي في الجاهلية , قال : (فأعتق عن كل واحدة منهن رقبة) قال : يا رسول الله إني صاحب إبل , قال : (فأهد عن كل واحدة منهن بدنة إن شئت).

رأينا المفترى: بعيدا عن إثارة التساؤلات حول هذه التفسيرات الذي لا نرضى بها إطلاقا، فإننا سنحاول تقديم تفسير هو لا شك من عند أنفسنا عن هذه الآية الكريمة، ثم نترك للقارئ الكريم حرية الاختيار بين ما جاء به أهل العلم من قبل (وهو ربما أقرب إلى الصواب) وما نحاول أن نفتريه نحن من عند أنفسنا (وهو لا شك ليس أكثر من رأي قابل للطعن من قبل الجميع لأنه قد لا يرقى إلى المستوى العليم الذي ترقى إليه عقول الأعراب).

أما بعد،

نحن ننفي جملة وتفصيلا أن تكون المؤودة التي جاء ذكرها في الآية الكريمة من الإنس أو من الجآن، وذلك لأن الآية الكريمة التالية تنفي جملة وتفصيلا احتمالية أن يسأل يومئذ عن ذنبه إنس ولا جآن، قال تعالى:

- ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ٣٩﴾ [الرحمن: 39]

السؤال المربك لنا: كيف نفهم أن الله يبين لنا في كتابه الكريم أن من الاستحالة بمكان أن يسأل إنس ولا جآن عن ذنبه يومئذ (أي بعد البعث) وفي الوقت نفسه نقرأ قوله تعالى:

- ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ٩﴾ [التكوير: 8-9]

السؤال المحوري: هل يمكن إذا أن تكون الموؤدة من الإنس أو من الجآن؟

جواب مفترى: كلا وألف كلا، وذلك لأنه لا يسأل عن ذنبه يومئذ إنس ولا جآن:

- ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ٣٩﴾ [الرحمن: 39]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: يستحيل (نحن نظن ربما مخطئين) بأن تكون الموؤدة من الإنس أو من الجآن. انتهى.

السؤال: مادام أنك تنفي احتمالية أن تكون الموؤدة من الإنس أو من الجآن، فما هي الموؤدة إذن؟ يسأل صاحبنا مستغربا ومتعجلا الإجابة.

رأينا المفترى: أظن أن علينا أن نتوقف هنا لبرهة من الزمن لنطرح التساؤل التالي: على من يقع القتل؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: لو تتبعنا سياقات القتل على مساحة النص القرآني، لوجدنا على الفور أن القتل أكثر ما يقع على النفس، قال تعالى:

- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٥٤﴾ [البقرة: 54]
- ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ٧٢﴾ [البقرة: 72]
- ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ٦٦ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ٦٧ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ٦٨﴾ [النساء: 66-68]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ٢٩﴾ [النساء: 29]

- ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعام: 151]
- ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ ۖ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾ [الإسراء: 33]

فالقتل (كما افترينا في مقالات سابقة) هو عبارة عن منع الشخص عن ما يرغب الوصل إليه، وهو تدرجي، يبدأ من منع الشخص عن تناول تفاحة أو منعه من الوصول إلى مكان محدد يرغب في الوصول إليه (كالبيت الحرام مثلا) وقد يصل إلى درجة منع الهواء عنه لتهني به حياته. فأنت تقتل الطفل عندما تمنعه عن الوصول إلى لعبة يريدها، وأنت تقتل نفسك عندما تمنعها عن الوصول إلى طعام تحبه، وأنت تقتل المشركين عندما تمنعهم من الوصول إلى البيت الحرام، وأنت تقتل الشخص عندما تمنع عنه الحياة (الهواء).

فقتل النفس هو منعها عن الوصول إلى ما تشتهيه وما تحتاجه (كاللعبة للطفل أو الطعام أو الذهاب في رحلة أو الوصول إلى مكان ما أو حتى منعه عن الماء والطعام والهواء). ولا شك أن منع الهواء من الوصل إلى الشخص أكبر من منعه عن الماء الذي بدوره أخطر من منعه عن الطعام). ومنع الطعام عن الشخص هو عبارة (نحن نرى) عن قتل لها. ولكن إذا كان المنع شديدا، فإن ذلك يؤدي (نحن نفتري الظن) إلى وأدها، فكثير من الناس يأد نفسه، فلا يلبي لها ما تشتهيه إطلاقا. وهؤلاء سيكون حسابهم عسيرا، لأنه سيكون مسئولا عن وأد نفسه. فمن لا يلبي جميع رغبات نفسه، يكون قد قتلها، فأصبحت حينئذ مؤودة، وهي التي ستسأل يوم الحساب عن الذنب الذي من أجله قتلت:

- ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾ [التكوير: 8-9]

قال تعالى:

- ﴿... وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾﴾ [النساء: 128]

فالشخص يجب أن يعمل تصالح مع نفسه، فلا يطغى عليها، ولا يجعلها تطغى عليه، فعليه أن يلبي بعض رغباتها، وبالمقابل لا ينجر وراءها فيلبي كل رغباتها على الفور؛ فإن هو رفض تلبية رغباتها كلها، فقد ظلمها، وإن هو نزل عند كل رغباتها في الحال، فقد أطلق العنان لنفسه لتفترسه.

مثال: لا شك أن هناك أناس يملكون من المال الكثير، لكن بعضهم يرى كل ما تشتهي الأنفس، فيؤثر على أن يقتل نفسه، حبا في المال، فلا ينفق من ماله لشراء بعض ما تشتهيه نفسه:

- ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ [الفجر: 19-20]

فأولئك الذين يحبون المال حبا جما هم الذين يقتلون أنفسهم، فلا يلبوا لها شيئا من رغباتها، وبالتالي تصبح أنفسهم بالفعل مؤودة. لكن بالمقابل هناك من ينجر وراء رغبات نفسه كلها، فلا يكبح شيئا من جماحها حتى تصبح هي المسيرة له، المتحكمة به، فينهج نهج الدواب، فتراه يأكل كما الدواب حتى يصبح همه الأول في الدنيا هو تلبية شهوات نفسه.

لذا، لابد من وجود شيئا من المبادلة المنصفة بين الشخص من جهة ونفسه من جهة أخرى، فلا يتعدى عليها، ولا يجعل نفسه - بالمقابل- تتعدى عليه، أي لا يأد نفسه ولا يجعل نفسه تهلكه. فالمعادلة المنصفة نجدها في قوله تعالى:

- ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ٢٩﴾ [الإسراء: 29]

تلخيص ما سبق: نحن نظن أن الطعام هو سبب لإحداث المشاكل للشخص منذ أن يبدأ يتكون جنينا في بطن أمه، حيث يتغذى يبدأ على ما يتكون في المشيمة من دم المحيض، ويستمر ذلك بالرضاعة، خاصة إذا ما انحبس دم المحيض داخل جسم الأم خلال فترة الرضاعة.

وإذا ما تغذى الأطفال من نفس المصدر (بالرضاعة مثلا)، فإن ذلك يكون مدعاة لانتقال نفس الأذى إلى بطن الأطفال الذين يرضعون من نفس المصدر، لذا تزداد احتمالية الإصابة بالضرر جراء هذا الطعام. ونحن نظن أنه إذا ما حصل تزاوج بين الأشخاص الذين رضعوا من نفس المصدر، فإن احتمالية حصول الضرر عند ذريتهم تكون مرتفعة جدا.

الدليل

لو رجعنا إلى قصة البشرية على الأرض بعد الخروج من الجنة، لوجدنا أن الحدث الأبرز هو اقتتال ولدي آدم، فكان من ضمن ما جاء عن تلك الحادثة الآية الكريمة التالية:

- ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩﴾ [المائدة: 29]

فهذا ولد آدم المقتول لاحقا يرد على أخيه الذي ينوي قتله ما جاء في السياق الأوسع للحادثة:

- ﴿۞وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٧ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩﴾ [المائدة: 27-29]

ليكون السؤال المطروح الآن هو: ما هو إثم المقتول؟ وما هو أصلا إثم القاتل؟

جواب مفترى: نحن نظن بأن المفتاح لهذه التساؤلات يكمن في فهم مفردة الإثم، ليكون السؤال المحوري هنا هو: ما هو الإثم؟

جواب مفترى: نحن نظن بأن الإجابة على هذا السؤال يكمن في فهم قوله تعالى:

- ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾ [البقرة: 219]

فالمدقق في هذه الآية الكريمة يجد بأن الإثم يتحصل من تناول الخمر والميسر، فما هو الإثم الذي يتحصل من الخمر والميسر؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن الإثم الذي يتحصل من الخمر والميسر هو ضرر مادي قد يلحق بالجسم جراء تناول الخمر والميسر، والمنطق يقول بأنه كلما زادت كمية الخمر والميسر الداخلة إلى جسم الشخص، كلما ازداد مقدار الضرر الذي سيلحق بجسمه جراء ذلك. ففي فالخمر والميسر مواد مسكرة تكونت نتيجة تفاعل الجراثيم (الشياطين) بها بشكل كبير، وهي التي تحدث ضررا لأعضاء الجسم الداخلية سرعان ما تظهر آثاره على أعضاء الجسم الخارجية.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: الإثم هو (نحن نظن) ضرر يصيب أعضاء الجسم الداخلية سرعان ما تظهر آثاره على الأعضاء الخارجية إذا ما زادت كميته عن الحد الطبيعي.

السؤال: ما هو إثم القاتل وإثم المقتول من أبناء آدم؟

- ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [المائدة: 29]

رأينا المفترى: نحن نظن أن الصراع بين ابني آدم كان على ملكية البيت وذلك من أجل الزواج.

السؤال: كيف ذلك؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: عندما بلغ ابني آدم سن الزواج، كان هناك بيت واحد، فكان كل واحد منهما يحاول أن يدعي ملكيته، وكانت آلية فض الخلاف بينهما (كما جرت على أرض الواقع) تتمثل في تقديم القربان، ولما تقبل الله من أحدهم ولم يتقبل من الآخر، كان الأجدر أن ينزل كل مهما عند القرار الإلهي في فض الخلاف بينهما، وبالتالي القبول بذلك، لكن لما لم يكن من لم يتقبل الله منه من المتقين، لم يرضى بذلك، فقرر أن يقتل أخاه ليستحوذ على ملكية البيت عنوة. فأخبر أخاه بنيته تلك:

- ﴿... قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة: 27]

ولما آثر الأخ الآخر أن يستسلم لذلك، ما كان منه إلا أن رد عليه على النحو التالي:

- ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [المائدة: 29]

السؤال: كيف يمكن أن نفهم هذا الرد من الأخ المسالم؟

رأينا المفترى: لو دققنا في الآية ذاتها، لوجدنا بأن القاتل سيتحصل له إثمان جراء إقدامه على قتل أخيه: إثمه نفسه وإثم أخيه المقتول؟ فما هو الإثم الذي كان من الممكن أن يصيب المقتول؟ وما هو الإثم الذي كان سيصيب القاتل؟

جواب مفترى خطير جدا جدا (لا تصدقوه) إنه زواج المحارم. انتهى.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: لما كانت البشرية ستنشأ من جديد من ذرية آدم وزوجه، لم يكن هناك خيار إلا أن يحصل زواج المحارم، ففي حين أن كل واحد من ابني آدم سيتزوج واحدة من الأخوات، كان سيتحصل له إثم (ضرر داخلي من جراء هذا النوع من التزاوج)، لكن لما كان المقتول لن يتزوج من أخته، كانت هذه الأخت الأخرى ستكون من نصيب الأخ الآخر، فعندها سيتحصل له إثمان: إثم واحد من كل واحدة من الأختين.

سؤال: ماذا كان من الممكن أن يحصل لو أن ابن آدم لم يقتل أخاه الآخر؟

رأينا المفترى: لو فعلا لم يقتل أبن آدم أخاه الآخر، لما تحصل له إلا إثم واحد، ولو حصل ذلك، لكان التزاوج فيما بعد قد حصل بين ذرية الولد الأول مع ذرية الولد الثاني، ولكان الضرر الذي سيتحصل من جراء ذلك أقل بكثير من الضرر الذي فعلا حصل عندما حصل التزاوج بعد ذلك من ذرية ابن آدم القاتل نفسه، فكان الإثم مضاعفا.

السؤال: ما علاقة هذا بتحريم الزواج بسبب الرضاعة؟

رأينا المفترى: عندما يرضع الطفل من امرأة ما، فإنه يتحصل من جاء ذلك بعض الأذى، وعندما يرضع طفل آخر من الأم ذاتها، فإنه يتحصل له مقدار من الأذى من نفس النوع الذي حصل عليه الأول، وإذا ما حصل تزاوج بين الطرفين، فإنه يحدث تراكم للأذى ذاته من الطرف الأول مع الطرف الآخر، ربما يتبلور ذلك ويظهر أثره السلبي في جسم الطفل الذي يتحصل جراء التزاوج بين الطرفين اللذين رضعا من نفس المصدر.

فقه التحريم

لو تعرضنا لفقه التحريم في الزواج، لوجدنا بأن التحريم منبعه صلات القرابة، فكلما كانت صلة القرابة أقوى، كان التحريم أشد، لذا نجد التسلسل في التحريم يبدأ من عند الأم:

- ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ

وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٢٣﴾ [النساء: 23]

والسبب في ذلك (نحن نرى ربما مخطئين) إلى مقدار الإثم المتحصل من جراء ذلك، فالتزاوج مع الأم هو الأخطر، وذلك لأن الشخص قد لحقه أذى من أمه عندما كان في بطنها، ولحقه أذى إضافيا من الرضاعة، ولو حصل تزاوج معها، لكان مقدار الأذى المتراكم كبير جدا، سيتحصل من جراءه إثم كبير، وهو ما قد يسبب الضرر الأكبر للذرية من بعد ذلك. ويأتي الزواج من البنات ثم الأخوات والعمات والخالات، وألحق بذلك أمهات الرضاعة والأخوات من الرضاعة، ويأتي في الدرجة الأخيرة ربائب الشخص من النساء اللاتي تم الدخول بهن. فإن أنت دخلت بامرأة وكان لها ذرية من البنات، فإن ذلك سيكون سببا مانعا من التزاوج من بناتها، لأنه سيحدث عن ذلك تراكم للأذى، يسبب الضرر المادي للذرية التي ستتحصل لهما من جراء مثل هذا التزاوج.

لذا، كلما ابتعد الشخص عن ما يقربه بالدم أكثر، كلما كان ذلك سببا لتقليل كمية الأذى التي ستلحق بالذرية، وبالتالي سيكون مدعاة للطهارة أكثر، وتقليلا للإثم الذي من الممكن أن يتحصل نتيجة أي علاقة تزاوج بين طرفين. هيا بنا إلى الشيشان يا شباب، نساء جميلات، ونظن في الوقت ذاته أن لا يصيب ذريتنا الأذى سواء من النكاح أو من الرضاعة!!!

وللحديث بقية بإذن الله

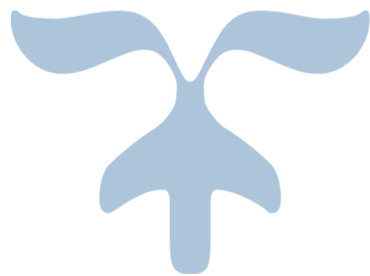
فالله وحده أسأل أن يعلمني، وأن يزيدني علما، وأن يهدين لأقرب من هذا رشدا. وأعوذ به وحده أن أكون ممن يفترون عليه الكذب أو ممن يقولون عليه ما ليس لهم بحق، وأعوذ به أن يكون أمري كأمر فرعون، إنه هو العليم الحكيم - آمين.

المدّكرون: رشيد سليم الجراح & علي محمود سالم الجراح
بقلم د. رشيد الجراح
23 نيسان 2018



فقه الزكاة

الجزء التاسع



فقه الزكاة: الجزء التاسع

انتهينا في الجزء السابق عند فكرة تطهير الجلود، وافترينا الظن بأن تطهير الجلود هي فكرة دينية مفادها أن الجلود هي التي ستنطق على صاحبها في يوم الحساب:

- ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [فصلت: 21]

فكانت فكرة تطهيرها واردة في كل الشرائع السماوية السابقة كالهندوسية والبوذية واليهودية والنصرانية وحتى في الإسلام.

ولو تابعنا النقاش في الموضوع نفسه، لوجدنا أن التطهير يكون كذلك للمكان. فهذا رب إبراهيم وإسماعيل يعهد إليهما أن يطهرا بيته للطائفين والعاكفين والركع السجود:

- ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ [البقرة: 125]

ليكون السؤال المحوري الآن هو: ما هي آلية تطهير المكان كالبيت العتيق مثلا؟

رأينا المفترى: دعنا بداية نستعرض بعض ما جاءنا من عند سادتنا أهل الدراية كما نقله لنا أهل الرواية في بطون بعض أمهات كتب التراث كتفسير القرطبي مثلا:

وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود

"وعهدنا " قيل: معناه أمرنا. وقيل : أوحينا . " أن طهرا " " أن " في موضع نصب على تقدير حذف الخافض . وقال سيبويه : إنها بمعنى أي مفسرة , فلا موضع لها من الإعراب . وقال الكوفيون : تكون بمعنى القول . و " طهرا " قيل معناه : من الأوثان , عن مجاهد والزهري . وقال عبيد بن عمير وسعيد بن جبير : من الآفات والريب . وقيل : من الكفار . وقال السدي : ابنياه وأسساه على طهارة ونية طهارة , فيجيء مثل قوله : " أسس على التقوى " [التوبة : 108] . وقال يمان : بخراه وخلقاه . " بيتي " أضاف البيت إلى نفسه إضافة تشريف وتكريم , وهي إضافة مخلوق إلى خالق , ومملوك إلى مالك . وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق وأهل المدينة وهشام وحفص : " بيتي " بفتح الياء , والآخرون بإسكانها.

"للطائفين " ظاهره الذين يطوفون به, وهو قول عطاء. وقال سعيد بن جبير : معناه للغرباء الطارئين على مكة , وفيه بعد.

"والعاكفين " المقيمين من بلدي وغريب, عن عطاء. وكذلك قوله : " للطائفين " . والعكوف في اللغة : اللزوم والإقبال على الشيء , كما قال الشاعر : عكف النبيط يلعبون الفنزجا وقال مجاهد : العاكفون المجاورون . ابن عباس : المصلون . وقيل : الجالسون بغير طواف والمعنى متقارب.

"والركع السجود " أي المصلون عند الكعبة. وخص الركوع والسجود بالذكر لأنهما أقرب أحوال المصلي إلى الله تعالى . وقد تقدم معنى الركوع والسجود لغة والحمد لله.

لما قال الله تعالى " أن طهرا بيتي " دخل فيه بالمعنى جميع بيوته تعالى , فيكون حكمها حكمه في التطهير والنظافة . وإنما خص الكعبة بالذكر لأنه لم يكن هناك غيرها , أو لكونها أعظم حرمة , والأول أظهر , والله أعلم . وفي التنزيل " في بيوت أذن الله أن ترفع " [النور : 36] وهناك يأتي حكم المساجد إن شاء الله تعالى . وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع صوت رجل في المسجد فقال : ما هذا ! أتدري أين أنت ! ؟ وقال حذيفة قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله أوحى إلي يا أخا المنذرين يا أخا المرسلين أنذر قومك ألا يدخلوا بيتا من بيوتي إلا بقلوب سليمة وألسنة صادقة وأيد نقية وفروج طاهرة وألا يدخلوا بيتا من بيوتي ما دام لأحد عندهم مظلمة فإني ألعنه ما دام قائما بين يدي حتى يرد تلك الظلامة إلى أهلها فأكون سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويكون من أوليائي وأصفيائي ويكون جاري مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين).

استدل الشافعي وأبو حنيفة والثوري وجماعة من السلف بهذه الآية على جواز الصلاة الفرض والنفل داخل البيت . قال الشافعي رحمه الله : إن صلى في جوفها مستقبلا حائطا من حيطانها فصلاته جائزة , وإن صلى نحو الباب والباب مفتوح فصلاته باطلة , وكذلك من صلى على ظهرها ; لأنه لم يستقبل منها شيئا . وقال مالك : لا يصلى فيه الفرض ولا السنن , ويصلى فيه التطوع , غير أنه إن صلى فيه الفرض أعاد في الوقت . وقال أصبغ : يعيد أبدا.

قلت : وهو الصحيح , لما رواه مسلم عن ابن عباس قال : أخبرني أسامة بن زيد أن النبي صلى الله عليه وسلم لما دخل البيت دعا في نواحيه كلها ولم يصل فيه حتى خرج منه , فلما خرج ركع في قبل الكعبة ركعتين وقال : (هذه القبلة) وهذا نص . فإن قيل : فقد روى البخاري عن ابن عمر قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم هو وأسامة بن زيد وبلال وعثمان بن طلحة الحجبي البيت فأغلقوا عليهم الباب . فلما فتحوا كنت أول من ولج فلقيت بلالا فسألته : هل صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال , نعم بين العمودين اليمانيين . وأخرجه مسلم , وفيه قال : جعل عمودين عن يساره وعمودا عن يمينه وثلاثة أعمدة وراءه , وكان البيت يومئذ

على ستة أعمدة . قلنا : هذا يحتمل أن يكون صلى بمعنى دعا , كما قال أسامة , ويحتمل أن يكون صلى الصلاة العرفية , وإذا احتمل هذا وهذا سقط الاحتجاج به . فإن قيل : فقد روى ابن المنذر وغيره عن أسامة قال : رأى النبي صلى الله عليه وسلم صورا في الكعبة فكنت آتيه بماء في الدلو يضرب به تلك الصور . وخرجه أبو داود الطيالسي قال : حدثنا ابن أبي ذئب عن عبد الرحمن بن مهران قال حدثنا عمير مولى ابن عباس عن أسامة بن زيد قال : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في الكعبة ورأى صورا قال : فدعا بدلو من ماء فأتيته به فجعل يمحوها ويقول : (قاتل الله قوما يصورون ما لا يخلقون) . فيحتمل أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم صلى في حالة مضي أسامة في طلب الماء فشاهد بلال ما لم يشاهده أسامة , فكان من أثبت أولى ممن نفى , وقد قال أسامة نفسه : فأخذ الناس بقول بلال وتركوا قولي . وقد روى مجاهد عن عبد الله بن صفوان قال : قلت لعمر بن الخطاب : كيف صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل الكعبة ؟ قال : صلى ركعتين . قلنا : هذا محمول على النافلة , ولا نعلم خلافا بين العلماء في صحة النافلة في الكعبة , وأما الفرض فلا ; لأن الله تعالى عين الجهة بقوله تعالى : " فولوا وجوهكم شطره " [البقرة : 144] على ما يأتي بيانه , وقوله صلى الله عليه وسلم لما خرج : (هذه القبلة) فعينها كما عينها الله تعالى . ولو كان الفرض يصح داخلها لما قال : (هذه القبلة) . وبهذا يصح الجمع بين الأحاديث , وهو أولى من إسقاط بعضها , فلا تعارض , والحمد لله.

واختلفوا أيضا في الصلاة على ظهرها , فقال الشافعي ما ذكرناه . وقال مالك :من صلى على ظهر الكعبة أعاد في الوقت . وقد روي عن بعض أصحاب مالك : يعيد أبدا . وقال أبو حنيفة: من صلى على ظهر الكعبة فلا شيء عليه.

واختلفوا أيضا أيما أفضل الصلاة عند البيت أو الطواف به ؟ فقال مالك : الطواف لأهل الأمصار أفضل , والصلاة لأهل مكة أفضل وذكر عن ابن عباس وعطاء ومجاهد . والجمهور على أن الصلاة أفضل . وفي الخبر : (لولا رجال خشع وشيوخ ركع وأطفال رضع وبهائم رتع لصببنا عليكم العذاب صبا) . وذكر أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب في كتاب (السابق واللاحق) عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لولا فيكم رجال خشع وبهائم رتع وصبيان رضع لصب العذاب على المذنبين صبا) . لم يذكر فيه " وشيوخ ركع " . وفي حديث أبي ذر (الصلاة خير موضوع فاستكثر أو استقل) . خرجه الآجري . والأخبار في فضل الصلاة والسجود كثيرة تشهد لقول الجمهور , والله تعالى أعلم.

ليكون السؤال الذي نوجهه لكل من يقرأ في مثل هذه الكتب الصفراء هو: هل تجد في هذا التفسير العظيم (وغيره طبعا) آلية طهارة البيت؟ هل تستطيع أن تفهم من هذه التفاسير الطريقة العملية التي اتبعها إبراهيم وولده إسماعيل في تطهير بيت الله؟

رأينا المفترى: إن كنت وجدت ذلك أنت، فنحن نظن أن جلّ ما نجده في مثل هذا التفسير ليس أكثر من كلام إنشائي لا يسمن ولا يغني من جوع، لأنه ببساطة لا يرشدنا (كما فهمناه) إلى الطريقة المثلى لتطهير البيت كما قام بذلك إبراهيم وولده إسماعيل بعد أن عهد الله إليهما بذلك.

لذا، نجد لزاما أن ندخل في هذا الموضوع من جديد، طارحين ابتداء تساؤلات حول الموضوع، نذكر منها:

⇐ هل يمكن تطهير البيت باستخدام الماء؟
⇐ هل يمكن تطهير البيت بإزالة الأصنام من حوله؟
⇐ هل يمكن تطهيره بأن لا يشرك بالله شيء عنده؟
⇐ الخ

رأينا المفترى: كلا وألف كلا. فتطهير البيت لا يكون بواحدة من هذه الطرق التي ذكرها أهل العلم المقدّرين عندنا بشخصهم فقط. ليكون السؤال المطروح على الفور الآن هو: ما هي الآلية التي اتبعها إبراهيم وولده إسماعيل كي يطهرا بيت الله للطائفين والعاكفين والركع السجود؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نظن بأن تطهير البيت لا يكون إلا بالذبح. انتهى.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن التطهير للمكان (أي مكان) يكون بتنظيفه تماما من رجس الشيطان، قال تعالى:

- ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾ [الأنفال: 11]
- ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الأحزاب: 33]

فلو تتبعنا ما جاء في هاتين الآيتين الكريمتين، لوجدنا بأن رجز الشيطان يذهبه الماء الذي ينزله ربنا من السماء (وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً)، فتكون النتيجة هي طهارتنا من رجز الشيطان (لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ) كما جاء في الآية الأولى، بينما إذهاب رجس الشيطان تكون نتيجته الطهارة تطهيرا (إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) كما جاء في الآية الثانية.

السؤال: ما الفرق بين الرجز الذي يذهبه الماء (الذي ينزله لنا ربنا من السماء) مقابل الرجس الذي تكون نتيجته الطهارة تطهيرا كما جاء بحق أهل بيت الرسول الكريم؟

افتراء من عند أنفسنا 1: الرجز هو ضرر من الشيطان خارجي

افتراء من عند أنفسنا 2: الرجس هو ضرر من الشيطان داخلي

الدليل

عندما يُنزِل الله الماء من السماء، يكون ذلك من أجل أن يطهرنا به، أي يذهب عنا كلّ ضرر يمكن أن يصيبه الماء النازل من السماء، فيذهب به عنا، فتكون نتيجته الطهارة: وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ

نتيجة مفتراة: نزول الماء من السماء يحدث طهارة لنا وذلك عندما يذهب عنا رجز الشيطان

أما طهارة النساء، فتتم بواسطة المحيض:

- ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة: 222]

فخروج دم المحيض من داخل جسم المرأة يؤدي (نحن نفتري القول) إلى طهارتها، فكلما خرج دم المحيض من جسم المرأة، كلما تطهر جسمها من الرجس، ويكون هذا التطهير لجسم المرأة من الداخل: إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا

السؤال: كيف إذن يمكن أن نفهم آلية التطهير؟

رأينا المفترى: عندما تحصل الطهارة، فإن ذلك يكون بذهاب الرجز (أذى الشيطان الخارجي) أو التخلص من الرجس (أذى الشيطان الداخلي). ولا شك عندنا أن أثر التطهير الداخلي (ذهاب الرجس) أكبر من أثر التطهير الخارجي (ذهاب الرجز). فعندما يتطهر الشيء من الداخل بذهاب الرجس (كما في حالة أهل بيت الرسول)، فإن ذلك يؤدي إلى الطاهرة الداخلية والخارجية، فجاء التطهير مضاعفا (وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا).

نتيجة مفتراة مهمة جدا جدا: التطهير يؤدي إلى التخلص من أذى الشيطان الخارجي (الرجز) وأذى الشيطان الداخلي (الرجس).

ولو عدنا إلى الفطرة البشرية، لوجدنا بأنه ما أن ينتهي خروج دم المحيض من داخل جسم المرأة كليا، حتى تعمد المرأة الى الطهارة الخارجية، فتقوم بفعل الاستحمام بالماء، فتكون بذلك قد تطهرت تطهيرا، أي تطهرين: طهارة داخلية (من رجس الشيطان) وطهارة خارجية (من رجز الشيطان)

ولو تفقدنا الآية الكريمة التالية:

- ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٠٣﴾ [التوبة: 103]

نجد أن إخراج شيء من المال من باب الصدقة (خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ)، يؤدي إلى طهارة الذين يخرجونها من أموالهم (تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا)، وذلك لاحتمالية أن يكون المال فيه شيء من الخبث (من الشيطان) لازال عالقا به، فيتم تطهيره عندما يخرج هذا الخبث من المال بالصدقة:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ٢٦٧﴾ [البقرة: 267]

فقد لا يكون التاجر واع تماما أن المال الذي تحصل له لازال عالقا به شيء من الخبث، فالتاجر قد لا يكون قاصدا أن يدخل الخبث في ماله (وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ)، لكن قد يدخل هذا الخبث عن غير قصد منه، فيكون حينها مغمضا فيه (إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ). فلو علم التاجر الصادق أن ماله قد دخله شيء من الخبث، لما أخذه. لكنه قد يأخذه غير قاصد ذلك (وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ). وهذه – برأينا- هي الغاية من إخراج شيء من المال بالصدقة إضافة إلى الزكاة التي أخرجت من المال من ذي قبل. فكثرة الصدقة – لا شك عندنا- تطهر المال كله مما علق به من الخبث. فما تبقى من ذلك المال يكون أكثر طهرا، لذا عندما يأكل صاحبه منه، يكون ما يدخل جسمه منه أكثر طهرا وأقل أذى له ولأهل بيته، فتزداد الطهارة بازدياد الإنفاق من المال من باب الصدقة.

نتيجة مفتراة: كلما أنفق صاحب المال من ماله من باب الصدقة، كلما أصبح أكثر طهارة بسبب ما يدخل في جسمه وجسم أهله من الرزق الذي يأكله بالمال الطاهر.

وقد تحدثنا في مقالات سابقة لنا عن الضرر الذي يمكن أن يصيب الإنسان الذي يعتاش على مال الصدقة، فهذا المال هو مال غير نظيف يسبب لمن يأكله أذى في بطنه.

نتيجة مفتراة مرة أخرى: الطهارة تتم بطرد الشيطان من المكان – برأينا على النحو التالي:

إنزال الماء من السماء ليطهر الناس الذي يصيبهم هذا الماء من أذى الشيطان الخارجي
خروج دم المحيض من جسم النساء فيطهرهن تطهيرا (أي تطهير داخلي وخارجي)
إخراج الصدقة من المال ليطهر صاحبها؛ لأن ما تبقى من المال يصبح أكثر طهارة من أذى الشيطان.

السؤال: لماذا؟ وكيف يتم ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن هذا السؤال يعيدنا على الفور إلى قصة الخلق الأول كما بينتها الآية الكريمة التالية (كما نفهمها طبعا):

- ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: 30]

دقق عزيزي القارئ - إن شئت- في رد الملائكة (قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ)، لتجد على الفور أن خشية الملائكة من هذا الخلق قد تمثلت في أمرين اثنين:

⇐ إحداث الفساد في الأرض
⇐ سفك الدماء

ليكون السؤال هنا هو: لماذا جاء رد الملائكة على هذا النحو؟ أو لماذا احتجت الملائكة مدعمة ذلك باحتمالية أن يقوم هذا المخلوق الجديد بالإفساد في الأرض وسفك الدماء؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الإجابة على هذا السؤال تتطلب نثر جملة من الافتراءات التي قدمناها سابقا:

⇐ الملائكة جزء من الجن
⇐ الجن منهم المؤمنون ومنهم القاسطون
⇐ الجن مخلوقات لا دم فيهم
⇐ إبليس من الجن
⇐ الخ

منطقنا المفترى: لما كانت الملائكة من الجن، ولما كانت الملائكة مخلوقات مؤمنة:

- ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنبياء: 26-27]

ما كانت لتحدث الفساد في الأرض ولا أن تسفك الدماء، فهي - لا شك عندنا - لا تحب فعل الإفساد في الأرض ولا تحب منظر سفك الدماء. فنحن نتخيل الجن (بمن فيهم الملائكة) كمخلوقات لا يسري الدم في عروقها، ولا تحب منظر سفك الدماء، بل تبتعد (نحن نرى) كليا عن المكان الذي يسفك فيه الدم. لذا، فإن الدم (نحن نرى) بيئة غير صالحة لتواجد الجن (مؤمنهم وقاسطهم)، فوجود الدم في بيئة ما يؤدي إلى تفريغ المكان من الجن، لأنها (نحن لازلنا نتخيل) تهرب من المكان الذي يسفك فيه الدم.

الدليل

لا شك عندنا أن شياطين الجن تعمد على الدوام إلى تغذية الصراع بين الأطراف المتنازعة، فالشيطان هو الذي ينزغ بين الأطراف المتنازعة كما جاء الخطاب على لسان يوسف:

- ﴿... مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ١٠٠﴾ [يوسف: 100]

فقد كانت خطة إخوة يوسف تنطوي على واحد من الاحتمالين:

- ﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ٩﴾ [يوسف: 9]

لكن فاز الاحتمال الثاني في التحقق على أرض الواقع، لأن هذا (نحن نظن) ما كان الشيطان يغذيه، فشيطان الجن الذي نزغ بين إخوة يوسف لم يكن يغذي احتمال القتل ولكنه غذي الفتنة بينهم فقط، لذا تقبل الإخوة جميعا ما جاء على لسان القائل من إخوة يوسف على النحو التالي:

- ﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ١٠﴾ [يوسف: 10]

ولو عدنا إلى قصة الخلاف بين ابني آدم، فإننا نجد أنه لا ذكر للشيطان في ذلك الخلاف، وأن محرك القتل عندئذ هو النفس:

- ﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٣٠﴾ [المائدة: 30]

ولو عدنا إلى ما حصل أيضا في حالة موسى عندما قتل الذي هو من عدوه، لوجدنا أن الشيطان غائب عن المشهد تماما:

- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٦﴾ [القصص: 16]

نتيجة مفتراة: لو تفقدنا السياقات القرآنية التي حصل فيها قتل وبالتالي سفك الدم، لما وجدنا ذكر للشيطان في هذه الحالات، لكن الشيطان (نحن نظن) ينشط في إحداث الفتنة بين المتخاصمين. ويتبلور ذلك على شكل ارتفاع في ضغط الدم عند الأشخاص المتنازعين، فيحصل الغضب عندهم، فتتوهج بشرتهم الخارجية بالاحمرار الذي يبدو على وجنتي كل من المتخاصمين، فتتوتر العلاقة بينهما، ويبقى التوتر يتصاعد عند الطرفين، وهنا يكون الشيطان هو مغذ لهذا الصراع. لكن إذا ما وصل الأمر بين المتخاصمين إلى إرهاق الدم، فغالبا ما يهدأ الغضب عند المتنازعين، فتبرد حرارتهم، فيميلون إلى الهدوء العجيب الذي لم يكن سائدا قبل مرحلة إرهاق الدم. ليكون السؤال هو: لماذا؟

رأينا المفترى: ينشط الشيطان في النزغ بين الأطراف المتخاصمة، لكن ما أن تسيل أول قطرة من الدم حتى تهرب الجن (خاصة الشياطين) من المكان كله، فيسود الهدوء في المكان بعد هروب الشياطين من المكان كله.

نتيجة مفتراة مهمة جدا: شياطين الجن هي – برأينا- كائنات مخلوقة تهاب منظر الدم، فلا تتواجد في المكان الذي يرهق فيه الدم. انتهى.

السؤال: ما علاقة هذا الأمر بتطهير المكان كالبيت الذي طلب الله من إبراهيم وإسماعيل أن يطهراه للطائفين والعاكفين والركع السجود؟

- ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ١٢٥﴾ [البقرة: 125]

رأينا المفترى: نحن نظن أن هذا السؤال يعيدنا على الفور إلى قصة الخلق الأول مرة أخرى، خاصة ما حصل بعد أن وقع آدم في المعصية.

السؤال: كيف ذلك؟

رأينا المفترى: لما طلب الله من الملائكة السجود لآدم، سجد الملائكة كلهم أجمعون. لكن إبليس على وجه التحديد رفض الأمر الإلهي بالسجود لآدم. فجاء القرار الإلهي على نحو أن يسكن آدم وزوجه في الجنة وأن يخرج إبليس منها، فيكون رجيما، وتحل عليه اللعنة الإلهية إلى يوم الدين:

- ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ٣٣ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ٣٤ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ٣٥﴾ [الحجر: 33-35]

- ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ۝٧٦ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ۝٧٧ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٧٨﴾ [ص: 76-78]

وكان التحذير الإلهي الأول لآدم بأن لا يأكل من الشجرة، وأن عداوة الشيطان له ولزوجه دائمة:

- ﴿فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ۝١١٧﴾ [طه: 117]

لكن بالرغم من هذا التحذير الإلهي لآدم وزوجه إلا أن آدم قد آثر النزول عند رغبة الشيطان، فأكل من الشجرة هو وزوجه، فبدت لهما سوءاتهما. وهنا جاء القرار الإلهي بأن يهبطا من الجنة مع كل من كان يسكن الجنة معها بمن فيهم الشياطين الذين كانوا يتواجدون هناك حينئذ:

- ﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ۝١٢٣﴾ [طه: 123]
- ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٣٨﴾ [البقرة: 38]

السؤال: إلى أين هبط آدم وزوجه وكل الشياطين الذين كانوا يشاركون آدم تلك الجنة الأولى حينئذ؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن خروج آدم ومن معه من الجنة كان إلى المكان الذي تنتفي عنه صفة الجنة. فمنطقنا المفترى من عند أنفسنا يجبرنا على الظن بأن الانتقال من الجنة قد تم إلى نقيضها تماما. فإلى أين كان الانتقال؟

تخيلات من عند أنفسنا أغرب من الخيال (فلا تصدقوها): نحن نظن أن جنة آدم الأولى كانت في الأرض المقدسة (الأرض التي باركنا فيها للعالمين)، فكانت جنّة يتحصل فيها آدم على كل ما يريد دون شقاء، فلا يجوع فيها ولا يعرى، ولا يظمأ فيها ولا يضحى. لكن ما أن وقع آدم في المعصية حتى أصبح يجوع فيها ويعرى ويظمأ ويضحى، وذلك بسبب هبوطه من الجنة إلى المكان المقفر الذي تنقصه مقومات الجنة، وكان هذا الانتقال (نحن نفتري الظن ربما مخطئين) إلى الواد غير ذي الزرع (بطن مكة).

نتيجة مفتراة مهمة جدا: كان انتقال آدم من الأرض المقدسة (القدس) إلى الواد غير ذي الزرع (مكة).

السؤال: وما الفائدة التي نجنيها من مثل هذا الظن الذي هو - لا شك- مفترى من عند أنفسنا؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن أول فائدة يمكن أن نجنيها من هذا الظن المفترى هو أن الانتقال كان لآدم وزوجه وكل من كان يسكن الجنة معهما حينئذ بمن فيهم الشياطين. فجنة آدم لم تكن تخلو من تواجد الشياطين فيها بدليل أن الشيطان هو الذي دلهم على شجرة الخلد فيها:

- ﴿فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ١٢٠﴾ [طه: 120]

وما أن جاء الأمر الإلهي للجميع بالهبوط:

- ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٨﴾ [البقرة: 38]

حتى أصبح ذلك الواد غير ذي الزرع يعج بالشياطين منذ ذلك الوقت حتى يومنا هذا. واستحكمت العداوة بين الطرفين:

- ﴿قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ٢٤﴾ [الأعراف: 24]
- ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ٣٦﴾ [البقرة: 36]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا (كنز للمتصيدين الذين يروجون لأفكهم باجتزاء النصوص من سياقاتها): نحن نظن بأن الواد غير ذي الزرع هو المكان الذي أصبح موطن الشياطين بعد خروجهم جميعا من الجنة. وهناك بدأت الشياطين تسيطر على المكان كله.

الدليل

لو راقبنا التطبيقات العملية للمسلمين في الحج، لوجدنا بأن هناك شعيرة من شعائر الحج تتمثل فيما يحصل في يوم النحر:

- ﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٣٦ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٧﴾ [الحج: 36-37]
- ﴿ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ٢٩﴾ [الحج: 29]
- ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ فَفِدۡيَةٞ مِّن صِيَامٍ أَوۡ صَدَقَةٍ أَوۡ نُسُكٖۚ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١٩٦﴾ [البقرة: 196]

ويكون ذلك فيما يسمى بيوم النحر بعد صلاة العيد:

- ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ۝٣﴾ [الكوثر: 1-3]

السؤال: أين يتم الذبح كشعيرة من شعائر الله في الحج؟

جواب مفترى: في منى.

السؤال: لماذا في منى؟ وما هي منى؟

جواب مفترى: دعنا ندقق في هذا الوصف لـ "منى" كما يرد في موسوعة الويكيبيديا:

مِنى (بكسر الميم وفتح النون) هي وادي تحيط به الجبال، تقع في شرق مكة، على الطريق بين مكة وجبل عرفة .وتبعد عن المسجد الحرام نحو 6 كم تقريباً. ويحدها من الشمال الغربي جمرة العقبة، ومن الجنوب الشرقي وادي محسر، ومن الشمال جبل القويس، ومن الجنوب جبل ثبير.

تعرف منى بأنها موضع أداء شعائر الحج ومبيت الحجاج في يوم التروية ويوم عيد الأضحى وأيام التشريق حيث أن فيها موقع رمي الجمرات والتي تتم بين شروق وغروبالشمس في تلك الأيام من الحج ويذبح فيها الهدي.

لو دققنا في هذا الوصف، لوجدنا ما يلي عن ذلك المكان على وجه التحديد (أي منطقة منى):

- ⇐ هي واد تحيط به الجبال
- ⇐ هي نقطة وصل بين مكة من جهة وجبل عرفات من جهة أخرى
- ⇐ تبعد عن البيت الحرام مسافة قصيرة
- ⇐ يذبح فيها الهدي
- ⇐ فيها مكان رمي الجمرات

السؤال مرة أخرى: لماذا يحصل في منى (على وجه التحديد) ذبح الهدي ورمي الجمرات؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن بأن السبب في ذلك يعود إلى أن واد منى هو موطن الشياطين الأصلي. فمقر "مملكة" الشياطين هو وادي منى. فعندما يتم ذبح الهدي في منى، فإنه ينتج عن ذلك سفك دم بكميات كبيرة، تؤدي بالتالي إلى دب الذعر في الشياطين المتواجدة هناك، فتهرب من المكان كله خوفا من منظر سفك الدماء. وأكاد أجزم الظن بأن طابع الهدوء والسكينة يحل على كل من يتواجد في المكان حينئذ وذلك بسبب كبح جماح الشياطين، فتفقد فاعليتها في التأثير في نفوس الناس بشكل سلبي.

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: لما حصل الانتقال إلى الواد غير ذي الزرع، كان الشيطان قد نزع عن آدم وزوجه لباسهما، فكانت سوءاتهما قد بدت لهما، وفي ذلك المكان على وجه التحديد حصل أول عملية جنسية (استمناء) بين آدم وزوجه. لهذا، نحن نفتري القول من عند أنفسنا، سمي المكان بهذا الاسم (منى).

تلخيص ما سبق

السؤال: لماذا أمر الله إبراهيم وولده إسماعيل أن يطهرا بيته للطائفين والعاكفين والركع والسجود؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن طهارة المكان تكون من الشياطين؟

السؤال: ما هي آلية التطهير؟

رأينا المفترى: بالذبح. انتهى.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: لو تفقدنا العقائد البشرية ذات الأصول السماوية كالهندوسية والبوذية واليهودية والنصرانية والإسلامية، لوجدنا أن فكرة إرهاق الدم شائعة في تلك الديانات، لدرجة أن كثيرا من أماكن العبادة (كالمعابد) فيها جناح خاص يسمى بالمذبح. وقد كانت دعوى اللادينيين تتمثل في اتهام الأديان بأنها دموية، وأن رب هذه الأديان محب لإرهاق الدم. فكيف يمكن الرد على دعواهم هذه؟

رأينا المفترى: لو تمثلنا مثل هذا المنطق المفترى من عند أنفسنا، لوجدنا بأن فقه إرهاق الدم بالذبح مبني على الظن بأن إرهاق الدم يؤدي إلى تنظيف المكان من الشياطين، فيعم الهدوء والسكينة في المكان كله، وينعكس ذلك إيجابيا على تصرفات الناس. ولو راقبنا التشريعات الدينية، لوجدنا بأن سنة الذبح (إرهاق الدم) منتشرة في كثير من الأعمال الحياتية للناس في جميع الثقافات تقريبا (خاصة البدائية منها). فمن يبني بيتا جديدا، يتوج ذلك باحتفال بالذبح؛ وغالبا تتوج حفلات العرس بالذبح قبل يوم الزفاف أو في يوم الزفاف أو بعده بقليل؛ وغالبا ما يقوم من وهبه الله مولودا بفعل الذبح؛ ومن نجا من حادث سير، شكر الله بالذبح؛ ومن نذر نذرا، غالبا ما يكون ذلك على نحو ذبح شيء من الأنعام؛ وهكذا. ليكون السؤال البديهي هو: لماذا؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن هذه المواطن هي مواطن طلب البركة التي نظن أنها تتحصل - لا محالة- بتنظيف المكان من الشياطين، وعملية الذبح بحد ذاتها تؤدي إلى طرد الشياطين من المكان. وهذه هي - برأينا- البركة المنشودة بعينها.

نتيجة مفتراة: نحن نظن (ربما مخطئين) بأن الجن بشكل عام تهاب كثير من القوى التي لا نشعر بها نحن كما يشعرون بها هم. ولعل أهم هذه القوى التي تهابها الشياطين هي اثنتان: الدم والذهب.

أما الدم، فقد أسلفنا افتراء القول بأنه يؤدي إلى طهارة الأشخاص والمكان من أذى الشيطان. فماذا عن الذهب؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن في الذهب (كما الدم) قوة كامنة تهابها الجن (وخاصة الشياطين)، لذا تحرص الشياطين على أن لا تقع هذه القوة بيد الناس حتى لا يلحق بهم الأذى جراء ذلك، وبالتالي تثبيط نشاطاتهم المعادية للبشر. انتهى.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: لو رجعنا إلى قصة قارون كما بينها كتاب الله الكريم، لوجدنا الآيات التالية التي تتحدث عن الرجل:

- ﴿۞إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ
قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ
ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٧٧ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ
عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ
ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٧٨ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ
لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٧٩ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا
ٱلصَّٰبِرُونَ ٨٠ فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ
ٱلۡمُنتَصِرِينَ ٨١ وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ
لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٢ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي
ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٨٣﴾ [القصص: 76-83]
- ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ٣٩
فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ
ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٤٠ مَثَلُ ٱلَّذِينَ
ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۚ لَوۡ
كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٤١ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٤٢ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ
نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ٤٣﴾ [العنكبوت: 39-43]
- ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ٢٣ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ ٢٤
فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ وَمَا كَيۡدُ
ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ٢٥﴾ [غافر: 23-25]

ونستطيع بناء على فهمنا (ربما الخاطئ) لهذه الآيات الكريمة أن نسطر الافتراءات التالية:

⇐ أن قارون كان من قوم موسى (إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ)

⇐ أن قارون قد بغى على قوم موسى (فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡ)

⇐ أن الله هو من آتاه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة (وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ)

⇐ كان قومه من المؤمنين بينما كان هو من الفرحين الذين لا يحبهم الله (إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ)

⇐ لم يكن قارون ممن يبتغون الدار الآخرة بما آتاه الله لأنه كان من المفسدين الذين لا يحبهم الله (وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ)

⇐ ظن قارون أن ما تحصل له من مال كان بسبب علم عنده (۝٧٧ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ)

⇐ تناسى قارون بأن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة، وأكثر جمعا، فكان من المجرمين (أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ)

⇐ انخدع نفر من قومه بما كان عند قارون عندما خرج عليهم في زينته، فظنوا أنه ذو حظ عظيم (فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ)

⇐ لم ينخدع أولوا العلم بذلك، فأصروا على موقفهم بأن ثواب الله خير، فحثوا قومهم على الصبر (وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ)

⇐ كانت عاقبة الرجل أن خسف الله به وبداره الأرض، فما كان من المنتصرين (فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ)

⇐ تراجع الذين انخدعوا بزينة الرجل بعد أن رأوا بأم أعينهم ما حل بالرجل وبداره، فأيقنوا بأن الفلاح لن يكون للكافرين (وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ)

⇐ تحققت سنة الله بأن الدار الآخرة للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا وأن العاقبة للمتقين (تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ)

⇐ كانت رسالة موسى موجهة بشكل خاص إلى ثلاثة أشخاص هم قارون وفرعون وهامان (وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ) (وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ).

⇐ الخ

تساؤلات

⇐ من هو قارون؟
⇐ كيف بغى على قوم موسى؟
⇐ لماذا كانت رسالة موسى موجهة إليه مع فرعون وهامان؟
⇐ الخ

لو دققنا في الآية الكريمة السابقة، لوجدنا على الفور بأن قارون كان من قوم موسى:

- ﴿۞إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [القصص: 76]

ليكون السؤال المطروح على الفور: كيف يكون قارون من قوم موسى ونجده يقف إلى جانب فرعون ضد موسى ومن معه من المؤمنين؟

افتراء من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأن فرعون كما أسلفنا في واحدة من المقالات السابقة لم يكن يضمر عداء شديدا لقوم موسى بمجموعهم، فلقد كان فرعون (نحن نظن) يعادي طائفة محددة من بني إسرائيل، فهو الذي جعل أهل مصر شيعا، فاستضعف طائفة واحدة منهم:

- ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص: 4]

فكانت المنّة الإلهية خالصة على أولئك المستضعفين في أرض مصر:

- ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾﴾ [القصص: 5]

وبالفعل كنت وراثة مشارق الأرض ومغاربها لهم:

- ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف: 137]

نتيجة مفتراة: لم يكن كل بنو إسرائيل في صف موسى، كما لم يكن كلهم في صف فرعون.

الدليل

عندما دخل موسى المدينة على حين غفلة من أهلها، وجد الصراع قائما بين هم من شيعته مقابل من هم من عدوه:

- ﴿وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ١٥﴾ [القصص: 15]

فكان الانقسام حاصلا بين طرفين: طرف مع موسى (وهم الذين استضعفوا في الأرض)، وهم الذين وقع عليهم الأذى من قبل أن يأتيهم موسى ومن بعد ما جاءهم:

- ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ١٢٧ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ١٢٨ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٢٩﴾ [الأعراف: 127-129]

والطرف الآخر هم الذين من عدوه (في صف فرعون):

- ﴿أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ٣٩﴾ [طه: 39]

فكان قارون الذي هو أصلا من قوم موسى في صف فرعون (عدو موسى).

السؤال: لماذا كان قارون في صف فرعون بالرغم أنه من قوم موسى؟

جواب مفترى: لأن قارون كان من الذين يريدون علوا في الأرض. واقرأ عزيزي القارئ الكريم - إن شئت- السياق القرآني الذي يتحدث عن قارون حتى نهايته (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ):

- ﴿۞إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٧٧ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ

عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: 76-83]

انظر عزيزي القارئ - إن شئت- في آخر آية ترد في سياق الحديث عن قارون، لتجد أنها تبين أن الرجل كان من الذين لا يريدون الدار الآخرة (تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ).

نتيجة مفتراة: لمّا كان قارون من الذين لا يبتغون الدار الآخرة، ولما كان من الذين يريدون علوا في الأرض، وجد أن هذا العلو في الأرض لا يتحصل له إلا بالوقوف إلى جنب من فعلا علا في الأرض، ألا وهو فرعون:

- ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص: 4]

نتيجة مفتراة: نحن نظن بأن غاية قارون (العلو في الأرض) ما كانت لتتحقق له بغير الوقوف إلى جنب من يستطيع فعلا العلو في الأرض وهو فرعون نفسه (إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ)، فاختار أن ينحاز إلى صفه على حساب قومه.

السؤال: ما الذي استفاده قارون من هذا الانحياز إلى جانب فرعون الذي علا في الأرض؟

رأينا: نحن نظن بأن أول ما استفاده قارون من هذا الانحياز هو حصوله على الكنوز. انتهى.

السؤال: كيف استطاع قارون حيازة هذه الكنوز؟

جواب مفترى: نحن نفتري الظن بأن قارون قد حاز على تلك الكنوز بالعلم الذي كان عنده:

- ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [القصص: 78]

نعم، لقد كانت تلك الكنوز من الله (وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ)، لكن الرجل أنكر فضل ربه في ذلك، ونسب الفضل في ذلك إلى نفسه وذلك لأن لديه من العلم (نحن نظن) ما يجعله يصدّق نفسه أنه يستطيع حيازة تلك الكنوز بذلك العلم (قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ)، فلم يجد الحاجة ماسّة أن ينسب الفضل في ذلك إلى ربه.

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن الإجابة على هذا السؤال تتطلب الإيمان المطلق بسنن الله الكونية. فحيازة المال (أو غيره) هو لا شك فضل من الله يؤتيه من يشاء من عباده، لكن طريقة الحيازة على المال مضبوطة بسنن الله الكونية، فمن عرف هذه السنن واستكشفها تحصلت له، ومن لم يستكشفها لا يستطيع حيازتها. فالحيازة على المال لا ترتبط بالإيمان، فيستطيع المؤمن أن يحوز على الأموال كما يستطيع غير المؤمن حيازتها، لكن الفرق بين المؤمن والكافر لا يكمن في الطريقة وإنما بالعقيدة. فالمؤمن يسلك نفس طريقة غير المؤمن في حيازة المال، وينسب الفضل في ذلك إلى ربه، بينما غير المؤمن يسلك الطريقة ذاتها، لكنه يكفر بالمصدر الذي جعل هذا المال وافرا ليحوز عليه.

السؤال: ما هو العلم الذي توافر عند قارون حتى استطاع من خلاله الحيازة على المال الوفير (الكنوز)؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن بأن قارون كان عنده "علم الكنوز"، فما تحصل لقارون فهي الكنوز:

- ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ٧٦﴾ [القصص: 76]

ونحن نميل إلى الظن بأن الكنوز هي ما يمكن كنزه من المال. فالمال القابل للكنز يعتبر من الكنوز، أما الذي لا يمكن كنزه فهو ليس من الكنوز، ولعلنا نجزم الظن بأن ذلك ينحصر في ماديتين اثنتين وهما الذهب والفضة:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٣٤ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ٣٥﴾ [التوبة: 34-35]

نتيجة مفتراة من عند نفسي: الذهب والفضة هي الأموال القابلة لأن تكنز. انتهى.

السؤال: هل تعتبر الأموال النقدية الورقية (مثلا) من الكنوز؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: كلا وألف كلا، وذلك لسببين اثنين على الأقل.

أولا، ما يكنز من الذهب والفضة ولا ينفق في سبيل الله سيكون هو المادة التي سيحمى عليها في نار جهنم لتكوى بها جباه وجلود من يكنزونها ولا ينفقونها في سبيل الله، وهذا لا شك لا ينطبق على العملة الورقية التي نتعامل بها في أيامنا هذه.

ثانيا، أن قيمة هاتين المادتين لا يحدها الزمان ولا المكان. فالذهب والفضة هي كنوز قابلة للمبادلة والتداول في كل أصقاع الأرض، وعلى مر الزمان. فالذهب والفضة التي تداولت به الدولة المصرية القديمة والإغريقية والرمانية والصينية والهندية القديمة لازالت ذات قيمة سوقية معتبرة حتى في يومنا هذا. وهذا لا ينطبق (نحن نرى) على العملات الورقية والنقدية الأخرى. فما حاجتي أنا بعملة ورقية استخدمت في أحد الدول الإفريقية مثلا في القرن الثامن أو التاسع عشر؟ هل أستطيع الاستفادة منها في سوق الخضار المركزي في مدينتي التي أسكن فيها اليوم؟

نتيجة مفتراة: في حين أن كل عملات التداول الأخرى مضبوط قيمتها بعاملي الزمان والمكان، فإن الذهب والفضة (كعملات سوقية) غير مضبوطة بهذين العاملين.

السؤال: لماذا؟ لماذا يكون الذهب والفضة (على وجه التحديد) هي العملات السوقية التي تصلح لكل زمان ومكان؟ ما السر في هذين المعدنين النفيسين؟

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن هذه المعادن هي معادن نفيسة، وقد سميت كذلك لأن تأثيرها (نحن نرى) يكون منصبا على النفس. وهذا ما حاولنا تبيانه في بعض المقالات السابقة لنا.

السؤال: كيف ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن أنه من الممكن فهم هذه القضية لو أدركنا بالفعل سر تأثير الذهب في الأنثى. لذا، دعنا نطرح هنا التساؤل التالي: ما المتعة التي تجنيها النساء من لبس الذهب والفضة؟

جواب مفترى: نحن نظن أن كل النساء تتمتع بلبس الذهب والفضة لما يدخله هذان المعدنان من تأثير إيجابي على نفسيتهما،

السؤال: لماذا تشعر النساء بالراحة عندما تلبس الحلي من الذهب والفضة؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن بأن الجن (وخاصة الشياطين منهم) تهاب الذهب والفضة، لذا فهي تهرب من المكان الذي يتواجد به هذين المعدنين النفيسين. فلبس المرأة للذهب يؤدي إلى تحريرها من أذى الشيطان الذي يدخل الغم والهم على نفسيتها قبل لبس الذهب والفضة.

السؤال الأهم: لماذا توعد الله من يكنزهما ولا ينفقها في سبيل الله بأن يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجلودهم؟ هل إذا كنت صاحب مال، هل يعاقبني الله أنني ادخرت شيئا من مالي ولم أنفقه؟

جواب مفترى: إن في كنز الذهب والفضة وعدم إنفاقهما في سبيل الله تأثير سلبي كبير على حياة الناس العادية، وذلك لأن كنز هذين المعدنين يؤدي إلى أن تنشط حركة الشياطين، فيتمكنوا من إحداث الضرر للناس. فعندما يتم حجز الذهب والفضة عن السوق التجاري واستبدال ذلك بالعملات الورقية أو البلاستيكية (كالفيزا كارد) يؤدي إلى أن تنشط الشياطين في الأسواق، فما عاد هناك ما يصد من حركتها أو حتى تثبيطها.

باب: لولا ألقي عليه أسورة من ذهب

دعنا ندقق في الآيات الكريمة التي جاءت على لسان فرعون نفسه، قال تعالى:

- ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الزخرف: 51-53]

فنحن لا نتردد (كعادتنا) أن نخالف أهل الدراية في فهمهم لهذه الآيات الكريمة، لنطرح فهمنا البديل الذي لا يخلو - لا شك عندنا- من الغرابة. ففي هذه الآيات يعقد فرعون مقارنة بينه من جهة وإله موسى من جهة أخرى. فهو ينعت إله موسى بأربع صفات، ألا وهي:

⇐ أنه مهين
⇐ أنه لا يكاد يبين
⇐ أنه قد ألقى عليه أسورة من ذهب
⇐ أنه قد جاء معه الملائكة مقترنين

السؤال: كيف يمكن أن نفهم ذلك كله في سياق خطاب فرعون عن إله موسى؟

باب: مَهِينٌ

نحن نفتري الظن بأن مفردة المهين لها علاقة مباشرة بمفردة "هيّن" التي تأتي في الآية الكريمة التالية:

- ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾﴾ [مريم: 9]
- ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ [مريم: 21]

فالشيء الهين هو الذي لا يصعب إيجاده أو التعامل معه، فخلق يحيى مثلا هو عمل هَيِّنٌ على رب زكريا، وكذلك خلق المسيح هو عمل هَيِّنٌ على الله. وبهذا المنطق (نحن نظن ربما مخطئين) ينعت فرعون إله

موسى، فيصفه على أنه مَهِينٌ ، أي لا يصعب على فرعون (حسب ظن) مواجهته. لكن هذا المواجهة التي تسهل على فرعون (حسب ظنه) لازال يعيقها ثلاثة أمور:

⇐ أنه إله لا يكاد يبين
⇐ أنه قد ألقي عليه أسورة من ذهب
⇐ أنه قد جاء معه الملائكة مقترنين

باب: وَلَا يَكَادُ يُبِينُ

ففرعون (نحن نفتري الظن من عند أنفسنا) يجد أن إله موسى لا يظهر بشكل كلي أو بشكل علني، بل يبقى (حسب ظنه) مخفيا ذاته.

السؤال: ما الذي يحجب هذا الإله فلا يجعله يبين؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: إنه الغمام، وذلك لأن الإله الحقيقي في ظلل من الغمام:

- ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ٢١٠﴾ [البقرة: 210]

فكما أسلفنا في مقالات سابقة لنا، فإن ما يمنع الرؤية المباشرة للإله الحقيقي هو وجود الغمام الذي يحجب الرؤية. فموسى مثلا لم يستطيع أن يرى الله جهرة، وذلك لوجود الغمام. فعندما طلب موسى الروية المباشرة للإله:

- ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ... ١٤٣﴾ [الأعراف: 143]

كان الطلب الإلهي من موسى أن ينظر إلى الجبل:

- ﴿... قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ ... ١٤٣﴾ [الأعراف: 143]

وهناك بالضبط تجلى الإله للجبل، فكان انكشاف الغمام الذي أحدث الصاعقة:

- ﴿... فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٤٣﴾ [الأعراف: 143]

وقد افترينا القول في أكثر من مقالة سابقة لنا بأن التجلي يحمل في ثناياه انكشاف الغمام الذي يحجب الرؤية المباشرة (من قبل الآخرين) للذت الإلهية.

لذا، عندما طلب الله من موسى وأخيه هارون الذهاب إلى فرعون، تلكأ الاثنان، فقالا:

- ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ۝٤٥﴾ [طه: 45]

عندها جاء التطمين الإلهي لهما على النحو التالي:

- ﴿قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦﴾ [طه: 46]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا خطيرة جدا: عندما ذهب موسى وهارون إلى فرعون كان الله معهما فعليا.

لذا، عندما جاءا فرعون في مكان لا يتواجد به إلا فرعون بمفرده، كان أول ما فعله موسى هو أنه قد أراه الآية الكبرى:

- ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ۝٢٠﴾ [النازعات: 20]

لكن فرعون كذب وعصى، وما كان منه إلا أن يولي مدبرا، تاركا المكان كله، ذاهبا ليحشر الناس من حوله:

- ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۝٢١ ثُمَّ أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ ۝٢٢ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝٢٣﴾ [النازعات: 21-23]

السؤال: إلى أين أدبر يسعى؟

رأينا: نحن نظن أن فرعون قد تولى إلى ركنه ليجمع كيده، ثم يأتي:

- ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرۡعَوۡنُ فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ۝٦٠﴾ [طه: 60]

السؤال: لماذا؟ ما الذي دعا فرعون أن يتولى بركنه، فيجمع كيده ثم يأتي؟

- ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٞ ۝٣٩﴾ [الذاريات: 39]

افتراء خطير جدا: نحن نظن أن فرعون قد شعر حينئذ أنه لا يواجه موسى وهارون وحدهما، وإلا لما كان فرعون مضطرا أن يترك المكان هو بنفسه، لكن عندما أحس فرعون (نحن نفتري الظن من عند أنفسنا) بوجود من هو معهما يسمع ويرى، أي الإله الحقيقي الذي يظن فرعون أنه ند حقيقي له. ما كان من فرعون إلا أن يدبر سعيا، فيحشر وينادي ثم يجمع كيده ويأتي، ظانا أن باستطاعته مواجهة إله موسى وهارون مواجهة حقيقية، لكن كان ما يعيق حصول هذه المواجهة على أرض الواقع هو أن هذا الإله (حسب مفردات فرعون) لا يبين، مادام أن ظلل الغمام تعيق رؤيته المباشرة. ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل يتعداه إلى وجود عائقين اثنين آخران، وهما:

⇐ أن إله موسى قد ألقي عليه أسورة من ذهب
⇐ أن إله موسى قد جاء معه الملائكة مقترنين

باب: فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ

السؤال: كيف يمكن أن نفهم هذه العبارة (فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ)؟

بداية، نحن نظن بأن هذه العبارة تصور إله موسى كما حسبه فرعون نفسه، ففرعون يظن بأن ما يمنع المواجهة الفعلية مع إله موسى على أرض الواقع أيضا هو أن هذا الإله (حسب مفردات فرعون أيضا) قد ألقي عليه أسورة من ذهب. وهنا نود التأكيد على أن مفردة (أَسْوِرَةٌ) هي مفرد كلمة أَسَاوِرَ التي ترد في السياقات القرآنية التالية:

- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقًا ٣١﴾ [الكهف: 31]
- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٢٣﴾ [الحج: 23]
- ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٣٣﴾ [فاطر: 33]
- ﴿عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞۖ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا ٢١﴾ [الإنسان: 21]

فالإله الذي كان مع موسى وهارون في أرض مصر قد أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٞ مِّن ذَهَبٍ ، فكان ذلك بمثابة "السور أو الحاجز" الذي يمنع الاقتراب منه، وخاصة الجن بمن فيهم الشياطين. ففرعون يظن بأنه لو لم يلقى على هذا الإله الذي لا يكاد يبين أَسۡوِرَةٞ مِّن ذَهَبٍ لأصبحت المواجهة ممكنة. ونحن نتجرأ على الظن بأن فرعون كان يعتقد جازما أن لديه من الجنود ما يمكنه من مواجهة من لم يلق عليه أَسۡوِرَةٞ مِّن ذَهَبٍ حتى وإن كاد لا يبين، لأن جنوده من الجن ستتكفل له القيام بالمهمة وعلى رأسهم زعيم الجن هامان مع جنوده. لكن هذه المواجهة الفرعونية مع إله موسى باستخدام الجن غير ممكنة مادام أن الطرف الآخر قد ألقي عليه أَسۡوِرَةٞ مِّن ذَهَبٍ.

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نفتري القول بأن الجن تهاب الذهب، لأن بريقه تنزل عليهم كالسهام القاتلة. والتفسير الأولي البسيط لذلك هو أن اللون الأصفر (لون الذهب) هو لون دافئ، بينما لون الشياطين هو لون أزرق يتصف بالبرودة. ولو ضربت الشياطين الزرقاء بالأصفر لأدى ذلك إلى اندماج اللونين، ونتج عن ذلك لون أخضر (وهو اللون الذي تظهر به الشياطين المقتولة). وهذا ما سنتعرض له لاحقا إن شاء الله متى ما أذن الله لنا بشي من علمه فيها، كما سنتعرض إلى كيفية صد خطر الشياطين باستخدام هذه المعادن النفيسة (الذهب والفضة) خاصة في الطب والتشافي من الأمراض، وهي التقنية التي كان يجيدها فرعون، فالله وحده أسأل أن يعلمني ما لم أكن أعلم وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا وأن يزدني علما، إنه هو العلي الكبير – آمين.

إن ما يهمنا طرحه هنا هو افتراء القول بأن الجن (وخاصة الشياطين منهم) تحاول لبد الذهب حتى لا يصل إلى أيدي الناس، فيكون بيدهم سلاحا فعالا ضد الجن. ومن هذا الباب جاء قول فرعون:

- ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦﴾ [البلد: 6]

فقد كان فرعون قادرا على الوصول إلى المال الملبود (أي المال الذي يرصده الجن)، وهي الكنوز الدفينة. فاستخدمها أمثل استخدام في صد خطر الجن، لا بل والسيطرة عليهم كسيطرته على زعيم الجن هامان (للتفصيل انظر مقالاتنا السابقة).

ففرعون إذن يدرك (حسب منطقنا المفترى هذا) بأن المواجهة الفعلية مع إله موسى غير ممكنة بشخصه لأن إله موسى لا يكاد يبين، كما يدرك أن المواجهة معه باستخدام جنوده من الجنود أيضا غير ممكنة لأن هذا الإله قد ألقي عليه أسورة من ذهب. ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل يجد أيضا أن المواجهة متعذرة باستخدام الوسائل الأخرى (كأدوات الحرب الفعالة) وذلك لأن الإله قد جاء معه الملائكة مقترنين:

⇐ أن إله موسى قد جاء معه الملائكة مقترنين

باب: أَوْ جَاء مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ

السؤال: ما معنى هذه العبارة (أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ)؟

نحن نظن أن هذه العبارة تصور الكيفية التي يأتي بها الملائكة مع الله الذي هو أصلا في ظلل من الغمام:

- ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٢١٠﴾ [البقرة: 210]

ولعنا نتجرأ على الظن بأن تلك الكيفية هي حالة الاقتران، الذي هو عبارة عن نوع من أنواع العلاقات بين الكينونات. فعندما يحصل الاقتران يكون التزاوج مرتبا على الأقل خطيا، فتعريف الاقتران الكوني في علم الفلك هو ما يمكن استنباطه من التعريف التالي الذي وجدناه في موسوعة الويكيبيديا:

"في علم الفلك يطلق لفظ الإقتران عندما يجتمع جرمان من أجرام النظام الشمسي بحيث يكونا على نفس خط الطول السماوي او يكون لهما نفس المطلع مستقيم"

فالملائكة يصطفون بشكل اقتراني، بحيث يشكلون خطوط دفاعية لا يمكن اختراقها. لذا، وجد فرعون بأن منازلة الإله بأدوات الحرب التي يملكها غير ممكنة مادامت الملائكة قد جاءت مع الله مقترنين.

نتيجة مفتراة 1: المواجهة الشخصية بين فرعون من جهة وإله موسى من جهة أخرى غير ممكنة وذلك لأن هذا الإله لا يكاد يبين

نتيجة مفتراة 2: المواجهة مع هذا الإله باستخدام نفوذ فرعون على الجن (وخاصة الشياطين) غير ممكنة وذلك لأن الإله قد أُقي عليه أسورة من ذهب

نتيجة مفتراة3: المواجهة مع هذا الإله باستخدام أدوات الحرب غير ممكنة وذلك لأن هذا الإله قد جاء معه الملائكة مقترنين

جواب مفترى: هذا ما ستناوله بالتفصيل بحول الله وتوفيق منه في الجزء القادم من هذه المقالة إن أذن الله لنا بشيء من علمه فيها.

فالله وحده أسأل أن يعلمني، وأن يزيدني علما، وأن يهدين لأقرب من هذا رشدا. وأعوذ به وحده أن أكون ممن يفترون عليه الكذب أو ممن يقولون عليه ما ليس لهم بحق، وأعوذ به أن يكون أمري كأمر فرعون، إنه هو العليم الحكيم - آمين.

وللحديث بقية

المدّكرون: رشيد سليم الجراح &علي محمود سالم الجراح
بقلم د. رشيد الجراح
13 تموز 2018